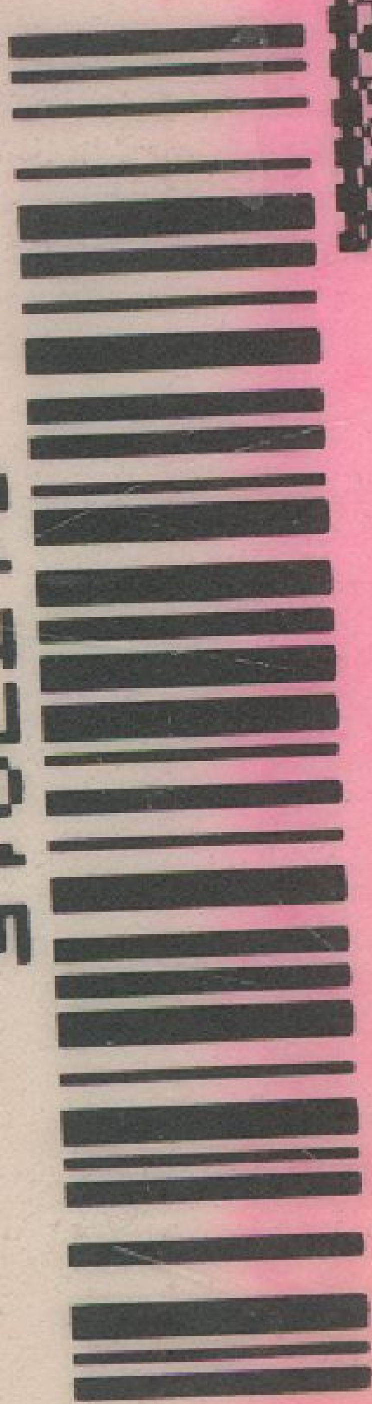




اقرأ

محمد سعيد العريان

بنت قسطنطين

قصة تاريخية

دار المعارف بمصر

بنت قسطنطين

قِصّة تاريخيّة

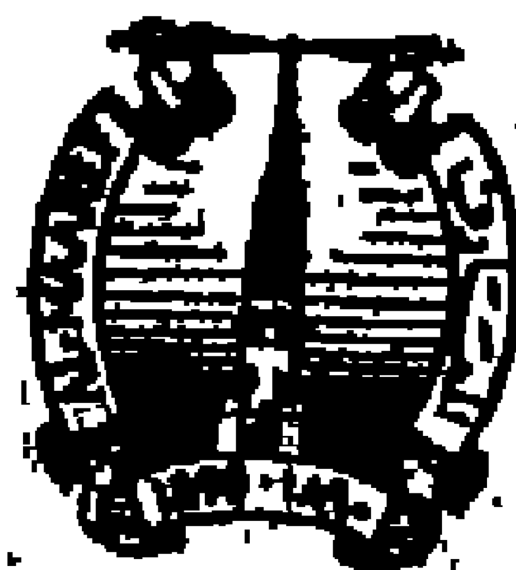
محمّد سعيد العريان

بنت قسطنطين

قصّة تاريخيّة

اقرأ ١٤١
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٤١ – أول سبتمبر ١٩٥٤



١

حديث القاص

فرغ الناس فى مسجد الرَّقة من صلاة العشاء الآخرة ، فتنفَّلوا ما طاب لهم التنفل ، ثم دلفوا إلى حيث كان أبو داود الحمصى مستنداً إلى سارية من سوارى المسجد يقص القصص ويرغِّب فى الجهاد ويروى من أنباء المغازى والفتوح ما يحمِّس الجبان ويشدّ العزم ويستلب ألباب الشيوخ وقلوب الشباب. . .

وكان أبو داود هذا قاصًّا واسع الرواية ، عذب الحديث ، لطيف الإشارة ؛ قد تتبع أنباء المغازى والفتوح منذ أول عهد العرب بالفتح ، فأتقنها حفظاً ورواية وتمثيلا بالقول والإشارة ونبر الصوت ، حتى ليحسب كل من سمعه يقص أنه شهد بعينيه وشارك بسيفه فى كل معركة من معارك الفتح فلم يتخلف عن واحدة !

وكان رجلا فى الأربعين لم يطعن فى السن ولم تُثقل كاهله السنون ، قصيراً بطيناً معتجر العمامة قد أرسل لحية تضرب أطرافها على بطنه ؛ فما يراه أحد فى منظره ذاك ويستمع

إلى حديثه مُسنداً إلى الرواة من أبطال الفتح ، إلا ظنه شيخاً عميق الجذر بعيد المولد والدار ، إلا تكن له صحبة أو هجرة فإنه — لا بد — قد عاصر وغزا واستظل فى معارك الفتح بلواء الفوج الأول !

وكان عظيم القدر عند أمراء بنى أمية فى الشام ، فهو جليسهم وجارهم ما أقام بدمشق ، فإذا بدت له الرحلة إلى أى بلد من بلاد الإسلام لم تزل صلاتهم وعطاياهم ترد عليه حيث كان ؛ على أن أمير المؤمنين عبد الملك كان أكثرهم عطفاً عليه وصلات إليه ، وكان يقول له : لسنا نحاول اصطناعك بهذا يا أبا داود ، بل أنت اصطنعتنا بخالص ولائك وكريم بلائك لنصرة بنى مروان . . .

* * *

وتكاملت الحلقة ، وأخذ أبو داود يتنقل بالناس فى قصصه من فن إلى فن ومن واد إلى واد ، فهو حيناً فى البر ، وحيناً فى البحر ، وطوراً على ظهر البادية ، وتارة فى ظل حصن من حصون الروم فى المغرب أو فى المشرق ، وآونة فى سهول الجزيرة وفيافى العراق يصف كيد الخوارج وتطاحن الفرق . . .

ثم قال :

« ضل من فتنته دنياه عن دينه ، وشغلته أولاه عن آخرته ،

وأزلّه الشيطان فأذله ، وأطمعه السلطان فأضرعه !

« ألا إن قوماً فى بعض الأمصار — غفر الله لهم — قد زين لهم الباطل ، فشرعوا سيوفهم لحرب أمير المؤمنين ، يأبون — بزعمهم — أن تكون هرقلية يتوارثها خلف عن سلف ، فهلا شرعوا سيوفهم هذه لحرب هرقل ، ودك معاقل الكفر فى بلاده ، ونشر دين الله فى الأرض ! »

وصمت أبو داود برهة ، ثم رفع عينيه يجول بهما فيمن حوله وهو يخلل لحيته بأصابعه ، ثم استأنف حديثه :

« حدثنا نصر بن عوانة — وكان فى جيش عقبة بن نافع بالمغرب — قال : لقد رأيت عقبة وقد بلغ بجيشه شاطئ الأقيانوس الأخضر ، فيدفع حصانه إلى البحر ويقول بحماسة : اللهم ربَّ محمد ، لولا أنى لا أعلم وراء هذا البحر يابسة لاقتحمت بحصانى هذا الهول المائج لأنشر اسم مجدك العظيم فى أقصى حدود الدنيا !

« رحم الله عقبة ! وأين مثل عقبة ؟ فإن قسطنطين بن هرقل ما يزال وراء هذه الحدود المتاخمة ، يتهدّد أصحابنا بالغارة بعد الغارة برًّا وبحراً ، فهلا خرجنا إليه لننشر اسم الله المجيد فى أقصى بلاد الروم ! ضل من جعل إلهه هواه ! ألا إنه لولا ابن هرقل على هذه التخوم لما صارت — بزعمهم — هرقلية ! »

٨

وتلبَّث القاص برهة أخرى ، ثم استأنف :

« لقد كان معاوية ، وكان ابنه يزيد ، وكان مروان ؛ ثم كان أمير المؤمنين عبد الملك . كأنما لم تمض تلك السنون ، وكأنى أرى الساعة وأسمع تكبير جند الشام يقودهم يزيد ابن أمير المؤمنين ، وفيهم ابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وأبو أيوب الأنصارى جار رسول الله ومُضيفه فى دار هجرته ؛ قد ركبوا فى عشرات الآلاف من الجند ، تقلهم سبعمائة وألف سفينة قد صنعها معاوية بعينيه من أرز هذه الغابات الكثيفة فى جبال لبنان ، ثم أرسلها فى البحر لحرب الروم ، تغزو بلادهم ، وتدك حصونهم ، وتملك جزائرهم فى البحر ، وتأخذ عليهم طريقهم فى البر ، وتطوِّق مدينتهم هذه التى بناها قسطنطين الأول واتخذها قاعدة لملكه ؛ فلا يزالون على حصارها سنين ذات عدد ، لا يصدر منها صادر ولا يرد إليها وارد ، حتى يبلغ الجهد بقسطنطين وأهل ملته ما يبلغ ، فيعطى الجزية صاغراً . . . ويعود المسلمون ظافرين لم يتخلف من رؤسائهم غير أبى أيوب ، قد دُفن عند سور القسطنطينية كما وعده رسول الله !

« رد الله غربتك يا أبا أيوب !

« مُضيف رسول الله أول هجرته إلى المدينة قد ثوى تحت أسوار القسطنطينية ضيفاً على أهل الكفر !

« يا أبناء المهاجرين من ضيوف أبى أيوب ، يا أبناء الأنصار من صحابته ؛ إن أبا أيوب لم يزل كريماً كعهدكم به ؛ فهاجروا إليه يضيّفكم فى داره الجديدة كما ضيّف نبيكم محمداً منذ سنين سلفت ! »

هتف عتبة بن عبيد الله وقد مسّ حديث الشيخ شغاف قلبه :

— لبيك أبا أيوب !

فضج المجلس وراءه بالتلبية . . .

ذلك شأن القاصّ أبى داود وذلك شأن الناس معه : لا يزال يتنقل بين الأمصار ، يدعو إلى الجماعة أو يدعو إلى جهاد أهل الشرك ؛ فيستجيب له من يستجيب ويلبى من يلبى . . .

ولكن الفتنة التى نشبت بين أهل القرآن منذ سنين لم تطفأ بعد ؛ فلا يزال فى كل بلد داع يدعو لنفسه ويؤازره من المسلمين طائفة ؛ فأمير المؤمنين فى الحجاز وما والاها عبد الله ابن الزبير ، وأمير المؤمنين فى الشام عبد الملك بن مروان ، ولا يزال فى الجزيرة والكوفة وما وراءها من أرض المشرق داع

أو دعاة يهتفون باسم أمير من بني علي بن أبي طالب ؛ وفي دمشق نفسها لا يزال واحد أو أكثر من السفيانية أو غيرهم من فروع بني أمية ينفس على بني مروان أن تكون الخلافة فيهم ... وعبد الملك يحاول أن يوطئ لنفسه بين هذه الزعازع ، فلا ينفك متنقلا على رأس جيشه من مصر إلى مصر مكافحاً صابراً قد استحل سفك الدم في سبيل توطيد العرش وتوطئة الأكناف لبني مروان ، وكان قبل أن يليها شيخاً من أهل الرأي لا يكاد يفارق مسجد رسول الله في المدينة أو يدع المصحف !

وحلت سنة ٧٠ من الهجرة ولا تزال الفتنة ناشبة ، وكان الروم قد انحسروا عن أرض المشرق فليس لهم في الشام باع ولا ذراع ، ولكنهم منذ جلوا عن أرض المشرق لم تزل أنفسهم تنازعهم إلى استرداد ما فقدوا من تلك الأرض الواسعة الخصبة ، فكأنما انتهزوا هذه الفتنة الناشبة فسيروا جيوشهم إلى أنطاكية فحاصروها ، ثم وضعوا أقدامهم وأوغلوا في البلاد . . .

٢
عهد ونذر

كان النعمان بن عبيد الله يدندن بيتاً من الشعر :

أروح إلى القصّاص كل عشية   أرجّى ثواب الله فى عدد الخطا

حين ابتدره أخوه عتبة :

ـ قد مسّ والله حديث أبى داود القاص شغاف نفسى ؛ وما أرى هذه الفتنة الناشبة فى الأمصار إلا كيداً من الشيطان لتفريق الجماعة وصدع الجبهة والتمكين للمشركين أن ينالوا منا منالهم ؛ وإن هؤلاء الخوارج ليزعمون أنهم يدعون إلى الله ، ويغفلون عما وراء ذلك العصيان من تفريق الكلمة ووهن المسلمين ؛ ولو أن هذه الجموع المسلمة التى تساق كل يوم إلى المذابح بالأيدى المسلمة ، قد سيقت صوائف وشواتى إلى بلاد الروم ، لرجوت أن تكون القسطنطينية بأيدينا وينزل المسلمون ضيوفاً على أبى أيوب ! . . .

ثم استطرد قائلا فى عزم :

ـ وإنى قد رأيت يا نعمان رأياً أرجو أن تمضى فيه معى ...

قال النعمان مستدركاً :

ـ دع عنك ما رأيت يا أخى وأعد علىَّ ما قلت : أزعمت ـ ويحك ـ أن ابن مروان أحقُّ بها من عترة محمد ومن ابن ذات النطاقين ؟ لقد مات أبوك إذن على ضلال يا عتبة ؛ فقد علمتَ ما أبلى أبوك يوم الجمل وفى حرب صفين ومعركة الطف ، فلم يقعد عن الحرب حتى استشهد مع المختار ابن أبى عبيد طلباً لثأر الحسين ؛ أفهذا تعنى حين تذكر صدع الجبهة ووهن المسلمين ؟ . . .

صمت عتبة برهة مفكراً ، ثم رفع رأسه يقول :

ـ ما هذا عنيتُ يا أخى ، ولقد اجتهد أبى ما اجتهد لصلاح هذه الأمة ، حتى ذهب إلى ربه راضياً مرضيًّا ؛ وإنى لأرجو أن يقبل الله شهادته ؛ ولكن نفسى لا تطيب بأن أحارب إخوانى فى الدين وأدع هؤلاء الروم حتى يطأوا من بلادنا كل موطئ ويسترقُّوا الحرائر والولدان من نسائنا وبنينا ؛ فسأطلب منذ الغد إلى مسلمة بن عبد الملك أن يُغزينى فى صائفته ؛ لعلى أن أدرك نصراً أو أجاور أبا أيوب !

* * *

ولكن مسلمة بن عبد الملك لم يخرج فى هذا الموسم لحرب الروم صائفاً ولا شاتياً ؛ فقد كان عبد الملك من أصالة الرأى

وحسن التدبير بحيث رأى أن مصانعة جوستنيان الثانى قيصر الروم خير له فى هذه الفترة التى تعصف فيها العواصف بالدولة الإسلامية ، فصالحه على أن يؤدى إليه فى كل جمعة ألف دينار ؛ ليفرغ لتدمير قوة ابن الزبير ويحطم الخوارج ويرد كيد ابن عمه عمرو بن سعيد . . .

وهدأت أمواج البحر ، وسكن غبار البادية ؛ ولكن عتبة ابن عبيد الله لم يعد إلى داره بالرقة منذ كان ذلك الحديث بينه وبين أخيه النعمان ، ولم يقف له أحد على خبر !

وطال الانتظار بأهله حتى آب كل غائب ، ولكنه لم يؤب ؛ وهدأت الفتن فى الدولة الإسلامية أو كادت ، وانقضى أمر ابن الزبير ، واغتيل عمرو بن سعيد منافس عبد الملك على عرش بنى مروان واستتب لهم الملك ، وعادت الصوائف والشواتى تغدو وتروح فى البر والبحر تغزو بلاد الروم فتصيب منها ما تصيب ثم تثوب ، ولم يؤب عتبة ابن عبيد الله !

وقال جيرانه وأهله :

ـ يرحمه الله ! لقد آثر جوار أبى أيوب المضياف ، فمات غازياً فى بلاد الروم !

وبكت أمه ما شاءت ، ثم فاءت إلى الرضا بقضاء الله !

وخلعت امرأته أحمرَها وأبيضها ولبست الحداد ، ولزمت دارها ترأم طفلا فى حجرها وطفلة فى بطنها !

وقال أخوه النعمان لنفسه متأسياً : نِعم العزاء الصبر فى الغازى الشهيد الغريب المُطفل !

وأقسم لا يدع السيف حتى يلحق بأخيه أو يدرك ثأره ، ولا يكون ثأره إلا بطريقاً من بطارقة الروم !

وأخذ النعمان أهبته منذ ذلك اليوم للبر بما أقسم ! . . .

وتتابعت الصوائف والشواتى فى البر والبحر لغزو الروم ، فلم يتخلف النعمان بن عبيد الله فى صيف ولا شتاء عن دعوة الجهاد !

٣
ابنة البطريق

لم يَطب الروم نفساً بسياسة القيصر جوستنيان الثانى ؛ ونقموا عليه أن ضيَّع عليهم الفرصة المتاحة لاسترداد سواحل الشام فى سنة ٧٠ للهجرة ، بعدما وطئتها أقدامهم وقاربوا أن يملكوها ويوغلوا فى بلاد العرب ، لا يكاد يدافعهم أحد من جند الخليفة

المنهوك القوة فى قمع الفتن الناشبة فى الأمصار الإسلامية . لقد كان عبد الملك أعرف بنفس هذا القيصر وأسدَّ منه سياسة ، فطلب إليه الصلح على مال يؤديه إلى الروم كل جمعة ، فتحلَّب لعاب القيصر إلى ذهب بنى مروان وأجاب الخليفة إلى ما طلب ؛ ولكنه لم ينعم بهذا السلم الذهبى طويلا ، فما هو إلا أن فرغ عبد الملك مما كان فيه حتى منع القيصر ما كان يؤدى إليه من مال ، وجهز الجند فى البر والبحر صائفة وشاتية للغارة على الثغور الرومية . . .

وكان قادة جيش الروم أشد سخطاً على القيصر لهذه الخيبة ، فثاروا به وقبضوا عليه فجدعوا أنفه ونفوه إلى بلاد القريم ، ثم راحوا يتنازعون العرش فيما بينهم ، فيلونه قائداً بعد قائد ، وقيصرهم فى منفاه مجدوع الأنف منكسر النفس لا يكاد يملك لنفسه أمراً ، والصوائف العربية لا تزال تغير على الثغور والسواحل فتصيب من الروم مقاتل وتحمل أسارى وسبايا وولداناً . . .

وكان البطريق قسطنطين على ثغر من تلك الثغور التى تشرف على الخليج مما يلى القسطنطينية ، لا يزال يستقبل كل صيف غُزاة من العرب يناوشهم ويناوشونه ، فينال منهم حيناً وينالون منه ، ويصيب منهم أسرى وقتلى ويصيبون ؛ وكان له

عند العرب ترات وتاريخ بعيد ، وقد اصطنع فى الحرب خطة عربية ، فهو يخرج إلى لقائهم — حين يخرج — ومعه نساؤه وراء الصفوف يهزجن بالأغانى للتحميس ويضربن الفارِّين فى وجوههم بالعمد أو يحصبْنهم بالحصى ليرددنهم إلى الحرب ؛ وقد أيقن قسطنطين البطريق أنه إلا يدفع عن نفسه وعن ثغره فلن يدفع عنه أحد من الروم الذين توزعتهم المطامع وفتَّ فى أعضادهم ما لقوا من الهزائم المتوالية فى حرب العرب ؛ وعلى هذا اليقين رابط فى ذلك الثغر مدافعاً شديد العزم والقوةسنين طويلة !

وفجأتهم ذات مساء سريةٌ من سرايا العرب ، قد هبطت فى جنح الليل على الساحل ثم أوغلت حتى طرقت القوم فى بيوتهم على حين غفلة فأعجلتهم عن أخذ الأهبة ، والتحموا أجساداً لأجساد يتجالدون بالسيوف أو يتصارعون بالأيدى ، لا يكادون يتعارفون فى ظلام الليل إلا بالتكبير والتلبية ، وكان شعار المسلمين يومئذ :

— الله أكبر ؛ لبيك أبا أيوب !

ووقف قسطنطين فى وسط الملحمة يرطن بالرومية وهو يجيل سيفاً فى يمينه له فى الظلام بريق يومض ؛ وبصر به النعمان بن عبيد الله فى غبشة الليل ولم يكد ؛ فنهد إليه وهو يقول وسيفه فى يده :

— إنى لأرجو أن أبرَّ بك قسمى أيها البطريق ، فأثأر لأخى أو أنال الشهادة !

ثم عطف عليه بالسيف ، فأفلت منه قسطنطين واحتوشته داره ؛ واقتحم النعمان وراءه فتهارب الصبيان والنساء بين يديه ولم ينل منالا .

وتشتت شمل أصحاب قسطنطين وذهبوا فى الأرض فارين لا يلوون على شىء ، قد خلّفوا متاعهم وسلاحهم ، وتخلف عنهم بعض النساء والصبيان فسيقوا إلى مضرب الأمير ؛ وعاد النعمان بن عبيد الله إلى صحابته ليقاسمهم ما أفاء الله عليهم من الغنائم فى هذه الغارة المظفرة ، فلم يكن نصيبه من ذلك إلا فتاة من بناتهم لم تنضج نضج الأنثى ولكنها جاوزت حد الطفولة ... وكان عليها مطرف خز ، وقد تدلت على صدرها قلادة من ياقوت ، ولمعت فى مفرقها جوهرة ؛ فقال النعمان : إلا تكن هذه بنت البطريق فإن لأبيها بين القوم شأناً !

ثم مال إليها يداعبها ويسألها عن شأنها وشأن أبيها فلم تجب بلسان ، ولو أنها أجابت لما أبانت ، فليست تعرف إلا الرومية ، وليس يعرف النعمان إلا العربية . . .

واستقل الغزاة سفينتهم قبل أن ينبثق الفجر ، وأداروا شراعها نحو الغرب ، ثم انحدروا نحو الجنوب ؛ يلتمسون ثغراً من ثغور

المسلمين يأوون إليه ، وكلهم فرح بما أفاء الله عليه من السلامة والغنيمة والظفر بالعدو !

٤
ويلك مسلمة !

ثبتت دعائم العرش لبنى مروان ، ولم يكن الخليفة عبد الملك فى غفلة عما يقتضيه هذا العرش من حق التدبير فى حياته وبعد موته . . . فإنه ليخشى أن يتواثب إليه الطامعون من السفيانية أو الهاشمية بعد موته. وقد خلَّف عبد الملك بضعة عشر ولداً كلهم لأب ولكن أمهاتهم شتى ؛ منهن العبسية ، والمخزومية ، والهاشمية ، والسفيانية ؛ ومنهن أمهات أولاد من الترك والسودان والروم وبنات كسرى ؛ فما أحرى كل واحدة من هؤلاء الضرائر أن ترجِّى العرش لولدها ، وأن ينفخ فيه أخواله من روح العصبية ما يدفعه إلى الفتنة . . .

لقد كان عبد الملك شيخاً من أهل الرأى قبل أن يلى هذا الأمر ، وكانوا يسمونه فقيه بنى مروان ؛ لصلاحه وعلمه وطول ملازمته لأهل الحديث وحملة القرآن وأصحاب الرأى من

العباد والصالحين وأهل التحرج ؛ فما كان أجدر شيخاً هذا مكانه أن يترك أمر المسلمين شورى بينهم يختارون بعده من يشاءون ليلى أمرهم ، لولا أنه يخشى عليهم الفتنة ؛ فليولِّ عهده رجلا من أهل هذا البيت المروانى ينهض بأمر الدولة من بعده ، ليذهب إلى ربه راضياً مطمئناً قد أمن على هذه الأمة أن تتوزعها الفتن وأسباب المطامع !

إن أباه مروان قد جعل العهد من بعده لأخيه عبد العزيز ابن مروان ، ولكن عبد الملك يرى بنيه أحق بهذا العرش وأقدر على صيانته ، لولا أن بنيه كثير ، قد تقاربوا أعماراً وتشابهوا مزايا وتشاكلوا كفاية !

لو لم يكن الوليد لحاناً لا يكاد يقيم لسانه بالعربية ، متلافاً لا يكاد يمسك درهماً . . . إنه لأحب إلى عبد الملك ، وإن أمه لأدنى إلى قلبه منزلة !

ولو لم يكن سليمان بطيناً أكولا تياهاً كثير العُجب بنفسه . . . إن أمه العبسية لترجوه كما ترجو أخاه الوليد ، ولكن الوليد أسنُّ منه !

وإن هشاماً لحقيق بأن يلى هذا الأمر يوماً ، لولا أنه جبان بخيل ، ولولا خشية ما يتدسس إليه من حمق أمه المخزومية ؛ وهل ترى عبد الملك يولى عهده ابن مطلقته الحمقاء ويدع

الذين نشأوا على عينيه من بنيه ؟

وإن يزيد لأعرق بنيه أمومة ، فأمة عاتكة بنت يزيد ابن معاوية ؛ أبوها خليفة ، وجدها خليفة ، وزوجها خليفة؛ فما أحرى ولدها أن يكون خليفة كذلك فيضم المجد من أطرافه ، لولا أن يزيد لم يزل صبياً لم يبلغ مبلغ أهل الرشد !

وهناك — إلى هؤلاء — عبد العزيز بن مروان ، أخو الخليفة ؛ لا يزال يطمع فى العرش بعد عبد الملك بعهد من أبيه مروان !

ولكن ما بال عبد الملك لم يذكر ولده مسلمة ، وإنه لأشبُّ بنيه شباباً وأجرؤهم قلباً وأسدُّهم رأياً وأكثرهم حمية ، وله الرايات البيض لا تزال تخفق على السفائن غادية على سواحل الروم للغزو ، أو مرفرفة فوق رؤوس الجند فى البرية لبيات العدو . . . ولكن مسلمة — إلى كل ذلك — من أبناء الجوارى ؛ فكيف يليها ابن الرومية ويُحرمها أبناء الحرائر من بنات عبس ومخزوم وأمية ؟ . . .

* * *

أقيمت حلبة السباق فى ظاهر دمشق على العادة فى كل موسم ، وتقدم فتيان العرب بأفراسهم المضمَّرة يطمع كل منهم أن ينال بالسبق جائزة أمير المؤمنين عبد الملك ؛ وجلس عبد الملك

على شرف فى طرف الحلبة ، قد أقيم له سرادق من خز ونصبت على رأسه راية بيضاء ؛ وكان الشوط الأول للأمراء من بنى عبد الملك : الوليد ، ومسلمة ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام .

وأشار رائض الحلبة إشارته ، فوثب الأمراء على ظهور الجياد وشدوا اللُّجم ومالوا على الأعناق ، يتبعهم الآلاف بعيون جاحظة وأنفاس مبهورة وأعناق تتلوى على كواهل أصحابها ؛ وبدا كأن مسلمة سيبلغ آخر الشوط قبل إخوته ، فبدت الكراهة فى وجه عبد الملك ، على حين انبعث من جوانب الحلبة هتاف الجماهير باسم الأمير المظفَّر فى كل غزاة : مسلمة بن عبد الملك !

ولكن فرس مسلمة لم يلبث أن عثر براكبه ، ثم لم يكد ينهض ليستأنف عدوه حتى سبقه إخوته جميعاً وبلغوا آخر المدى...

وطأطأ مسلمة رأسه أسفاً وهو يتقدم فى صف من إخوته إلى مجلس أبيه فى سرادقه ذاك ، ليستمع إليه وهو ينشد متمثلا :

نهيتكمو أن تحملوا فوق خيلكم
هجيناً لكم يوم الرهان فيدرك...
فتعثر كفاه ، ويسقط سوطه ،
ويخـــدر ساقاه فمـــا يتحـــرك

وهل يستوى المرءان هذا ابن حرة
وهذا ابن أخرى ظهرها متشرّك ؟

قال مسلمة وقد بدا فى وجهه الغضب :

— يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ؛ ليس هذا مثلى ، ولكن كما قال الآخر :

فما أنكحونا طائعين بناتهم ولكن خطبناهم بأرماحنا قسراً
فما زادنا فيها السبـــاء مذلة ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدراً
وكم قد ترى فينا من ابن سبيّة إذا لقى الأبطال يطعنهم شزْراً
ويأخذ ريان الطعـــان بكفه فيوردها بيضاً ويصدرها حمراً . . .

ثم أردف :

— إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات يا أمير المؤمنين ، وقد كانت أم إسماعيل بن إبراهيم جارية . . .

ولمعت دمعتان فى عينى عبد الملك واختلجت شفتاه ، فقال وهو يميل على مسلمة فيقبل رأسه وعينيه :

— أحسنت يا بنى ، ذاك والله مكانك !

وانفضت الحلبة ، وعاد عبد الملك إلى قصره وعاد بنوه ؛ ولكن حديثاً ما ظل يدور فى رأس عبد الملك منذ ذلك اليوم ، ويدور مثله فى رأس مسلمة وفى رءوس أخرى . . .

٥
أمهات الملوك !

فى غرفة من غرفات القصر الأموى الشامخ بدمشق ، اجتمع أربع نسوة لم يجتمعن من قبل على مودة :

ولادة بنت العباس العبسى ، وعاتكة بنت يزيد بن معاوية ، وعائشة بنت موسى بن طلحة التيمى ، وأم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان ، زوجات عبد الملك ؛ لم يتخلف عن مجلسهن إلا مطلقته أم هشام المخزومية !

. . . قالت ولادة ، أم الوليد وسليمان ، بعد صمت :

— بلى ، قد أحل الله له فراش جواريه ، فهن له حلائل ، ليس لواحدة من زوجاته أن تمنعه أن يفئ إلى خلواتهن فى أى وقت شاء من ليل أو نهار ؛ ولكن للحرائر من زوجاته العهد والأمومة ؛ إن الوليد وسليمان ، وإن يزيد وأبا بكر والحكم وهشاماً — لأولى بعهد أمير المؤمنين من عبد الله ومسلمة ومحمد وسعيد ومن لا أذكر من أبناء جواريه وإمائه ؛ فليطب لهن

فراش عبد الملك ؛ أما عرش بنى أمية فلن يكون لأحد من أبنائهن !

قالت عاتكة أم يزيد :

ــ أترينه يا ولادة يغفل عن ذلك الحق؟ إنه لأسدُّ رأياً من ذاك ؛ وقد سألته أمس حين أوى إلى مقصورتى لبعض الراحة حين مُنصرفه من حلبة السباق ، عما حدثنى به يزيد من إقباله على مسلمة دون إخوته ، وتقبيله إياه على ملأ من الخلق فى رأسه وعينيه ، واستنشاده إياه شعراً يعرِّض فيه بأبناء الحرائر ؛ فضحك عبد الملك وقال : أظننت يا عاتكة أننى أفعلها ؟ إنى لآمل أن يكون يزيد على عرش بنى أمية خلفاً من أبيه وجده وجدِّ أمه !

انقلبت سحنة ولادة كأنما أصابها المسخ ، ونسيت مجلسها من ضرائرها وما دعتهن إلى الحديث فيه ، فقالت منكرة :

ــ أى شىء تقولين يا عاتكة ؟ وهل أوى عبد الملك إلى غير مقصورتى حين منصرفه من حلبة السباق ؟

قالت عائشة بنت موسى :

ــ نعم ، وجلس إلىَّ ساعة يرقِّص أبابكر ويغنى له :

يا ملكاً من ملك من ملكِ
تِـيهْ واستطــل على الملا وامتلكِ

وَلِدْ ملوكاً كنجوم الحلك
يستبِقون للعــلا فى فلك !

قالت أم أيوب العثمانية محنقة :

ــ أما الحكم ابنى فلم يرقِّصه أحد أو يغنّ له ؛ إذ كانت أمه ــ بنت عثمان الخليفة المظلوم ــ أقلّ منزلة عند عبد الملك من بنات عبس وتيم ويزيد بن معاوية !

ثم جمعت أطراف ثوبها ونهضت معجلة إلى مقصورتها ، لم تحىِّ أحداً أو تستمع إلى تحيته ، ونهض صواحبها كذلك فتفرقن فى حجراتهن !

* * *

ودخل مسلمة على أمه « ورد » ليشهد فى عينيها دموعاً حائرة ، فلا تكاد تراه مقبلا حتى ترسل دموعها وتطرق فى انكسار وحزن . . .

ــ ماذا بك يا أماه ؟

ــ لا شىء يا مسلمة !

ــ ولكنك تبكين يا أماه !

ــ لا تصدق كل ما ترى عيناك يا مسلمة !

ــ هل نالك أحد بمساءة ؟

ــ ومن ذا ينالنى بمساءة وأنا أم مسلمة وحظيّة عبد الملك

أميرِ المؤمنين وسيدِ بنى مروان !

— لعل أمير المؤمنين نفسه . . .

— وكيف يسوءنى أمير المؤمنين وأنا ولدتُ له مسلمة ؟

— فلماذا إذن تبكين يا أماه ؟

— من أجلك يا مسلمة !

— من أجلى ؟

— نعم ؛ فلو لم ألدك لكنت اليوم ولىَّ عهد أمير المؤمنين ؟

— لو لم تلدينى يا أماه لم يلدنى غيرك ؛ وما تطيب نفسى بغيرك أمًّا ولو كانت . . .

— صه ! حسبك ما أوغرت من صدورهن عليك !

— وماذا يوغر صدورهن على مسلمة وإنه ليحمل العبء كله عن أبنائهن ؛ فهو المدعوُّ لكل كريهة ، وعليه أعباؤها دون غيره من أبناء عبد الملك ، فلا تزال تتقاذفه الفلوات وأمواج البحر من مفازة مهلكة إلى ثغر مخوف، ليمكِّن لعرش يتنازعه من لم يسلَّ سيفاً من غمده للدفاع أو يحمل راية !

— من أجل ذلك بكيتُ لك يا مسلمة !

— ولكنى سعيد يا أماه بما أبذل ، ولست أطمع — ولا أريد — أن أحمل أوزارها ، فليحملوا منها ما قدروا عليه ، وليدَعوا لى سيفى وفرسى ورايتى أجاهد فى سبيل الله !

— تخادعني يا مسلمة !

— لا والله يا أمّ ؛ وإني ليسعدني أنك ولدتيني أكثر مما يسعدني أن أبي هو أمير المؤمنين عبد الملك !

— صدق حدسك يا مسلمة ! . .

— ماذا ؟

— لا شيء !

— بل قلتِ شيئاً !

— دع هذه يا مسلمة ولا تلحف !

— تريدين أن تطوي عني سراً . . .

— نعم !

— أيّ سر ؟

— السر لا يُسأل عنه يا مسلمة !

— هو إذن سرٌّ يشين !

— أخطأت وأسأت يا مسلمة !

— وهل يكتم المرء من سره إلا ما يشين ؟

— نعم ، وما يضرّ !

— يضرني أو يضرك يا أم ؟

— يضرني ويضرك يا مسلمة !

— لم أفهم بعد !

ـــ خير لك ألا تفهم !

ـــ ولكن سرًّا تطوينه عنى وفيه مضرة . . . يثقل على ضميرى ويبلبل خاطرى !

ـــ ليتنى لم أبدأ حديثاً معك يا مسلمة !

ـــ ولكنكِ بدأت !

ـــ ولكنى بَدأت !

ـــ ووقفتِ عند كلمة السرِ فطويتها عنى وتركتنى فى بلبلة !

ـــ اسمع يا مسلمة !

ـــ هيه !

ـــ أنت يا بنىَّ صاحب اللواء فى هذه الدولة ؛ لا تزال تقود الجند لحرب الروم فتثخن فيهم قتلا وتجريحاً وأسراً ، حتى أرهقت الروم من أمرهم عسراً ؛ فهل تجد يا بنىّ راحة نفس فيما تفعل من ذلك ؟

ـــ نعم يا أم !

ـــ فكيف تصنع يا بنى إذا عرفت أن فى هؤلاء الروم خئولتك ؟

ـــ قد عرفتُ ذلك منذ بعيد . . . أفهذا هو السر الذى تطوين عنى ؟

ـــ نعم يا مسلمة !

ـ ليس ذاك . . .

ـ تريد أن أزيدك يا مسلمة ؟

ـ نعم !

ـ فاعلم ـ وعليك وحدك تبعة هذا العلم ـ أنك تركب من الأمر عظيماً فى حرب الروم !

ـ ماذا تعنين ؟

ـ أنت تطلب رأس جدك !

ـ جدّى !

ـ نعم ، أبى . . .

ـ ولا تزالين تذكرين أباك يا أم ؟ . . .

ـ نعم ، كأنه بعينىَّ منذ ساعات !

ـ واسمه !

ـ قسطنطين . . .

ـ كل رومىٍّ قسطنطين !

ـ ليس مثل أبى قسطنطين أحدٌ من الروم !

ـ أهو قيصر ؟

ـ كأنْ قد بلغ هذه المنزلة !

ـ ولم يبلغ بعد ؟

ـــ لست أدرى ، فقد انقطع ما بينى وبين أبى منذ صرت إلى عبد الملك !

ـــ وكان أبوك يومئذ . . .

ـــ بطريقاً يؤهله نسبه وجاهه إلى العرش !

أطبق الفتى شفتيه وحدّق فيما أمامه وأمال رأسه إلى جانب وسبح فى أوهامه ؛ وجلست أمه بإزائه صامتة ترمقه بعينين فيهما حب وإشفاق ووجل .

وطال صمت الفتى حتى قلقت أمه ، فقالت فى حنان وعطف :

ـــ لقد طوّفتَ بعيداً فى أوهامك يا مسلمة !

ـــ نعم !

ـــ وهل عدت ؟

ـــ نعم !

ـــ وماذا رأيت فى سرحتك يا بنى ؟

ـــ رأيت أباك !

ـــ جدّك ؟

ـــ نعم !

ـــ وقلت له . . . وقال لك . . .

ـــ لم أستمع إلى قول منه أو يستمع إلى قول منى ! . . .

ـ تغاضبتما إذن ؟

ـ نحن متغاضبان منذ كنا . . . إننى أنا مسلمة بن عبد الملك وهو قسطنطين وحسب !

ـ ولكنه أبو أمك !

ـ قد كان ذلك يوماً ، أما اليوم فلستُ منه وليس منى !

ـ وإذن فلم يغير من رأيك شيئاً أن عرفتَ هذا السر ؟

ـ بل قد أجدّ لى عزماً جديداً . . .

ـ وما ذاك ؟

ـ أن لمسلمة بن عبد الملك حقًّا فى عرش القياصرة ، فسأحارب الروم منذ اليوم على عرش قسطنطين لأستخلصه لنفسى غير غاصب . . . بحق أمومتك !

ـ الآن طابت نفسى يا مسلمة !

ـ طابت نفسك بتقويض عرش القياصرة من آبائك وآلك ؟

ـ ذلك شىء آخر !

ـ فماذا تعنين إذن ؟

ـ لقد كنت أخشى يا مسلمة ـ لو عرفت سر أمك ـ أن تطفأ فى قلبك جذوة الحماسة لحرب الروم ، وهى كل ما تملك يا بنىّ من أسباب المجد حين يتفاخر أبناء عبد الملك ؛ فالآن قد أمنتُ وطابت نفسى !

— الحمد لله !

— وسرٌّ آخر لم يزل يحيك فى صدر أمك يا مسلمة . . .

— ماذا يا أم ؟

— ولا تغضب ؟

— لن أغضب لما يرضيك يا أماه . . .

— تنازعنى نفسى إلى القسطنطينية حيث نشأت !

— تريدين أن أردّك إليها ؟

— بل تردها إلىّ . . .

— لست أفهم !

— إننى آمل أن أجد ولدى مسلمة يجلس منها على عرش القياصرة ؛ ذلك حلمى القديم منذ كنت فتاة لم تدرك ؛ فقد علمتَ يا مسلمة أن بنات الروم — كبنات العرب — لا يحلمن حلماً أمجد ولا أسعد من أن تكون إحداهن أمًّا لقيصر ، وقد حسبت أنى وجدت تعبير رؤياى هذه حين ولدتك لعبد الملك ؛ أما وإخوتك كما ترى يتسابقون دونك إلى ولاية عرش أمية ، فإنى أرجو لرؤياى تعبيراً آخر روميًّا لا يعرف من الملوك غير قيصر !

— بل عرش قيصر وعرش أمية !

صه !

ــ ماذا ؟

ــ أخاف عليك كيد بنى مروان يا مسلمة !

ــ ولكن مسلمة لا يخاف يا أماه !

٦
ولى العهد

تغير كل شىء فى نظر مسلمة منذ ذلك اليوم الذى سابق فيه إخوته فى حلبة الخيل بين يدى أبيه فسبقوه ؛ وكأنه لم يدر إلا يومئذ أنه ابن جارية . . . فلتكن أمه تلك من بنات الملوك أو من بنات الملائكة ، فليست فى أعين الناس جميعاً إلا جارية !

ولم يقع فى وهم مسلمة قبل ذلك اليوم أن أباه قد يختاره لولاية عهده ويرشحه للجلوس على عرش الخلفاء فى دمشق ؛ فلو أن أباه اختار غيره من إخوته قبل ذلك اليوم لولاية العهد لما ثقل عليه ذلك ولا التمس السبيل إلى معرفة أسبابه ؛ أما اليوم فإن له فى نفسه وفى إخوته رأياً آخر . . . فقد وجد ندبة فى قلبه من حديث أبيه إليه بعد السباق ، ومما بلغه من حديث

زوجات أبيه بعضهن إلى بعض ؛ ولكن رأيه ذاك وما ناله من المساءة في حديث أبيه وحديث زوجات أبيه ، لم يغير موقفه من إخوته شيئاً ؛ فليكن العرش والتاج لمن شاء أبوه من إخوته ، أو من غير إخوته ؛ فليس يعنيه ذلك فى شىء ؛ إنهم أحوج إلى مسلمة منه إليهم ؛ إنه سيف بنى عبد الملك وحامل رايتهم فى الجهاد وصاحب رأيهم فى السلام ، رضوا أو سخطوا ؛ فليستأثروا دونه بعرش أمية ، فإن له عرشاً آخر فى قلب كل عربى بين المشرق والمغرب ؛ وإنه ليأمل فوق ذلك أن يقتعد عرش جوستنيان فى القسطنطينية ويتخذها دار هجرة ، فينزل فى بلد خئولته ضيفاً على أبى أيوب الأنصارى ! . . .

* * *

لم يعد النعمان بن عبيد الله إلى دار أهله فى الجزيرة منذ خرج ليطلب ثأر أخيه عتبة فى بلاد الروم ؛ فقد اتخذ فى اللاذقية داراً يأوى إليها كلما عاد من صائفة أو شاتية ؛ وما كان ليأوى إليها إلا أياماً أو أسابيع يعود بعدها إلى ما بدأ ، صائفاً أو شاتياً ؛ وكان له نكاية فى العدو وصبر على القتال واستماتة فى المعركة ، لا يقتحمها إلا وقد كسر جفن سيفه فلا يغمده إلا فى اللبّات والصدور والجنوب ؛ وكان شعاره فى الحرب : لبيك عتبة ! لبيك أبا أيوب ! وكم تعرّض للشهادة

فأخطأته وعاد مثقلا بالغنائم وفى كفه سيف بلا جفن يقطر دماً ، وكم احتز من رءوس وبقر من بطون وشق من مرائر ، ولكنه لم ينل مرة واحدة رأس بطريق من بطارقة الروم ثأراً لأخيه . . .

وتشيع بطولة النعمان بين القوم ، ويتحدث المشاة والركبان بأنباء معاركه المظفرة ، حتى تبلغ تلك الأنباء أمه وعشيرته فى أرض الجزيرة ، فتدمع عينا العجوز الثكلى ، وترفع يديها إلى الله ضارعة أن يكلأه ويرعاه ، ليكون خلفاً من أبيه وأخيه . . . وتهمس الشفاه باسمه فى ثغور الروم خائفة وجلة ، فتتعوذ منه بالمسيح والعذراء . إنه لينال بالرعب من أعدائه أكثر مما ينال بسيفه !

وكان النعمان أثيراً عند مسلمة ؛ فقد شهد من ألوان بطولته ما أدناه إليه منزلة وقربه مجلساً ، وكان له عنده نفل مضاعف من أسلاب كل معركة !

وعاد النعمان ذات خريف من صائفته ليستقبل ضيفاً جديداً على الدنيا ؛ لقد وُلد له مولود ذكر ؛ ها هو ذا يستهل صارخاً يؤذن أباه بمقدمه ؛ ورنّ صراخه الأعجم فى أذن أبيه كأنما يسمع منه صائحاً يهتف فى المعركة : لبيك أبا أيوب ! فمال عليه يقبله فى المهد وهو يجيب : لبيك ! لبيك يا عتبة !

وصار اسم ذلك الصبي من يومئذ : عتيبة بن النعمان .

وكأنما خشي النعمان — وقد صار أباً — أن تكون أبوّته مجبنة مبخلة ، فاحتمل أهله وولده إلى الرقة حيث تقيم أمه وعشيرته ، وعاد معجلا إلى الثغر يتربص بالروم فى كل صائفة وشاتية ؛ وعاش الصبيّ بين جدته وبني عمومته ، وخفّ أبوه إلى الميدان !

* * *

المعارك تتوالى بين العرب والروم ، والسفن العربية عليها الرايات البيض تغدو وتروح فى بحر الروم بين أقريطش وقبرص وأرواد وسواحل القسطنطينية ؛ ما أجدر هذا البحر الأبيض أن يسمى « بحر العرب » ؛ إن جند العرب لتحتل شاطئه الأفريقى والأسيوى جميعاً من المضيق إلى المضيق ، وما فيه من جزيرة إلا ارتفع فيها الأذان ورفرفت عليها الراية العربية ، وإن قوات الفتح لتوشك أن تثب من شاطئ إلى شاطئ فتبلغ القسطنطينية فى الشرق وجزيرة الأندلس فى الغرب، ثم تمدّ مدها حتى يلتقى جناحاها فى الأرض الكبيرة من أوربة ، فلا يكون على شاطئ هذا البحر من فوق ولا من تحت إلا نفوسٌ عربية مؤمنة تعج بالتكبير والأذان !

« حطموا هذه النواقيس العجماء ، وأقيموا المآذن يذكر

عليها اسم الله : الله أكبر ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ! »

واستجاب المسلمون للداعي ، وتفرقت جيوش المسلمين فى الأرض : محمد بن القاسم الثقفى فى الهند والسند يكتسح معاقل الكفر ويدعو إلى الله عُباد الوثن ؛ وقتيبة بن مسلم الباهلى فى خراسان وبلاد الترك يثخن فى الأعداء إثخاناً بليغاً وينشر اسم الله فى هذه البرية الشاسعة بين الصين وجبال القبج. وموسى بن نصير اللخمى يحاول خطة لم يحاولها عربى قبله ، فيجهز مولاه طارق بن زياد لفتح أوربة ؛ ومسلمة بن عبد الملك ومحمد بن مروان ومن معهم من أبطال البر والبحر يضيقون الحصار على قصبة بلاد الروم فيتهاوى ما يليها من المعاقل معقلا بعد معقل حتى توشك مدينة قسطنطين الأكبر أن تدين بالولاء والطاعة للخليفة فى دمشق !

ولكن الخليفة قد تقدمت به السن ويوشك أن يدركه أجله ، وهو لا يريد أن يترك هذه الدولة طعمة للطامعين يتنازعون حول العرش حتى تذهب ريحهم وتقتلعهم العاصفة فترمى بهم إلى البادية حيث بدأوا الزحف منذ بضع وثمانين سنة ؛ ويرى عبد الملك أن يختار ولى عهده ليبايع له قبل أن يموت ؛ فتخفق القلوب حوله وتطمح الأعين إليه . . .

ويرى عبد الملك رؤيا ، ويبعث إلى المدينة من يقصها على

سعيد بن المسيب يسأله تاويلها ، ويقول سعيد لرسول عبد الملك : قل له إن أربعة من بنيه سيلون هذا الأمر ؛ فليحسن إعداد بنيه لاحتمال تبعاتها !

وتشرئب الأعناق إلى قصر الخلافة ، وتصطرع المطامع فى نفوس بضعة عشر ولداً من أبناء عبد الملك ؛ وفى نفوس بضع عشرة من زوجاته وأمهات أولاده .

أيجعل العهد لأربعة من ولده ؟ ومن يكون هؤلاء الأربعة ؟ . . . ما أحرى هذا أن ينشىء العداوة والبغضاء بين بنى أب واحد ؛ وما يدريه ما ترتيب آجالهم فى لوح القدر وإن أسنانهم لمتقاربة ؟

لا ، فليدعْ سعيد بن المسيب يعبر الرؤيا على أى وجه شاء ، وليدبرْ هو أمره على ما يرى ؛ لقد استأثر الله بالغيب فلم يُطلع عليه أحداً من خلقه !

فليولِّ عهده واحداً وحسب ، وليأخذ له البيعة من إخوته ؛ فإن ذلك حقيق بأن يُبقى على وحدتهم ورأيهم ؛ وليكن ولى عهده الوليد . . .

ولكن أخاه عبد العزيز بن مروان يطمع أن ينالها ، وقد أوصاه به أبوه قبل مصرعه ؛ فما أحراه أن يحفظ وصاة أبيه فى عبد العزيز ، ليحفظ بنوه وصاته !

فلتكن ولاية العهد إذن ، للوليد بن عبد الملك وعمه عبد العزيز بن مروان جميعاً !

ولكن عبد العزيز لا يلبث أن يجيء نعيه من مصر ، وتنحل العقدة المستعصية ، فيجعل عبد الملك عهده من بعده لولديه : الوليد ثم سليمان ، ابني ولادة العبسية !

وتم البيعة للأميرين ، ويحلف لهما بنو مروان وبنو أمية جميعاً ، ثم تؤخذ لهما البيعة من الأمصار . . .

ويؤوى عبد الملك إليه أولاده ليقول لهم :

« يا بنى عبد الملك ، أوصيكم بتقوى الله ، فإنها عصمة باقية ، وجنة واقية ؛ وليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير منكم حق الكبير ، مع سلامة الصدور ، والأخذ بجميل الأمور ؛ وإياكم والفرقة والخلاف ؛ فبهما هلك الأولون ، وذل ذوو العز المعظمون . وانظروا مسلمة ، فاصدروا عن رأيه ؛ فإنه بابكم الذى منه تعبرون ، ومجنكم الذى به تستجنون ؛ وكونوا بنى أم بررة ، وإلا دبت بينكم العقارب ؛ وكونوا فى الحرب أحراراً ، وللمعروف مناراً . . . »

ثم يقبل على ابنه الوليد فيقول :

« لا ألفينَّك إذا مت تعصر عينك وتحن حنين الأمة ، ولكن شمِّر واتَّزر ؛ والبس جلد النمر ؛ ودلنى فى حفرتى وخلنى

وشأنى وعليك شأنك ، ثم ادع الناس للبيعة ؛ فمن قال هكذا ، فقل بالسيف هكذا . . . »

ثم يغمض عبد الملك جفنه !

٧
راهب البلقاء

ويجلس الوليد بن عبد الملك على عرش بنى مروان فى دمشق ، وتستمر الفتوح شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً ؛ ويشرع الوليد فى بناء مسجد دمشق ، ومسجد الرسول بالمدينة ، ويأخذ فى تعمير المرافق ، وإعانة الزمنى ، وتأمين المحتاجين وذوى الخلة ؛ ويتردد اسم الوليد بين أربعة أقطار الأرض . . .

وتقول ورد لولدها مسلمة :

ـ كيف رأيت أخاك الوليد على العرش يا أبا سعيد ؟

ـ رأيت خيراً يا أم ، لو وفى لأخيه سليمان !

ـ ماذا ؟

ـ أحسبه يا أمّ يحاول خلع أخيه من ولاية العهد ليجعلها لولده !

ـ وعهد أبيه ووصاته له ؟

ـ لقد همَّ أبوه أن يغدر بأخيه عبد العزيز لولا أن عجل إليه أجله ؛ فما أجدر الوليد أن يغدر بسليمان !

ـ إلا أن يعجل إليه أجله !

ـ من تعنين يا أماه ؟

ـ لم أعنِ أحداً ... فليختر القدر !

ـ ولكن سليمان حقيق بأن يليها !

ـ كلاهما أخوان لأب وأم !

ـ ولكن راهباً فى دير منعزل من أرض البلقاء أنبأنى . . . .

ـ ماذا أنبأك ؟

ـ قال إن سليمان سيليها ، وسيفتح الله عليه بلاداً لم تطأها من قبلُ قدم عربى !

ـ أى بلاد حدست ؟

ـ القسطنطينية . . .

ـ أكذلك تظن ؟

ـ نعم !

ـ مرادك بعيد يا مسلمة ، فما دامت هذه الأسوار ، وتلك الحصون ، وهذه النار الرومية التى يقذفونها على الغزاة فما تدع من شىء إلا جعلته فحماً أو تراباً ـ فلست آمل أن

تفتح عليكم حاضرة الروم من ذلك الطريق !

– ولكننا سنأخذ عليها كل طريق ، ونسلك إليها سبيل البحر والبر والسهل والجبل ، من الشرق والغرب ، ومن الشمال والجنوب ؛ فلا تجد متنفساً ولا تملك إلا التسليم !

– أى شمال وجنوب وأى شرق وغرب ؟

– لقد وطئ جيش العرب جزيرة الأندلس يا أماه ؛ فما أسرع ما تنثال جيوشهم فى الأرض الكبيرة زاحفة نحو الشرق ؛ فيقتحمون على القسطنطينية أبوابها من الغرب ؛ وقد ملك قتيبة بن مسلم من أقصى بلاد الترك إلى جبال القبج وبحر بنطش « البحر الأسود » ، فما أسرع ما يثب من البحر إلى الساحل ؛ وهذا جيش مسلمة لا يزال يراوحها ويغاديها من البر والبحر ؛ فهل ترين لها خلاصاً بين هذه القوات الأربع ؟

– ويجلس مسلمة على عرش قسطنطين ؟

– ويجلس مسلمة على عرش قسطنطين ، ويحقق لأمه أمنية ، ويدع أبناء عبد الملك يتصارعون على عرش أمية !

– وتكبت عدوّى وعدوك يا مسلمة ؟

– ويبلغ عدوى وعدوك من هوان الشأن ما لا يحمل أحداً على التفكير فى أمره !

* * *

كان الإسلام فى ذلك العهد ، ديناً خالصاً لله ، كأول عهد المسلمين به يوم نزل ، لم تدخله خرافة ولم يغلب عليه باطل ولم يبتدع فيه مبطل حدثاً ؛ إلا بعض ميراث الجاهلية فى العامة من الإيمان بالنجوم والتماس علم الغد عندها ، وإلا مطمع بعض الخاصة فى صدق الرؤيا والهاتف وحدس النفس المؤمنة ، فقد حدثهم من حدث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الرؤيا بضعة من النبوة . وإلا بعض ما ألهمتهم آيات من القرآن الكريم عما يتوارثه بعض أهل الكتاب من علم عن الغد يجدونه مكتوباً عندهم فى الإنجيل والتوراة ، فهم يلتمسونه عند الرهبان المنقطعين للعبادة فى الأديار والبيع المنتثرة فى أرض البلقاء ووادى الأردن وأرباض الشام وأطراف الجزيرة ؛ وإلا ما أحدثه بعض الفرق الإسلامية الناشئة مما يسمونه علم الملاحم ويسندونه إلى فلان إلى فلان إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ويزعمون أن فيه علم الغد كله مكتوباً فى « جفر » على سبيل الرمز والإيماء فلا يحل طلسمه إلا من أوتى حظاً من علم !

وكان إيمان الناس فى ذلك العهد بهذه المستحدثات يختلف باختلاف بيئاتهم وميراثهم العقلى وحظهم من فهم الإسلام .

ولكن كل نفس تستشرف إلى معرفة ما استسرّ فى غدها من غيب الله ؛ فلا عجب أن نرى — فى مثل ذلك العهد — طائفة من أهل التمييز والبصيرة لا تستنكف من غشيان الأديار وصوامع الرهبان تسألهم بعض ما عندهم من علم الغد !

وكذلك رأى مسلمة بن عبد الملك نفسه مسوقاً ذات يوم إلى دير من هذه الأديار يسأل راهبها بعض ما عنده ، وكان يصحبه فى سرحته تلك مجاهد من أهل اللاذقية اسمه النعمان بن عبيد الله . . .

قال مسلمة للراهب :

— يا شيخ ، هل تجدون فى كتبكم ما أنتم فيه ونحن ؟

— نعم ، نجد ما مضى من أمركم وما أنتم فيه وما هو كائن !

— أفمسمًّى أم موصوفاً ؟

— كل ذلك موصوف بغير اسم ، واسم بغير صفة !

— فهل ترى من صفتى وصفة صاحبى هذا عندك ؟

— أمير يعزف عن الإمارة ، أو تعزف عنه الإمارة ؛ ينزع به عرق ، ويجذبه عرق ؛ جرادة صفراء ، تحت رايه بيضاء ؛ يُفتح به لغيره ولا يُفتح له، عن يمينه على العرش أربعة ، وعن يساره أربعة ؛ يدنو حتى يكون قاب قوسين ،

فيقف بين بين ، ثم يفلتها بعد الأين ؛ بينه وبين ما يأمله مئتان ومئتان وثلاثمئة ؛ ثم يكون ما أراد ، حين لا متاع له بشيء من ذلك الزاد ، إلا عين جارية ، وسيرة باقية ؛ ويُذكر أبو أيوب ، وأبو سعيد ، ومحمد بن مراد ! . . .

– وهذا الخليفة الجالس على العرش ؟

– اسم صبيّ وما هو بصبيّ ، ترمقه العيون ، وتتوهمه الظنون ، وهو مما يراد به فى حرز مصون ؛ يُعلى البناء ، ويوسع الفناء ، ويجزل العطاء ، ويلد النجباء ، ثم يمضى كما جاء ؛ ويخلفه ملك له اسم نبيّ ، ووجه وضيّ ، تُفتح عليه بلاد لم يسلكها بدويّ ، ولم تطأها قدم عربيّ ؛ يا سليمان ابن داود ، ارفع الغطاء عن المائدة للضيفان ، إن للمأدبة موعداً قد حان ! . . .

وصمت الراهب برهة وأطرق ، ومال مسلمة على أذن رفيقه يسرّ إليه ، ثم رفع الراهب رأسه يقول :

– وصاحب بالجنب ينشد ضالة ، والضالة تنشد ناشدها ؛ والباب بين الناشد والمنشود عليه قفل ورتاج ، وستر من ديباج ... أيها الصبيّ ، أيتها الجارية ، إن لكما وراء هذا الباب عمومة وخئولة ؛ اختلط الدم بالدم ، وتدسّس العرق إلى العرق ؛ ويلك لو انكشف المخبوء وانهتك الستر وأزيح النقاب ؛ لقد

نذرتَ نذراً ونذرت المقادير نذراً ، فأوف بنذرك ، أو تجاوز عن ثأرك ، فستبلغ المقادير غايتها برغمك ، ويشهد الأمير ضاحك السن عاقبة أمره وأمرك ؛ فيحدب على الوليد ، ويترحم على الشهيد ، ويصل رحم القريب والبعيد !

وتفصَّد جبين الشيخ عرقاً كأنما كان يمتح على رأس بئر ، ثم تنفس نفساً عميقاً كأنما خرج من جب ، وراح يقلب عينيه بين الأمير وصاحبه صامتاً ، والأمير وصاحبه يتبادلان نظرات لا تكاد تُفصح عن معنى !

وقال الأمير لصاحبه وقد أخذا طريقهما إلى المدينة :

ـــ هل فهمت مما وصف الراهب شيئاً يا أبا عتيبة ؟

ـــ قليلا يا مولاى وغاب عنى الكثير !

ـــ أفتدرى ما المئتان والمئتان والثلاثمئة ؟

ـــ أحسبه يعنى الذين يستشهدون منا قبل أن تدين القسطنطينية بالفتح !

ـــ أكذلك تزعم ؟

ـــ وماذا تكون هذه السبعمئة إلا ذلك ؟

ـــ ظننته يحصى الأيام ، أو الأسابيع ؛ فإن كان ذلك فإن بيننا وبين الفتح عامين ، أو أربعة عشر عاماً . . .

ـــ أو بضعة وخمسين !

— وى !

— بلى ، فما أراه — إن كان يحصى الأزمان — إلا حاسباً حساب الأهلَّة ، لا الأسابيع ولا الأيام !

— ذلك كثير يا أبا عتيبة !

— ولكنه فى عمر الدول قليل يا مولاى !

— أخطأ حدسك يا نعمان : فإنى لأزعم أن سيكون ذلك فى عهد سليمان ؛ وتُفتح عليه بلاد لم يطأها عربى ؛ أفترى سليمان يعمّر بضعاً وخمسين !

— أفذلك قوله يا مولاى لابن داود : « ارفع الغطاء عن المائدة للضيفان » !

— ظننته كذلك !

— لقد كان لسليمان بن داود يا مولاى ملك لا ينبغى — فى بنى إسرائيل — لأحد من بعده ؛ فما أحرى هذا أن يكون بشرى لسليمان بن عبد الملك أن تفتح عليه كنوز الدنيا !

— ويكون اللواء فى يدى يا أبا عتيبة !

— ويكون أبو عتيبة فى ظل لواء الأمير !

— ونبلغ عرش قسطنطين الأكبر ، ونطأ بساطه ، ونحطم صلبانه ؛ وأدفع إليك عشرة من بطارقته تحتز رءوسهم ثأراً لأخيك !

ـ سيدى !

ـ ماذا يا نعمان ؟

ـ لقد تحدّث الراهب عن الضالة وناشدها حديثاً لم أعه !

ـ أفلم يقل إننى سأشهد عاقبة أمرك ضاحك السن ؟

ـ بلى . . .

ـ فماذا يعنيك من سائر هذيانه وخلطه ؟

ـ أتراه يهذى ويخلط يا مولاى ؟ فلماذا يَصدق فى الحديث عنك ويخلط فى الحديث عنى !

ـ أفظننت هؤلاء الرهبان يا نعمان يصدقون فى كل ما يحكون ؟

ـ ولمَ لا . . . ؟

ـ فهبهم قد علموا من كتبهم غيب الملوك والأمراء ؛ فمن أين لهم غيب سائر الناس ؟

ـ وماذا يحمله على أن يكذب ؟

ـ ذلك يا نعمان كل ما بقى فى أيدى هؤلاء القساوسة من الجاه فى هذه البلاد بعد أن أظلها الإسلام ؛ أفتحسبهم ينزلون طائعين عن هذا الجاه فيقولون لبعض العامة : لا ندرى !

ـ قد فهمت !

ــ بل لا تزال بعيداً عن الفهم !

ــ ماذا ؟

ــ أريد أن أقول لك إنى لم أصدّق حرفاً واحداً من حديث ذلك الراهب الشيخ ، وما قصدته مؤمناً مصدقاً ، وإنما أردت أن ألتمس إلى التسلية سبباً وأنشد راحة نفس ؛ فدع عنك حديثه ذلك كله كأن لم تستمع إليه ولم تجلس بين يديه !

ــ قد سمعت !

ومضيا عائدين من الدير قد أطبقا شفاههما ؛ لم يتحدث واحد منهما إلى صاحبه بعد ذلك الحديث ؛ ولكن لكل منهما مع نفسه حديثاً ضافى الذيول !

٨
بارقة أمل

لم تكن أم النعمان تعرف أن ولدها اتخذ زوجاً ، إلا يوم عاد إليها بعد غيبة دامت سنين يصحبه ذلك الطفل وأمه ؛ أما الطفل فقد عرفته ، إن فيه مخايل من أبيه وإن لم يزل رضيعاً فى لفائفه ، وإن اسمه عتبة ، أو عتيبة ، وما أحبه اسماً إلى

قلبها ؛ إنه ليذكّرها بعمه عتبة بن عبيد الله الذى ذهب منذ سنين ولم يعد فلا تدرى أفى الأحياء هو أم فى الموتى ؟ فليكن هذا الصبى خلفاً من عمه الذى طواه الغيب فى ظلماته ، وذكرى دائمة لأبيه الذى قطعه الغزو عن لِداته ورماه فى البحر والفلوات لا يكاد يستقر فى بلد أو يهدأ على ظهر سابحة !

ولكن من تكون أم هذا الغلام ؟ من أى بلاد العرب وإلى أى بطونهم تنتمى ؟ إنها لنحيلة ممشوقة ، فى عينيها زرقة ، وفى خديها شحوب ، ولحديثها نبر عذب ، وفى يدها إشارة لطيفة ، ولها حظ من علم وأدب وظرف لم يحصِّل مثله كثير من بنات العرب ؛ كل ما تعرف أم النعمان عن كنّتها هذه الجديدة أن اسمها سبيكة ، وأنها أم ذلك الصبى العزيز عتيبة ابن النعمان . . .

أعربية هى أم مولدة ، أم فتاة جلبها ولدها من السباء أو من سوق الرقية فى بعض بلاد الشام ؟ أزوجة هى أم هى أمّ ولد ؟ ليس يدرى أحد ، ولكنهم جميعاً يعطفون عليها ويأنسون إلى حديثها ويسارعون إلى مرضاتها ؛ لا يسألونها عما لا يعرفون من خبرها ، حفظاً لغيب صاحبها ؛ ولا تحدثهم هى مبتدئة عما يريدون أن يعرفوا ، حفظاً لغيب نفسها . . .

وتعاقبت الأعوام وسبيكة تعيش فى ظل الحنان والعطف من حماتها وسلفتها وأخوات زوجها وولد أخيه ، لا تكاد تحس أنها غريبة فى هذا الجو الجديد عليها ولا يكادون يحسون !

ولم ينس النعمان بن عبيد الله أن له زوجاً وولداً ، فكان يلمُّ بالرقة حيناً بعد حين ، كلما وجد فسحة من الوقت بين صائفتين ؛ فيقيم بين أهله أياماً قليلة ثم يرحل . . .

وشب عتيبة بين فتيان الحى وفتياته ، قد آخى ابن عمه بشيراً وأخته نوار ؛ فكأنما جمعتهم أمومة واحدة وأبوة . وكذلك مضت الحياة بهذه الأسرة كما تمضى بكل الأسر فى ذلك البلد ، لم ينكر أحد من أمرها شيئاً ولم تنكر من أمر نفسها ؛ قد غاب رجلها فى الغزو والجهاد كما يغيب رجال كُثُرٌ فى مثل تلك السنين عن زوجاتهم وأهليهم ، واحتملت الأسرة غيبته راضية كما تحتمل أسر كثيرة فى مثل تلك السنين غيبة رجالها راضية ؛ بلى ، كان فى هذه الأسرة رجلان صغيران ، هما عتيبة بن النعمان وبشير بن عتبة ، ولكنهما طفلان وإن بدا لهما — من مكانتهما فى الأسرة — أنهما رجلا الأسرة وعليهما لها مثل تبعات الرجال !

* * *

وكانت الصوائف والشواتى ما تزال غادية رائحة بين

الثغور فى البر والبحر ؛ عليها من أصحاب مسلمة رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، لم يخرجوا فى هذه الرحلات المتتابعة لاهين ولا هازلين ، قد وطنوا أنفسهم على الظفر فى كل غارة يغيرونها أو يستشهدوا ؛ منهم النعمان بن عبيد الله الرّقى ، ومنهم أبو محمد الأنطاكى ، ومنهم عبد الوهاب بن بخت ؛ ثلاثة لا يزال صدى أسمائهم يتردد فى بلاد الروم مخيفاً مفزعاً ، يرعب الصغير ، ويؤرق الكبير ، ويقض مضاجع النُّوَّام ؛ فإن الأم فى ثغور الروم ليذنب صغيرها أو يبكى فتريد تأديبه فتقول له : اسكت أو أدفعك إلى الأنطاكى ، أو ابن بخت ، أو النعمان ! فيكف الصغير عن بكائه ويستغفر من ذنبه !

وكانت صيحتهم فى الحرب : لبيك أبا أيوب ! فكأنما ترددها وراءهم — حين يلفظونها — أواذى البحر وصخور الجبل ، وتتداح فى سهول البادية صدى متصل الرنين يفزع ويرهب ويقطع علائق القلوب !

وكانوا يحملون فى الحرب سيوفاً بلا أغماد ، إذ كانوا لا يخرجون بها من المعركة إلا محطمة من طول الضِّراب !

وجلس ثلاثتهم ذات ليلة من ليالى العطلة فى بعض مضارب الجند يسمرون ، كعادتهم كلما سكن غبار الحرب ، وأخذوا فى لون من ألوان المفاخرة بما أتوا من أعمال البطولة فى حرب

الروم ، فراح كل منهم يحصى ما فى جسده من آثار الجراح ، لا يكادون يستقصونها إحصاء وعدًّا ؛ وبدا أبو محمد الأنطاكى أكثرهم آثارَ جراح ، فقال له عبد الوهاب بن بخت معجباً :

— لله ما أبليت يا أبا محمد فى سبيل الله ، إنك لبطل !

قال النعمان :

— إنه لأعلى منزلة مما تصف يا أبا عبيدة ، إنه لبطَّال !

وضحك الثلاثة ضحكاً عريضاً ترددت أصداؤه فى مضارب الجند ، وصار ذلك اسم أبى محمد الأنطاكى من بعد ، لا يكاد يعرفه أحد إلا باسم أبى محمد البطال !

وقال أبو محمد ولم يزل يشرق بضحكته :

— لقد أذكرتمانى أمراً حانت مناسبته ، فقد كنت بأنطاكية ذات يوم من سنة ٧٠ ، وقد زحف الروم بجحافلهم يلتمسون غِرَّة عبد الملك ، حين اشتغاله بحرب ابن الزبير وتوقِّى مكايد عمرو بن سعيد ومقاومة الخوارج ؛ وبدا للروم كأنما دانت لهم أنطاكية وانفتح البر ، ولم يكن ثمة جيش للعرب يصد غاراتهم ، واستضعف المسلمون فأوى منهم من أوى إلى داره وفرّ من فرّ إلى خارج المدينة ، ورأيتنى ذلك اليوم بغتة بين كوكبة من جند الروم يسوقون فى الجبال ثلاثة أسارى من العرب ، وليس معى إلا سيف مفلول قد تحطم من كثرة

الضراب ، وهتف بى الأسارى فى أغلالهم يطلبون النجدة :

— إلينا يا أخا العرب !

وثارت حميّتى ، فحملت فرداً على الجماعة بسيفى المسلول ، لم أحفل بما تنال سيوفهم من لحمى ، وقصدت إلى الأسارى أريد أن أخلّصهم من أيدى القوم ، وتوالت علىّ الضربات لا أكاد أحس وقعها على جسدى ، وأوشكت أن أخلّص الرجال ، بعد أن جندلت فى طريقى إليهم بضعة نفر ؛ وهتف أحد الأسارى بصاحبيه : أبشر عتبة ! أبشر سعيد ! وهتف آخر منهم وهو يشير بيده إلى جانبى فزعاً : فديتك يا بطال ! ونظرت إلى حيث كان يشير ؛ فإذا رومى فى زى بطريق قد رفع سيفه على رأسى ؛ فهممت أن أخلى للضربة القاصمة ، ولكن سيفه نالنى . . .

ثم كشف أبو محمد عن كتفه فإذا أثر ضربة غائرة فى حبل العاتق مما يلى العنق . . .

واستأنف أبو محمد :

— فذلك أول ما سمعت كلمة « البطال » !

كان النعمان يسمع ذاهلا قد اختلجت شفتاه وحال لونه ، فلم يكد يسكت أبو محمد البطال حتى ابتدره سائلا فى لهفة :

— وماذا صُنع بالأسارى ؟

— لست أدرى ؛ فقد أعجلتنى ضربة قسطنطين عن

تخليصهم ، فنجوت من الموت ولم أكد !

ــ مَن قسطنطين ؟

ــ ذلك البطريق الذى نالنى بتلك الضربة ؛ لقد لقيته بعدها فى بعض الصوائف ، وعرفته وعرفنى ، ولكنه أفلت من يدى ، ولابد أن أناله يوماً ! . . .

ــ والأسارى ! . . .

قال البطال مستخفاً :

وما عنايتك هذه بهؤلاء الأسارى وقد مضى زمان ؟ وكم بين العرب والروم من قتلى وأسارى !

ــ قد قلتَ إن عتبة كان أحد هؤلاء الثلاثة ؟

ــ ومن عتبة هذا ؟

ــ إنى لأظنه أخى !

ــ أخاك ؟

ــ نعم ، فقد خرج للغزو منذ ذلك التاريخ فلم يعد ؛ ولم تكن صوائف ولا شوات يومئذ ؛ فقد كان عبد الملك فى شغل عن الصوائف والشواتى بحرب الخوارج !

صمت البطال برهة وهو يحدق فى وجه صاحبيه ، ثم قال موافقاً :

ــ قد يكون إياه . . .

وكان عبد الوهاب بن بخت صامتاً ، يستمع إلى ما يدور من الحوار بين الرجلين فى اهتمام ؛ ثم عقَّب :

ـ بل إنى لأرجو أن يكون إياه !

فالتفت إليه النعمان قائلا وقد شاع فى وجهه الأمل :

ـ عندك ما تقول يا أبا عبيدة !

ـ نعم ، فقد كان أحد الثلاثة سعيد بن جنادة ، وقد خلص بهم الروم إلى البحر ، فاحتملوهم أسارى على ظهر سفينة رومية ، ولكن ابن جنادة التمس غرة من القوم فألقى نفسه من السفينة بعد ما أبعدت عن الساحل ، فبلغ البر سابحاً . . . وقد لقيته فحدثنى . . .

ـ بماذا حدثك ؟ .

ـ قال : إن أحد صاحبيه اسمه عتبة الرَّقى . أليس بلدك الرقة يا أبا عتيبة ؟

ـ بلى ، وماذا قال غير هذا ؟

ـ لم يحدّثنى عنهما أكثر من ذاك ؟

ـ وأين ابن جنادة هذا ؟

ـ مات تحت أسوار ملطية ! . . .

ـ مات ؟ . . .

ـــ نعم ، وإنى لأرجو أن يكون أخوك حيًّا فتلقاه ويحدثك الخبر !

ـــ ليت الأمانى تصدق يا أبا عبيدة !

* * *

وخلا النعمان إلى نفسه يفكر فى أمره . . . هل تصدق الأمانى ؟ وهل يرى أخاه حيًّا فيحدثه ويستمع إليه ؟ ولكن، أين . . . ؟

وهرول عائداً إلى أبى محمد البطال يستزيده :

ـــ لقد قلت يا أبا محمد إن البطريق الذى نالك بسيفه فى معركة أنطاكية ، اسمه قسطنطين ؟

ـــ نعم !

ـــ وإنك لقيته بعدها فى بعض المغازى فعرفته وعرفك ؟

ـــ نعم !

ـــ أفلست تظنه يعرف ما آل إليه أمر هؤلاء الأسرى ؟

ـــ أظن . . .

ـــ فإنى أريد أن ألقاه !

ـــ من ؟

ـــ قسطنطين البطريق !

ـــ كل رومىٍّ قسطنطين يا أبا عتيبة ؛ فهل تظننى أذكر

كل ما مر بى من الصور والحوادث على تعاقب السنين ؟

ــ أفلست تذكر أين لقيت قسطنطين هذا فى الغزاة الثانية ؟

ــ لست أذكر !

ــ ولكنه يعرف من أنباء أخى ، فأين ألقاه إذن ؟

ــ فى بعض المعارك !

ــ ماذا ؟

ــ أعنى لابد أنك ستلقاه فى معركة قابلة ، فإنه رجل جلاد فيما يبدو ؛ هذا إذا لم يكن قد مات !

ــ أتظنه مات ؟

ــ وماذا يمنع ؟ لقد كان يوم أنطاكية ــ فيما بدا لى ــ شيخا قد جاوز الخمسين ، فإن لم يكن قد لقى أجله فى بعض المعارك فقد جاوز اليوم سن الموت !

ــ وا أسفاه !

ــ تأسف على موت عدوك وعدو الله !

ــ بل آسف على أخى وما غاب عنى من خبره !

ــ إنك لتسرف فى الأمل يا أبا عتيبة إسرافاً يوشك أن يفل عزمك عند أول صدمة فيُقطع بك ؛ فهل استيقنت يقينا لا شبهة فيه أن ذاك أخوك ، فكم فى العرب من « عتبة » ، وكم عربى اسمه « الرقى » ولم يدخل الرقة أو يرها بعينين ؛ فمن

أين لك اليقين بأن ذاك أخوك ؟

ــ إلا يكن أخى لأبى وأمى فإنه أخى فى الدين والنسب !

ــ صدقت ، وإنه لأخى كذلك ، وأخو كل مسلم وعربى !

ــ فستحرص إذن منذ اليوم يا أبا محمد على ما أحرص ، فتلتمس لأخيك عتبة أسباب الحرية ؟

ــ نعم ، ولكل عربى فى أسر الروم ، وأطلب ثأر القتلى بكل رأس رأسين !

ودوى النفير فهب المسلمون إلى أسلحتهم ؛ وترددت فى مضارب الجند أصوات الملبِّين ؛ وهبَّ النعمان معهم إلى سلاحه وهو يلبى :

ــ لبيك عتبة ! لبيك أبا أيوب ! الله أكبر !

٩

نداء الدم !

ــ يوشك حديث الراهب أن يكون حقًّا !

كذلك قال النعمان لنفسه ؛ ألم يقل ذلك الراهب إن

صاحبًا بالجنب ينشد ضالة ؛ والضالة تنشد ناشدها ؟ . . . فذانك هو وأخوه ؛ ولكنه يريد أن يعرف أين تنتهى القصة ، وما ذلك الباب عليه القفل والرتاج وستر الديباج ، ومَن ذلك الصبي وتلك الجارية ، وما تلك العمومة والخئولة واختلاط الدم بالدم وتدسُّس العرق إلى العرق ؟

ليته يعود إلى ذلك الراهب فيسأله أن يوضح له ما غمض من هذه الأحاجى ؛ إن الرهبان ليعرفون كثيراً من غيب الخاصة وغيب العامة على السواء ؛ وما أنصف مسلمة حين وصف ذلك الراهب بما وصف ورماه بالهذيان والخلط ! . . .

وطوّح الخيال بالنعمان إلى مرامى بعيدة ؛ وطوّف حالماً بين ما يعرف من ثغور الروم يتحسس آثار أخيه ؛ ثم آب من رحلته تلك مكدود الذهن ضيق النفس خائر العزيمة ، لقد كان قبل اليوم يجاهد مستميتاً ليدرك ثأراً أو يظفر بالشهادة ، أما اليوم فإن له هدفاً آخر . . . ليس فى نفسه اليوم إلا صورة أخيه الذى يزعم أنه لم يزل حيًّا فى الأسر عند بعض بطارقة الروم ، وليس له أمنية إلا أن يصل إليه فيستنقذه فيرده إلى أمه وزوجه وولده !

والتفت خاطره إلى الذين يقيمون فى الرقة من أهله ؛ إن له ثمة زوجاً وولداً يعيشان بين أمه وزوج أخيه وولديه ، لا يكاد

يطرقهم زائراً حتى يؤذنهم بالفراق ؛ وقد مضى عامان منذ آخر زياراته لهم فلم يرهم ولم يروه منذ ذلك الحين ؛ كيف صار ولده عتيبة اليوم ؟ وما شأنه وشأن ابن عمه بشير بن عتبة ، وأخته نوار بنت عتبة ، تلك الدُّمية الصغيرة الضاحكة أبداً كأنما يُصبحها أبوها ويمسيها بالمزاح والدعابة والطرائف المجلوبة ؛ وأبوها أسير فى حصن من حصون الروم لم تره قط ولم يرها . . .

وعاد يذكر أخاه عتبة . . .

وتخيل كأنما لقيه بعد أين ، فاعتنقا ، وتذاكرا الماضى طويلا ، واصطحبا على الطريق إلى الرقة حيث يقيم بشير ونوار وعتيبة وجدّتهم العجوز وامرأتان أخريان قد فارقهما زوجاهما منذ بعيد ، فلا هما زوجتان ولا أرملتان !

ويرى عتبة بن عبيد الله ابنته نوار ، عروساً فاتنة ضاحكة السن أبداً ، فيسأل : من هذه ؟ فيضمها عتيبة بن النعمان إليه ويقول : هذه لى !

وتضحك امرأتان ورجلان وتمتلىء قلوبهم غبطة ومسرة ، ويحقق عتبة بن عبيد الله لابن أخيه ما أراد ، فيزوجه نوار ؛ ويعود الأنس إلى تلك الدار الموحشة !

ثم يستيقظ النعمان من حلمه ذلك ؛ فإذا هو فى خيمته منبطح على فراشه وإلى جانبه سيفه وترسه ؛ ويفىء إلى الحقيقة

بعد مشوار طويل فى وادى الأحلام ؛ ويهمُّ أن ينهض فتجاذبه الأرض . إن الأمانى مكسلة مجبنة . . . ولكنه لابد أن ينهض ، فإن الجند فى الميدان لا يؤذن لهم أن ينبطحوا على الأرض طويلا وينسرحوا فى الأحلام من واد إلى واد . . .

* * *

كانت الدولة حتى ذلك اليوم عربية خالصة ، وكانت عصبية الأبوة والأمومة وخلوص العرق من هُجنة الدم ، هى السياسة ومدار التدبير فى الدولة ؛ فليس للموالى ولا لأبناء الجوارى ولا لمسلمى الأمصار المفتوحة ، جاهٌ فى الحكم ولا مطمع فى الرياسة ولا اعتبار عند الأمراء ولا عند السوقة ؛ وكان الخلفاء مع ذلك يؤثرون الروميات والصقلبيات وبنات الترك والعجم والمجلوبات السود أحياناً ، على الحرائر من بنات العم والخال ؛ فيتخذونهن للفراش والخدمة وسياسة القصور ومجالس الأنس والمسرة ؛ ولكنهن إن يلدن فليس أولادهن فى اعتبار آبائهم إلا أبناء جوار وإن كانوا فى الذروة من الفضائل والحكمة وسياسة الأمور والشجاعة فى الحرب ؛ وكان أبناء العامة والخاصة من جواريهم فى مثل هذه المنزلة كذلك عند آبائهم وإخوتهم وبنى عمومتهم وبناتهم ؛ فليس لهم عند أحد من هؤلاء منزلة ابن العربية الحرة . . .

من أجل ذلك أبعد مسلمة عن عرش بنى مروان ، وهو من إخوته كما قال أبوه : حكيمهم الذى عن رأيه يصدرون ، وبابهم الذى منه يعبرون ، ومجنّهم الذى به يستجنُّون . . .

ومن أجل ذلك كذلك ، كتم النعمان بن عبيد الله عن أمه وأهله أمر امرأته سبيكة ، فلم يحدثهم أنها أمُّ ولد وقعت له سبيَّة فى بعض الغزوات فحازها فى داره حتى نضجت نضج الأنثى وأحكمت العربية لساناً وتشربت الإسلام ديناً ، فاتخذها أم ولد ، ثم ترقى بها درجة فجعلها زوجاً ، ثم حملها إلى أهله لا يدرون من أمرها إلا أنها أم عتيبة بن النعمان !

لقد خشى النعمان أن يهجِّن أولاد عمومته ولده عتيبة حين يعرفون أنه لأمِّ ولد رومية ؛ فكذب تلك الكذبة الصامتة ولم يتحدث إلى أهله بشىء من خبرها ؛ وبعض الكذب لا تلفظه شفتان !

ولكن هذا النحول فى القد ، وتلك الزرقة فى العينين ، وذاك الشحوب فى الخد ، وذلك النبر فى الحديث — كل ذلك ينم نميمة فاضحة عن أرومة تلك الصبية ؛ فتهامس حولها بعض الشفاه ، وتنقبض عنها بعض النفوس !

ويفد النعمان إلى الرقة زائراً ذات مرة — كبعض عادته — بعد غيبة طويلة ، فتلقاه زوجه طيبة النفس راضية قد افتر

ثغرها عن ابتسامة تعبر عن مدى شوقها إليه وسرورها بمقدمه ، ولكنه يرى وجنتيها قد ازدادتا شحوباً ، وعينيها قد بدتا أكثر زرقة وعمقاً ؛ ويرى على تينك الشفتين الرقيقتين كلمات تختلج ، يجاذبها الحياء منه والحفاظ على مودته أن تلفظها ؛ ويسألها النعمان عما بها فلا تجيب ، ولكنها ما تكاد تسمع صوته الحانى حتى تستحيل الاختلاجة على الشفتين دموعاً تنحدر على الوجنتين الشاحبتين !

ويدنو منها النعمان فيمسح على شعرها بيده ويعيد سؤاله متلطفاً ، فتجيبه بكلمات قصار :

ــ ليس يخفى علىّ يا نعمان ــ ولا يطيب لى أن أنكر ــ أننى جاريتك !

ــ بل زوجتى وأم ولدى يا سبيكة !

ــ نعم ، أم ولدك التى أكرمتها بنسبك فسميتها زوجاً !

ــ بل أنت أكرمتنى يا سبيكة بَدِيًّا بما أسبغت علىّ من حنانك وعطفك ، ثم أكرمتنى ثانية حين ولدت لى عتيبة هذا الذى أرجو أن يكون قرة عين لى ولك ، ولازلت تكرمينى بما تحفظين من غيبى وتحدبين على أهلى وترعين ولدى راضية صابرة على مُر الفراق وشظف العيش !

ــ ولكن أمك لا ترضى يا نعمان !

ــ أمى ؟

ــ وزوج أخيك أيضاً ، وولدك عتيبة !

ماذا ؟ قد علمت من علم الناس أن الحماة والسلفة لا ترضيان أبداً عن الكنة . . . ولكن ما شأن ولدنا عتيبة ؟

ــ إنه مثلهما ينكر على أمه أنها ليست عربية !

ــ ومن أنبأه ؟

ــ لم ينبئه أحد !

ــ فماذا قال إذن ؟

ــ جاءنى ذات يوم يسألنى : إلى أىّ العرب من أهل اللاذقية تنتسبين يا أم ؟

ــ فكيف كان جوابك ؟

ــ قلت له : إن أباك يعرف . ولم أزد ؛ فقد خنقتنى العبرة ففررت من بين يديه إلى خلوتى !

ــ أفهذا ما تقولين إنه ينكره عليك ؟

ــ نعم !

ــ لقد أسأت الفهم يا سبيكة !

ــ بل قل : يا سبيّة !

ــ أوه !

ــ لست أريد مساءتك يا نعمان !

ــ ولم يُرد عتيبة مساءتك ؟

— ففيم كان سؤاله ذاك عن نسبي !

— تلك عادة عربية : أن يفخر الأبناء بما يمتّون من نسب الآباء والأمهات !

— وكيف كنت تراني أجيب ؟

قال النعمان ضاحكاً وقد مال عليها حتى خالطتها أنفاسه :

— قولي له : إنك في أعلى بيت من بني الأصفر !

ونفرت سبيكة مبتعدة وعضت على شفتها ، ثم أرسلت عينيها وقالت وقد سترت وجهها بكفيها وبدنها يختاج كله :

— وكذلك أنت يا نعمان ما تزال تقولها !

قال وقد زحف إليها حتى لاصقها ثانية :

فماذا كنت تريدين أن أقول إذن ؟

— لا شيء !

— ولكن كل مسئول لابد أن يجيب !

قالت وقد شرعت عينيها وبرق فيهما بريق عجيب :

— قل إنك ولدتني ولادة ثانية ثم اتخذتني زوجاً !

— وإذن فأنا أبوك وزوجك ؟

— نعم !

— ولكنك أنت ولدتيني كذلك ثم والدت لي !

— إذن فأنا أمك وزوجك ؟

ــ نعم !

ــ وأمك الأخرى ؟

ــ إن لكل رجل أمَّين وأبوين !

ــ ولكل امرأة ! . . .

ــ فمن أمك الثانية إذن ؟

ــ أمُّك !

ــ ولكنك تكرهينها يا سبيكة فيما أرى !

ــ بل هى تكرهنى !

ــ وهل تكره الأم ابنتها ؟ ٠

ــ نعم ، حين تكون كنَّة لها فتغلبها على أمومة ولدها !

ــ فهل أيقنت إذن أنك قد غلبتيها على أمومتى ! . . .

ــ أيقنت !

قال وقد مد إليها يداً يعابثها :

ــ فإن طفلك الكبير . . . جائع ، فهلا أرضعتيه يا أم !

فابتعدت عنه معجلة وهى تقول :

ــ صه ، فإن عتيبة قادم !

وسُمع وقع أقدامه فى الفناء ، ثم دنا ، فدخل ، فألقى بنفسه بين ذراعى أبيه ! . . .

* * *

لم يعد عتيبة صبيًّا ، فقد شب ونما واخضر شاربه ، وكان قويًّا عريض الألواح مفتول الساعد خشن الكف ، ولكن فى خديه شحوباً ، وفى عينيه زرقة وعمق ، ولصوته نبر عذب ؛ من يراه ويرى هذين الرجل والمرأة لا يشك للنظرة الأولى أنهما زوجان قد أنجبا ؛ فإن فيه من كليهما وليس فى أحدهما من صاحبه شيء . . .

ورأى عتيبة فرصة سانحة ليتحدث إلى أبيه فى أمر يشغله منذ بعيد ؛ ثم استحيا ، فآثر السكوت حتى يروى فى الأمر فيعرف من أين يبدأ . . .

ولكن الرجل الكهل لم يكن من الغفلة بحيث يغيب عنه معنى تلك اللمحات الغامضة والإشارات المكبوتة التى بدت من ولده حين أخذا فى الحديث عن بعض ما كان هنا وهنالك فى أثناء تلك الغيبة الطويلة . . .

* * *

ـــ إن عتيبة قد بلغ مبلغ الرجال يا سبيكة !

ـــ نعم !

ـــ ويرى من حقه أن يؤوى إليه زوجة !

ـــ نعم !

ـــ وتغلبك على أمومتك أمٌّ أخرى . . .

ــ تخفُ تبعاتى إذن !

ــ أتؤمنين بما تقولين يا سبيكة ؟

ــ كل الإيمان !

ــ وإذا لم يجد عندها ما يلتمس كل رجل فى امرأته من حنان الأمومة وعطف الزوجة وإيثار الحب ؟ . . .

ــ لن يفتقد عتيبة عند زوجه شيئاً من ذلك !

ــ تعرفينها إذن ؟

ــ نعم !

ــ حدّثك بخبرها ؟

ــ حدثتنى عيناه دون لسانه !

ــ أهى نوار بنت عمه ؟

ــ من حدثك ؟

ــ حدثتنى عيناه كذلك ؟

ــ وبماذا أجبته ؟

ــ غضضت طرفى واصطنعت الغفلة !

ــ ولِمَه ؟

ــ أردت أن أستنبئ عينيها قبل أن آخذ فى الحديث معه !

ــ ولكن عينيها لا تتحدثان إلى أحد بشىء !

ــ فكيف عرفتِ إذن أنها تحبه ؟

ــ إن عيون النساء أقدر على الغوص فى أعماق النفوس والكشف عن خبيئاتها !

ــ وغاصت عيناكِ فى أعماقها وكشفتا عن خبيئتها ؟

ــ ورأيت صورته فى أعمق الأغوار من قلبها ، ولكن إطاراً أسود يمسكها ويلقى عليها ظلا كريهاً ؟

ــ لست أفهم ما تعنين يا سبيكة !

ــ إن أمها لا تريد أن يكون زوجها فتى هجيناً يتدسس إليه عرق من الروم الذين أيتموها جنيناً وأيَّموا أمها شابة !

ــ ومن أنبأها أن عتيبة يمتُّ إلى الروم ؟

ــ لم ينبئها أحد !

ــ فكيف عرفت إذن ؟

ــ ذاك يوم جاء يسألنى عن نسبى !

ــ قد وهمتِ يا سبيكة !

ــ وشىء آخر . . .

ــ ماذا ؟

ــ كلمة لا أقولها . . .

ــ بل قوليها . . .

ــ لقد حدثتنى أمها ذات يوم أنها لن تزوج فتاتها إلا لفتى يمهرها تاج بطريق رومى !

ـ ما أرخصه مهراً !

ـ يقتله ويحمل إليها تاجه !

ـ فهمت !

ـ ويسوق إليها مع هذا المهر جارية من بنات البطارقة !

ـ وفيم هذا الغلوّ ؟

ـ تريد تثأر لأبيها !

ـ ولكن أباها لم يمت !

ـ ماذا قلت ! . . .

لم يكن النعمان يريد أن يفضى إلى أحد بذلك السر ؛ فإنه لم يطب له عيش منذ حمله ؛ وليس يريد أن يشق على أحبائه بتحميلهم من ذلك ما لا يحتمل هو ؛ ثم إن أمر أخيه لم يزل حدساً لا يعرف أين تكون آخرته ، أإلى لقاء سعيد أم إلى خيبة أشدّ مرارة من ذلك الحاضر المر ؛ فلم تكد تجرى على لسانه تلك العبارة وتتبعها امرأته بالسؤال حتى فاء إلى نفسه واستدرك :

ـ أعنى أن أباها لم يعرف أحد أين ذهب ؛ فمن أين لها أن الروم قتلته ؟

ـ كذلك تزعم !

ـ ولكن هذا الزعم لن يحول بين قلبين قد تعارفا فائتلفا

فأضمر كل منهما لصاحبه مثل ما يضمر لنفسه !

— وذلك المهر ؟

— دعى ذلك إلى إبانه !

* * *

لم يودع النعمان زوجته وولده فى هذه المره قلقاً حيران قد توزعته التبعات ؛ فقد خلف على أهله فى هذه المرة رجلين يقومان بأمرهم ؛ هما عتيبة ابنه وبشير ابن أخيه ؛ وقد كشف لزوجته عن ذات صدره فى أمور لم يكشف لها عن مثلها من قبل ؛ وتحدث إلى أمه وامرأة أخيه وولديها أحاديث ذات بال فى شئون شتى ؛ ولم يصرِّح بكل ما فى نفسه ، ولكنه مهد تمهيداً لبعض الأمر ووضع فى الأرض الطيبة بذرة يرجو لها النماء . . .

ثم وثب إلى ظهر فرسه ومضى . . .

وكان فتى وفتاة يتبعانه بأعين دامعة وقلباهما يجفان ؛ ثم لم يكد يغيب الراكب المغذُّ حتى التقت أعينهما فى نظرة طويلة ، ثم أنغضت الفتاة رأسها وأنغض الفتى ، واتخذا طريقهما صامتين إلى الدار !

١٠
قبر على الطريق !

لم تزل الغنائم والأسلاب والأسارى تتدفق على الثغور الإسلامية إثر كل صائفة وشاتية ، قد ازدحمت بها الأسواق وقلت فيها الرغبة ، حتى ليباع مطرف الخز بدراهم ، وتشرى السبيّة من بنات الأمراء والسادة بدينار ؛ على أن أعظم ما أفاء الله على المسلمين فى تلك السنين من غنائم الحرب ، ما عاد به موسى بن نصير قائد جيش المغرب — إلى الوليد — من غنائم الأندلس .

هذا موكبه يدخل دمشق فى سنة ٩٤ فيذهل الوالدة عن ولدها ويلهى الصبى عن طعامه وشرابه :

ذلك أمير الركب موسى بن نصير فى وشيه وديباجه ؛ يتبعه ثلاثون غلاماً من أولاد ملوك الأسبان على رءوسهم التيجان ويلبسون الثياب مطرزة بخيوط الذهب مرقشة بفصوص الجوهر ، يسعى بين أيديهم المئات من غلمانهم وخدمهم وحشمهم كأنهم فى موكبهم الملوكى بطليطلة ؛ يتبع أولئك عجلات تجرها

الدواب ولا تكاد ، قد رص عليها ما لا يحصى من أحمال الذهب والفضة والجوهر والياقوت والطنافس المنسوجة بقضبان الذهب المنظومة باللؤلؤ الغالى والجوهر المثمن ؛ يتبع ذلك عجلات أخرى قد تفسخت من ثقل ما تحمل ، عليها مائدة سليمان بن داود قد نقلت من حيث كانت فى طليطلة إلى عاصمة الدولة فى دمشق ، وكانت من خالص الذهب والفضة وعليها ثلاثة أطواق من لؤلؤ وياقوت وزمرد ؛ يتبع كل أولئك موكب الأسارى وعدتهم أربعون ألفاً من أبناء الأسبان .

ذلك كله هو بعض الخمس مما اغتنم موسى بن نصير فى حرب الأندلس ؛ فكم جملة ما حصَّل من السبايا والأسارى والمغانم !

* * *

قال مسلمة للنعمان بن عبيد الله :

ــ أتذكر ما قال ذلك الراهب يا أبا عتيبة ؟ فقد رفع سليمان بن داود الغطاء عن المائدة للضيفان ؛ أفلا تظن بعد هذا أن موعد المأدبة قد حان ؟

قال النعمان :

ــ صدق الراهب وبرّ !

ــ بل كذب وفجر ، وإن وافقه القدر !

وصمت مسلمة برهة ثم أردف :

— وسأخرج إلى الحجاز فى عامى هذا فأؤدى الفريضة ، ثم أرجع فأعد للغزو عدته ؛ لا أنتظر سبعمئة ولا سبعين ولا سبعة . ليس موسى بن نصير ومولاه طارق بأوسع ذرعاً من مسلمة ؛ فسنفتح القسطنطينية وننفذ منها إلى الأرض الكبيرة قبل أن يجاوز موسى بن نصير جبل الزهرة إلى أرض إفرنسه ؛ وتشهد دمشق موكباً آخر قريباً يُنسى أهل الشام موكب موسى ابن نصير ويلهيهم عن مائدة سليمان بن داود !

* * *

كان عهد الوليد بن عبد الملك خليقاً بأن يطول ، فقد ولى الخلافة ولم يزل فى باكر الشباب ؛ وقد عمر أبوه عبد الملك وجده مروان حتى جاوزا الستين ؛ ولكن بنى عبد الملك كثير ؛ وكأن كلا منهم قد استقر فى وعيه الباطن أن من حقه أن يجلس فترة من عمره على عرش عبد الملك ، فلولا بقية من الحفاظ على العهد — أو لعلها خشية افتراق الكلمة — لوثب بعضهم على بعض يستبقون عرش الخلافة ؛ فكأنما اقتضت حكمة الله ألا يعمّر الوليد طويلا من أجل ذلك . . .

على أن الوليد كان على نية الغدر ، فلولا أن الأجل أعجله عن مأمله بجعلها وراثة لولده دون أخيه وولى عهده سليمان ؛

وكان يؤازره على هذه النية طائفة من أمرائه وبطانته وقادة جنده ؛ فلما بغته الموت وولِيها من بعده سليمان بن عبد الملك ، كانت أشياء تحيك فى صدره من هؤلاء الأمراء والقادة وبطانة الخليفة الراحل . . . وكانت أشياء تحيك فى صدورهم كذلك ؛ ولكن مسلمة بن عبد الملك — كما قال أبوه — كان مِجَنّ هذه الدولة ، فردّ سيوفاً — كانت مشرعة — إلى أغمادها ، وبصق على الفتنة فانطفأت !

* * *

وتهيأ مسلمة للحج ، ففرق أصحابه على الثغور ، وعقد الألوية لأمراء الصائفة ، ووزع الأعطيات فى الجند ؛ ثم سار فى موكب فخم ضخم على ظهر البادية إلى الحجاز ، يصحبه النعمان بن عبيد الله . . .

ونزلوا ذات يوم للقيلولة فى بعض مراحل الطريق ، ثم نهضوا يستأنفون الرحلة ؛ وكان بالنعمان فى ذلك اليوم وجع يثقل به فلا يكاد ينهض ، ولكنه لم يطب نفساً بالتخلف عن صحابته ، فتحامل على نفسه حتى ركب ، وأسلم زمام ناقته إلى الحادى ، ثم أخذته إغفاءة بعد طول الأين ، فمال برأسه على قتب الراحلة ، وسبحت به الأحلام فى بحر بعيد الشاطئ ، فانكشفت له صور من الحياة لم يرها من قبل ولم تخطر

له فى وهم ولا فى أمنية ! . . .

ثم نشط من إغفاءته هذه معافى خفيف الحركة ، ولكن رأسه مما ازدحم فيه من الأوهام والصور لا يكاد يثبت بين كتفيه . . .

واستمر الركب فى سراه على ظهر البادية والحداة يوقعون أغانيهم فى هدوء الليل فترجّع الصخور صداها عذباً صافى الرنين كأن موسيقى تعزف وراء تلك التلال التى تكتنف طريق القافلة . . .

وامتلأت نفس النعمان شعراً بليغاً رائقاً ، ولكن شفتيه لم تلفظا بيتاً ولم يتحرك لسانه بقافية ، ثم استحالت هذه العواطف الشاعرة دموعاً فى أجفانه وتأججت ناراً فى رأسه ؛ وكان نسيم الليل بارداً بليلا فحبس فى عينيه تلك الدموع ولكنه لم يطفىء الوجد الملتهب فى صدره والنار المشتعلة فى رأسه ؛ وبسط صدره ورفع أنفه يعب الهواء عبًّا ولكنه لم يرو من ظمأ أو يبترد من غلة ؛ واستحث راحلته حتى تقدمت فحاذت راحلة أمير الركب مسلمة بن عبد الملك ، فهمّ أن يتحدث إليه حديثاً ثم أمسك . . .

والتفت مسلمة إلى حيث كان النعمان فرآه فعرفه فبدأه محيياً :

ـــ طابت رحلتك يا أبا عتيبة !

ـــ طابت لك الرحلة والإقامة يا مولاى !

وكان مسلمة قريب الإفاقة من إغفاءة حالمة مثل إغفاءة صاحبه ، قد رأى فيها رؤيا وانكشفت له صور من ماضيه وحاضره وصور أخرى لم يرها من قبل؛ وكان النعمان يصحبه فى كل مراحل الرؤيا ؛ فلم يكد يفيق من إغفاءته ويرى النعمان إلى جانب راحلته حتى أخذه العجب ، فقال وفى صوته نبر غريب :

ـــ لأمرما رأيتك إلى جانبى الساعة يا أبا عتيبة !

ـــ لقد رأيت رؤيا يا مولاى فرغبت . . .

ـــ رؤيا ؟ . .

ـــ نعم ، وكان الأمير معى . . .

ـــ معك !

ـــ أعنى أننى كنت معه . . .

ـــ نعم ، نعم !

ـــ ورأيتك تضم إليك شاباً فيه ملامح من أبيه فتتملاه طويلا ثم تفيض عيناك بالدموع . . . ولم أكن معكما بعد ذلك ولكنى رأيت كل ما كان وعرفت . . .

قال مسلمة كالذاهل :

ـ نعم ، نعم ؛ ولكن كيف حدث هذا ؟ . . .

ـ قد رأيت . . .

ـ عرفت . . . ولكن كيف اقتحمتَ عليَّ غفوتى فرأيتَ ما رأيتُ ؟ . . .

ـ وى ! . . . ورأى مولاى مثلى هذه الرؤيا ؟ . . .

فاء مسلمة إلى نفسه ولم يكد ، فقال مستدركاً :

ـ ثم ماذا يا نعمان ، فإن حديثك لعجيب !

ـ حسبت مولاى قال إنه رأى مثل رؤياى !

ـ بل عجبت أن تكون معى وأكون معك ، فى اليقظة والمنام . . . إن بيننا نسباً يا أبا عتيبة ! . . .

ـ وكذلك تراءى لى . . .

وهمَّ لسان مسلمة أن يسبقه ثانية إلى ما لا يريد أن يصرح به ، فأمسك وترك النعمان يقص رؤياه ، لا يزيد على أن يقول له بين الحين والحين :

ـ هيه يا أبا عتيبة ! . . .

ومضى النعمان فى قصصه :

ـ ورأيت ولدى عتيبة على رأسى وقد اخضلَّت عيناه بالدمع ، وكانت أمه سبيكة وراء ظهره ، وكان على وجهها ستر رقيق تجول عيناها من ورائه ؛ وكان مجلسك يا مولاى إلى

يمين فراشي ، ورأيت عيني سبيكة تستقران على وجهك ، ورأيت عينيك تستقران على وجهها ؛ فثار دمى غيرة وحنقاً — ومعذرة إليك يا مولاى — وهممت أن أنهض ، ولكن جسدى كان قد ناله يبس الموت ؛ وهمَّ لسانى أن ينطق ، ولكنه لصق بفكى ؛ وكأنما كنت أرى بغير عينين ، فقد كانت أجفانى مثقلة قد أطبقت واشتبكت أهدابها ، ولكن المنظر مع ذلك لم يزايلنى : كانت عيناك مستقرتين على وجهها ، وعلى شفتيك كلمات أراها ولا أسمعها ، وبعض الكلام يُرى ولا يُسمع ؛ ثم ملتَ علىّ فقبلت جبينى وانحدرتْ على خديك دمعتان ، وسمعتك تقول : هوِّن عليك يا أبا عتيبة ، إن بيننا نسباً وصهراً . . .

وكانت دمعتان تنحدران فى تلك اللحظة على خدى مسلمة ، وقد مال على النعمان كأنما يهم أن يقبله ، لولا بُعد ما بين الراحلتين ؛ ثم قال وصوته يختلج :

— هيه يا أبا عتيبة !

— وخففتُ من ثقل ، وحلقت بعيداً ، وغاب عنى منظر السماء والأرض ، ثم فئتُ إليك ؛ ورأيتك هذه المرة فى خيمة من ديباج قد أقيمت فى واد أفيح قد انبسط الزرع فيه على مد البصر وانتثرت فيه بيوت من خشب تسرح حواليها قطعان

من الجاموس والغنم ؛ وكأنما سمعت الأذان والتكبير فى هذه البيوت المنتثرة بين المراعى الخصبة ، فعلمت أننى فى أرض مُسلمة وأنك صاحبها ؛ فإن صدقتْ رؤياى يا مولاى فتلك بضعة من أرض الروم مما يلى القسطنطينية حيث ينتهى خليج أبى أيوب ؛ لقد نزلتُ هذه الأرض ذات مرة فى بعض الصوائف ضيفاً على أبى أيوب ، فأطعمنى من ثمراتها وسقانى وأظلّ مقيلى !

كان مسلمة منصتاً لحديث صاحبه ، وصاحبه مسترسل فيما يقص من رؤياه :

ـ ورأيتك فى خيمتك هذه التى وصفت ، وقد سيق إليك أسارى من الروم فأمرتَ بأن تُضرب أعناقهم ، ومثلتْ سبيكة لعينىَّ فى تلك اللحظة قد حالت بينك وبين ما أردت أن تسفك من دمائهم ، فنولتها العفو عنهم ونولّتهم العافية ! . . .

وكان بدن مسلمة يختلج وهو يقول وصوته لا يكاد يبلغ أذنيه :

ـ هيه يا أبا عتيبة !

ـ ثم رأيتك فى الرقة ؛ وكان ثمة أخى عتبة قد جلس بين ولديه بشير ونوار ، ورأيتك تدنى عتيبة ولدى منك فتضمه إليك وعلى شفتيك كلمات لم أسمعها ولم أرها ، وتُفيض برك

على أخي وولدي وأهلي جميعاً لا تستثني منهم أحداً ؛ ثم تمضي وعلى شفتيك كلمات لم أسمعها ولم أرها كذلك . . .

ـ ثم ماذا يا أبا عتيبة ؟

ـ ثم أراني وإياك على راحلتين في أرض البلقاء ، نقصد ذلك الدير الذي لقينا فيه الراهب ذات يوم فحدثنا ؛ ولكننا نجد الراهب قد مات ، فنرجع محزونين وأنت تقول : قد انقطع الوحي منذ محمد ؛ وما صدق الراهب ولا بر ، بل كذب وفجر ، وإن وافقه القدر ؛ ولولا علالة نفس تستشرف إلى معرفة ما استسرّ في غدها من غيب الله ما غبّرت قدميّ في هذه البادية ألتمس إلى التسلية سبباً وأنشد راحة نفس !

ـ ثم ماذا يا أبا عتيبة ؟

ـ ثم أفقت من إغفاءتي فإذا أنا على هذا الطريق في ركب الحاج إلى مكة ، قد شرفني مولاي بصحبته وبسط لي معروفه وبرّه !

ـ ذاك حقك علينا يا أبا عتيبة ؛ ولكن ما شأن ولدك عتيبة هذا وخبره ، فقد شوّقتنا إليه يا صاح !

ـ فتى يخطو إلى الشباب ، قد خلف أباه على أهله ، وحفظ عنه الولاء لأميره ؛ فهو غلامك يا مولاي وإن لم يكن له حظ الرؤية وشرف المصاحبة !

ـ فقد صار له علينا الحق إذن أن نثبته فى ديوان الجند ، وأن نقدر له الأعطية ونعفيه من عبء الجهاد ، حفاظاً لعهد أبيه ، واعترافاً بما أبلى فى الحرب وما لا يزال يبلى . . .

ـ بورك لك يا مولاى !

ـ وبورك لك يا أبا عتيبة !

ـ ولكن هذه الرؤيا التى رأيت . . .

ـ اكتمها يا نعمان فلا تقصصها على أحد ، حتى ندخل المدينة فنلتمس ابن سيرين فى مسجد رسول الله فنقصها عليه فنسأله تعبيرها ؛ وإنى لأرجو أن تكون خيراً بُشرت به !

وانسرح مسلمة فى واد سحيق والهواجس تصطرع فى رأسه ، وانسرح النعمان فى واد آخر . . .

هذه الرؤيا التى قصها النعمان على مسلمة لم تكن غريبة عليه ؛ لقد تراءت له فى إغفاءته تلك القصيرة كما تراءت لصاحبه وكما قصها عليه ؛ ولو كانت أضغاثَ أحلام لما تراءت فى صورة واحدة لرجلين قد اختلفا نفساً وتباعدا آمالا وتباينا فى أسلوب العيش وإدراك صور الحياة !

وخطرت فى رأس مسلمة صورة أمه ورد ، ثم غابت فى حواشى الظلام ، وخفق قلبه خفقة ؛ لقد خلّفها فى دمشق

مريضة ؛ أتكون الآن فى اللحظة التى تذكر فيها كلٌ أم ولدها ، وولدها بعيد قد لفه الليل فى مجاهل البادية ليس له سبيل إلى لقائها ؟

وضاق صدره ، ولكن نسيم الليل الهادئ لم يلبث أن رده إلى نوع من الهدوء يشبه الاستسلام ؛ فاطّرح كل ما يصطرع من الأوهام فى رأسه وأقبل على ذكر الله مطمئنًّا راضياً مؤمناً بقضاء الله وقدره !

١١

لبيك أبا أيوب !

وعاد ركب الحاج من المدينة ولم يكن فيه النعمان ، فقد حضره أجله فى مكة قبل أن يحل من إحرامه وقبل أن يدخل المدينة ليقص رؤياه على ابن سيرين ويعرف تأويلها ؛ ولم يقصها عليه مسلمة أو يلتمس لقاءه ؛ فقد كان من رزئه بصاحبه فى هم ، وكان من الرغبة فى سرعة الرواح إلى دمشق ليرى أمه بحيث لم يمكث فى مدينة الرسول إلا بمقدار ما زار ووفى النذور وفرق الأعطيات ؛ ثم نادى مناديه فى القافلة بالرحيل !

وبلغ دمشق ، ولكنه لم ير أمه ؛ فقد ودعت أمه دمشق وتركت دنياها جميعاً قبل أن يعود مسلمة ولدها من حجته !

وقعد مسلمة أياماً يتقبل العزاء ؛ ولكنه لم ينس منذ أول لحظة هبط فيها الحاضرة أن عليه حقّاً لرفيقه الذى خلّفه تحت الجنادل فى صعيد مكة ؛ فأرسل رسولا إلى ولده عتيبة فى الرقة ، وأرسل معه لأسرة الشهيد مالا وأحمالا . . .

* * *

كانت جيوش الفتح قد بلغت شأواً بعيداً فى الشرق والغرب ، قد قوّض جيش المغرب عرش الأسبان وحاز الأندلس من أطرافها ، وأخذ يتهيأ للزحف شرقاً نحو بلاد إفرنسه وما يليها من أرض الروم ؛ وبلغت جيوش المشرق قزوين وجبال القبج ونفذت إلى شواطئ بحر بنطش « البحر الأسود » ؛ واتخذ أسطول العرب قواعده فى ثغور بحر الروم يتهيأ منها للوثبة ، ولا تزال بعض سفنه تغدو وتروح على بحر بنطش وخليج القسطنطينية فتصيب من ثغور الروم غنائم وأسرى وسبايا ؛ وما تنفك قوات الفدائيين من العرب المتطوعة تغير على أطراف بلاد الروم تشعّث فيها وتدك حصونها وتنشر بين أهلها الرعب والفزع . . .

وقد عجزت جيوش الروم عن صد هذه الغارات العربية

المتتابعة على البر والبحر ، وأخذوا بالرعب عن تدبير أسباب الدفاع عن بلادهم ، فساءوا رأياً فى القياصرة والبطارقة والأمراء وقادة الجند ، ووقعوا فى اضطراب وفوضى ولجاج عنيف ، فلا يكاد يستقر على العرش قيصر من القياصرة حتى يبادروا إليه فيخلعوه فيقتلوه أو يسملوا عينيه أو يجدعوا أنفه وينفوه إلى جزائر البحر أو سهول القريم . . .

وخلا عرش القسطنطينية من قيصر . . . وسنحت الفرصة ليضرب العرب ضربتهم الحاسمة !

وقال أنسطاثيوس الصالح كاتم سر القيصر المخلوع :

— قد والله أوشك العرب أن ينالوا منالهم ويملكوا البر والبحر والسهل والجبل ؛ وقد غلب أسطولهم على البحرين ونفذ إلى الخليج ووطئت جنودهم ساحل « أبيدوس » ، وكأنى بهم قد وثبوا غداً إلى « بيزانت » و « كيلس » فنقبوا الأسوار أو تسلقوها كالجن فإذا هم بين ظهرانينا لا يردهم أحد ؛ وكأنى بمسلمة على رأس جيشه قد وطئ بلاط قسطنطين وحطم تاجه ودنس « أيا صوفيا » بنعله وكبَّ تمثال العذراء على وجهه !

قال قسطنطين بطريق أبيدوس :

— بعض هذا أيها الأمير ؛ فوالله لا ينالون منا منالا وفينا عرق بنبض ؛ فإلا يكن دفاعنا عن أرضنا وديارنا وحرماتنا ،

فليكن دفاعنا عن الصليب وتمثال العذراء !

قال ميناس القائد ساخراً :

ــ فهلا دافع قسطنطين عن عرضه إذ سبيت بنتاه وسيقتا تحت عينيه إلى الأسر فلم يستطع ردهما ولا يزال يبكى فقدهما بكاء يعقوب ، لا يكاد يخف لأخذ الثأر ؟

قال قسطنطين مغضباً :

ــ ألِي يقال هذا ؟ وما رأيت بطريقاً من البطارقة قد حمل بعض ما حملت من عبء الدفاع عن ذلك الثغر ؛ فإن كانت بنتاى قد سبيتا واحدة بعد واحدة فما قصرت فى الدفاع ولا عجزت عن الثأر ؛ وما طرق العدو أبيدوس مرة إلا خلف نصف جنده على ثراها صرعى أو أسارى مقرنين فى الأصفاد ؛ ووالله ما يخدم أهلى منذ بعيد إلا الأسارى من سادة العرب !

وكأنما أجدّ هذا الحديث ذكرى أليمة لقسطنطين ومس عاطفته حديثُ بنتيه ، فغلبه مدمعه !

وكان قسطنطين هذا بطريقاً شيخاً قد نيف على السبعين ؛ وكان له فى تلك الدولة سلطان وجاه قبل أن يتغلب على عرشها هؤلاء المتغلبون من السوقة والطغام وكل صاحب أيد وكيد ، من قيصر كان غناماً ، وآخر كان جابياً ، وثالث كان جندياً فى المؤخرة فبرز إلى الطليعة ثم ترقى إلى القيادة ووثب على

العرش ؛ فلما اضطرب حال القياصرة وضعفت مهابتهم فى نفوس الخاصة والعامة وآذنت الدولة بهذا الانحلال الخطير ، اعتزل البلاط وعزف عن السياسة وأوى إلى هذه البليدة على الشاطئ الأسيوى من خليج القسطنطينية ، فحشد فيها أهله وولده وقبيله ، واتخذها دار إقامة بعيداً عن مكايد الساسة ومؤمرات القواد وتقلبات الحوادث . . .

ولكنه وقد التمس الهدوء فى موطنه هذا الجديد لم يوفق إلى ما أراد ، فإن غارات الفدائيين من العرب لم تزل تناله من البر والبحر ؛ فلما كانت أيام القيصر قسطنطين بوغونات ، وحاصرت جيوش معاوية مدينة الروم فطوقتها براً وبحراً بالآلاف من السفن وعشرات الآلاف من الجند ، نزلت أبيدوس سريةٌ من سرايا العرب فأعجلت أهلها عن الدفاع وعاثت فيها عيثاً شديداً ، ففتكت وهتكت واحتملت أسارى وسبايا ؛ وكان فيمن سُبيت بنت قسطنطين نفسه ؛ وقد دافع البطريق البطل عن أهله وولده وبلده ما استطاع الدفاع ، حتى رد العرب على أدبارهم ، ولكنه لم يستطع أن يستخلص فتاته السبيّة ، وحُملت فيمن حمل من الأسارى والسبايا إلى دمشق . . .

وتتابعت غارات العرب بعد ذلك على هذا الحصن الصغير ، كل صائفة وكل شاتية ، ولكن قسطنطين لم يقصر فى الدفاع مرة . . .

فلما كانت أيام جوستنيان الثانى — بعد استباء بنت قسطنطين بعشرين سنة أو يزيد — وبدا للروم أن الدولة العربية فى الشام قد أشرفت على الانحلال — أيام عبد الملك — لما يتوزعها من أسباب الخلاف وما ينشب فيها من الفتن ، كان قسطنطين أول من كتّب الكتائب الرومية لاهتبال الفرصة السانحة ودعا الروم إلى التطوع للجهاد ؛ وكانت الفرقة التى ألفها من بنيه وبنى إخوته ومن شباب أبيدوس ، أولَ فرقة رومية وطئت ثغر أنطاكية وأوغلت فى أرض الشام . ثم كان الصلح بين عبد الملك وجوستنيان الثانى ، فارتد الروم مصحرين أو مبحرين إلى بلادهم ، ولكن قسطنطين لم يرتد حتى أصاب غنائم وأسرى مصفدين فى الأغلال يسوقهم إلى أبيدوس ؛ ولولا أن جوستنيان أمره فأغلظ فى الأمر لما عاد حتى يثخن فى بلاد العرب ويبلغ شيئاً من العلم عما آل إليه أمر ابنته التى استباها العرب منذ نيف وعشرين سنة ، ولكنه مع ذلك قد ارتد بأسارى يرجو أن يبقوا عنده رهائن إلى يوم قريب أو بعيد . . .

وكان الشاطئ الشمالى من خليج القسطنطينية قبلة الغزاة العرب فى كل غارة ، حيث يثوى أبو أيوب الأنصارى تحت أسوار القسطنطينية ، يهاجرون إليه لينزلوا عليه ضيوفاً فى داره

هذه التى اتخذها مثوى إلى يوم يبعث الله الموتى؛ فكانت أبيدوس لذلك طريقاً لهؤلاء الغزاة المغيرين، يبيِّتونها براً وبحراً فى الذهاب والعودة، ويصيبون من أهلها ويصيب أهلها منهم؛ فلم تنقطع الغارات عليها صائفة ولا شاتية، ولم يكف قسطنطين عن النضال!

ثم كانت غارة من تلك الغارات المباغتة، أثخن فيها العدو فى الروم إثخاناً شديداً واحتملوا أسارى وسبايا؛ وكان بين السبايا ابنة أخرى لقسطنطين، لم تنضج نضج الأنثى ولكنها جاوزت حد الطفولة... وافتلذ العرب فلذة أخرى من كبد البطريق المرزّأ...

هل كان البطريق قسطنطين يجاهد العرب منذ ذلك اليوم ثأراً لابنتيه السبيتين، أو ثأراً لوطنه وكفاحاً عن أمجاد قومه؟

من يدرى؟ ولكنه على أى حاليه لم يكف عن النضال!

ويعيره القائد ميناس بسبي ابنتيه، ويوشك أن يتهمه فى وطنيته، وفى شجاعته ومصابرته؛ فيدافع دفاع الغضبان، ثم لا يلبث أن يغلبه الدمع!...

يا للبطريق الشيخ! دريئة من درايا قومه يتلقى عنهم سهام العدو ففى كل موضع منه جراحة لم تلتئم، ويتهمه قومه بالجبن والخور!...

وابنتاه . . . أين ابنتاه اليوم ؟

أحظيّتان فى بعض بيوت الأمراء والسادة ، أم جاريتان ممتهنتان فى بعض بيوت الرعاع والسوقة ؟

أوَلدتا لبعض العرب جنداً يشهرون السيوف فى وجوه بنى الخال والخالة من سادة الروم ؛ أم آثرتا الموت على ذل الإسار أو آثرهما الموت ؟

أتذكرانه كما يذكرهما ويذكرهما معه الإخوة والأخوات وبنو الأعمام والعمات ؛ أم استبدلتا فى العرب أهلا بأهل وباعتا بالسيد والولد الأبَ والأم والإخوة والأخوات ؟

على ظهر أى البلاد تعيشان ، أو فى بطن أىّ الأرض قد سُوِّى عليهما التراب؟

ابنتا البطريق المعظم ، جاريتان قد انقطعت بينه وبينهما الأسباب . . . يا له من الفجيعة فى ابنتيه ، وياله من بذاءة بعض قومه ! . . .

قال أنسطاثيوس الصالح :

ــ هوِّن عليك يا قسطنطين ؛ فقد علم والله كلُّ رومى فى هذه البلاد بلاءك فى جهاد هؤلاء العرب ؛ فلا عليك من قول لم تحمل عليه إلا الغيرة !

* * *

وبويع أنسطاثيوس قيصراً ، فراح يحاول ما يحاول لتدبير أمر البلاد وتنظيم قوات الدفاع ، ولكن غارات العرب المتتابعة لم تدع له فرصة للتدبير ولا لتنظيم قوات الدفاع ، فنالوا منه ولم ينل منهم ؛ وتوالت هزائمه فى البر والبحر ؛ فاعتزل العرش إلى بعض الأديار حزيناً أسوان يلتمس فى الصلاة والدعاء بعض السلوان !

ووثب إلى العرش سوقىٌّ آخر كان جابياً للخراج فى بعض الأقاليم ؛ فلم تكن حال البلاد فى عهده خيراً منها فى عهد أسلافه ؛ واضطرب به الأمر وأحاطت به الأحداث . . .

وكان العرب وقتئذ يتأهبون للغارة الكبرى فى عهد سليمان ، تحت راية مسلمة ! . . .

* * *

كان سليمان بن عبد الملك فى بستانه ، قد رمى نفسه على الرمل بلا وطاء ، يبترد من حر ذلك النهار ، وإلى جانبه زنبيلان قد ملئا بيضاً وتيناً ، فهو يمد يده إلى زنبيل بعد زنبيل يأخذ من هذا ومن ذاك بيضه وتينة بعد بيضة وتينة ، حتى أتى على الزنبيلين وما شبع !

ثم ألزق بطنه بالرمل وهو يقول :

ـ ما أحبَّ إلىَّ هذه المنامة وأبردها فى هذا اليوم القائظ !

ثم أتوه بغدائه : جدى مشوى كأنه عكّة سمن ، ودجاجتان هنديتان كأنهما رألا النعام ، وعسٌ يغيب فيه الرأس قد امتلأ حريرة كأنها قراضة الذهب ؛ ثم صُف بين يديه ثمانون قدراً مختلفة الألوان . . .

واعتدل سليمان فى مجلسه وأقبل على الجدى المشوى فأتى عليه ، ومال على الدجاجتين يأخذ برجل واحدة بعد واحدة فيلقى عظامها نقية ، ثم جعل يقلع الحريرة بيده ويشرب ويتجشأ كأنما يصيح فى جب ؛ فلما فرغ من ذلك مال على القدور الثمانين يكشف أغطيتها قدراً بعد قدر فيأكل من كل منها لقمة أو لقمتين أو ثلاثاً . . .

ثم مسح يديه واستلقى . . .

قال له مسلمة :

ـ أمتعك الله يا أمير المؤمنين وأمتع بك ! . . .

ـ ويلك يا مسلمة ؛ فهل عندك من جديد ؟

ـ نعم ، فإن هذه الروم على ما ترى من الضعف واختلاف الأمر وهوان المنزلة ؛ ولم يبق ثغر من ثغورهم مما يلى بلادنا إلا وطئه جند العرب وجاسوا خلاله ، ولا حصن من حصونهم إلا شعّثناه حتى تطامن من شموخ واستبيح بعد منعة ؛ وإنى أرى الأوان قد آن يا أمير المؤمنين للضربة التى تدك

حصونهم وأسوارهم وتبيح أرضهم وحريمهم وتعلى كلمة الله فى تلك الأرض الكافرة !

— وعتادك وجندك ؟

— على الأهبة يا أمير المؤمنين ، عشرون ومئة ألف فى البر ، ومثلها فى البحر .

— وسفن الغزو ؟

— ثمانمئة وألف سفينة تطاود الموج ولا تنطاد فوقها السحب !

— والنار الرومية يا مسلمة ؟

— لن تنال منا منالا يا أمير المؤمنين أو توهن لنا عزيمة !

— وتلك الأسوار المملّسة لا يقف عليها الذر ، الشامخة قد ركبتها السحب ؟

— سيفتحون لنا الأبواب طائعين حين يضرّ بهم الحصار ، فلا تكون أسوارهم هذه إلا سجناً لهم لا يملكون منصرفاً عنه !

— ولكن الحصار لا يضرّ بهم من قريب يا مسلمة ، وعندهم من الزاد والأقوات ، ومما يمدهم به أمم النصرانية فى الأرض الكبيرة، وما يعاونهم به البلغار من غلات بلادهم، ما يطول معه الأمد !

— سنصابرهم حتى ينفد المدخور ، وينكل الصبور ، ويتسلل الجبان، ويسأم الأعوان ، وينقطع المدد !

– وشتاؤهم الذى يجمّد الأطراف ويوجب الكن ؟

– سنتخذ حول الأسوار بيوتاً كبيوتهم ، ومصانع خيراً من مصانعهم ، ونتخذها دار إقامة حتى يفتح الله علينا وتسقط فى أيدينا مدينة قسطنطين !

– وطعام الجيش وزاده ، والطريق إليهم طويل والبر موحش والبحر هائج ؟

– سيكون لنا هنالك زرع وضرع ، ومرعى وماشية !

– أراك يا مسلمة تحاول عظيماً من الأمر !

– كل عظيم يا أمير المؤمنين فأنت أعظم منه !

– الله يا ابن عبد الملك ؛ إنك لتنكر قدرك ، ولولا أن سبق إلىّ عهد أمير المؤمنين عبد الملك لكنت أحقّ بها وأهلها !

– ولكن الدولة عربية يا أبا أيوب ؟

– وأنت مسلمة بن عبد الملك !

– بل أنا ابن ورد !

– فهل ترى ولد عبد الله بن عمر قد نقص من قدره شيئاً أن أمه من بنات سابور ؟

– قدسمعتهم يمزحون فيقولون إنه أحق بعرش كسرى !

– فأنت إذن أحق بعرش قيصر !

– ها أنت ذاك قد قلتها يا أبا أيوب !

– والله لولا أنى لا أملك أن أخلع نفسى وأنضو قميصاً قد قمّصنيه خليفة رسول الله ، لرضيت طيّب النفس أن تجلس مجلسى على عرش عبد الملك ؛ وإنك لأعظم فى نفسى مهابة وأدنى إلى قلبى منزلة من ولدى أيوب !

– أمتعك الله به يا أمير المؤمنين حتى تبايع له بالعهد من بعدك ؛ إن أيوب ابن أمير المؤمنين لريحانة هذا البيت ، وإنى لأرجو أن يكون له شأن فى غده !

– طاب فألك يا أبا سعيد !

– وطاب عهدك ؛ إنك بأيوب لميمون الكنية ؛ فكأنى بك أردت أن يكون أبو أيوب الأنصارى أول من يبلغ أسوار القسطنطينية من المسلمين ، وأن يكون أبو أيوب الأموى أول من تفتح له بابها ، فيطأ بفرسه بساط قيصر ، ويحطم أصنام الشرك فى كنيسة أيا صوفيا ، ويجهر بالأذان فى أكبر بيعة من بيع النصرانية !

– طابت نفسى والله لحديثك هذا يا أبا سعيد ؛ وإنى لأرجو أن يكون ما قلت ؛ فخذ فى أسبابك منذ اليوم والله معك !

١٢
وفاء بذمة . . .

لو لم يسبق الأجل إلى ورد أم مسلمة لقرّت اليوم عيناً ؛ فسيبلغ مسلمة عرش قيصر ، ويطأ بساطه ، ويلبس تاجه ، وتدين له تلك البلاد جميعاً بالطاعة والولاء ؛ ولكنه يتلفت حواليه فلا يرى أمه ، ولا تراه أمه ؛ لقد فرغت من الدنيا قبل أن تكتحل عيناها برؤية ولدها مسلمة فى الموضع الذى كانت تأمل أن تراه فيه ؛ ولكنها إلا تره حية فستقر به عينها ميتة ؛ إنه لن ينكل أو يحور عن قصده حتى يتحقق له ذلك الأمل !

ولكن صورة أخرى تتراءى لعينيه : فتى عربى ، فى وجهه شحوب ، وفى عينيه زرقة وعمق ، ولصوته نبر عذب ، فيه مخايل من صديق له قد مات منذ قريب وغيّبته الصفائح فى البلد المحرم . . . وإلى جانبه امرأة منتقبة شابة تجول عيناها وراء ستر شفيف فتجدّ لها نظرتها ذكرى فلا يكاد يكف عن النظر إليها واستشفاف ملامحها وراء ذلك النقاب ؛ لا يخجله من ذلك أن ولدها الشاب إلى جانبها ، وأنها أرملة صديق قد مات منذ قريب . . .

تلك صورة قد رآها ذات مرة فى الحلم كأنْ قد أبصرها بعينين ، ثم سمع صديقه يقصها عليه كما رآها فوعاها بأذنين ؛ وها هى ذى تتخايل لعينيه الساعة يقظان فكأنما هى صورة فى إطار لا تزال تقع عليها العين مرة بعد مرة فلا تنكر من ملامحها شيئاً !

وتحضره إلى جانب هذه الصورة ذكريات أخرى وصور شتى وأحاديث متباينة ، فلا يكاد من اختلاط ذلك كله فى وهمه يحقق شيئاً مما يرد على خاطره . . .

لقد كان لأمه معه ذات يوم حديث ذو شأن لا يزال صداه فى نفسه ؛ فإنه ليذكره كلما خطرت القسطنطينية فى باله أو أزمع مع الروم حرباً . . .

وكان له ولصاحبه النعمان بن عبيد الله حديث آخر مع الراهب الشيخ فى الدير المنفرد فى أرض البلقاء ، لا يزال صداه يمتزج بصدى حديثه إلى أمه . . .

وتلك الرؤيا . . .

ثلاث صور تتزاحم وتلتحم وتتماسّ أطرها فلا يبين منظر من منظر ، ولكن وراء اجتماعها صورة أخرى لم ترها عيناه بعد ... فلعله يراها أو يرى تأويلها حين يدخل القسطنطينية ظافراً على صهوة حصانه !

إن الحقيقة الناصعة التى ينشدها من وراء هذه المعميات قد تمزقت الصحيفة التى تقص خبرها ، فشطرٌ منها فى القسطنطينية وشطر فى يده ؛ فإذا لم يوافق هنالك شطرَ الصحيفة التى يجد فيها تمام ما يعلم ، فلابد أنه واجده عند الذين يتوارثون علم الملاحم من رهبان الروم فى بعض كنائس القسطنطينية !

* * *

وكان عتيبة بن النعمان فى لهو الشباب حين جاءه نعى أبيه ؛ فغمه ذلك غمًّا رده فى شبابه إلى الكهولة !

وبكت الأم العجوز ما شاءت أن تبكى ، فذكرته وذكرت أباه وذكرت أخاه عتبة ؛ ثم فاءت إلى الصبر والرضا بقضاء الله ؛ راجية فى حفيديها بشير وعتيبة ما كانت ترجو عند ولديها اللذين مضيا وخلفاها فى وحدتها هذه الموحشة تجتر ذكرياتها السعيدة والمؤلمة وأحزانها المتعاقبة !

وبكت زوجه حتى غارت عيناها وزادت نحولا وشحوباً ؛ وضاعف الحزن انقباضها عمن معها فى الدار فانطوت على ما فى نفسها من آلام يعرف منها من يعرف طرفاً ولكن سائرها لم يطلع على غيبه أحد !

وبكت نوار ؛ فقد كان النعمان أباها وعمها جميعاً ، وقد حمل على كتفيه عبء الثأر لأبيها فلم يزل ينشده فى كل مهلكة

حتى أدركه أجله . ثم إنه إلى ذلك كله أبو عتيبة . . . وحسبها ذلك سبباً إلى الحزن لا تغيض مدامعه ! . . .

وسفرت نوار عن وجهها منذ جاءها النبأ بمصرع عمها النعمان ، فقالت لصاحبها :

ــ قد مات أبوك يا عتيبة وعليه نذر لم يتهيأ له الوفاء به !

ــ نعم ، الثأر لأبيك برأس بطريق من بطارقة الروم ، أو الثواء تحت أسوار القسطنطينية في ضيافة أبي أيوب !

ــ وتريد وفاءً بهذا النذر يا عتيبة ؟

ــ وأزيد عليه يا نوار أن آتيك بتاج البطريق وأخدمك ابنته !

وتضرجت وجنتاها وقد فهمت ما يعنيه ؛ فقالت وقد غضت من بصرها :

ــ الثأر أولا يا عتيبة !

ــ بل نذر أبي يا نوار ، أما ثأر أبيك فلولا نذرٌ مات النعمان ولم يف به لكان أخوك بشير جديراً بأن يحمل عبأه !

وساءها أن يعيِّرها بأخيها وضعف همته وإيثاره الدعة والبطالة ، ولكنها لم تغضب ؛ فقد سرَّها أن يكون عتيبة بحيث أراد أن يصف نفسه ؛ فقالت :

ــ النذر والثأر جميعاً يا عتيبة ؛ فذلك ميراث أبيك !

– لو لم يكن ميراث أبى لكان أمراً من نوار واجب الطاعة ؛ وما يكون لى أن أنكص أو أروِّى فى أمرى يا ابنة العم ، لو أنك أمرتينى أن أثب إلى النار الموقدة لأقبس لك منها جذوة ملتهبة ، أو أخوض فى بحر من الدم لأخرج لؤلؤة حمراء ، أو أتطوّح فى مهاوى الريح لأرد إليك صدى أغنية عذبة ملأت نفسك فلا تريدين أن يفلت صداها فى الزمن !

– أكذلك أنت يا عتيبة ؟

– بل اسألينى يا نوار : أكذلك أنا فى نفسك يا عتيبة ؟

– وتكتم عنى ؟

– وأكتم عنك يا نوار ، ولكنك تعرفين وتصرين مع ذلك على الكتمان !

– ألم تكن تعلم . . . ؟

– كنت أعلم علم نفسى يا أخية ، وأهابك أن أسألك عن علم نفسك !

– فقد علمتَ اليوم !

– وقد علمتِ أنت يا نوار !

– ليتنى لم أعلَم !

– هل ساءك إذن أن تعرفى أننى أحبك !

– بل ساءنى أن أعلم حين أنت على أهبة الرحيل عنا يا عتيبة !

ــ ولكنك أنت التى تريد أن أرحل لأدرك ثأراً وأوفى نذراً و . . . .

ــ وماذا يا عتيبة ؟

ــ وأجمع مهراً يا نوار !

ــ ولكن بقاءك أحبُّ إلىّ !

ــ وأحبُّ إلىّ يا نوار ؛ ولكن الدم المطلول يطلب واتره !

ــ قد أخذ أبوك بوتره ، وقتل بأخيه رجالا وجندل أبطالا وأطاح برأس رءوساً !

ــ ولكنه لم يحمل إليك رأس بطريق وتاجه !

ــ ولكنى أخاف عليك يا عتيبة !

ــ فلست إذن أهلا لحبك يا نوار !

* * *

ثم انقلب عتيبة إلى حيث كانت أمه سبيكة :

ــ أمى !

ــ ولدى عتيبة !

إننى ذاهب !

إلى أين يا عتيبة ؟

ــ إلى حيث ذهب عمى ، وأبى !

ــ ولمن تدع أمك يا عتيبة ؟

— تعالى معى إن شئت ، فلن تقعد بى أمومتك عن الجهاد !

— ولكن الأمهات لا يصحبن أبناءهن إلى الحرب ؟

— فما هؤلاء النساء وراء كل جيش محارب ؟

— زوجات لأزواجهن ، وأخوات لإخوتهن ؛ يدفعنهم بحرارة الحب إلى الاستبسال فى النضال ليكسبوا الحظوة ؛ وما أنا وذاك يا عتيبة وقد جاوزت تلك المنزلة فليس إلىّ مشتاق ولا وامق ؟

— تعوِّقيننى إذن ؟

— ولِمَ ؟

— لأنك . . . لست أدرى !

— بل تدرى شيئاً تحاول كتمانه ؟

— فلِم تعوِّقيننى إذن ؟

— لأننى أمُّك !

— وكل هؤلاء المجاهدين لا أمهات لهم ؟

— ولأننى فى هذا الحى من العرب لا عم لى ولا خال !

— أراك لا تحاولين الكتمان !

— ماذا تعنى يا عتيبة ؟

— أنت تكرهين أن أشرع فى وجه الروم سيفاً !

— ولمه ؟

— لأن لك فى الروم عمًّا وخالا !

— إننى أملك يا عتيبة !

— قد علمت !

— وذلك كل نسبى !

— وترضين أن تنتسبي إلى جبان ، لا يخف لثأر عمه ، ونذر أبيه . . .

— ومهر امرأته ! . . .

— قد عرفتِ إذن ؟

— ومن أجل هذا منعتك يا عتيبة !

— من أجل أنك لا تحبين نوار !

— بل إننى أحبها وأرى ولدى بها أسعد زوج !

— ومن أجل ذلك تحولين بينى وبينها !

— بل أحول بينك وبين اقتحام المخاطر من أجل امرأة ؛ ليست هذه البطولة !

— فما البطولة إذن فيما ترين ؟

— ألا تطيع فيما تكره ، امرأةً تحبها ؛ وأعلى من ذلك مرتبة فى البطولة ، أن تقسرها على طاعتك !

— ولكننى لم أطعها !

— ففيم خروجك إلى الحرب إذن ؟
— وفاء بنذر ، وإدراكاً لثأر . . .
— وطاعة لأمر . . .
— بل عصياناً
— لأمرى ؟
— لأمر نوار !
— كيف ؟
— لقد منعتنى أن أخرج فعصيت !
— وى !
— وقسرتُها على طاعتى !
— لقد كان لك معها شأن يا عتيبة !
— نعم ، وسأعصيك كما عصيتها !
— تعصينى ؟
— نعم ، وأقسرك على طاعتى !
— وتقسرنى أيضاً ؟
— نعم ، لأننى أحبك يا أم !
— إنك لبطل يا عتيبة !
— لأنك أنت ولدتينى يا أماه !

— بل لأن أباك النعمان !

وشرقت سبيكة بدمعها فأخفت رأسها فى صدر عتيبة وأجهشت باكية !

١٣
نفير الحرب !

أروح إلى القصَّاص كل عشية
أرجِّى ثواب الله فى عدد الخطا !

قالت العجوز الثكلى :

— إنى لأجد ريح عتبة وأسمع رجع غنائه ؛ فانظروا لى من ذلك الذى يرجِّع هذا الصوت وإنى به لبعيدة عهد !

قالت نوار :

— ذاك عتيبة يا جدتى ، لا يزال منذ أيام يرجِّع هذا الصوت كلما غدا على المسجد أو راح !

— رحم الله أباه وعمه ، وبورك لى فيه وفى بشير ؛ لقد أذكرنى غناؤه أباك وعمك يا نوار ، إذ كانا يرددان هذا الصوت كلما غَدَوا على المسجد أو راحا ؛ فإن هؤلاء القصاص الذين

يغشون مساجد المصر للوعظ والتذكير ورواية الأخبار والنوادر ، ليوهمون من يغشى حلقاتهم من الفتيان ، أن يوماً فى مجلسهم ذاك خير عند الله من سبعين صلاة ؛ فلا يزالون يجتذبونهم بهذا الخيط الدقيق حتى يلزموا حلقاتهم ، ثم لا يزالون ينفثون فى عقدهم من سحر القول حتى ينسوا بنيهم وبناتهم وزوجاتهم ووالديهم جميعاً ؛ ويسوقونهم إلى المنايا باسم الجهاد فى سبيل الله !

ودخل عتيبة خفيف الخطا ، فسمع ، فقال :

ــ ماذا تقولين يا جدة ؟ أحرام أن نغشى المساجد ، وأن نستمع إلى القصاص ، وأن نخرج مجاهدين فى سبيل الله !

ــ لم أقل هذا يا بنى !

ــ فما هذا الذى سمعت من قولك ؟

ــ لقد قلت إن فى عتيبة ملامح من أبيه ، ومن صوته أيضاً . . . وكان أبوك ينشد هذا الشعر إنشادك كلما غدا على المسجد أو راح . . . ثم ذهب إلى الميدان البعيد ، كما ذهب أخوه من قبل ، ولم يعد ؛ طار على جناح شاعر ، ثم وقع . . .

ــ ولكن عتيبة سيطير ، فلا يقع !

ــ لقد هممتَ إذن ؟

ــ نعم !

ــ وتعرف سبيكة أنك ذاهب لحرب الروم ؟

ــ قد عرفتْ !

ــ وطابت بذلك نفساً ؟

ــ قد طابت نفساً ورضيت !

ــ حسبتها تأبى أن يشرع ولدها سيفاً لحرب الروم !

ــ ولمه ؟

. لأن . . . لأنها قد عرفت ما حرب الروم !

ــ لم أفهم !

ــ أعنى أنها كانت خليقة بأن تشفق عليك !

ــ عليّ ؟ . . .

وعلى غيرك !

ــ من تعنين ؟

ــ رجوت أن تشفق أمك عليك وعلينا ، من سوء ما ينالنا به فراقك من القلق والوحشة !

ــ بل عنيت معنى آخر يا أم !

ــ أى معنى ؟

ــ تسألينى ؟

ـ لقد ظننتني أضمر وراء كلماتي معنى غير ما فسرتُ لك ، فسألتك . . .

ـ بل إنك لتضمرين معنى آخر ! . . .

وكانت نوار صامتة تستمع إلى ما يدور بين الفتى وجدته من حوار بدأ رفيقاً هيناً ثم أخذ يعنف شيئاً بعد شيء حتى أوشك أن يكون خصاماً ؛ فقالت في رقة :

ـ إن جدتك لتعلم يا ابن عم ، ما تضم عليه أضلاعك من قلب كبير ، ولكنها تشفق عليك وتجزع لفراقك ؛ وإنك لتذكر ما قلت لك قبل أن تتحدث إليك جدتك ! . . .

فاعتدلت الجدة في مجلسها ونظرت إلى نوار قائلة :

ـ هل قلتِ له ؟

ـ حاولت يا أم أن أحول بينه وبين ما اعتزم ، فلم يستمع إلي !

ـ أكذلك يا عتيبة ؟

ـ نعم !

ـ ورضيتْ ، أمك ؟

ـ كانت أدنى إلى الرضا من نوار ، ومنك !

ـ وأذنت لك أن تشرع سيفك لحرب الروم ؟

ـ وأذنتْ لي طيبَة النفس !

— ولم يسؤها أن يفارقها ولدها إلى حيث تتوزعها الهواجس والهموم وتصطرع فى نفسها المخاوف ؟

— بلى ، قد ساءها ، ولكنها قد علمت أن ذلك حق البطولة على كل عربى !

قالت نوار :

— بل حق البطولة على كل أمٍّ عربية !

قالت الجدة :

— قد صدقت سبيكة وبرّت !

ثم أطرقت وهى تقول وقد جال فى عينيها الدمع :

— فاذهب مأجوراً يا عتيبة والله يكلؤك !

* * *

وقف عتيبة فى فناء الدار مشمِّراً حاسر الذراعين يشد متاعه إلى ظهر راحلته وهو ينشد :

وأشفق من وشك الفراق وإننى
— أظنُّ — لمحمول عليه فراكبه

فوالله ما أدرى أيغلبنى الهوى
إذا جدَّ جدُّ البين أو أنا غالبه

فإن أستطع أغلب ، وإن يَغلب الهوى
فمثل الذى لاقيت يُغلب صاحبه !

وكانت عينان دامعتان ترقبانه من وراء السجف حيث توارت فتاة موجعة القلب تراه وتسمع نشيده من حيث لا يراها أو يسمع نشيجها . . .

وبغتتها سبيكة فى موقفها ذاك ؛ فوضعت راحة على كتفها وهى تقول فى رقة وعطف :

ــ ما أنت هنا يا نوار وهو هنالك ؛ هلا تراءيت له لتشدِّى عزمه ساعة الفراق ؟

قالت الفتاه وأطرقت مستحية :

ــ خشيت أن يهن حين يرانى أو يرى فى عينىّ الجزع واللوعة !

وكان صوت آخر ينبعث من بعض غرفات الدار منشداً :

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه حَصانٌ عليها نظمُ درٍّ يزينها
نهته ، فلما لم تر النهى عاقه بكت فبكى مما شجاها قطينها !

ووضع الفتى ما كان بين يديه ورفع رأسه منصتاً ؛ ودلفت الجدة الثكلى إلى حيث كانت كنَّتها أم نوار جالسة تدندن ذلك الشعر وهى ترتق ثوبها ، فقالت لها عاتبة :

ــ عهدك بالغناء بعيد يا أم بشير ؛ فهلا أشفقت اليوم على الصبىِّ والصبية أن يسمعا غناءك هذا ؟

قالت أم بشير ولم ترفع إلى العجوز عينين :

ـ وماذا قلت ؟ لقد كان ذلك والله أحبَّ الشعرِ إلى عتبة حين يزمع رحلة !

قالت الجدة وهى منصرفة قد ضاقت نفسها بما سمعت من جواب :

ـ فقد رحل عتبة ولم يعد !

وسكن الصوت ، فعاد الفتى ينشد وهو يعالج أحماله :

وأشفق من وشك الفراق . . .

وخفّت إليه نوار معجلة قد سوت ثيابها وجففت دموعاً فى عينيها ، ثم استقبلته قائلة وقد اصطنعت الابتسام والمرح :

ـ ماذا سمعت من إنشادك يا عتيبة ؟ هلا كان قولك لنفسك :

أشوقاً ولما تمض بى غـــير ليلة
فكيف إذا خبّ المطىُّ بنا عشرا ؟

قال ومد يدين إلى يدين والتقت عينان بعينين :

ـ بالله أعيدى يا نوار ، فقد وقعتِ على ما كان يهجس فى نفسى ولا تلفظه شفتاى !

واختلجت يداه فى يديها ، فدفعهما إلى كتفيها ومال عليها بوجهه . . . فأفلتت من بين يديه وهى تقول مؤنِّبة :

ـ وكنتَ حريًّا أن تنشد :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم
دون النســاء ولو باتت بأطهار !

وثبت إلى الدار وخلفته فى الفناء مبسوط اليدين قد ذهل عما حوله من الزمان والمكان والناس ؛ ثم ترامى على بعض ما ازدحم فى الفناء من المتاع وأخفى وجهه فى راحتيه !

* * *

الناس جميعاً فى شغل بالتهيُّؤ لتلك الحملة العظيمة التى يجهز لها مسلمة ؛ كل ذى قوة من شباب العرب يرجو أن يكون له شأن فى هذه المعركة ؛ إن أبا أيوب الأنصارى يدعو ضيفانه إلى المأدبة العظمى فى رحاب قيصر ؛ القصاص فى مساجد الأمصار قد تأطّر الناس حولهم حلقات حلقات يستمعون إلى قصصهم مشوقين يود كل منهم أن يطير إلى الميدان بجناحين ؛ الشباب والكهول يهيئون أنفسهم لرحلة طويلة المدى بعيدة الأمد ، قد احتقبوا ما قدروا عليه من زاد وعتاد وكسوة تصلح للشتاء والصيف ؛ نساء الأمراء والسادة ينفضن الطيب والحلى عن غدائرهن يجعلنها فى بيت المال أعطيات للجند ؛ الزوجات والأخوات يغزلن وينسجن ويخبزن ويقددن ليهيئن لأزواجهن وإخوتهن كسوة ثقيلة وغذاء طيباً يدفع عنهم برد الشمال القارس ؛ الأمهات يصلين ويدعون ويصنعن لأولادهن

الرُّقى والتمائم ؛ الكواعب الحسناوات – وغير الحسناوات – قد خط الدمع على وجناتهن خطوطاً لا تزال مبتلّة أبداً ؛ الصبيان والبنات فى فرح ومسرة بما يرون حولهم من مظاهر النشاط ، لا يكادون يدرون بما ينتظرهم من أيام القلق والهم والوحشة لغياب آبائهم والكبار من إخوتهم ؛ الأيامى والأرامل يبكين أزواجهن كأنْ قد فقدنهم منذ هنيهات ؛ الشيوخ قد ردّهم ما يرون وما يسمعون إلى الصبا وذكرياته فانطلقت ألسنتهم بالحديث عما خاضوا من المعارك المظفّرة فى الأيام الخالية وما أبلوا فى الجهاد وما حصّلوا من الغنائم وما حازوا من السبايا . . .

البادية الرحبة قد ازدحمت بالخلائق وانتثرت فيها خيام الجند فضجت وعجت ؛ ففى كل خيمة حديث بين اثنين أو بين جماعة ، ولا تزال أصداء الأغانى تتناوح بين المضارب تعبر عن ألوان من الإشفاق والرهبة ، أو من الشوق واللهفة ، أو من العزم والفتوة .

هذا فتى لم ينس آخر لياليه فى الحاضرة ، ينشد حرّان الفؤاد :

بنفسى من لو مرّ برد بنـــانه
على كبدى كانت شفاء أناملـــه

ومن هابنى فى كل شىء وهبته
فلا هو يعطينى ولا أنا سائلـــه !

وذاك فتى آخر يستقبل أول أيام الفراق باللوعة ، فيغنى :

يطول اليوم لا ألقاك فيه ويومٌ نلتقى فيــه قصير
وقالوا لا يضيرك نأىُ شهــر فقلت لصاحبىّ : فما يضير ؟

وثالث يتهيأ للغارة قبل إبان الغارة ، فينشد :

وإنا لتصبــح أسيــافنا إذا ما اصطبحن بيوم سفوك
منابرهن بطــون الأكف وأغمادهن رءوس الملوك !

ورابع قد خرج للغنيمة والتماس أسباب الخفض والدعة ، قد خلّف من أجل ذلك أهله وجيرانه ، فيقول :

لا يمنعنّك خفضَ العيش فى دعة
نزوعُ نفس إلى أهل وأوطــان
تلقى بكل بلاد إن حللت بهــا
أهلا بأهل وجيراناً بجــيران !

وآخر يجاذبه هواه وتصطرع الهواجس فى نفسه بين ما خلف من ألوان النعيم وما يستقبل من ألوان المشقة ، فيجذم حباله ويمضى إلى ما اعتزم منشداً :

. . . جَذّام حبل الهوى ماض إذا جعلت
هواجس الهم بعــد النوم تعتكر
وما تجهمنى ليــل ولا بلــد
ولا تكاءدنى عــن حاجــتى سفر !

والسفائن مرسية في الثغور تتأهب للإقلاع ، عليها الجند والعتاد والمتاع والزاد ، قد اختلطت فوقها الأحاديث وتنوعت الأماني واصطرعت العواطف ؛ فعلى ظهر البحر كما في البادية ، مُفارق حران الفؤاد ، ومشوق في أول أيام البعاد ، وثالث يهيئ سيفه وترسه للدفاع والغارة ، ورابع يحلم بالغنيمة قبل أن يخوض غمار المعركة ، وخامس وسادس ، وفنون شتى من الخلق ، قد توزعت نفوسهم الهواجس ولكن أمانيهم جميعاً تلتقي عند غاية ، هي الظفر بالروم في المعركة واقتحام مدينة قيصر !

وأذن المؤذن بالرحيل فتحركت الكتائب في البر ، وأقلعت السفائن في البحر ؛ وكانت قيادة الجيش لمسلمة بن عبد الملك...

وصحب الخليفة جيشه حتى بلغ أطراف الشام ؛ فأقام ينتظر بمرج دابق — على عدة مراحل من حلب — واستأنف الموكب سيره . . .

١٤
على شاطئ البرزخ

قال الفتى الرومى لصاحبه وقد اتخذا مقعديهما فى رأس الحصن المشرف على مضيق كاليبولى :

— هل جاءك النبأ يا لوكاس بما أعد العرب من عدة لحربنا ، وما حشدوا من الجند ، وما سيروا فى البحر من سفائن ؟

— ومن أين لى العلم بذلك يا موريس ؟ وماذا يجدى علىّ أن أعلم وإنى وإياك هنا فى وجه الغارة الأولى ، ليس معنا فى الحصن قوة تغنى فى صد العرب غناء أو تدفع بلاء !

— قد جاء العرب يا لوكاس فى ثمانمئة وألف سفينة ، على كل سفينة مئة جندى ؛ وزحفت على البر قوات تفوت الحصر ؛ فهل يطمع قومنا أن يصدوا هذه الغارة وليس على فم الخليج إلا بضع مئات من الجند قد تفرقوا فى بضعة حصون على الشاطئين ؟

— وإنهم يا موريس لعماليق أشداء ، قد تحصنوا من الموت بما لا أدرى من التمائم ؛ فإن الرجل منهم ليخوض المعركة

قد حطم غمد سيفه وألقى ترسه ، فلا يزال يخلى الطريق لنفسه بما يجندل من الأبطال حواليه حتى يبلغ حيث أراد ، لا يعنيه حين يبلغه أسلمت نفسه أم جاءه أجله حيث بلغ !

— وإن لهم يا أخى إلى ذلك صيحات مفزعة يهتفون فيها باسم ذلك الشيخ الذى اتخذوا له قبراً تحت سور القسطنطينية منذ خمسين سنة ، فلا يزالون يفدون إلى قبره ذاك كل صائفة ، يتبركون به ويعاهدونه عهداً لا أدرى ما هو !

— قد كان ذلك القبر شؤماً علينا منذ ثوى فيه شيخهم ذاك ؛ فهم لا يزالون يطرقوننا من يومئذ فيصيبون منا فى ذهابهم إليه وفى عودتهم منه ؛ ولا أدرى كيف لم يهدم قيصر هذا القبر ويعفى أثره حتى لا يظل هدفاً يطئون بلادنا فى الطريق إليه ذهاباً وجيئة !

— قد همّ بذلك قسطنطين بوغونات ثم أمسك ، فقد جاءه الوعيد من ملك العرب أنه إن فعلها استباح العرب كنائس النصرانية جميعاً فى بلادهم ، فلا يتركون لنا ثمة بيعة ولا صومعة إلا هدموها !

— ولكنّ ما ينالنا من غارة هؤلاء الطُّرّاق أسوأ أثراً فينا مما أوعد به ملك العرب ؛ فما جدوى هذه الكنائس فى بلاد العرب وقد انحسرت النصرانية عن تلك البلاد فلم يبق إلا فلول

لا تساوى ما نتعرض له من الشر ببقاء ذلك القبر !

ـ أفلست تعلم يا لوكاس أن دفين ذلك القبر من أصحاب نبيهم وأصفيائه؛ وأن له عندهم منزلة من التعظيم قد تحملهم على الشر الفظيع لو ناله أحد بمهانة ؟

ـ وأى شر أفظع من هذا الذى ينالنا منهم يا موريس صائفين وشاتين ؟

ـ أنت لا تعرف العرب يا لوكاس !

ـ وتعرفهم أنت يا موريس ؟

ـ قد عرفت من أخبارهم ما لو عرفته لكففت !

ـ أتراهم مردة يقذفون من أفواههم اللهب المحرق ، ويحركون العاصفة الجائحة ، ويقتحمون الأسوار بغير أجنحة !

ـ أراك تسخر يا لوكاس ؛ فهل سمعت عن بشر يفطر بجمل ، ويتغدى بجمل ، ويتفكه بمئة رمانة ؛ فإذا قام من قيلولته دعا بطعام العصر ؟ . . .

ـ بل أنت الذى يسخر يا موريس !

ـ ذاك والله ملكهم سليمان الذى سيّر إلينا هذه الجحافل بقيادة أخيه !

ـ ما أحراهم بأن يأكلونا إذن ؟

ـ إنهم لا يأكلون لحوم الموتى !

ــ يموتون إذن تحت أسوار القسطنطينية جوعاً ؛ فليس هنا ما يكفيهم من الطعام إذا أرادوا حصار المدينة .

ــ أرأيت الجاموس الأسود ؟

ــ أيّ جاموس ؟

ــ نوع من الحيوان كالفيلة ، لا يقطع السكين فى جلده ؛ يطأ بحافر ، وينطح بقرن ، وينظر بعينين ليس فيهما بياض ، ولا يزال يجترّ كالمعزى . . .

ــ وما أنا وذاك ؟

ــ لقد جلبوا منه آلافاً ، فسمّنوها فى مروج الشام ؛ ثم ساقوها معهم إلى الميدان !

ــ يريدون أن يحاربونا بالجاموس ؟

ــ لست أمزح يا لوكاس !

ــ فماذا إذن ؟

ــ يتخذون من لحومها وألبانها طعاماً !

ــ ومن أين لهم هذا الجاموس ؟

ــ جلبوه من الهند !

ــ وأين هم من الهند ؟

ــ إن الهند قد صارت منذ بعيد ــ يا أبله ــ تحت حكم العرب !

ــ قد غلب العرب إذن يا موريس وملكوا حاضرة قسطنطين !

ــ أراك انهزمت من أول جولة يا لوكاس !

ــ وماذا تجدى المقاومة ؟

ــ لو كان العرب يحاربوننا بهذه الروح ما انتصروا قط !

ــ تريد أن أقاوم بلا غاية ؟

ــ نعم ، حتى تموت !

ــ ويكتب فى لوح على قبرى : مات منتصراً ؟

ــ ليس ذلك كل شىء؛ إن الحياة المجيدة لا توهب للجبناء !

ــ لست جباناً !

ــ معذرة ، لم أقصد إساءتك !

ــ فما قصدتَ إذن ؟

ــ إن الذى يكافح عن حقه حتى يموت ، يهب حياة لكثيرين من ورائه ؛ لأن كل طعنة تناله ، كانت مسددة إلى واحد ممن خلفه ؛ فتلقّى عدة طعنات عن عدة أحياء ومات موتة واحدة ؛ فقد ربحتْ صفقته إذن ؟

ــ وما النتيجة ؟

ــ أراك لم تفهم بعد !

ــ ولا أظن أحداً يفهم أن الموت صفقة رابحة !

ـ زِن حياتك بحياة الجماعة !

ـ وهل ترى الجماعة تستطيع إحيائى إذا فاضت نفسى ؟

ـ ولكنك باستماتتك تستطيع أن ترد الجماعة إلى الحياة !

ـ منطق غير مفهوم !

ـ ولكنه بعض إيمان العرب !

ـ حَمَق !

ـ ولكنهم انتصروا بحماقتهم هذه يا لوكاس ، وذلّ الروم!

١٥

تميمة رومية !

لم تكن سبيكة قد نضجت نضج الأنثى ولا رشدت رشد العقل يوم احتملها النعمان سبيَّة ، ولكنها إلى ذلك كانت مدركة واعية ؛ فقد علمت منذ ساعة الوهلة أن ذلك آخر العهد بأهلها ووطنها فلن تراهم ولن يروها أبداً ؛ أليست تعلم علم الناس مما يدور حولهم من أحاديث ؛ أن أختاً لها قد احتملها الغزاة منذ بضع وعشرين سنة فذهبت ولم تعد ، قد غاب أثرها وضاع خبرها فلا يكاد يذكرها أحد إلا أبوها المرزُأ وأمها

الثكلى ؛ وكانت أختها إلى ذلك فتاة قد نضجت ورشدت ، وكانت حقيقة لو أنها ملكت حريتها أن تحاول المعاد !

بلى ، وقد مضت بضع وعشرون سنة أخرى منذ احتملت هى إلى بلاد العرب ؛ فهل يذكرها اليوم أحد من أهلها ، إلا أبوها الشيخ إن كان فى الأحياء ، وإلا أمها . . . وإن سبيكة لتملك اليوم حريتها ، ولكنها لاتحاول أن تعود ولا تريد ؛ لقد انقطع ما بينها وبين الماضى فلا تمتّ إليه بسبب ؛ إنها اليوم امرأة عربية مسلمة، تمتّ إلى هذه الجماعة التى تعيش بينها بأسباب كثيرة ، وتربطها إلى ما حولها ومن حولها عواطف شتى ؛ أما تلك التى احتملت من بلادها منذ بضع وعشرين سنة فكانت فتاة لا عربية ولامسلمة ولا أمًّا . . .

ذلك هو الشعور الذى يملأ نفسها اليوم فيزحم كل ما عداه من صور وذكريات ؛ فما بالها لا تزال من حين إلى حين تفىء إلى ركن من دارها فتفض ختم حقيبتها فتنثر ما فيها من مخلّفات ذلك الماضى تتملاه وتشمه ثم تبكى ما شاءت؟ . . .

وما بالها لا تزال كلما سمعت ناعياً ينعى حبيباً إلى أهله، رفرفت بجناح وجاوزت المكان والزمان إلى حيث كانت تعيش فى بلد بعيد بين إخوتها وأخواتها ، تريد أن تحصيهم عدًّا وتتصفحهم فرداً فرداً ؟

وما بالها لا تزال تستطلع طلع كل قادم من سفر ، وكل عائد من غزاة ، وكل مبحر فى صائفة ؟

ولكن ما بالها — مع ذلك — قد طابت نفساً ورضيت بخروج ولدها إلى حروب الروم ؟ وما بالها قد شحذت له أمضى سيوف أبيه حداً وأومضها صفحة ؟ وما بالها قد رضيت له نوار زوجاً يمهرها رأس بطريق من بطارقة الروم ؟

ثم ما بالها قد دفعت إليه حين مسيره تلك التميمة التى كانت قلادة صدرها صبية ؛ ليحرزها فتحرزه . . . وتلك الجوهرة التى كانت زينة مفرقها طفلة ؛ ليذكرها بها وتذكره ؟...

أعن وعى دفعت إليك ذينك الأثرين من آثار ماضيها أم دُفعت إلى ذلك بلا وعى ولا إرادة ؟ وكيف تحرز مسلماً تميمةُ رومى لا يؤمن بدين محمد ؟ وكيف تُذكره إياها جوهرةٌ لم يرها فى مفرقها قط ؟ ألا تزال نفسها تنازعها إذن إلى دين ووطن غير هذين الدين والوطن ؟

* * *

وعبر على الطريق — وهى فى خلوتها — حاد ينشد :

تعزَّ بصبر ، لا وجدِّك لا ترى
سنامَ الحمى أخرى الليالى الغوابر

كأن فؤادى من تذكَّرىَ الحمى
وأهلَ الحمى، يهفــو به ريش طائر

فهتفت بلا وعى :

ــ ردوه علىَّ !

ثم أخفت وجهها فى راحتيها وأجهشت باكية. !

وكان عتيبة فى تلك اللحظة خالياً بنفسه كذلك فى خيمة من خيام الجند يقلِّب بين يديه قلادة وجوهرة، ولكنه لا يذكر من أمر صاحبتهما شيئاً ؛ فقد كان خياله مفعماً بصورة أخرى قد ملكت عليه حسه ونفسه وفاضت معانيها شعراً على لسانه ودموعاً فى عينيه . . .

أترى نوار تذكره الساعة كما يذكرها ؛ وهل يعود إليها كما أملت، قد حصَّل لها مهراً وأدرك ثأراً ووفى بنذر ؟

ولم يجد عتيبة جواباً سريعاً لسؤاله ؛ فقد مثل بباب الخيمة فى تلك اللحظة حرسىٌّ من حاشية مسلمة يدعوه إلى لقاء الأمير . . .

وأعجله الطلب عن حفظ ما كان فى يده من خرزات أمه ؛ فمضى إلى لقاء الأمير وما تزال فى يده . . .

وهش الأمير للقائه وبسط له وجهه ومجلسه ، وغدا عليه يسأله عن حاله وخبره ومن خلف وراءه فى الرقة من أهله ؛ وأقبل عليه الفتى يجيبه عما يسأل منبسط النفس غير متكلف ،

ويده تعبث بما استند إليه من الطنافس المثمنة فى مجلس الأمير ؛ وأفلت شيء كان فى يده فتدحرج على البساط ، فأدركه فى حركة سريعة قبل أن يبعد . . .

قال الأمير متلطفاً :

ــ ما هذا فى يدك يا عتيبة ؟

ــ خرزة دفعتها إلىّ أمى حين مسيرى ، ترجو أن تكون لى تميمة وحرزاً . . .

ومد الأمير إليه يداً فحاز القلادة والجوهرة يروزهما بأصابعه لمساً وبوجهه نظراً وشمًّا ؛ ثم دفعهما إلى الفتى وهو يقول فى صوت ينم على انفعال :

ــ أحرزهما يا عتيبة واحرص عليهما ، فإنهما بعض آثار أمٍّ برّة !

ثم أنغض الأمير رأسه وتزاحمت على عينيه صور شتى . . .

ولم يطل بالفتى مجلسه ؛ فنهض إلى خيمته يشيعه الأمير بعينين فيهما إشفاق وحب ورحمة !

١٦

عرش يهتز . . .

التقت قوات الغزو البرية والبحرية على جانبى مضيق كليبولى ، ثم لم يلبث الجند أن وثبوا من شاطئ إلى شاطئ فإذا هم تحت أسوار القسطنطينية ؛ لم يلقوا كيداً ولم يعترض سبيلهم أحد ؛ فحطوا رحالهم فى ذلك الوادى الأفيح وأخذوا يقيمون المضارب وينصبون الخيام ويعدون العدة لإقامة طويلة المدى ، قد أقسموا لا يعودون إلى أهليهم وديارهم إلا إذا فتحوها ووطئوا بساط قيصر وأذّنوا فى كنيسة الروم وأقاموا الصلاة . . .

ونصبت للأمير خيمة من ديباج على شرف من أرض الوادى ، وبسطت فيها البسط وانتثرت الطنافس ؛ ثم أقيمت مضارب الجند حيث رسم الأمير . . .

ووقف مسلمة يخاطب جنده :

« أما بعد حمد الله والصلاة على نبيه ، فإنا لم نقطع هذه البرية ، ونتجشم هول ذلك البحر ، من أجل غارة نغيرها ثم نثوب قد احتملنا أسارى وسبايا وحصّلنا غنائم وتركنا على أديمها

صرعى وجرحى من الروم ، كما كنا وكانوا فى كل صائفة وشاتية ؛ فقد كان ذلك كله تمهيداً لهذه الغارة العظمى لتحطيم عرش قيصر ودك معاقله ونشر كلمة الله فى بلاده ؛ فلا معاد إلى دياركم وأهليكم إلى أن يُفتح لكم ، وإلا فاعتقدوها هجرة إلى دار أبى أيوب لا تبرحونها حتى يبعث الله الموتى !

« الفتح أو الشهادة ، لا غاية وراءهما ؛ فهيئوا أنفسكم لإحدى الغايتين . لا تنازع أحدكم نفسه إلى أهله وزوجه وولده ، أو يحن حنين النيب إلى أعطانها ؛ فلا وطن لكم إلا ما أنتم فيه ، فاتخذوه مقاماً حتى يأذن الله بالفتح ! . . .

« ألا وإن الروم قد حصنوا أسوارهم وملَّسوها وطاولوا بها حتى لا مطمع لناقب أو متسلق أو واثب ؛ فلتدَعوهم سجناء وراء أسوارهم هذه لا يدخل إليهم داخل ولا يخرج منهم ؛ فإن ذلك خليق بأن يقطع عنهم الزاد والعتاد والمدد حتى يبلغ منهم الجهد فيطلبوا السلامة ويُلقوا السلاح ويُفتح لكم !

« ألا وإن مقامكم على هذا سيطول حتى ينفد ما عندهم من ذخر ؛ فلا يمسس أحد منكم طعاماً أتى به من هنالك ؛ والتمسوا الرزق مما يليكم من هذه القرى الرومية ، ودونكم هذه الأرض البكر فاحرثوا وابذروا وثمِّروا ؛ وقد جلبت لكم قطعاناً من الجاموس والإبل والضأن للحرث واللبن واللحم ودفء الشتاء .

ولا تطل إقامتكم فى هذه الخيام حتى يفجأكم البرد ويسد الثلج عليكم أبوابها ؛ فدونكم هذه الغابات فاقتطعوا من أشجارها واتخذوا بيوتاً من خشب تجعلون فيها متاعكم وتأوون إليها كما يأوى كل ذى دار إلى داره ، واحتفروا العيون واستنبطوا الآبار تروون منها وتسقون الزرع والضرع . . .

« أيها العرب ، إن أظفر الطائفتين فى هذه المعركة أصبرهما ؛ فلا عليكم من طول المقام ما ضمنتم الظفر فى العاقبة !

« أيها المهاجرون إلى الله ، لقد خلفتم طائعين دياركم وأهليكم إلى مدينة أبى أيوب ، فتربصوا فى دار هجرتكم هذه بعدوكم حتى يأذن الله لكم أن تلقوهم بيوم كيوم بدر ! »

وتفرق جند العرب فى الأرض الفيحاء على استدارة القوس من أسوار القسطنطينية ، قد اتخذوا بيوتاً ، وفلحوا أرضاً ، واستنبطوا آباراً ، واستنبتوا مراعى ، وأنشأوا حظائر ، ومهدوا سككاً ، واستوطنوا استيطان من لا يفكر فى الرحيل !. . .

وكانت غاراتهم لا تزال تبغت القرى الرومية على الشاطئين فتصيب مغانم وتعود إلى بيوتها ظافرة ، قد أضافت إلى ما ادخرت من الزاد والعتاد ذخراً جديداً ، وزاد العدو جهداً على جهد !

ومضى عام وأهل عام ولا يزال جيش مسلمة يحاصر القسطنطينية ، حتى جهدت جهداً شديداً وأوشكت أسواقها

أن تقفر من الطعام وضاق أهلها بالحياة . . .

وبلغت الحال فى بلاد الروم من الفوضى والاختلال مبلغاً حمل القيصر على اعتزال الملك؛ وخلا عرش القسطنطينية من قيصر، فراح الأمراء والبطارقة وقادة الجند يتواثبون كالضفدع حول العرش، يأمل كل منهم — بلا كفاية — أن يكون قيصراً . . .

وكان إليون المرعشى « الإيزورى » رأس الفتنة ؛ وهو رجل من غثاء الناس ليس له جذر يمتُّ به ؛ كان أبوه إسكافاً يصنع النعال ، فنشأ كما ينشأ ابن كل إسكاف ؛ ثم اتجر فى الماشية فأثرى وجمع مالا ، ثم اصطنع كما يصطنع الأثرياء بطانة وحاشية فصار سيداً فى رعية ، ثم رأى اختلال الأمر فى الدولة فحبب إليه أن يكون قيصراً . . .

ولم يكن له مطمع فى رضا قومه من الروم، فصار له مطمع فى رضا العرب ؛ فأوى إلى سليمان بن عبد الملك وأخيه مسلمة يؤامرهما على تحطيم قوات الدفاع الرومية لتخلص البلاد للعرب وتخلص له رياسة الروم؛ ووثق به مسلمة فأسلم إليه بعض الأمر!

وبلغ الجهد بأهل القسطنطينية ما بلغ ، فاستعانوا البلغار والروس وأهل رومية ، ولكن هؤلاء كانوا فى شغل بأنفسهم عن معونة غيرهم . . .

وأخذ الوهن يدب فى قوى الروم ، فلم يجدوا بدًّا من

النزول على شرط العرب ؛ فبعثوا إلى مسلمة فى وقف القتال وفك الحصار ، على أن يؤدوا إليه الجزية عن كل رأس ديناراً ، وأن يوفد إليهم إليون الرومى ليفاوضوه فى شروط التسليم ؛ فأجابهم مسلمة إلى ما طلبوا وأوفد إليهم صاحبهم . . .

* * *

« ما أجدر هذا الرومىَّ أن يشرح الله صدره للإسلام فيكون أخاً معيناً ووزيراً ناصحاً ! »

كذلك قال مسلمة لنفسه وقد ذهب إليون إلى قومه ليفاوضهم فى شروط التسليم ؛ فبمعونة هذا الرومى الطيب النفس يقرع مسلمة اليوم أبواب القسطنطينية ، وهو — لا شك — داخلها غداً ؛ فيطأ بلاط قيصر ، فيجلس على عرش قسطنطين ، فيجهر بالأذان على هذه الأسوار المنيعة ، فيؤم جنده فى الصلاة بأيا صوفيا ، فينشر كلمة الله من ثمة فى الأرض الكبيرة ، فيمضى قُدماً حتى يطأ رومية ، ويجوس فى بلاد إفرنسه ، وينفذ إلى الأندلس من المشرق ، ويقف على شاطئ الأقيانوس الأخضر مثل موقف عقبة بن نافع منذ سنين . . .

« ذاك والله كله بفضل إليون المرعشى . وإن فى الروم لذوى أعراق طيبة وإن كان آباؤهم من ذوى المهنة ! »

ردد مسلمة هذه العبارة كذلك فيما بينه وبين نفسه ؛

وكأنما ذكر فى هذه اللحظة أمه ورد ونسبها فى بلاد الروم، فحنّ عِرق إلى عرق !

واسترسل إليون فى محادثاته مع القوم ، وطالت غيبته ؛ واسترسل مسلمة فى أوهامه . . .

وكان الجند فى مضاربهم ، أو فى بيوتهم ، يديرون بينهم ألواناً من الحديث يتصل أكثرها من قريب أو من بعيد بهذه السفارة التى دعا إليها الروم وخف لها إليون وهش لها مسلمة !

قال ابن جبير العبسى مغتبطاً :

ـــ أين نحن اليوم وأين نكون غداً ؟

قال ابن هبيرة :

ـــ وأين تكون إلا وراء مسلمة ؟

قال العبسى :

ـــ فذلك ما أردتُ يا ابن هبيرة !

ـــ اسكت ! فوالله ما تعلم ولا يعلم مسلمة ما يخبئه الغد !

ـــ وتعلم أنت علم الغد يا ابن هبيرة ولا يعلمه مسلمة ؟

ـــ قد كان له ذلك لو كان ابن حرة !

هبّ عتيبة بن النعمان واقفاً قد اخترط سيفه وهو يصيح :

ـــ أمسك عليك يا ابن هبيرة ؛ فإنه لأعرق نسباً وأعلى أرومة من كل بنى مروان ؛ فإلا تكن أمه من عبس ومخزوم

وأمية ، فإنها إلى الذروة من بنى الأصفر !

قال ابن هبيرة ولم يتحلحل عن موضعه :

— هوِّن عليك يا ابن أخى ؛ فإنك لتقف منى موقفاً يستحيى منه أبوك — غفر الله له — وما أردت أن أتنقص مسلمة ؛ ولكنى أعيب عليه أن يركن إلى رجل من أهل الغدر والنفاق قد باع أمته للعدو ؛ فما أجدره أن يغدر بنا كما غدر بقومه !

— وترى ذلك يغيب عن فطنة مسلمة ؟

— إن لكل فطن غفلة تأتيه من قبل أبيه أو من قبل أمه ، قد تدسست فى العرق وخالطت الدم . . .

— ومن أين لك أن مسلمة قد غفل عما فطنت له ؟

— لقد أتيته أحدثه عن ذاك ، فإذا هو قد تغدى وملأ بطنه ونام ، فانتبه وقد غلب عليه البلغم ؛ فحدثته وما أراه قد سمع شيئاً مما قلت أو درى بى ؛ وما ذاك والله وقت يملأ فيه الكيِّس بطنه وينام !

— أفلست تعيب عليه يا ابن هبيرة إلا أنه قد أكل ونام؟

— إن الأحمق يا ابن أخ من يملأ بطنه من كل شىء يجده ، وأحمق منه من ينام والحوادث ترقبه بعيون يقظة !

— غدا ترى عاقبة أمره وأمرك يا ابن هبيرة !

— إن كان وعيداً يا ابن النعمان فقد والله جاوزتَ قدرك ،

وإن كان أملا تأمله فإنى والله لآمله على حذر وتخوّف !

— وبم تحذر ؟

— تدبير ذلك الكلب إليون ؛ فما أظنه الساعة إلا يؤامر الروم على الكيد لمسلمة وقد ملأ مسلمةُ بطنه ونام !

* * *

ورجع إليون منذ الغد إلى مسلمة يعرض عليه ما انتهى إليه رأيه ورأى القوم ، قال :

— إن الروم أمة محاربة يا أمير منذ التاريخ البعيد ، لم تضع سيفها قط منذ كانت ولا رضيت الدنيّة ، وقد أدال الله لكم منها فغلبتم خلفاء قسطنطين على أرضهم وديارهم ورعاياهم فى سائر فجاج الأرض ؛ ثم جئتم تطلبون هذه الحاضرة ، فكأنْ قد دانت لكم كما دانت الممالك وأسلمت مفاتيحها ، فقد بلغ منهم الجهد ما رأيتُ بعينى وما لا أظنه قد غاب عن فطنة الأمير ، فلولا أنهم أهل مصابرة لأسلموا إليكم منذ بعيد ؛ ولكن عيونهم ما تزال تطلع عليكم حيناً بعد حين فيرون ضخامة ما اختزنتم من الزاد والعتاد وما لا يزال يرد إليكم من ذلك ؛ فيقولون لولا أنكم ترون أجل الفتح بعيداً وأن دونه مصاعب وأهوالا لما أسرفتم فيما تجمعون من هذه الأقوات ؛ وإنهم إلى ذلك ليخشون — لو أسلموا إليكم — أن يقع عليهم حيف فى

المعاملة كما يصف لهم بعض رواة الأخبار . . .

— وبم يُرجف هؤلاء يا إليون ؟

— يزعمون أن العرب لم يدخلوا بلداً — عنوة أو صلحاً — إلا استرقُّوا الرجال واستبوا النساء وهتكوا الستور واستولوا على الأعلاق وأذلوا السادة واحتملوا كل ما فى البلد من قوت وزاد، فلا يجد أهله ما يحفظ عليهم أرماقهم !

— وترانا كما يصفون يا إليون ؟

— إن العرب ما علمتُ — يا أمير — لأهل وفاء وذمة وشرف ودين !

— فماذا يرون إذن ؟ وماذا ترى أنت ؟

— أرى الثمرة قد دنت وحان قطافها ، ولكنكم إن تدخلوا القسطنطينية بالقهر والغلبة لا تجدوا فيها من السلام والطمأنينة ما يحبِّب إليكم الإقامة ؛ فهلا دخلتم أصدقاء يا أمير ؟

— وأين لنا ذلك ؟

— أن تحملوهم بديـاً على اليقين بأن المدينة طوع أيديكم ، فتتخففوا من هذا الزاد الذى جمعتموه ركاماً بعضه فوق بعض؛ فإنهم إن رأوا هذا الزاد قد أزيل عن موضعه أيقنوا أنكم قد أزمعتم الاقتحام ، فتخور عزائمهم ويفتحون الأبواب !

وأخرى أيها الأمير ؛ أن يكون تخففكم من هذا الزاد باباً

إلى اكتساب مودّتهم واطمئنانهم إليكم ، فتهبوا لهم منه ما يدفع عنهم الجوع ويحفظ عليهم الرمق ، فإنهم حقيقون بأن يحفظوا هذه اليد فيشكروها لكم ، فتدخلوا المدينة حين تدخلونها قد أمنوا وأمنتم وطابت نفوسهم وطبتم !

ـ وآمرتهم على كل ذلك يا إليون ؟

ـ ووافقونى على كل ما عرضت عليهم باسمك من شروط التسليم ؛ وآية بيننا أن ينبئهم أصحاب الأخبار أنكم قد تخففتم من الأزواد أو جُدتم عليهم ببعضها !

ـ لك ما اشترطت يا إليون ؛ فاحمل إليهم ما شئت ودعنى وأصحابى نعدّ العدّة للنقلة إلى ما وراء هذه الأسوار !

١٧

دسيسة العرق !

ـ والله لا يقع فى مثل هذه الغفلة ابنُ حرة !

ـ كذلك قال ابن هبيرة قبل أن تقع الواقعة ونرى أنفسنا فى هذا القفر لا زاد لنا وقد أخذتنا سيوف الروم من كل جانب !

ـ ذلك الكلب الغادر إليون . . .

ـ بل قل : ذلك الأبله ابن ورد ؛ لقد خدعه ذلك الكافر خديعة لو كان امرأةً لعيب بها !

ـ ونال بها إليون عرش قسطنطين !

ـ ونلنا بها ما نلنا من الهوان والضعف والمذلة ؛ وما أرانا غداً إلا هالكين جوعاً وبرداً فى هذه القفرة المثلوجة !

ـ وا أسفا ! لقد كان مسلمة ـ فيما أرى ـ أسدَّ بنى مروان رأياً وأخبرهم بفنون الحرب !

ـ وما هى الحرب إلا السياسة والتدبير ونصب الفخاخ وتوقِّى المهالك ؟

ـ وإنه لكذلك ، لولا ما تدسّس إليه من أمه الرومية ؛ فكأنما حَنَّ العرق إلى العرق فاستنام إلى وعدٍ غادر !

ـ أتذكر حين أنشد عبد الملك بين يدى مسلمة وإخوته فى حلبة السباق ذات غدوة :

نهيتكمو أن تحملوا فوق خيلكم هجيناً ... ... ؟

ـ نعم ، وقد تناقلها الناس يومئذ وقالوا : ما أنصف عبد الملك مسلمة !

ـ كأنما كان عبد الملك يرى بظهر الغيب هذا الذى نحن فيه من شر ، بسوء تدبير مسلمة !

ـ وقد أخذه سُعار الغيظ مما ناله ونال جنده ، فلم يأذن

بالرحيل وفك الحصار وتسريح الجند ، كأنما خيل إليه — بعد الذى كان — أنه مستطيع فى هذه الغزاة أن يفتحها !

— بجند؛ قد هزلوا من الجوع ، وارتجفوا من البرد، وأثخنوا من رمى العدو الذين استردوا جأشهم وثابت إليهم عزيمتهم !

— قد أبرد بريداً إلى سليمان بمرج دابق يطلب مدداً من زاد وعتاد !

— وحتى يبلغ البريد ويجئ المدد يصبر العرب على الجوع والبرد والنار الرومية تحت هذه الأسوار ؟

— أظننت أن نفتح القسطنطينية بلا جهد ؟

— فقد بذلنا من الجهد ما لا قدرة عليه لبشر ، حتى دنت الثمرة ؛ ثم أفلتها مسلمة بحمقه !

— ذلك تقدير العزيز العليم !

* * *

وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك لا يزال منذ عام وعام قبله مرابطاً بمرج دابق على الطريق إلى بلاد الروم ، قد أقسم لا يبرحها إلى حاضرته حتى يأتيه الفتح أو يدركه الأجل. . .

وكان البريد يتوالى عليه يوماً بعد يوم بما بلغ العرب من أسباب النصر وما نال الروم من الجهد والإعياء ؛ فلا يزال يصلى ويدعو الله أن يعجل بالفتح ، وقد خيل إليه أن ليس بينه

وبين ما أراد إلا غلوة سهم ، وأنه لولا حرص مسلمة على دماء المسلمين أن تراق لاقتحمها ووطئ بساط قيصر منذ بعيد! . . .

ثم جاءه النبأ بما آل إليه الأمر وما بلغ الروم من العرب بالمكر والخديعة ، فحوقل واسترجع وامتلأت نفسه همًّا ، ولكنه لم ينكص على عقبيه وأصر على أن يبر قسمه ذاك ؛ فحشد الحشود وكتّب الكتائب وجمع الأزواد وأعد العتاد ، وسير ذلك كله إلى مسلمة فى البحر وفى البرية . . .

وكان الجوع والبرد قد أضرا بالعرب ضرراً بليغاً ، حتى التمسوا أقواتهم من ورق الشجر وعشب البرية ودواب البحر ، ولولا أن تراب الأرض لا يستساغ لسفّوه سفًّا ليردوا الجوع عن أنفسهم وينسأوا به آجالهم !

وكأنما شحذت هذه الخيبة عزيمة مسلمة ، فصابر ورابط مقاوماً كل ما يكتنفه ويكتنف أصحابه من أسباب الهلكة ، فلم يفك الحصار عن المدينة أو يتخل عما اعتزم !

وكان أصحابه يموتون كل يوم مئات ، صرعى الجوع والبرد منهم أكثر من صرعى السيوف والسهام والنار الرومية ، ولكن مسلمة لم ينكل . . . ولا يزال أصحابه يطيعونه والموت يتخطف إخوانهم من حولهم جماعات جماعات يبلغون الآلاف ، والمدد الذى أرسله سليمان لا يزال على الطريق !

وكان سليمان مما نال مسلمة ونال المسلمين معه فى همٍّ دائم بالليل والنهار ؛ وزاده همًّا أن ولده أيوب الذى كان يرجيه لولاية عهده قد اختضره الموت شابًّا فى ريعانه ؛ فبكى سليمان وقال : الآن لا يدعون أيوب ولا أبا أيوب !

ثم لم يلبث أن لزم فراشه ، ودب إليه الموت !

وكان عهده ، بعد ولده أيوب ، إلى ابن عمه عمر ابن عبد العزيز بن مروان . . .

* * *

وقال الخليفة عمر وقد جلس فى ديوانه :

ـــ ردّوا على الشام هذه الفلول المبعثرة فى البر والبحر من جيش مسلمة ؛ إن لتلك المدينة موعداً لم يحن بعد ؛ وإنى لأخاف أن يأتى الجوع والبرد عليهم جميعاً فتكون جريرتها على رأس عمر !

وخبَّ البريد إلى مسلمة بالنبأ ، وسيقت إليه الركائب فى البر والبحر لتحمل من معه إلى الشام !

١٨
على حافة الموت

ــ أكذلك تكون عاقبتها ؟

قالها مسلمة وأطرق، قد امتلأ قلبه غمًّا وحقداً ومرارة ، أما الغم فلهذه العاقبة التى انتهت إليها الغزوة العظمى التى كان يهيئ لها منذ سنين ، ليبلغ شأواً لم يبلغ مثله واحد من بنى عبد الملك حين لا يجد بنو عبد الملك ما يطاولونه به غير خئولتهم ؛ وأما الحقد فعلى هؤلاء الروم وقيصرهم ذاك الخسيس الذى أذله بالمكر والخديعة ونكث العهد ، وخذله حين أمن له ووثق من مودته وأسلم إليه قياده ؛ وأما المرارة فلأنه ابن امرأة من هذه الروم الغادرة الناكثة التى لا تحفظ عهداً ولا تفى بذمة . . . لو كان له أن ينتسب إلى أمٍّ غيرها لأنكر أنها أمه ، تلك تلك التى باعدت بينه وبين العرش شاباً ، وحطمت تاج العز على رأسه كهلا ، وتوشك أن تجعل حديثه فى هذه الغزاة سخرية الساخرين وشماتة الكاشحين حتى يبلغ سن الموت !

ومد يداً إلى جيبه فأخرج جوهرة وقلادة ؛ فتملاهما طويلا ثم قذفهما إلى البحر وهو يقول وقد غلبه الدمع :

— تميمة راهب لا يؤمن بدين محمد، لم تحفظها صبية من السباء ؛ ولم تحرز ولدها كبيراً من الهزيمة !

ثم أطبق راحتيه على وجهه وبكى !

وثاب إلى نفسه بعد هنيات ، فدعا حاجبه إليه وقال له :

— قدِّم أسارى الروم إلى السيف !

وبُسطت الأنطاع ، وقام على رأس كل أسير حرسيٌّ بسيفه ؛ وتهاوت الرءوس عن أجسادها ، رأساً بعد رأس . ومسلمة يشهد قد اشتفت نفسه مما تجد . . .

وقُدم إلى السيف شيخ حُطمة قد بلغ الثمانين أو قاربها ، وهمّ الجلاد أن يرمى رأسه حين رفع الشيخ يده قائلا :

— كفَّ ، إن لى حديثاً إلى الأمير ! . . .

وسيق الشيخ إلى حيث كان مسلمة يشهد :

— يا ولدى !

— اخرس . . . يتمتَ ولدك !

— هل لك فى صفقة رابحة ، فتبيعنى رأسى برجلين عربيين ؟

— رجلين عربيين ؟

— نعم ، فى الأسر عندى منذ سنين ؛ وإنهما لمن السادة فيما يبدو ، فإن شئت عفوتَ عن شيخ حطمة لا يحمل سيفاً ولا يدفع غارة ، واستنقذت أسيرين من قومك !

ـــ جئ بهما !

ـــ فيسمح لى الأمير أن أذهب إلى أهلى فأعود بهما !

ـــ تحتال حتى تفر بدمك !

ـــ ليس الغدر من طبعى !

ـــ ولم يكن من طبع إليون القيصر ؟

ـــ ذاك ابن إسكاف لا يمتُّ بعرق إلى أسرة نبيلة !

ـــ وتمتّ أنت إلى قسطنطين الأكبر ؟

ـــ ليس الكذب من طبعى !

ـــ أمفاخرة فى هذا المقام يا ابن الغادرة !

ـــ لم تغدر أمى قط !

ـــ اخرس . . . رأسه يا حرسى !

ـــ يموت إذن ذانك العربيان أيها الأمير ، وإنى لأظن لهما فى قومهما شأناً !

ـــ ومن يكفلك حتى تعود ؟ . . .

أخذ الشيخ يقلب نظره فى وجوه الجند ، ثم أشار إلى فتى منهم :

ـــ هذا يكفلنى أيها الأمير !

ـــ تكفله يا عتيبة ؟

ـــ قد كفلته !

ــ تبيع شبابك بهرمه ؟ إنه ليخادعك عن نفسه !

ــ قد كفلته !

هبّ مسلمة واقفاً قد بان فى وجهه الغضب ، ثم مضى إلى خيمته غير متلبِّث ؛ وأحاط العرب بصاحبهم يسألونه مؤنِّبين قد بدا فى وجوههم الإشفاق والغيظ :

ــ ما حملك على هذا يا عتيبة ؟

ــ شيخ فى ضائقة توشك أن تأتى على نفسه ، وقد توسّم فىّ مروءة ، هل أخلف ظنه ؟

ــ ولكن الروم أهل غدر يا عتيبة !

ــ ما كان يجمل بى غيرها !

ــ وإذا لم يعد كفيلك يا أبله ؟

ــ يصنع الأمير فى أمرى ما يبدو له !

ــ ولكن الأمير مغيظ محنق قد استلّ غدر الروم ما كان فى نفسه من خلال العفو والرحمة !

ــ يقتلنى به إذن !

ــ وتبيع رأسك برأس كافر ؟

ــ قد كان ما لا سبيل إلى الرجوع فيه !

وتفرق الجند عن صاحبهم محزونين ، وأوى عتيبة إلى خيمته قد امتلأت نفسه غمًّا وضاق بكل ما حوله . هذه أول

غزاة يغزوها ، ولعلها آخر غزاة ؛ إن الموت يتربص به ؛ وسيموت حين يموت لا شهيداً فى المعركة ولا مبكيًّا عليه ؛ وتترقب نوار حتى يعود كل الغزاة ولا يعود عتيبة ، فتبكيه دهراً ثم تسلو ؛ وتبكيه أمه كذلك ولكنها لا تسلو أبداً ؛ إن الأمهات لا ينسين من يموت من أبنائهن ؛ قد علم ذلك عن جدته الثكلى ، إنها ما تزال تذكر عمه عتبة وأباه النعمان كأنما فقدتهما منذ قريب ، على حين يغيب ذكرهما عن كل من فى الدار . . .

ما لهذه الخواطر تتزاحم الآن فى رأسه ؟ أميت هو إذن؟ فلماذا رمى بنفسه فى هذا المأزق ؟ ولكنه لا يكاد يستشعر شيئاً من الندم لشىء مما كان ؛ فما كان له خيرة ؛ أكان يجمل به أن يقول على ملأ من الجند لذلك الشيخ : دعنى فلست من المروءة بحيث ظننت؟ وإن فى الأمر — إلى ذلك — احتمالا آخر؛ أليس ممكناً أن يكون ذلك الشيخ صادقاً فيما وعد ؟ فكيف يحول حبُّ الحياة ولؤم الطبع دون إطلاق أسيرين مسلمين ؟ . . .

وارتد خاطره إلى أمه ، وإلى صاحبته ؛ كيف يعود إلى نوار ولم يف لها بما وعد ؟ يالها سخرية أليمة ! إنه بدل أن يعود إليها برأس بطريق ، قد قدم رأسه فداء لرأس شيخ حطمة لا هو من البطارقة ولا من السوقة ؛ أكانت أمه تتوقع أن يصير

إلى هذه الخاتمة حين حاولت أن ترده فعصاها ؟ لقد وقع عتيبة فى شر أفظع مما كانت أمه تتوقع أن يكون !

ومد يده إلى جيبه فأخرج جوهرة وقلادة ، فتملاهما طويلا ، ثم بكى . . . أتحرزه هذه التميمة التى دفعتها إليه أمه مما يتوقع من شر؟ يا لهؤلاء الأمهات ! ما أضعفهن قلوباً وعقولا !

ومثل بباب الخيمة حرسىٌّ يدعوه إلى لقاء الأمير ، كشأنه ذات يوم منذ عام وبعض عام ، وكانت الجوهرة والقلادة فى مثل مكانهما الآن من يده ، ولكنه اليوم غير غافل عنهما . . .

– لأىِّ أمر يدعونى الأمير يا حرسى ؟

– لا علم لى !

– أفى خيمته هو أم فى الميدان ؟

– فى خيمته !

– وفى خلوة هو أم معه أحد ؟

– لا علم لى !

– تخادعنى عن نفسى يا حرسى !

– ليس لى مأرب !

– فحدِّثنى إذن بما تعرف . . .

– لست أعرف شيئاً !

– إذن فهو الموت ؟

ـ لا علم لى !

ـ وبسيفك أو بسيف غيرك ؟

ـ لا سيف لى !

ـ تبًّا لك !

ـ غفر الله لك !

وجالت الدموع فى عينى الفتى تأثراً ورقة ؛ فقال وأنفاسه تختلج :

ـ سامحنى فيما اعتديت يا صاحبى !

ثم صحبه كتفاً لكتف إلى خيمة الأمير مستسلماً وهو يحوقل ويسترجع ، قد ازدحمت فى رأسه صور الماضى القريب والبعيد ...

وكان الشيخ الرومى فى خيمة الأمير ، وقد وقف إلى جانبه عربيان كهلان فى زىٍّ منكر . . .

وثابت نفس عتيبة حين رأى غريمه؛ رومىّ وفَى بذمته ! قد أفلت رأس عتيبة إذن من سيف الجلاد ؛ وأفلت رأس الرومى الشيخ ؛ هذان العربيان قد وهبا له الحياة ؛ ولعله كان يسومهما الخسف فى أسره ؛ ولكنهما الآن بحيث لا يملكان إلا أن يفتدياه من الموت ، رضيا أو كرها .

وأقبل الرومىُّ الشيخ على عتيبة يشكر له منّته ؛ فخجل الفتى ، ودبت الحياة فى وجنتيه الشاحبتين وأنغض رأسه ؛

علام يشكره ؟ لقد كفله مكرهاً ثم لم يسلم بعد من الندم على كفالته إياه ؛ وعض على شفته خزياً ، وكان الشيخ يلحظه بعينين فيهما إشفاق وحب ورحمة ، ووقف الأسيران العربيان بينهما يشهدان ويسمعان ؛ وكان مسلمة بن عبد الملك فى مجلسه القريب منهم يرى ويسمع صامتاً ، ثم نطق :

— أيها الشيخ ، قد علمنا ما حمل هذا الفتى العربىّ على كفالتك ؛ إن العرب ما علمت لأهل مروءة ونجدة ؛ فما حملك أنت على الركون إليه دون من حوله من الجند ؟

— رأيت فى وجهه مخايل نبل !

— ولم تر هذه المخايل فى غيره من العرب ؟

— ورأيت عاطفة تدفعنى إليه ؛ فكأنما سمعت صوتاً ينادينى إليه !

— لأمر ما . . .

— لأن فيه ملامح من وجه ما زلت ألتمس مثله فى الناس فلا أرى !

— وجه عربى ؟

— وجه فتاة رومية !

— فتاة !

— ابنتى . .

ـ مالنا ولابنتك يا شيخ ؟

ـ استباها عربى فى أبيدوس منذ بضع وعشرين سنة ، فحملها ومضى إلى بلاده ، فلم تعد إلى أبيدوس قط من يومئذ !

ـ من أبيدوس أنت يا شيخ ؟

ـ بطريق أبيدوس . . . البطريق قسطنطين !

ـ قسطنطين . . . . . .

واعتدل الأمير فى مجلسه وشحب وجهه ونالت صوته حبسة فلم ينطق حرفاً . . . وذهل الفتى ودار رأسه . . بعض هذا الذى يسمع قد سبق إلى وهمه منذ لحظات ؛ أتكون أمه بنت هذا البطريق ؟ ولكنها لم تعترف بأنها رومية ، ولم تنكر أيضاً . . . أيكون هذا حقًّا ؟ يا للمفاجأة العجيبة ! لقد وعد نوار أن يمهرها تاج بطريق رومى ، وأن يُخدمها ابنته . . . أكان يعنى أن يجعل رأس جده مهر عروس ، وأن يجعل فى خدمتها أمّه أو خالته ؟ . . .

وثقل الموقف على كل من يرى . . . الأمير قد ضاقت نفسه بما رأى وما سمع ، ولكنه لا يستطيع فى مجلسه حراكاً ولا تطلُّقاً . . . والشيخ يريد أن يمضى إلى خلوة يتحدث فيها إلى الفتى حديثاً لا يسمعه أحد . . . والفتى مشوق إلى حديث الشيخ ولكن شفتيه قد انطبقتا وجف لعابه فلا يستطيع

لسانه أن يلفظ حرفاً . . والعربيان الأسيران قد نال منهما الجهد واشتغال الفكر واللهفة إلى علم جديد عن أهل وبلد لم يرياهما منذ سنين طويلة ولم يسمعا عنهما نبأ . . .

وأذن الأمير للمجلس أن ينفض ليخلو إلى نفسه ساعة ...

وسيق العربيّان الطليقان إلى بعض مضارب الجند ليصيبا شيئاً من الراحة . . .

وتبع عتيبة البطريق الشيخ ذاهلا لا يكاد يحس أن رجليه تمسان الأرض !

ورغب الشيخ إلى الفتى أن ينزل عليه ضيفاً فى أبيدوس يوماً أو أياماً ، اعترافاً بجميله ، وليستقصى خبره ؛ فأجاب الفتى دعوته . . .

وتنبّه عتيبة بعد غفلة إلى أن الجوهرة والقلادة ما تزالان فى يده ، فرفعهما إلى عينيه كرّة أخرى يتملاهما ، وكانا ما يزالان على الطريق إلى أبيدوس . وبصر البطريق بالجوهرة والقلادة فى يد الفتى ، فاختطفهما وندّت من بين شفتيه صيحة ، وارتاع الفتى حين أطبق الشيخ عليه تتقبّض أصابعه فى لحمه وهو يقول فى مثل صوت المحتضر :

ــ ذاك والله أنت يا بنى ، وتلك ابنتى !

وانكشف الغطاء كله لعينى الفتى . . .

واستسلم للشيخ مسلوب الإرادة قد محا هذا اللقاء من رأسه صفحات وأثبت صفحات . . .

وأوى به البطريق إلى دار أنيقة فى أبيدوس ، ثم دعا أهله رجلا رجلا وامرأة امرأة ليتعرفوا إلى نسيبهم العربى ، ومثلت بين يديه امرأة كأنها سبيكة ، فى مفرقها جوهرة وعلى صدرها قلادة ؛ فوثب إليها عتية يريد أن يضمها إليه ويسند رأسه إلى كتفها وهو يهتف ذاهلا :

ـ أمى سبيكة !

قال الشيخ وربّت كتفه :

ـ تلك خالتك يا بنى ، توءمة لأمك ، وما كان اسم أمك سبيكة يوم ذهبت ، ولكنى أوثر منذ اليوم أن يكون اسمها سبيكة . ليت شعرى كيف صار اسم أختها « رُودْيا » فى بيت سيدها ؟

قال الفتى :

ـ ومن تكون روديا هذه يا أبى ؟

ـ بنتٌ أخرى ، استباها الغزاة فى غارة معاوية ! . . .

ـ وغاب عنك خبرها من يومئذ ؟

ـ وغاب عنى خبرها من يومئذ !

ـ ولا أثر يدل عليها ؟

– جوهرة وقلادة كذلك !

وجاءت امرأة البطريق فضمته إلى صدرها وهي تصيح :

– ابني ! ابني !

وعرف عتيبة كثيرين وكثيرات ، كلهم من بني الخال والخالة ، لو وافق أحداً منهم قبل اليوم في المعركة لعلاه بسيفه راجياً عند الله الأجر . . .

وأخذ أبوه الشيخ يطوف به في حجرات الدار :

– هذه الدُّمى كانت تلعب بها أمك في الطفولة يا عتيبة . . وهذه السلة كانت تجمع فيها الزهر من الحديقة . . . وهذه الشجرة هي غرستها بيديها ولم تذق من ثمرتها شيئاً . . . وهذا الثوب آخر ما خلعتْه قبل أن يذهب بها أبوك !

وكانت الدموع تنحدر على خدى الشيخ فتجاوبها دموع على خدى الفتى . . .

واحتمل الفتى ما احتمل من آثار أمه ، ومما أهدى إليه الشيخ من طرائف الروم ، ثم ودع أسرته هذه الجديدة وعاد إلى معسكره ، يشيعه عشرات من بني الأخوال والخالات . . .

وكان الأمير يرقب مقدمه قلقاً ؛ فلم يكد يؤذن بحضوره حتى دعاه إليه في خيمته . . .

– وأيقنتَ من صدق ذلك كله يا عتيبة ؟

ـــ ورأيتُ بعينيَّ دلائل اليقين !

ـــ وحدثك البطريق بخبره كله ؟

ـــ وحدثنى بكل ما كان من قبل ومن بعد !

ـــ وعرفت خئولتك فرداً فرداً ؟

ـــ وعرفت خئولتى جميعاً إلا فرداً . . .

ـــ من ؟ . . .

ـــ خالتى روديا

ـــ روديا ! . . .

ـــ نعم ، فتاة أخرى استباها العرب فى غزاة معاوية !

ـــ وغاب عنه خبرها من يومئذ ؟

ـــ غاب عنه . . .

ـــ ولا أثر يدل عليها ؟

ـــ جوهرة وقلادة كهاتين !

ـــ وماذا تنبئ عن خبرها جوهرة وقلادة ؟

ـــ مثلَ ما أنبأته جوهرة أمى وقلادتها !

ـــ ولكن أمك ولدتك واستحفظتك جوهرتها وقلادتها !

ـــ وتظن روديا لم تلد ولم تستحفظ أحداً ؟

ـــ من يدرى ؟

ـــ وا أسفا !

ــ علام تأسف يا عتيبة ؟

ــ لقد رجوت ــ منذ عرفت ــ أن يكون لى فى المسلمين خالة آوى إلى مبرّتها بعض أيامى ، وأن يكون لى من بنيها خئولة !

ــ إنك ما علمت لذو وفاء يا عتيبة ؛ فأنا لك فى كل ما أمّلت يا أخى !

ــ وأين أنا منك يا مولاى ؟

ــ ابن أخ أكدت الحادثات نسبه !

ــ لا زال معروفك يطوّق عنقى يا مولاى !

وأوشكت الدموع أن تنبثق من عينى الأمير ، فهب واقفاً ومال بوجهه ناحية ؛ ونهض الفتى فاستأذن منصرفاً إلى خيمته قد توزّعته أشجانه !

وارتمى بثيابه على فراشه مكدود النفس ، وحلق بالوهم فى أجواء بعيدة . . . ولكنه لم يلبث أن انتبه من سرحته على صوت حرسى يدعوه ثانية إلى لقاء الأمير ولم تمض ساعة منذ غادر مجلسه ذاك ؛ وكان أحد العربيين الطليقين فى مجلس الأمير وقد أبدل ثياباً بثياب وسوى شعره وأحفى شاربه فبدا فى منظر آخر غير ما كان منذ قليل . . .

ــ مولاى !

ــ أتعرف هذا العربى يا عتيبة ؟

ــ أحد الرجلين اللذين كانا . . .

ــ نعم ، فهلا عرفت اسمه ؟

ــ وما يكون اسمه ؟

ــ عتبة . . .

قال الرجل متمسماً :

ــ عتبة بن عبيد الله الرقّى !

ــ عمى ، أبو نوار !

ــ من نوار ؟ إنما أنا أبو بشير !

ــ نوار أخت بشير

ــ ابنتى ؟

ــ ابنة عمى !

ــ فأنت . . .

ــ عتيبة بن النعمان !

ــ وماذا فعل النعمان ؟

ــ مات . . .

وتحيرت دمعتان فى عينى الرجل ، ولم يملك الأمير جأشه فأرسل دمعه كذلك ، وقال الفتى وجسده يرتعد كله من الانفعال :

ــ وكنتَ فى أسر البطريق يا عم كل هذه السنين ؟

ــ نعم !

ـ وكانت ابنة البطريق فى أسر النعمان !

ـ وى !

ـ ولم يكن النعمان يدرى ولم يكن البطريق . . .

ـ ولو علما ؟

ـ لم تبق سبيكة فى دار النعمان حتى تلد له عتيبة ، ولم يبق عمى فى أسر البطريق !

ـ فأنت ابنها إذن ؟

ـ نعم !

ـ وجدُّك البطريق ؟

ـ أبو أمى !

ـ ربحتْ صفقة البطريق !

١٩
وفاء النذر

وعاد عتيبة إلى الرقة مثقلا بالغنائم ؛ لم يكن معه رأس بطريق لمهر نوار ؛ ولكن معه أباها . . .

ونشر على عينى أمه ما عاد به من طرائف الرحلة :

ـ هذه الدمية . . . وهذه السلة . . . وهذا الثوب . . .

ـ من أين لك هذا يا عتيبة ؟

ـ من أبيدوس !

ـ وما فعل أولئك القوم ؟

ـ ضيّفوا ولدك فأكرموه وبرّوه !

ـ وعرفوا أمه ؟

ـ وعرفهم ولدها !

ـ وما فعل الله بأبي ؟

ـ ما زال يحمل السيف ، ويلزم الثغر ، ويتعرض للشهادة !

ـ وأين لقيته ؟

ـ بين السيف والنطع !

ـ أسيراً . . . يقدّم للقتل ؟

ـ ولكنني فككت سراحه وحقنت دمه !

ـ جوزيت من ولد بر !

ـ ذاك جزاء معروفك وبرك !

ـ ومن هذا الذي صحبك إلى الدار ؟ كأنني أعرفه !

ـ قد حدستُ ذلك !

ـ من يكون ؟

ـ عمي عتبة . . .

ـــ عمك عتبة ؟

ـــ نعم !

ـــ وأين لقيته ؟

ـــ في أبيدوس !

ـــ قد ذكرتُه ! . . .

ـــ ماذا ؟

ـــ كان أسيراً في دار قسطنطين . . .

ـــ كنت تعرفين أنه هنالك ؟

ـــ ولم أكن أعرف أنه عمك !

ولم يكن أبوكِ يعرف أنك امرأة أخيه !

ـــ فقد تعارفا إذن ؟

ـــ بل افترقا قبل أن يعرف أبوك !

ـــ ثم عرف ؟

ـــ نعم !

ـــ وعرف أنه أبو فتاتك ؟

ـــ لم أنبئه بعد ! . . .

ـــ وتأمل أن تنبئه ؟

ـــ نعم ، إذا خرجنا كرّة أخرى لغزو الروم !

ـــ وتطيب نفسك بالخروج لغزوهم كرة أخرى ؟

ــ وماذا يمنع ؟

ــ إن لك هنالك خئولة !

ــ قد كنت أعرف ذلك منذ بعيد !

ــ وكتمتَ عنى ؟

ــ برًّا بك وإعظاماً لأمومتك ؟

ــ بارك الله لك يا بنى !

ــ ولك يا أم !

وكان الاحتفال بزواج عتيبة ونوار حاشداً ؛ قد ركب له مسلمة من دمشق إلى الرقة فى موكب من مواكبه ؛ فأفاض من بره ولطائفه على العروسين الشابين وأهليهما ما كان حديث المدينة ؛ ولقى سبيكة فتحدث إليها طويلا ، لم تحتجب منه إلا بنقاب شفيف تجول من ورائه عيناها كما وصف النعمان من رؤياه على الأمير ذات مساء . . .

ثم أزمع السفر ، فودعها وودع أهل الدار جميعاً وهو يقول لعتيبة :

ــ إن بيننا نسباً وصهراً يا ابن أخى ، فاذكر عمك مسلمة كلما ضاق بك أمر . . .

ثم ركب وركبت حاشيته ، وودعته المدينة كلها إلى حدود البادية ، ولكنه كان فى شغل بما يعترك فى نفسه من ألوان

الانفعال عن كل ما يحيط به من مظاهر الحفاوة ؛ وارتسمت في ذهنه منذ ذلك اليوم صورة لم تفارقه قط في سفر ولا حضر ؛ هي صورة سبيكة ، أو لعلها صورة أمه رُودْيا ؛ فلم يكن بين الصورتين كبير فرق ؛ ولكن شفتيه لم تلفظا السر الذي ضم عليه أضلاعه حتى مات .

* * *

خاتمة

مسجد الشيخ الصالح تحت أسوار القسطنطينية . . .

عين مسلمة . . .

خليج أبي أيوب . . .

ممرّ العرب . . .

ذلك كل ما بقي ثمة من آثار الغزوة التي كانت سنة ٩٨ للهجرة !

ومضى مئتان من السنين ، ثم مئتان ، ثم ثلاثمئة ، وكان محمد بن مراد ، محمد الفاتح ابن عثمان ، سنة ٨٥٧ . فافتتح القسطنطينية وجعلها دار إسلام ، وما تزال دار إسلام من يومئذ !

اقرأ

محمد عبد الغني حسن

بطل السند

دار المعارف بمصر

٦

بطل السد

محمد عبد الغني حسن

بطل السِّند

الطبعة الثامنة

اقرأ ١٤٢

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

بيت الأبطال

ليس بطل هذه القصة التاريخية شخصاً من صنع الخيال ، أو صورة مما خلقه الوهم ، أو اسماً من الأسماء التى يلفقها صُنَّاع المغامرات فى رداء براق يختلب الألباب ، ويشوق الأسماع .

إنه بطل بما تحمله لفظة البطولة من معان ، إنه رجل عاش فى عالم الواقع ، لا فى دنيا الخيال ، إنه فتى عربى الدماء ، مُضرى الآباء . ركب الله جسمه من اللحم والدم كما تتركب بقية الأجسام ، ولكن أودع بين جنبيه نفساً بعيدة المطامح نائية المطارح . حتى لتكاد الأرض على رحابها تضيق بآماله ، والدنيا على اتساع شعابها تصغر دون مآربه .

وما عجب أن يكون بطل هذه القصة قد قُدَّ على هذا الطراز ، وفُصل على هذا القالب . بل قد يكون أعجب العجب لو أنه شذ عن هذا الطراز . فمن الظلم أن لا يشبه المرء آباءَه . ومن يشابه أبهُ فما ظلم . . .

لقد أنجبت أسرة هذا الفتى الماجد الكريم للإسلام فتياناً

شُم الأنوف بيض الوجوه ، كرام الأحساب ، وكانوا سادة في الجاهلية حين كانت الأصنام تتخذ آلهة من دون الله . فلما جاء الإسلام توج السيادة فيهم ، وعقد الألوية لهم ، ونشر منهم طائفة في شعاب الأرض يفتحونها بلداً إثر بلد ، ويُسقطون معاقل الشرك فيها معقلا بعد معقل . ولا تزال الأرض البعيدة السحيقة ترمى بهم في أقطارها ، نشراً لكلمة الله ، وهم لا يشكون سيراً ، ولا يخافون بأساً ولا رَهَقاً .

إنهم بَنو ثَقيف في الطائف . والطائفُ رَبضٌ من أرباض مكة ، نضر الله أرضها ، وأبردَ نسمات الهواء فيها ، وأخرج من رياضها نباتاً مختلفاً ألوانه ، وفاكهة تسقى بماءٍ واحد ، ويفضل الله بعضها على بعض في الأكل . . .

لقد اشتهرت الطائف فوق بساتينها ورياضها بدباغة الجلود والأُهب الطائفية المعروكة كما يذكر الهمداني — صاحب صفة جزيرة العرب — في وصفها وكأن أُهبَ شبابها وجلود أجسامهم المعروكة تُوائم الأُهب والأَدُمَ التي يصنعونها . ففيهم من الجلد في المواقف ، والصبر على المكاره ، والثبات في المعارك ما يذكر دائماً بمتانة الأُهب التي تصنع بأيديهم ،

والتى حازت فى رحاب الجزيرة كلها شهرة عريضة ، كما حازت سيوف الهند شهرة فى القتال ، والرماحُ الخطِّية شهرة فى المصاولة والنزال .

كانت الطائف جلها أغلبَ مساكن بنى ثقيف ، ولهم فيها السيادة والجاه من قديم . وفى بعض رجالاتهم فى الجاهلية وجاهة فى النسب ، وعراقة فى الحسب ، وعظمة فى المنابت والأصول . أليس منهم عروة بن مسعود الثقفى الذى عادلت به قريش فى عنادها ولجاجها محمداً عليه السلام ، وتمنت لو نزل عليه القرآن واختصه الوحى ، فقالوا : (لولا نُزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ؟

أليس منهم معتِّب بن مالك الثقفى الذى بعثه رسول الله إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام ، ويبشرهم بالدين الجديد الذى جاء يفرق بين الحق والباطل ، ويوضح المعالم بين الظلمات والنور؟

أليس منهم غَيلان بن سلمة الذى كانت له فى قومه الرياسة وإليه مقالد الحكم ، ومفاتيح الأمر والنهى ، فوفد على كسرى أيام كانت وفود العرب تَفِدُ على دولة الأكاسرة

يفاخرون بآبائهم ، ويذكرون مآثرهم ، ولا يبالون ، وبين يدى كسرى الصولجان وعلى رأسه التاج ، أن ينتقصوا كل أمة غير العرب ، وكل لغة غير لغة العرب ، وكل مكرمة غير المكارم العربية ؟

أليس منهم القاسم بن محمد أبو بطلنا ، وهو الذى كان والياً على البصرة من قبل الحجاج بن يوسف ، فأحسن الولاية ، وضبط الأمور ، وأجزأ فى المهم الذى انتدب له ؟

أليس منهم الحجاج بن يوسف الثقفى ، وأبوه ابن عم بطلنا ، وهو من هو فى التاريخ الإسلامى ، وفى توسيع رقعة المملكة الإسلامية ، وفى تشجيع الفتوح ، وفتح الثغور ، على الرغم مما عيب عليه من قسوة بالغة فى إراقة الدماء ، وفى الضرب على الأيدى ، وفى أخذ البرىء بالمسىء ، حتى سكنت له وللأمويين ثوائر الفتن ، وخمدت نار الخلاف ، وسكنت ريح الثورات التى كانت تهدد الدولة العربية القائمة بصدع كبير ، وأمر خطير ؟

فلم يكن بطلنا محمد بن القاسم إذن خارجاً على السنن الذى بناه آباؤه . إنه من قوم كانوا يرون الموت على الفراش

عاراً ،وكانوا يرون أن السيادة لا يمنع منها سنٌّ ، ولا يقيدها حساب بعمر . فقد يطول العمر ولا سيادة لصاحبه ، وقد تقصرُ مسافة الأعمار ، ولكنها تزدحم بالهمم الكبار التى لا منتهى لها.

ألم يسد الحجاج نفسهُ وهو فويق الخامسة والعشرين ، ثم صارت إليه ولاية الحجاز وهو فى الثالثة والثلاثين ، ثم انتهت إليه ولاية العراق وهو حول الخامسة والثلاثين ؟ ولقد كان الحجاج يتعجل مراتب السيادة والرياسة كأنه معها على رهان . فهو فى أول أمره معلم صبيان بالطائف ، وفى الخطوة التالية نراه شرطياً فى شرطة عبد الملك بن مروان، فتأتيه الرياسة نتيجة لموقف حازم منه على المتقاعدين عن القتال ، فإذا هو رئيس مقدم عند الخليفة الأموى الذى أعطى فراسة فى اختيار الرجال .

لا ! لقد فاق بطلنا محمد بن القاسم ابن عم أبيه الحجاج فى السؤدد على حداثة من السن ، بل فاق فتيان ثقيف جميعاً ، بل فاق آلافاً مؤلفة من رجال المسلمين وقوادهم ، بل فاق كثرة كاثرة ، وأمةً ساحقة من رجال العالم كله ، شرقيه وغربيه ،

قديمه وحديثه ، عُربه وعجمه ، حين فتح الله على يديه « السند » للمسلمين ،وسنه سبعة عشر عاماً ، لا تزيد ، بل قد تنقص ببضعة من الشهور . . .

لقد قالوا فى عقل الحجاج بن يوسف الثقفى إنه لا تدانيه عقول الرجال ، فهو راجح الميزان فى التفكير والتدبير إذا قورن بمن عداه من كبار العقول ، ولكن محمد بن القاسم — بطل الهند والسند — لا يكاد القواد العالميون يبلغون مداه أو يلحقون غبار فرسه ، حين تنصب للرجال الموازين القسط ، فلا يتحيف عليها اعتبار لمذهب ، أو ميل مع تعصُّب .

واللهم احفظنا من التعصب ، وخاصة إذا جاء ممن يُرجى منهم الانتصاف ، ويؤمل فيهم العدل ، وتُنتظر منهم كلمة الصدق . ولقد كان أهل ابن القاسم وقومه وقبيله موضعاً للانتقاص من الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان . وهو انتقاص دفع إليه التجنى على الحق ، والإنكار للتاريخ ، والطمس لمعالم المتعالم المعروف ، والاستجابة لدواعى الغضب حين يميل بصاحبه إلى الهوى ، فيخرجه عن جادة الرأى الصحيح . . .

فقد ذكر التاريخ والمؤرخون أن عبد الملك بن مروان غضب على الحجاج بن يوسف يوماً لأنه أهان أنس بن مالك خادم رسول الله عليه السلام ، وقد امتد به الأجل حتى أدرك عصر عبد الملك ، فكتب إلى الحجاج كتاباً بالغ الشدة ، بادى التهديد ، واضح السخرية ، حين يقول فى بعض مقاطعه : (أنسيتَ مكاسب آبائك بالطائف ، وحفرهم الآبار ، ونقلهم الصخور على ظهورهم فى المناهل ؟) .

ولعل كلاماً لم يُخرجه الغضب والسخط عن طريق الصدق والحق مثل هذا الكلام . . . فإن آباء الحجاج وآباء بطلنا محمد بن القاسم هم كما ذكرنا من بنى ثقيف فى الذؤابة ، وإليهم انتهت الرياسة فى الطائف ، والوفادة على كسرى فى الجاهلية ، والدعوة إلى الإسلام فى بداية الدعوة ، حين شكا النبى عليه السلام إلى الله ضعفه وقلة حيلته . وحين أغرى سفهاء الطائف الصبيان بالنبى ، يرمونه بالحجارة ويتصايحون عليه ، حتى اجتمع الناس عليه وألجأوه إلى حائط من حوائط مدينة الطائف ، فجلس إلى الجدار بعد أن ذهب عنه بعض الرَّوع ، واطمأن بعض الاطمئنان ، واتجه إلى الله قائلا : « اللهم إليك

أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . . .
اللهم يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكتـَه أمرى؟ إن لم يكن بك علىّ غضبٌ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع » .

وفيم ينكر عبد الملك بن مروان سيادة قوم الحجاج وابن عمه محمد بن القاسم ، وهؤلاء أهل مكة أنفسهم يشهدون للحجاج بالشرف وعظم الأصل حين دخل مكة مخلصاً لها من يد عبد الله ابن الزبير ، فقد اعتذر الحجاج لأهلها لقلة ما منحهم إياه من الصِّلات والأعطيات ، فقال قائل منهم : إنا والله لا نعذرك وأنت أمير العراقين ، وابن عظيم القريتين .

وما لنا نحن وللحجاج الآن ؟ إنما جئنا به هنا لأنه مع بطلنا ابن القاسم من نبعة واحدة ، ودوحة واحدة ، أخرجت للعرب والإسلام أشد الرجال ، وأحدّ النصال . ولقد كان بطلنا محمد بن القاسم — فوق قرابته القريبة للحجاج — صنيعة من صنائعه ، وسهماً من سهوم كنانته ، رمى به فى أقاصى الهند ، ومنازح السند فأبعد المرمى ، وعاد من هناك على الملك الإسلامى الناشئ بملك كبير . . .

وعجيب أن يلتقى هنا البطل محمد بن القاسم وابن عمه الحجاج لقاء لم يكن منه مناصٌ ولا عنه مَعدى . ونحن نردُّ بطل السند إلى أصله ، وننسبه إلى آبائه . فإذا ذُكرت ثقيف خطر على البال — فى الحال — اسم الحجاج الثقفى ، واسم محمد بن القاسم الثقفى ، كما خطرت على البال أسماء عشرات وعشرات من بنى ثقيف ، فيهم البرُّ والفاجر ، وفيهم الطيب والخبيث ، وفيهم الشهيد الذى قتل مع أمير المؤمنين عثمان ، وهو المغيرة بن الأخنس ، وفيهم الذى لم يَروْ سَيفه من الدماء ، وهو الحجاج .

على أننا سنلتقى بالحجاج هنا أكثر من مرة ، فهو الذى صنع بطل السند على يديه وعينيه ، وهو الذى أرسله ليخوض الغمرات فى حروب العراق ، قبل أن يبعث به على رأس الجيش العربى إلى بلاد السند ليحطم فيها الأصنام ، ويرفع فيها لواء الإسلام .

ولتكن للحجاج عيوبه وخطاياه بجانب آثاره فى توطيد دولة ، ودعم أركان أمة ، فقد كان من دهاة الرجال ، ومضت به سبيل لا يُرجى منها إلا عفو الله . أما ابن القاسم — بطل

السند والهند — فلم يكن ممن لوثتهم السياسة بأوضارها ، أو لطختهم بسواد معايبها . وإنما كان بطلا نقياً، ومجاهداً تقياً ، وسيفاً من سيوف الله الماضية ، سلَّه الله لنشر دينه ، وإعلاء كلمته .

إن ابن القاسم لم يكن يبنى للأمويين، كما بنى الحجاج . ولم يكن يعمل لشخص الوليد بن عبد الملك كما كان يعمل الحجاج . لقد بنى لله ، وعمل لدين الله ، وتجردت نفسه من شهوة المطامع فى حكم أو ولاية أو عمالة ، فعقد الله النصر على مفرقه وهو شاب بلغ الحلم أو تجاوزه بقليل . . .

ولقد لقى بطل السند من الجزاء ما لا يتكافأ مع حسن الصنيع ، ولقى من الجحود مالا يقاس به سوء العرفان ، وقتلته شهوات النفوس ونزوات الأحقاد ، مصطنعةً فى ذلك مكيدة افترتها — بتحريض من الحاقدين الناقمين — أميرةٌ سندية هى بنت ملك السند الذى اخترطته سيوف المسلمين الفاتحين .

أما قصة هذا البطل الشهيد ، وقصة هذا الفاتح الغالب ، وقصة هذه الأميرة التى اتخذت أداة لقتل الشاب العفيف البرىء ، المغامر الجرىء ، ففيما يلى من الصفحات . . . .

أحاديث الطفولة

جلس الشيخ محمد بن الحكم — جد بطل السند — فى داره الرحيبة بالطائف فى ليلة من عام ٧٢ للهجرة يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً، ويدعو الله أن يجعل تحت امرأة ابنه القاسم غلاماً سرياً . وكان القاسم — أبو بطلنا المستكن فى ضمير الغيب — قلقاً على زوجه "نائلة" حين جاءها المخاض وهى على حال من الصحة قد لا تطيق معها آلام الولاد . . . لقد كان الأب مشفقاً على زوجه ، وكان الجد متشوقاً إلى حفيد له يرى فيه استمرار الحياة فى الأحياء والأبناء ، ويحمل اسمه الذى كان أكرم ما تحمل الجزيرة العربية من أسماء .

لقد كان محمد بن الحكم ميمون النقيبة حين سماه أبوه الحكم باسم محمد ، وحين بشر محمد بغلام أسماه القاسم ، كما كان للنبى الهاشمى غلام اسمه القاسم . والليلة يتمنى أن يسمى الجنين المضمر محمداً لو وهب الله لهم غلاماً .

وما خيب الله أمنية المتمنى ، فقد هرعت جارية فى دار

الحكم إلى محمد بن الحكم وابنه القاسم تزف إليهما بشرى غلام سعيد .

واتجه محمد بن الحكم إلى الله شاكراً ما حقق ، وجرى القاسم والبشر يتلألأ فى عينيه إلى الغرفة التى أهلّ فيها الوليد ، فطبع على جبينه قبلة ، وهو يهتف : محمد محمد !

وانطلقت البشرى فى كل ناحية من الطائف ، وفى كل دار من دور ثقيف بأن القاسم بن محمد بن الحكم وُهب له غلام سَرىّ ، وأنه يحمل اسم جده محمد ، فاستقبلت الطائف كلها نبأ البشار بفرح كبير .

ونشأ الرضيع كما ينشأ الرضع من أبناء ثقيف ، ولكنه لم يصحب مولده ولا شهور رضاعه خارقة من الخوارق التى تُنسبُ عادة إلى كبار الرجال ، وعظماء الأبطال . ألم يقولوا إن الحجاج حين ولد سنة ٤١ هـ لم يَقبل ثدى أمه إلا بعد أن لطخوه بدم جَدْى أسود وطلوا به وجهه ، فأقبل على الثدى بعد امتناع ؟ ثم ألم يقولوا إن القائد التترى تيمورلنك ولد ويداه مخضبتان بالدماء ؟ ومن هنا كان الحجاج وتيمورلنك سفاكين سفاحين للدماء .

ومن حسن الحظ أن التاريخ مر بمولد بطل السند ــ محمد ابن القاسم ــ مروراً هيناً رفيقاً متواضعاً ، فلم يخلق أسطورة حول مولده ، ولم يصنع غريبة حول رضاعه . ولكنه جعله طفلا كسائر الأطفال ، ولم ينصب حول ميلاده تلك الهالة التي تُجلل موالد الأبطال .

ولكن قد يكون من سوء الحظ أن ميلاد بطل السند والهند مر في هدوء وصمت ونكران ، كما مرت ذكراه في هدوء وصمت ونكران . فقد فتح الله به على المسلمين والإسلام شبه القارة الهندية . كانت حياته القصيرة في هذه الدنيا صراعاً وجهاداً في سبيل الله ، ونشراً لكلمة الله . ولكنه مات ميتة الجحود والنكران ، فعُذب صبراً فيمن عذبهم الخليفة سليمان ابن عبد الملك من قوم الحجاج وأقاربه ، وضن عليه المؤرخون بالترجمة له ، والإطالة في ذكره ، إلا أخباراً قصاراً ، أطال فيها المؤرخ ابن الأثير بعض الإطالة ، وقصر فيها المؤرخ الطبري كل التقصير ، وذكرها صاحب فتوح البلدان وهو يذكر أخبار الفتوح .

تعالى الله الذي قسّمها حظوظاً ؛ فكما تختلف حظوظ

الناس من الرزق والمال تختلف من الشهرة والصيت . ولو عدلت الحظوظ ما قل نصيب محمد بن القاسم من الاشتهار عن نصيب عمرو بن العاص فى فتح مصر ، وخالد بن الوليد فى فتح الشام ، وسعد بن أبى وقاص فى فتح فارس ، وطارق بن زياد فى فتح الأندلس .

ولقد كان البطل المسلم قتيبة بن مسلم معاصراً لمحمد بن القاسم وأبلى فى حرب خراسان وتركستان مثل ما أبلى محمد فى السند والهند ، ولكن حظيهما من الشهرة مختلفان ، فقتيبة يعرفه الأكثرون وتوضع فيه الرسائل ، وتكتب عنه الفصول ، وتذاع فيه الأحاديث . ومحمد بن القاسم لا يعرفه إلا الأقلون ، ولم تجتمع أخباره المتفرقة القليلة إلى اليوم بين دفتى كتاب .

وفى سنة ٧٥ هـ عين الحجاج والياً على العراق بعد أن صنع بالحجاز ما صنع ، وادخر بذلك يداً عند الأمويين ، فكان له من الدالة عليهم ما أقام له الأمور فى العراق على هواه ، يعين الولاة ويعزلهم بكلمة منه مسموعة عند عبد الملك بن مروان. وهنا نجد القاسم — والد بطل السند — والياً على البصرة فى أوائل ولاية الحجاج على العراق . وهنا ينتقل الطفل محمد

ابن القاسم إلى البصرة حيث أبوه يليها ، فلا يذكر من أرض الطائف و بساتينها إلا ما تختزنه ذاكرة الطفولة الباكرة من صور لا تلبث أن تأتى عليها الأيام .

ومرت الأيام والعراق مسرح للحوادث ، فالخوارج يقاتلون ويُقتلون ، وشبيب بن يزيد الشيبانى ممعن فى ثوراته ، والمهلب ابن أبى صُفرة ممعن فى قتال الأزارقة . وأكبر الظن أن أخبار هذه الأحداث كانت تطرق سمع الطفل الصغير ، كما كانت تطرق سمعه أخبار وقائع العرب مع الروم ، ومناوشاتهم مع الترك بقيادة ملكهم رتبيل .

وبلغ الوليد بضع سنوات حينما بنى الحجاج مدينة واسط بعد أن تنكر له أهل البصرة والكوفة من العراقيين ، وكان قصده من بنائها أن ينزل بها جند الشام الذين كان يعتمد عليهم،ويركن فى الحروب إليهم .

وامتلأت المدينة الجديدة الناشئة بسكانها الجدد ، وكان فيها قوم الحجاج ،وفيهم الطفل محمد بن القاسم الذى شهد فى البصرة ألواناً من الناس غير العرب ، كانوا يفدون إليها للصفق بالأسواق ، أو لمآرب أخرى من مآرب العيش فى الحياة .

وأغلب الظن أنه لقى فى البصرة — وهو طفل — قوماً من أهل السند الذين كانوا يجوبون الأمصار.وأغلب الظن أنه سمع عنهم من عجائب الهند وغرائب السند ما طوح بخياله إلى ذلك العالم البعيد الذى تفصله عنه بُحرانٌ وشُطآن . . .

وهنا فى مدينة واسط كان الطفل قد بلغ الحادية عشرة أو زاد عليها قليلا ، وبدأت أخبار الفتوح تدخل إلى أذنيه فيجد طرباً لسماعها . إنه يسمع أن يزيد بن المهلب قد فتح قلعة نيزك وكانت من أحسن قلاع باذغيْس وأمنعها ، ويسمع بعد قليل فى العام نفسه أن عبد الله بن عبد الملك غزا بلاد الروم وفتح المصيصة وبنى حصنها .

ولم يكن هم محمد بن القاسم أن يستمع إلى أخبار الحروب دون أن يشارك فيها ، فقد تطاعت نفسه إلى خوض المعارك وهو دون البلوغ بكثير ، وهنا نجده فى فرقة أرسلها الحجاج لمقاتلة عدوه عبد الرحمن بن الأشعث ، كما نجده فى جيش الحجاج نفسه الذى خرج به لقتال عبد الرحمن فى واقعة دير الجماجم .

ومن عجب أن الميادين التى تلقّى فيها محمد بن القاسم

دروس الكر والفر لم تكن ميادين مع أعداء المسلمين ، ولكن كان بأس المسلمين بينهم شديداً ، فنال بعضهم من بعض . ولعل ابن القاسم سمع أو وعى من بسالة الخوارج واستماتهم فى سبيل الفكرة ما هوّن عليه أمر الحياة فى نظر نفسه ، ولعل قربه القريب من أحداث ابن الفجاءة وشبيب وعمران بن حطان قد أصغر فى عينيه عظيمات الأمور . فهو يخوض المعارك مع الخائضين ، ويجيد الطعن والضرب ، ويعرف مواطن الإحجام والإقدام ، فكل خطوة عنده بمقدار ، وكل كرّة عنده بميزان .

وأغلب الظن أن محمد بن القاسم لم يكن راضياً عن هذه الحروب التى تلقّى فيها أول دروس الجندية ، فلقد ضاق هو كما ضاق كثيرون غيره بهذه الثارات والثورات التى لم تضع أوزارها بين العرب ، وماذا ينفع المسلمين أن يقتل ابن الأشعث أو محمد بن موسى بن طلحة ، أو عبد ربه الكبير ، أو بجير ابن ورقاء وغيرهم من عشرات الرجال الذين يزدحم بهم تاريخ حكم عبد الملك بن مروان ؟

لقد تذكر محمد بن القاسم فتوح المسلمين فى أيام عمر ، بل قفزت إلى ذاكرته تلك الأنباء الضئيلة التى ترامت إلى طفولته

الباكرة عن فتح حسان بن النعمان لأفريقية ، وما صَنعَ بالكاهنة التي كانت تملك البربر ، وكانت عظيمة المحلّ عندهم ، والتي ألّبت البربر على المسلمين ، فذاقت وبال أمرها على يد حسان ابن النعمان .

وتذكّر تلك الأحاديث عن الهند التي كان يحملها التجار وجُوّاب الآفاق عن تلك الأرض الساحرة التي كان ينصبُّ الذهب فيها على إلههم بوذا وسدنته وحراس بيوته ، وأوثانه المنتشرة فى كل مكان .

وعز عليه أن يرى فى العراق قوماً يقتتلون فيما بينهم ، على حين أن هناك — خارجَ حدود المملكة الإسلامية — رقاعاً فسيحة من الأرض ، تخيم عليها ضلالات الجاهلية التي كانت سائدة فى شبه الجزيرة العربية ، ويعبد أهلها من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، ويسودها ظلام كثيف ضرب عليها قروناً وأجيالا ، فحجب عنها منافذ الضياء .

فإلامَ تظل هذه البقاع الفساح بيداً لا نجاة فيها لسائر ، ولا دليل فيها لحائر ؟ ولماذا لا يتجه المسلمون إلى هذه الأصقاع ؟

عهد المسلمين بالسند

كان الفتى محمد بن القاسم يسمع كثيراً عن السند والهند منذ طفولته الباكرة ، حتى راوده خيالهما وهو حديث عهد بالوِلادة . ولم تكن السند فى ذلك الحين غريبة كل الغرابة على المسلمين ، فقد كان لهم فيها سابقة من غزو فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وفى إمارة عبد الله بن عامر على البصرة . نعم ! فبعد العام الثلاثين من الهجرة بقليل ، كان عبد الله ابن عامر يرسل البعوث من ثغر البصرة إلى ما جاوره أو بعد عنه قليلا من ثغور بحر فارس والمحيط الهندى ، وكان ثغر السند مما وقع عليه نظر ابن عامر ليزيد به شيئاً فى رقعة المملكة الإسلامية .

وعين ابن عامر رجلا من رجاله ، هو عبد الله بن سوار عاملا له على ثغر السند ، وانصرف إلى حروبه مع فلول الفرس حتى قتل يزدجرد آخر ملوكهم فى عهد إمارته على البصرة سنة ٣١ هـ .

وتختفى أخبار السند من مسرح التاريخ الإسلامى بعد غزو ابن عامر لها وولاية ابن سوار عليها فى عهد عثمان ، وتظل عشرة أعوام فى موادعة مع المسلمين ، إلى أن يجىء عام ٤٤هـ ، ويعين الحكم بن عمرو الغفارى والياً على خراسان ، فيرسل من لدنه محارباً جلداً على القتال ليغزو ثغر السند من جديد، هذا المحارب هو المهلب بن أبى صفرة الذى اشتهر بعد ذلك بقتال الخوارج وأبلى فى محاربتهم أصبر بلاء .

وتختفى السند من مسرح الحوادث أعواماً أخر ، يكتفى فيها خلفاء بنى أمية بإرسال عامل من قبلهم عليها يجمع خراجها القليل الضئيل ، وقد يكون هذا العامل موضع الطمع من منافسين أشداء له ، يغلبونه على أمره ويريحون الثغر من ولايته ، كما حدث فى أول عهد الحجاج بولاية العراق .

ففى سنة ٧٥ هـ — وهى السنة التى عين فيها الخليفة عبد الملك بن مروان الحجاج والياً على العراق — اتخذ عبد الملك عاملا له على ثغر السند هوسعيد بن أسلم بن زرعة ، ولم يكن سعيد هذا ممن تهاب سطوته ، أو تخشى صولته ، فقد خرج عليه أخوان ثائران طامحان من ولد الحارث ، وأقلقا

عليه مضجعه بالليل ، وسدّا عليه سبيل النهار . فقتلاه وغلبا على البلاد . فبعث الحجاجُ إلى ذلك الثغر الثائر القلق برجل من تميم يتحرق قلبه ، ويتلظى حبًّا للغزو والمجاهدة فى سبيل الله ، هو مُجَّاعة بن سُعر التميمى ، فغلب على الثغر ، وأقر الأمور فيه على حال تسمح له بمواصلة الغزو على نطاق ضيق ، فغزا وفتح أماكن من إقليم قندابيل ببلاد السند . ولكن الموت كان راصداً له فلم يمهله حتى يستوفى العامُ أجله ، ومات بمكران .

كانت الجالية العربية الإسلامية الناشئة فى بلاد السند تتسع قليلا قليلا ويقوم بينها من المصالح ما يقتضى سهر العمال عليها وقيامهم بأمورها . وكان هناك جزيرة صغيرة اسمها جزيرة الياقوت يحكمها ملك من ملوك السند ، وكان فى الجزيرة نسوة وُلدن فيها مسلمات ونشأن على الإسلام من آباء مسلمين ، ومات هؤلاء الآباء وظل النسوة بلا حام لهن ولا راع ، فأراد مَلكُ جزيرة الياقوت أن يتقرب بهن إلى الحجاج فيهديهن إليه ، وأرسلهن فى سفينة أخذت تشق طريقها إلى البصرة ، وفيما هى سائرة على وجهها إلى قصدها ، إذا بجماعة من قراصنة الدّيبل يخرجون فى بوارج لهم خفيفة ، فيأخذون السفينة بما فيها

من المتاع ومن فيها من النساء . وهنا يرتفع صوت واحدة منهن مستغيثة قائلة : يا حجاج! كما ارتفع بعد ذلك فى العصر العباسى صوت عربية مستغيثة بالخليفة العباسى قائلة : وامعتصماه ...

ولم تُضيع أمواج البحر ولا هديره ولا زمجرة رياحه صوتَ ذلك النداء الخارج من قلب عربية كسيرة ، فى رفقة أخوات لها كسيرات ، وإذا كان النسيم فى رقته ينم على العشاق فيذيع أخبارهم ، أفلا تحمل الرياح فى قوتها صوت الضعيفات المهيضات إلى من يخفّ للنجدة ، ويسرع للمعونة ؟ لقد بلغ ذلك الصوت المتكسر المضطرب مسامع الحجاج ، فيقول المؤرخون إنه قال : لبيك ! لأن العربى سريعٌ بطبعه إلى النداء ، فما بالكم إذا كان لنجدة النساء ؟

وسلكَ الحجاج أول الأمر طريقه الدبلوماسى ، فقد كان داهية فى السياسة والدبلوماسية ، فأرسل إلى ذاهر ملك السند يسأله تخلية النسوة اللائى أخذهن قراصنة الدّيبل إحدى بلاده. فردّ ذاهر ردًّا لعل الله قصد به أن تصير الأمور فى السند إلى المصير الذى نحن مقبلون على وصفه، من ضياع مملكة واسعة ، وفتح بلاد شاسعة ، والتمكين للعرب والإسلام من بلاد

رحيبة الأرجاء ، وإعلاء كلمة الله فى بلاد كانت نلأصنام البوذية فيها دولات وسلطان .

لقد رد ذاهر ملك السند بأن الذين خطفوا النسوة العرب لصوص لا يقدر عليهم ، ولا ينبسط سلطانه على سلطانهم ... وبذلك مهد للحجاج الأعذار فى غزو بلاد التى لا يستطيع فيها — وهو ملك — حماية ضعيف ، ولا إغاثة لهيف .

فأرسل الحجاج جماعة من المقاتلة على رأسهم ابن نبهان إلى مدينة الديبل مهد القراصنة ، ووكر لصوص البحر الفاتكين ، فقتل القائد ابن نبهان ، وانكسرت روح جماعته لمقتله ، فأرسل الحجاج يستقدم جندياً اسمه بديل من عمان ، ويأمره أن يسير إلى الديبل ، يقاتل أهلها من لصوص البحار وقطاع الطرق ، فلقيهم بديل فى شجاعة فائقة ، واستماتة بالغة ، ولكن الحظ قد أخلاه من طريق الفتح للسند ، كما أخلى القائد مجاعة من قبله ، ليفسح الطريق للقائد الموعود ، والفاتح المنشود : محمد ابن القاسم .

ومن عجب أن يموت "بديل" بأسباب شجاعته ، وأن تكون منيته فى فروسيته ، فقد نفر به فرسه نفاراً لم يستطع معه له كبحاً ؛

ولا له ردًّا ، فأحاط به العدو من مقاتلة الديبل وأهل السند فقتلوه . . .

وهنا كانت الأسباب كلها تلح على الحجاج فى إرسال جيش كبير إلى بلاد السند ، يؤدب به العصاة ، ويفتح به الأرض ، ويحقق نصر الله الذى وعد به من ينصره .

فمن يكون ذلك القائد لجيش السند الذى تخبئه لهـــا الأقدار ؟

٢٩

على الأهبة

دخل محمد بن القاسم على ابن عمه الحجاج مغاضباً حين ترامت إلى أسماع المسلمين هزيمة البعوث الصغيرة التى أرسلت فى ولاية الحجاج إلى ثغر السند . وكان قلب الشاب الشجاع يتميز من الغيظ على المصير الذى لقيه ابن نبهان ، وبديل ، وهما يريدان الثأر من قراصنة الديبل . وهل عقم نساء العرب عن أن يلدن أشباه القواد من أمثال خالد بن الوليد والزبير بن العوام ، وأبى عبيدة عامر بن الجراح ، وسعد بن أبى وقاص ؟

وانفجر الشاب أمام هيبة ابن عمه الحجاج ، لا يخاف ذلك الداهية الذى أخاف قلوب أهل العراق . وقد كان لصلة ابن القاسم القريبة بالحجاج ، ومكان الدالة عليه منه ، ما جعله يصرح بالمقال ، ويندفع فى الكلام ، ويسرف فى الملام ، لا خائفاً ولا وجلا ، وهو يقول :

— مولاى وابن عمى ! لعل مصرع الشهيدين فى غزاة السند قد هز أعطاف قلبك ، كما اهتزت له أركان الدولة ،

فماذا أنت فاعل ؟ لقد اختطف قراصنة السند من مدينة الديبل بعضَ النسوة المهديات إليك ، وردّ عليك ملك السند رداً لا يحمل العجز قدر ما يحمل الاستخفاف بالمسلمين ، ونية الغدر بهم . وغداً يجترئ عليك أهل السند ، وينتقض على الدولة ملوكهم فيستردون الأرض التي كسبناها من عهد الخليفة عثمان بن عفان . ولقد أجبت نداء المستغيثة بك ، ولكن جندك لم يحقق نصراً ، ولم ينصف ظلماً ، ولم يسترد الأخيذات الضعيفات . ولقد جئتك من فارس لعلى ألقى الله فى أرض السند فأظفر هنالك بأجر الشهيد . فهلا أرسلتنى إلى ثغر السند ؟

— نعم الروح روحك يا بنى ، ونعم الجهاد جهادك ! وإنى مسيرك فى جيش على رأسه أبو الأسود جهم .

— والله يا أمير العراق ما يضيرنى أن أكون جندياً صغيراً لقائد من قوادك كأبى الأسود ، ففيه بلاء ، وفىّ طاعة . وما أنا ممن يخالف لعاجل مصلحته ، فأبق أبا الأسود بفارس فإن الحاجة إليه ماسة ؛ والخبرة فيه مرجوة ! وقد عرف الطرق وسلكها ، وبلا المواقعَ واختبرها ؛ وأرسلنى أنا إلى السند آتيك

بالأخائذ اللائى اختطفهن اللصوص ، وآخذ لك وللعرب بثأر اثنين من خيرة قواد المسلمين ، وبعدها يفعل الله ما يريد ...

— ولكنك يا بنىّ فى مثل سنك الباكرة لا يجوز أن تنعقد لك قيادة على جيش ، فإنك فى عامك السابع عشر ، وفى المسلمين غيرك من تقدمه سنه ، ويؤهله عمره ليكون على رأس جيش الخليفة إلى السند .

— ومتى كان السن يا أمير العراق حائلا بين المرء وبين ما يستحقه من عمل ؟ وليس ذنبى أنْ تأخر بى الميلاد إلى ما بعد العام السبعين من الهجرة ، وتقدم بغيرى قبل ذلك بعشرات السنين ؟ فاختبر بلائى يا ابن العم هذه المرة ، وأرجو أن يحمدك الاختبار !! فابتسم الحجاج ابتسامة تحمل من المعانى ما لا يخفى على الشاب المقدام وقال :

— وكيف يصح يا بنى أن أجعل مصالح المسلمين موضع الاختبار لديك ، ما دام فى ذلك مندوحة عنك باختبار غيرك من شيوخ الحرب ودهاتها ، ممن لهم سابقة قدم فى الميادين ؟ وفيم تتعجل يا بنى القيادة وهى آتية لك مع الأيام ؟

— يا أمير العراق ! لقد حزننى مصرعُ شهيدين فى بلاد

السند ولم يبرح خيال الدم المتقطر منهما يؤرق ليلي ، ويُقلق نهاري ، فهلا جعلتني لهما ثالث الشهداء ؟

— يا بني ! أخشى أن تقول الألسنة إن ابن يوسف الثقفي يحابي أهله ويصانعهم ، ويؤثرهم بالمناصب على غيرهم من أبناء المسلمين .

— ولكنني يا أمير العراق لا أطلب منصباً ، ولا أطالبك برزق ، وإنما أطلب منك أن تعينني على موتة في سبيل الله . فأعني على الموت يَهبْ لك الله الحياة !

— تأبونَ يا بني ثقيف إلا أن تسبقوا إلى الفضل ولو على أطراف الرماح ! فخذ يا بني سيفك وامض لوجهك على بركة الله ، وكن — من الآن — عاملا لبني أمية على ثغر السند . وسيأتيك كتاب الخليفة الوليد بن عبد الملك بإقرار العهد لك .

* * *

ومضى محمد بن القاسم والفرح يملأ مسالك نفسه ، وأخذ يعد للغزو عدته ، ولم يتركه الحجاج يستقل وحده بتدبير أمر الجيش الجديد ، ولكنه أخذ يجهزه بكل صغيرة وكبيرة مما يحتاج إليه في ساحة القتال ، بعيداً عن قواعد الإمداد ، ومراكز التموين ...

ولم يترك الحجاج صغيرة إلا أمدَّ بها ذلك الجيش الذى يعلق عليه المسلمون أكبر الآمال . حتى الخيوط والمسالُّ والإبر مما يحتاج إليه فى رفو الثياب ، ورتْق العياب ، كانت مما جهز به الثقفى جيش السند المتأهب للقتال .

وأعجب من هذا أن يفطن الحجاج إلى حب العرب للخلّ فى طعامهم ومعيشتهم ، يطبخون به ويصطبغون ، والخل فى بلاد السند ضيق شحيح ، فكيف سبيل جيشه إليه وهو مما يثقل حمله فى الدنان على ظهور المطايا ومتون الدواب ؟ لقد فكر الحجاج فى حيلة لطيفة يزود بها جيش السند بحاجته من الخل فى غير مشقة من الأحمال الثقال ... لقد أمر بالقطن المحلوج فنقع فى الخل ، ثم جفف فى الظل — حتى لا تبخره الشمس — ووضعه خفيف المحمل مع ما وضع من الذخيرة وميرة القتال .

وسير الحجاج مع البطل الشاب ستة آلاف مقاتل تتحرق نفوسهم إلى الشهادة فى سبيل الله ، وقد خرجوا من ديارهم على نية البيعة لله ولدينه ، فإن قُتلوا فلهم أجر المجاهدين ، وجزاء الشهداء الصالحين ، وإن عاشوا فإن حياتهم لله موهوبة ، لا يضيرهم أن يَسبق إليها الدعاء ، أو يتأخر بها النداء ...

صنم محطم

اندفع محمد بن القاسم ووراءه جنوده كالسهم يمضى إلى رميته فى مضاء وتصميم وقصد للهدف لا يحيد عنه ولا يميد. وخرجوا تسيل بأعناق مطاياهم البطائح ، فسار محمد إلى مكران فأقام بها بضعة من الأيام ، ثم أتى مدينة قنزبور ففتحها ، ولم يجد فى فتحها كبير عناء ، ثم اتجه إلى مدينة أرمائيل ، فلقى فيها مقاومة لم تقوَ على حماسة جيشه وصبرهم فى القتال فسلّمت المدينة .

وكان تعريج ابن القاسم على هاتين المدينتين فى طريقه إلى مدينة الديبل هو من باب التمهيد للغزوة الكبرى ، فمضى بعد فتح إرمائيل على غايته إلى المدينة التى كان منها متلصصة البحار وقرصانه — الديبل — فنزل بها وكان اليوم يوم جمعة ، وكأنما كان هو والسفن الإسلامية التى تحمل السلاح والأداة وبقية الرجال على ميعاد ، فوافته قطع الأسطول الأموى فى اليوم نفسه . والتقى الجمعان من بعوث البر وبعثة البحر فى مدينة

الديبل ، وخندق القائد الشاب ، وأنزل الناس منازلهم ، على عادة العرب حين يقاتلون .

ونصب ابن القاسم منجنيقاً ضخماً أحضره معه فى جملة عتاده ، يقال له العروس . وبلغ من ضخامته أن خمسمائة رجل كانوا يديرونه فى ساعة الرمى . واتخذ القائد الشاب موضع العروس أمام صنم هائل الحجم ضخم البناء ، تهوى إليه أفئدة العباد من أهل الهند والسند ، يعظمونه ، ويقربون إليه القرابين ، وينحرون له الذبائح على نحو ما كان يفعل العربُ فى جاهليتهم قبل أن يمن الله عليهم بالإسلام ، والخروج إلى النور من الظلمات .

وكان صنم الديبل — أو بُدُّها كما أسماه العرب الفاتحون — ترتفع فوق هيكله الضخم سارية عظيمة ، عليها راية حمراء واسعة الأطراف ، حتى لقد بلغ من سعة رقعتها أن الريح إذا هبت عليها كانت تدور فتطوف بالمدينة المقدسة فى دورانها فتهفو إليها أفئدة الألوف المؤلفة من أهل المدينة . وقد رُكزت هذه السارية العالية على منارة عالية فوق بناء البد العظيم .

وكان مما وضعه ابن القاسم من خطة للغزو أن يقصد هذا الصنم الهائل الضارب فى عنان السماء كأنه جبل يطل على

الأرض من شاهق أو يزحم النجوم فى مدارها ، فيصيب منه ثلمة ، فتنثلم معه حينئذ قلوب المقاتلين من أهل السند ، وتنكسر أرواحهم ، وتذهب أنفسهم حسرات على المعبود المقدس الذى يعظمونه ويجلونه ، وينزلونه منازل التقديس .

ولقد عرف ابن القاسم ذلك فيما عرف ، مما كان يتلقفه من أخبار السند وهو فى البصرة طفل طرى الإهاب . فأحكم الخطة لذلك ، وجلب معه المنجنيق الهائل : العروس ، حتى لاتقف فى سبيله مناعة حصن ، ولا متانة جدار ، ولا ارتفاع أسوار ...

وحاصر البطل الشاب ما حول الصنم العظيم من جميع أطرافه ، وأطال الحصار حتى ضاقت نفوس أهل البد عليهم ، واستيأسوا من الخلاص . والتقت أذرع الرماة فى مرامى العروس كأنها ذراع رجل واحد ، ورموا سارية البدّ بحجر ضخم ، فانكسرت السارية وانحنت قامتها المرتفعة أمام منجنيق هائل . فتطير المقاتلون من السند بذلك وتشاءموا ، وخشوا أن يكون ذلك نذيراً بدوران الدائرة عليهم . فخرجوا مندفعين من داخل المعبد ومن أبهاء البدّ ومضايقه ، وحملوا على المسلمين حملة المستأيس ، ووثبوا وثبة المضيّق عليه حين يشتد به الأمر ، وتنسد عليه سبل

النجاة ، فيضرب على غير هدى لعله يلتمس مخرجاً من ضيق ، أو منفذاً من محبس . . . فهجم عليهم ابن القاسم برجاله هجوم الواثق من النصر ، وردهم إلى داخل الصنم محصورين لا يستطيعون خروجاً إلى الموت الذى ينتظرهم خارج البدّ ، ولا يَقدرون على بقاء داخله ما دامت الذخيرة محدودة ، والزاد بمقدار .

وكانت جدران البد من الضخامة وعلو السمت بحيث لا يصل إليها متسلق إلا إذا صعد إليها على سلم منصوبة ، فأمر ابن القاسم بالسلالم فنصبت . ولكن مَنْ يَصعد إليها ليلقى ضربة من عدو راصد داخل الصنم ، أو رَمْية من خاتل وراء الأسوار ؟

وهنا يستحضر المسلمون ما حدث فى واقعة حصن بابليون بالفسطاط ، أيام الفتح العربى لمصر على يد عمرو بن العاص . ألم يستعص ذلك الحصن العتيق الرصين على العرب الفاتحين ، فإذا بالزبير ابن العوام وقد أتى بسلم فصعد عليه ، حتى أوفى على الحصن من شاهق ، وهو مجردٌ سيفه يَحذَر المباغت ، فكبَّر وكبر معه المسلمون تكبيرة رجل واحد ، ففتح الحصن

عنوة ، وانقادت مقالده للعرب بعد طول شماس ؟

نعم ! لقد كان فى مُقاتلة المسلمين بالسند من يذكر هذا الموقف لابن العوام فى فتح مصر ، فلم لا يكون هنا ابن عوام آخر ، ما دام الإسلام يصب رجاله على غرار كريم ؟ لقد نهض رجل من قبيلة مُراد من أهل الكوفة ، وفعل كما فعل ابن العوام فى أرض الأهرام !

لقد كان هذا الفتى المرادى أول من صعد على السلم وتبعه الرجال ، ففتح حصن الصنم عنوة واستحرّ القتال ثلاثة أيام ، لم يذق المتحاربون فيها طعماً للشراب والطعام والمنام .

وما أعجب التاريخ أحياناً حين ينسى أسماء الرجال عن غير قصد ولا نية فى إغفال ! فإنه ضن على هذا الفتى المرادى السابق إلى تسور الحصن بأن يذكر اسمه ، ولكنه اكتفى من ذلك برده إلى قبيلته من بنى مراد . . . وما يبالى المجاهد حين يجاهد فيقتُل فى سبيل الله أو يُقتل ، أن يُذكر اسمه أو يهمل ، أو يسجل اسمه أو يُغفل ، ما دام أدى لله والضمير والواجب ما عليه من حقوق واجبة الأداء .

لقد سقطت مدينة الديبل وسقط معها صنمها إلى حيث

لا رجعة لأوثان ولا عبادة لأصنام . وكان ذلك فى سنة ٨٩ من الهجرة . واستبد الخوف بوالى مدينة الديبل وعاملها السندى من قبل الملك ذاهر ، فأسلم ساقيه ممعناً فى الهرب ، ملتمساً النجاة بنفسه . وأنزل ابن القاسم أربعة آلاف من رجاله فى المدينة التى كانت بالأمس القريب واترة للمسلمين بخطف جماعة من نسائهم وهن فى الطريق إلى أمير العراق . . .

واختط محمد بن القاسم فى المدينة المغلوبة على أمرها خططاً وأحياء للمسلمين ، لينزلها أربعة الآلاف من جنده النازلين . وأقام بها مسجداً يرتفع من مئذنته التكبير ، باسم الله العلى الكبير ، بعد أن سكتت أصوات الطواغيت . . . .

على ظهور الأفيال

ترك بطل السند حاميته القوية فى مدينة الديبل ، بعد أن فتحها بالسيف عنوة ، وسار عنها إلى مدينة البيرون ، وهى المدينة التى ينسب إليها الفيلسوف المؤرخ المسلم أبو الريحان البيرونى من علماء القرن الخامس الهجرى .

ولم يدر ابن القاسم ، وهو فى طريقه إلى البيرون — أن أهلها كتبوا إلى الحجاج فى العراق مصالحين ، فإذا ببطلنا يقابل أهل هذه المدينة المسالمة وهم يخرجون إليه بالميرة ، ويمدونه بالمعونة ، وفاءً بعهد مصالحتهم ، وإذا بهم يفتحون له المدينة على ذراعيها ، فيدخلها ابن القاسم بلا قتال ولا نزال . فيسير عنها بطل السند ، وهو لا يمر بمدينة إلا فتحها .

وآثر بعض أهل السند العافية على قتال لا يخرجون منه إلا بكثرة المقتلة فيهم ، ووطأة الهزيمة عليهم ، ففضلوا المصالحة على الوقوف فى معركة خاسرة . ومن هؤلاء أهل مدينة سربيدس ، فكانوا أعقل من أن يبادلوا بحرب لا نهاية لها إلا الخسارة عليهم ،

والنكال بهم ، فصالحوا البطل الشاب ، ووظف على مدينتهم الخراج . أما أهل مدينة سهبان فقد ركبوا رءوسهم ، فكان جزاؤهم أن فتحت بلدتهم عنوة ، بعد أن أعمل المسلمون فيهم سيرفهم الظمأى إلى رى الدماء . . .

وقد أثمر الدرس القريب الذى ألقاه ابن القاسم على أهل سهبان ، فخرج منه أهل سدوستان بالعافية ، بعد أن طلبوا الأمان والصلح ، فأمنهم بطل السند وآمنهم من خوف ، ووظف عليهم خراجاً قبلوا أن يدفعوه عن يد وهم صاغرون .

كان عمال ذاهر ملك السند وولاته على الأقاليم يسقطون رجلا إثر رجل ، ولم يستطيعوا مغالبة هذا الشاب الجرىء الذى وفد إلى بلادهم وحشو ثيابه همة لا تصدها عقبات ولا أهوال . أما الملك ذاهر نفسه فكأنما كان فى غفلة عما أصاب ملكه الذى بدأت تنهار قواعده ، لقد كان منصرفاً إلى أمواله وجواريه فيما وراء نهر مهران ، وكأن ذلك الجيش العربى النازل على أرضه لا يستحق منه أدنى التفات ، ولا أقل اهتمام ، وكأن أنباء سقوط الديبل ، ومصالحة بيرون ، رفتح سهبان ، وتسليم سدوستان وإيغال العرب الفاتحين فى البلاد لم تصل إلى مسمعه

المشغول بأنغام القيان . . . أو كأنه سمع وَصلك النبأ بعد النبأ أذنه ، ولكنه مستخف بالعرب مستصغر لأمرهم ، معتزم لقاءهم فى موقعة تدور فيها الدائرة عليهم فى حسبانه !

وعبر ابن القاسم نهر مهران فإذا به يلقى الملك ذاهر وهو على فيل مُطهم كأحسن ما تُطهم الجياد ، وعليه عُدة كأوفى ما تكون عُدة الخيل ، وحوله الفيلة بركبانها ، تحيط به إحاطة السوار بالمعصم ، وتقيم من حوله الأسداد ، حتى لا يناله عدو ، ولا يظفر به محارب ، ولا يستهدف منه مقتل لنبل نابل ، أو طعن طاعن ، فهم والفيلة الضخام بطانة للملك ، وسداد له من كل ثغر ينفتح عليه فى معمعان القتال .

ورأت الخيل العربية هذه الفيلة الضخمة فنبضت بها كرائم عروقها . . . ورأت الفيلة المهولة المفزعة هذه الخيلَ كأنها جن تحمل على صهواتها بَشراً كالجن ، فجن جنونها ، وسمع من جماعتها صَئّى(١) غطى على تصهال الخيل ، حتى استحالت المعركة إلى قطعة ترعد بالهزيم . . .

واقتتل الجمعان قتالا لم يُسمع بمثله كما يقول المؤرخون .

---

(١) الصئ : صوت الفيلة .

ولم تثبت الفيلةُ ولا فيالوها فى مقام تزل فيه مواطئ الأقدام ، وتتخلخل فيه السيقان ، وتنخلع له قلوب الشجعان . ورأى الملك المغلوب ذاهر أن ظهر الأرض أثبت من الفيل ظهراً ، فترجل والدروع تدفع عنه من الضرب ما تقدر على دفعه ، إلى أن سقط إعياءً فقتل بعد أن مالت شمس النهار إلى غروب .

وكان مقتل الملك ذاهر بيد فارس عربى غضّ الإهاب ، شديد البأس ، شجاع النفس ، خاض الصفوف غيرَ مُبال بما هو مُقبل عليه ، وفرج الجموع غير عابئ بما قد يتعرض له . فلما جندله بسيفه قال مفاخراً :

الخيل تشهد يوم ذاهرَ والقنا — ومحمد بن القاسم بن محمد
أنّى فرجت الجمع غير مُعرد[1] — حتّى علوتُ عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مُجندلاً — متعفر الخدين غير موسد...

وهنا لم يغفل التاريخ اسم قاتل الملك ذاهر ، كما أغفل اسم الفتى الجرىء الذى كان أول صاعد على السلم ليتسور حائط البدّ . فقد روى أحد المؤرخين أن اسمه القاسم بن ثعلبة ابن عبد الله الطائى .

---

(١) عرد الرجل الطريق إذا انحرف عنه .

وكان مقتل ذاهر ملك السند إيذاناً بغلبة العرب الفاتحين على بلاد السند كلها ، وإعلاناً بأن مقاومة أهل البلاد غير مجدية ، بعد أن قتل ملكهم ، وتفرقت جموعهم . . .

ومضى بطل السند الشاب ممعناً فى البلاد ، لا يصده حصن ، ولا تقف فى طريقه عقبة ، ولا ترهبه فلول جيش مخذول ، فاتجه إلى مدينة راور وكان الملك ذاهر قد اتخذها مرتعاً لإحدى نسائه ، ففتحها ابن القاسم عنوة ، بعد أن رفضت المصالحة ، وأخذ الأمان ، وخافت امرأة ذاهر أن تقع أسيرة فى يد العرب فأحرقت نفسها وجواريها وجميع ما تملكه من طائل المتاع ، وغزير الأموال ، ونفائس الألطاف .

على أن امرأة ذاهر لا تهمنا فى هذا السياق إلا على قدر ما يسمح به الخبر المروى ، فهى وقصة انتحارها بإحراق نفسها وجواريها لا تحمل للعرب مغمزاً لغامز ، ولا مطعناً لطاعن . فقد كان المسلمون الفاتحون أشد الغزاة حفاظاً على الحرمات ، وصيانة للأعراض ، وتصوناً مع النساء ، حتى كانت آدابهم فى القتال ، وأخلاقهم فى الحروب ، مما يصح أن يكون دستور المقاتلين على العصور ، ما دام الله قد كتب على الناس

أن لا تنزع نوازع القتال من نفوسهم . . .

فلا حاجة لقائل أن يقول معتذراً من فعلة امرأة ذاهر بأن ذلك الذى صنعته هو من عادات أهل الهند فى قديم الزمان .

أما الذى يهمنا فى قصة بطل السند والهند فهو قصة «سيتا» ابنة الملك ذاهر ، فقد أحبها ابن القاسم ، ولكنه ما تعلق منها بريبة ، ولا هم معها بما يهم به المحبون حين يغطى الحب على أسماعهم وأبصارهم . . . ولكنه صان كرامتها وعفتها كأكرم ما تصان بنات الملوك . إلا أن مصرع أبيها على يد رجل من رجال ابن القاسم قد أوغر صدرها ، وملأ قلبها ، فخامرت مع الفلول المتناثرة من أمراء البلاد ، وشاركت فى مريب الخطط بما لم يدع مجالا لابن القاسم فى تبرئتها من الخيانة لخطط الفتح ، فأرسلها أسيرة إلى بلاط الأمويين حيث كان لها شأن مع بطل السند والهند سنعرفه عما قليل . . .

ثغر بيت الذهب

لم تقف ببطل السند غاية بعد مقتل الملك ذاهر ، وكان على يقين أن بلاد السند لن يقفَ معقل فيها ، ولا حصن بها ، ولا مدينة من مدائنها فى طريق فتوحه . وماذا يبقى لجماعة — مهما كان أمرها — بعد أن كانت جموعها تنهزم فى كل لقاء أمام جيش غالب بإيمانه ، قوى بيقينه ، خرج فى الله غازياً ، ولدين الله داعياً ؟

مضى ابن القاسم فى طريقه إلى مدينة "برهمنا باذ" العتيقة ، وكان لها فى السند مكانة تاريخية مرموقة ، وقد جمع فيها المنهزمون من أهل السند ما بقى من فلولهم ، ليلاقوا بها البطل الذى تعوَّد لقاء الجيوش لا لقاء الفلول . . .

وقاتلهم ابن القاسم قتالا أزالهم عن مواقعهم ، وأفنى كثيراً منهم ، وخرب كثيراً من ديارهم .

وغادر البطلُ المدينة العتيقة وهى أطلال متخربة ، ورسوم متداعية ، ومضى على وجهه من الغزو يُريد مدينة الرور ، وفى

طريقه إليها لقى أهل مدينة ساوندى ، وقد صفرت أيديهم من السلاح والرماح وعدة القتال ، ورفعوها مطالبين بالأمان بعد الذى بلغهم من أنباء المدن السندية المتخربة بلداً عقب بلد ... فأعطاهم ابن القاسم الأمان ، واشترط عليهم ضيافة المسلمين ، فنزلوا على الشرط راضين ، ثم دخلوا كلهم فى الإسلام بعد ذلك بقليل .

وأصبحت أرض السند بعد ذلك تدنو للبطل ابن القاسم ويُطوى له بعيدها . . . وإذا هو عقب ذلك بمدينة بسمد ، فلم يرفع أهلها السيوف إلا ليطووها فى الأغماد ، طلباً للصلح الذى لم يبخل به عليهم .

وهنا كانت مدينة "الرور" على مرمى النبال من جيوش المسلمين ، وهى مشرفة على جبل من جبال السند ، والطريق إليها وعر ، والمرتقى إليها عسير ، فظل بطل السند ضارباً عليها الحصار شهوراً ، إلى أن صالحه أهلها فقبل منهم الصلح ، ومضى إلى مدينة "السكة" ففتحها ، ولم ينته به المطاف عندها ، وإنما جاء إلى نهر بياس فاجتازه فى طريقه إلى الملتان .

ولقد كانت الملتان أحد الأهداف العظام التى يرمى إليها

ابن القاسم من غارته على السند ، فهى مدينة كبيرة عتيقة ، ولها من التقديس عند أهل السند ما يفوق مدينة الديبل ، ففيها البدُّ العظيم أو الصنم الكبير ، الذى تُهدَى إليه الأموال ، ويأتى الناس إليه من كل فج عميق ، وتهوى إليه الأفئدة ، يحلقون رءوسهم ولحاهم عنده ، ويتقربون بالقرابين إليه ، ويتزاحمون بالمناكب كأنهم فى ساعة الحشر للعبادة فيه . وتزدحم ساحاته وأبهاؤه وحماه بالوفود التى لا ينقطع سيلها ، والحجيج الذى لا يسكت تدفقه . وقد بلغ من ضخامته ورحابته أن عدد سدنته والقائمين على خدمته بلغ ستة آلاف كاهن ، يقيمون فيه الليل والنهار ، ويستقبلون فيه القادم ، ويودعون المفارق ، ويقيمون فيه الشعائر والمناسك ، فهو مدينة فى مدينة ، وهو بلد فى بلد . . .

جاء ابن القاسم إلى مدينة الملتان بما تحمله من حاضرها وغابرها ، فقاتله أهلها فحاصرهم وشدد عليهم الحصار ، وظن أنه لن يطول بهم الأمد ، فستنفد ميرتهم من الطعام المخزون ، والماء المحفوظ ، وهناك سيلجئهم الجوع والعطش إلى التسليم . ولكن الحصار طال إلى أجل تأكد معه المسلمون أن الماء ليس

مخزوناً عندهم ، وإلا لنفد من عهد بعيد ، ولكنه يأتيهم داخل الحصن من قطع من الماء يدخل المدينة من مكان مخبوء . . وهنا تظهر الخيانة من رجل من أهل البلاد ، فيدل المسلمين على قطع الماء فيمنعونه ، فيظمأ المحاصرون ، حتى ليبلغ الظمأ بهم حد اللهاث ، فلا يجدون مخرجاً لهم مما هم فيه غير أن يسلموا ويلقوا بأيديهم ، وينزلوا على حكم البطل الجرىء الذى قتل المقاتلة ، وسبى الذرية ، وأسر سدنة البد العظيم ، وهم ستة آلاف كما سلف القول .

ودخل الفاتحون غُرف المعبد فى الصنم الكبير ، فإذا هم يصيبون هناك ذهباً كثيراً مما حمله زوار ذلك البدّ العتيق ، فتكدس على مر السنين . . . وهنا أمرَ بطل السند أن يُجمع هذا الذهب فى بيت طوله عشرة أذرع ، وعرضه ثمانية أذرع ، يُلقى إليه من كوة فى وسطه ، ومن هنا سميت الملتان : ثغر بيت الذهب ، تمييزاً لها من بقية الثغور . . .

وفى صباح يوم من الأيام القريبة من فتح الملتان والاستيلاء على بيت الذهب فيها ، كانت سفينة من سفن المسلمين تخفق شُرعُها فى الهواء ، وتضرب مجاديفها فى ماء بحر الهند ، متجهة

نحو بحر فارس لتلقى بأوساقها فى ثغر البصرة ، حيث يبلغ بها المطاف إلى دار أمير العراق : الحجاج بن يوسف .

ونظر الحجاج فيما حُمل إليه من ثغر الملتان مما بعث به إليه بطل السند محمد بن القاسم ، فكان مائة وعشرين ألف درهم ... ونظر فى النفقة على فتح ذلك الثغر فكان مجموعه ستين ألف درهم . . . فقال : ربحنا ستين ألفاً ، وأدركنا ثأرنا ، ورأس ذاهر . . .

هدايا من السند

ظل بطل السند — محمد بن القاسم — بعد سقوط الملتان سنة ٨٩هـ إلى ٩٥ هـ وهى السنة التى مات فيها الحجاج — أمير السند كلها لا ينازعه فيها منازع ، ولا يقوم سلطانٌ بجانب سلطانه ، ولا تقضى الأمور إلا بكلمة منه ، ما عدا مدينة الكيرج التى كان ملكها يسمى دوهرا ، فقد بقيت فى غير حكم العرب الفاتحين إلى أن كان لها شأن مع مد بن القاسم بعد وفاة الحجاج بقليل .

وكأنما كتب الله لبطل السند أن يلقى بعض الهدوء ، ويذوق طعم الراحة فى هذه السنوات الخمس بعد أن دانت له السند كلها بالطاعة ، وأقرت له بالفتح ، وسلمت عليه بالإمارة .

وانسابت الأموال فى يد البطل المغامر ، وأفاء الله عليه وعلى المسلمين من الخير ، وفتح لهم من الثراء ما استبد الملوك فى جمعه ، وما جهد الكهان فى تكديسه . وتفتحت كنوز

السند أمام المسلمين بما تحمله من تاريخها الطويل .

وفتح ابنُ القاسم دارَ الإمارة فى السند على مصراعيها يستقبل الوافدين ، ويكرم النازلين، ويعطى عن سخاء فيه لا عن تساخ ، ويظهر أن الكرم طبيعة فى نفوس بنى ثقيف، فقد رووا أن "الحجاج" كان يعطى بلا حساب ، وذكروا أنه كان يضع فى كل يوم ألف خوان فى شهر رمضان ، وفى سائر الأيام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة أنفس .

وإذا صح ما استظهرناه من كرم بنى ثقيف فإن بطل السند جاء على غرارهم ، ونسج على منوالهم ، فقد أعطى حتى مدحه الشعراء بأجزال العطية ، قدر ما مدحوه بصدق البلاء فى المعارك ، وحسن الثبات فى المواقف . فهذا أبو الجويرية الشاعر يمدحه فيقول :

قل للذين بواسط وبغيرها ممن مسائله ترد وتنجح
السند ! ائت السند إن أميرها بحر يطمُّ على العفاة ويطفحُ
ما زال يعطى قاعداً أو قائماً حتى حسبت أبا عقيل يمزح

فهو يعطى على كل حالة : قاعداً أو قائماً ، كما كان هرمُ ابن سنان فى الجاهلية يعطى على العلاّت . . .

والشاعر أبو الجويرية فى هذه الأبيات يُغرى أهل مدينة واسط العراقية — التى بناها الحجاج — ويغرى أهل غيرها من المدن بأن يقصدوا بطل السند وأميرها محمد بن القاسم ، فهو بحر يفيض بالعطاء ، ويطم على مُعتفيه وقاصديه ، وما زال يعطى على اختلاف الحالات حتى حسبنا العطاء عنده ضرباً من المزاح . . .

وليس لدينا من أخبار عطايا بطل السند للشعراء والمعتفين ما تطمئن إليه النفس ، فإن أخبار الرجل نادرة مبعثرة كما سبق الكلام ، وهى فى جملتها لا تصور البطل من ناحية سخائه وعطائه ، كما أن ما قيل فيه من شعر المديح بالشجاعة والبسالة لا ينهض له بفضل أو لا يقوم له بجزاء . فلقد كان من حقه على شعراء عصره أن يطيلوا المديح فيه ، وأن يكثروا القول فى فتوحاته ، ولكن حظ الرجل مع المؤرخين كحظه مع الشعراء ، فإذا كان نصيبه ونصيب سيرته من التاريخ ضئيلا قليلا ، فإن نصيبه من شعر الشعراء أقل وأضأل . . .

على أن أغرب ما قرأناه عن هدايا بطل السند من السند هو ذلك الخبر الذى ذكره أبو النعمان الأنطاكى حيث قال :

(كان الطريق فيما بين أنطاكية والمصيصة مَسبعةً يتعرض للناس فيها الأسدُ . فلما كان الوليد بن عبد الملك شُكِىَ ذلك إليه ، فوجه أربعة آلاف جاموسة وجاموس . فنفع الله بها ، وكان محمد بن القاسم الثقفى ، عامل الحجاج على السند بعث منها بألوف جواميس . فبعث الحجاج إلى الوليد منها بما بعث من الأربعة آلاف) فابن القاسم يبعث آلاف الجواميس من السند إلى الحجاج ، والحجاج يبعث منها أربعة آلاف إلى أرض ذات سباع ، فتستحيل تلك المسبعة إلى أرض زراعية ، تُغل أطيب الثمرات . ويبدلها الله من خوفها أمناً . . .

ويُطرفُ بطلُ السند ويُغرب فى هداياه كما أغرب وأطرف فى فتوحه . . وهو هذه المرة يهدى إلى الحجاج من بلاد السند فيلا ، فيُجاز به البطائح فى سفينة ، ويُخرجُ فى مَشرَعةٍ نسبت إليه من ذلك الحين ، فقيل : مشرعةُ الفيل . . .

ومرة ثالثة نصادف بطل السند وهو يبعث إلى الحجاج بهدية بَشرية مما أنبتته أرض السند . . . إنه يبعث إليه بجماعة من الزُّط السند، فيبعث بهم الحجاج إلى الشام ، ويأمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بنقلهم إلى أنطاكية . . .

٥٥

الحق أن هدايا بطل السند من السند ثقيلات الأوزان ، ضخام الأبدان . . . حين توضع فى الميزان . فأين هداياه من نفائس ملوك السند الخفيفات الحمل الغاليات الأثمان ؟؟!

فتح جديد

كان محمد بن القاسم فى دار الإمارة الفخمة بالملتان حين جاءه البريد من العراق يحمل نبأ وفاة أمير العراق: الحجاج ابن يوسف الثقفى، ابن عم بطلنا ، ومعوده إقدام نفسه على المكاره فى الحروب .

وجلس البطل يستمع من رسل العراق ونعاته أنباء الميتة التى مات عليها أمير العراق ومسكن فتنته ، وواضع الأمور فيه على قرار مكين . قال أحدهم — والدمعة تخنقه — وكان صنيعة من صنائع الحجاج :

— لما حضرت الوفاة ابن عمك يا أمير السند وأيقن أنه صائر لا محالة إلى الطريق التى لا يرجع منها سائر ، قال : أسندونى ؛ وأذن للناس فدخلوا عليه ، فذكر الموت وكربه ، واللحد ووحشته ، والدنيا وزوالها ، والآخرة وأهوالها ، وأنشأ يقول :

إن ذنبى وزن السموات والأر ض وظنى بخالقى أن يحابى

فلئن مَن بالرضا فهو ظنى ولئن مر بالكتاب عذابى
لم يكن ذاك منه ظلماً وهل يظ لم ربٌ يُرجّى لحسن المآب ؟

فحبس البطل الشاب عبرة كادت تترقرق فى عينيه وقال :

— رحمك الله يا ابن العم ! ويا أمير العراق ! إن رحمة ربك وسعت كل شىء . إن البلاد التى فتحت بتدبير الحجاج ورأيه وإمداداته وإشاراته من بخارى إلى سمرقند ، ومن فرغانة إلى السند ، لتشهدُ أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسوله ، وأنك يا ابن العم رفعت فيها للإسلام مناراً ، وبنيت فيها لدين الله مساجد ، وأن مثلى ومثل قتيبة والمهلب هم الأداة التى نفذت تدبيرك ، واتبعت خططك ، وتابعت سديد رأيك ، حتى لقد قبل القائد المجاهد والفاتح العظيم قتيبة بن مسلم سديد رأيك حين استخلف على جند المسلمين أخاه صالح بن مسلم فكتبت إليه تلومه وتُبصره قائلا : (إذا غزوتَ فكن فى مقدم الناس وإذا قفلت فكن فى أخرياتهم وساقتهم) !

واسترجع المسلمون وجيوش الفتح فى السند حين بلغهم نبأ وفاة الحجاج ، وأجمعوا أمرهم أن يمضوا فى الغزو مع قائدهم بطل السند إلى غايته ، حتى تذعن البلاد كلها لطاعة الدولة .

ودخل فى نفس بطل السند شىء من الخوف والقلق على مركزه فى إمارة السند بعد وفاة ابن عمه الحجاج ، فقد كان البطل كما أسلفنا ربيبه وصُنع يَديه . ولكن بطل السند كان يُبعد أسباب القلق عن نفسه بأن مثل الخليفة الوليد بن عبد الملك فى عقله ووزنه لأقدار الرجال لا ينتقص أجر عامل، ولا يتخلى عن رجل فَتح باسمه وبجيشه وبماله للأمويين فتوحاً لم تكن تخطر على بال .

ولقد ابتلى الوليدُ نفسه جهادَ بطل السند وعَرفَ صدقه فى الحرب وولاءه فى الخدمة معرفة اليقين ، ففيم يخافُ ابنُ القاسم على مركزه ، وفيم يتسرب إلى نفسه هم ووسواس ؟

أينتظر البطل الشاب قاعداً عن الغزو ، ممسكاً عن الجهاد ، حتى يأتيه عهد الخليفة الأموى وموثقه بأنه باق فى إمارة السند بعد موت الحجاج سنده ودعامته ؟ لا ! إنه لأكبرُ من أن يجزع لمثل هذا ، وما هو إلا جندى من جنود المسلمين ، عاهد الله على الطاعة ، وواثقه على الجهاد ، فلا يضيره أن يكون قائداً أو مقوداً ، وسيداً أو مسوداً .

ألم تسبق لخالد بن الوليد سابقة فى الطاعة حين وَلى الخلافةَ

عمر بن الخطاب ، فكتب كتاباً بعزل خالد من إمارة جيش الشام وتولية ابن الجراح مكانه ، فأخذ خالد الكتاب وأسره إلى ابن الجراح ، ولم يذعه بين أفراد الجيش ، لئلا تهن قوتهم ، وتتفرق صفوفهم ، ومضى فى المعركة إلى نهايتها بالنصر للمسلمين ، فسلم كتابَ عمرَ بن الخطاب ، وسلم عليه تسليم الإمارة ، وأخذ موضعه من الجيش جنديًّا تحت قيادة القائد الجديد .

فلا يضير بطلَ السند بعد هذا أن يبقى فى منصبه بالسند أو يُعزل ، إنه سيمضى فى الغزو إلى النهاية التى كتبها الله للمجاهدين الصابرين . . . وخرج البطلُ فى جيشه راجعاً إلى مدينة الرور ، والبغرور ، وهما مما فتح الله به عليه قبلا ، فأعطى الناس الأعطيات ، وسمع إلى الشكاوى ، ونظرَ فى أمور أهلها بما يُوجبه العدل وتقضى به المصلحة . ثم توجه من هنا إلى مدينة البيلمان ، فلم يقاتله أهلها ثقة منهم بأن جند المسلمين هم الغالبون ، فأعطاهم ابنُ القاسم الطاعةَ والأمان . ومضى إلى ثغر سرشت ، وهى مغزى أهل البصرة ، وقد اشتهر أهلها بقطع البحر ولصِّ المسافرين ، كما كان أهل مدينة الديبل ، فطلبوا الأمان فأمنهم على أن لا يقطعوا بحراً ، ولا يهاجموا ركباً .

سبحان الله ! هؤلاء القراصنة المنتشرون على ثغور بحر الهند ، كانوا يُخيفون الطريق ، ويقطعون البحار على السفن الغادية والرائحة ، فلا يسلم منهم راكب ، ولا ينجو منهم عابر ، حتى لقد اعترف ملك ذاهر — كما قرأنا قبلا — أنه لا سلطان له عليهم ، ولا قبلَ له بهم . . . ثم يجيء اليوم شاب عربي مسلم في السابعة عشرة أو فوقها بقليل ، فيحل الأمن محل الخوف ، ويؤدب العصاة وقطّاع البحار ، فيسود الهدوء ثغور بحر الهند وسواحله ، ولا تسمع بعد اليوم نبأة واحدة عن غارة على مركب ، أو سطو على سفين . . . ؟

بقيت أمامَ بطل السند مدينة الكيرج ، ومَلِكها دوهر ، وكان يعدل الملك ذاهرَ في الشهرة والسلطان ، فأتى محمدُ بن القاسم المدينة غازياً ، حتى لا تبقى هذه المملكة شوكة في جنوب المسلمين ، فخرج الملك دوهر في ألوف من رجاله ، وهم على متون الأفيال الضخام ، كأنها قطع من السحاب الثقال الدواكن ، والنقع يُثارُ في الجو كثيفاً ، حتى لو ابتغت الخيل والفيلة عنَقاً عليه لأمكن . . . والسيوف تلمع في عجاجات الغبار الأسود كأنها كواكب تتهاوى في ظلمات ليل أليل . . . وقاتل

المسلمون قتالا شديداً كعهدهم فى كل معركة خاضوا غمراتها ، فانهزم العدو وهرب دوهر ملتمساً النجاة بنفسه بعد أن فنى جيشه . ولكن سيوف المسلمين لاحقته فى مهربه ، لأنها سيوف كالدهر لا ملجأ منه ولا هربٌ . فقتل دوهرُ ملكُ الكيرج كما قتل ذاهر من قبله . وهنا هزت الحماسة قلب الشاعر الراجز ، فقال يُزهى بهذا النصر المبين ، والفتح العظيم :

نحن قتلنا ذاهراً ودوهرا والخيل تُردى منسراً فنسرا

* * *

ومضى عام ٩٥ من الهجرة بما حمله من خير وشر . . . مضى بوفاة الحجاج بعد مرض يقال إنه ألح عليه فتساقطت نفسه أنفساً . . . ومضى بغزوة غزاها قتيبة بن مسلم حتى أمعن فى أرض بكمشاهان أو بلاد الشاش ، ومضى بفتوح بطل السند للبيلمان وسرشت والكيرج ومقتل الملك دوهر كما سبق الحديث . وطلع عام ٩٦ من الهجرة بما لا يدرى الناس ولا يعلمون . . . لأن الليالى من الزمان حبالى ، يلدن،والله وحده أعلم بما يلدن . . . فالله وحده يعلم ما فى الأرحام ، كما يعلم

ما فى مستكن الغيب ، وكما يعلم وحده ما تُخفى الصدور . . .

جاء عام ٩٦ من الهجرة ، ومضى بطل السند يقطع الشهور الأولى منه فى غزوات هنا ، وغارات هناك ، تمكيناً لقواعد العرب فى البلاد الجديدة المفتوحة ، والتى لا تزال على حداثة عهد بالإسلام . وفيما هو يمكن لمراكزه ومراكز جنده فى السند إذا بنعى الخليفة الوليد بن عبد الملك يأتيه فى ليلة من ليالى النصْف من جمادى الآخرة . فيجزع بطل السند لوفاته ، لأنه مكن له فى إمارة السند عاماً آخر بعد وفاة ابن عمه الحجاج أمير العراق . ولأن الوليد بن عبد الملك كان باراً ببنى ثقيف ، عطوفاً عليهم ، مصطنعاً لهم ، وخاصةً أهل بيت الحجاج من بنى ثقيف ، وسنعرف عما قليل أسباب هذا البر من الوليد ببيت الحجاج عامة وبالحجاج خاصة .

والحق أن وفاة الوليد بن عبد الملك كانت سبباً لأن يجزع الناس لها ، ويحزنوا من أجلها . فلقد كانت سوقُ الجهاد قائمة فى عصره ، فوق ما كانت قائمة فى عصر سلفه وأبيه عبد الملك . ولم يكن للناس شغل فى عهده غير الجهاد والفتح ، والبناء والتعمير ، حتى ليلقى الرجلُ من المسلمين أخاه فى عهده

فيسأله عن الفتوح والغزوات ، والأبنية والعمارات ، على حين كان الناس فى عهد أخيه وخلفه سليمان بن عبد الملك يتلاقون فيسأل بعضهم بعضاً عن ألوان الطعام ! لأن سليمان كان يحب ألوان المطاعم . . . والناسُ على دين ملوكهم . . . !

والحق أن جيوش المسلمين فى عهد الوليد بن عبد الملك فعلت للإسلام ما لا يقل عما فعلته جيوش الفاتحين فى عهد عمر بن الخطاب . ففى عهده علتْ كلمةَ الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ، وبرها وبحرها . حتى مُلئت قلوب الأمم والملوك رعباً وفزعاً . لا ينامون على قرار ، ولا يَصحون إلا على هلع . فإذا ناموا أفزعتهم الأحلام بجيوش المسلمين ، وإذا تنبهوا راعتهم جيوش الإسلام وهى تَسلُّ سيوفها ، وتكتسح إلى النصر طريقها .

وكأنما كان النصر موكلا بالمسلمين فى كل غارة اقتحموها ، فما دخلوا بلداً إلا فتحوه ، ولا توجهوا إلى قطر إلا أخذوه . وكان فى عسكرهم الصالحون والأولياء والعلماء والتابعون ، والمؤمنون بوعد الله وهو حق . فقتيبة بن مسلم يفتح بلاد الترك ، ويصل إلى تخوم الصين ، حتى يخافه ملكها فيرسل إليه الهدايا

والتحف والمال الكثير ، يسترضيه ويستعطفه مع قوته وكثرة جنوده . ومسلمة بن عبد الملك أخو الخليفة الوليد بن عبدالملك يمعن فى بلاد الروم ، ويجاهد بعسكر الشام حتى يبلغ القسطنطينية ، ويبنى فيها مسجداً يعمره من آمن بالله واليوم الآخر ، فتمتلئ قلوب الفرنج من المسلمين رعباً . . . وموسى ابن نصير يجاهد فى المغرب ، وينشر الإسلام فى كل مرحلة من مراحل الغزو ، ويغزو رجاله جزيرة ميورقة من جزائر البحر المتوسط « البحر الأبيض المتوسط » ، ويبلغ رجاله طنجة ، ومنها تبدأ قصة الفتح العربى للأندلس على يد طارق بن زياد ... ومحمد بن القاسم نفسه يصل إلى أعماق السند وأطرافها وثغورها ، فيزيل منها دول الأصنام والأوثان ، ويجعل فيها الكلمة لله الواحد الديان . . . فعند بطل السند محمد بن القاسم للجزع على موت الخليفة الوليد بن عبد الملك أسباب وأسباب . . .

فى أعقاب موت الوليد

مات الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ من الهجرة كما سلف القول ، فكانت وفاته أشد على نفس بطل السند من وفاة الحجاج ابن عمه . لقد كان الحجاج أميراً على العراق ، وهو لا يعدو أن يكون عاملا من عمال أمير المؤمنين ، فما دام الخليفة راضياً عن ابن القاسم فإنه مُوقن بأن عمله باق لا يتغير ، ولئن مات الحجاج دعامة ابن القاسم وسنده، إن الخليفة لفيه نعم السَّنَدُ لفتى مجاهد هو وأهله من بنى ثقيف صنائع الأمويين. ولكن السَّنَد قد مات اليوم، وجاء خليفة جديد — هو سليمان ابن عبد الملك — يكره الحجاج وأهله ومن يمت إليه بماتّة، قريبة أو بعيدة من الرحم ، ويتمنى بجدع الأنف لو خُلى بينه وبين بنى ثقيف جميعاً .

فما سرهذه الكراهة والعداوة من الخليفة سليمان بن عبدالملك، للحجاج الذى شد الرحال إلى رحاب ربه ، ولكل قائم وقاعد من أهل الحجاج ؟

لا بد للجواب عن هذا السؤال من الوقوف بعض الوقوف على حديث ولاية العهد من أيام مروان الخليفة الأموى إلى من جاء بعده على الولاء ، وهم عبد الملك ، والوليد ، وسليمان . فإن فى هذه الوقفة القصيرة مفتاح القضية التى نحن بصددها ، والتى نُكب بها بطل السند نكبة لم ير الراءون مثلها فى الجحود والنكران ونسيان أعمال الأبطال .

كان مروان بن الحكم هو الخليفة الرابع من خلفاء الأمويين ، وقد جعل ولاية العهد من بعده لابنه عبد الملك أولا ، ثم لابنه الآخر عبد العزيز من بعده . وفى سنة ٨٥ وقبيل وفاة عبد الملك بن مروان بعام واحد ، أراد هذا الخليفة أن يعزل أخاه عبد العزيز من ولاية العهد ، ويجعل مكانه ابنه الوليد بن عبد الملك ، يريد بذلك نقل الخلافة من الأخ إلى الابن . وكان فى عبد الملك ميلٌ إلى المشاورة فى الأمور قبل المضى فيها ، حتى تنكشف له وجوه الرأى عما يمكن أن يمضى فيه . فاستشار فى ذلك اثنين من خاصته وأهل الحظوة لديه والقربى عنده ، وهما قبيصة بن ذؤيب ، وروحُ بن زنباع ، فنهاه قبيصة عن عمل لا تُحمد مغبته ، ولا تؤمن تهمةُ الغدر فيه ،

وأقره روْحُ بن زنباع وشجعه على خلع أخيه قائلا : لو خلعته ما انتطح فيه عنزان . . . وفيما هو من التردد بين الإقدام والإحجام إذ جاءه الخبر بوفاة أخيه عبد العزيز . . . فقال لروْح : كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا فيه وما أجمعنا عليه .

وبهذا حل الموتُ مشكلة أقلقت بال عبد الملك فاستراح ، وتخلص — على يد ملك الموت — من أخيه ، وعهد بالخلافة إلى ولديه الوليد أولا ، وسليمانَ من بعده . وكتب بالبيعة لهما عهداً بعث به إلى الأمصار ، فبايع الناسُ كلهم إلا سعيدَ بن المسيب فامتنع ، وإن كان ذلك لا يُقدم ولا يؤخر في القضية التي نحن بسبيلها . . . وجاء الوليد بعد أن جاءته الخلافة عقب وفاة أبيه عبد الملك ، فأراد أن يُعيد الذى عمله أبوه من قبله . وذلك بأن يعزل أخاه سليمان من ولاية العهد ، ويجعلها لولده هو عبد العزيز بن الوليد . . . وبذلك تنتقل الخلافة من الأخ إلى الابن . وجهد الوليد لذلك جهده ، وأحكم خططه ، ودعا الناسَ إلى ذلك ، فامتنع عليه أكثرهم ، ولم يجبه إلى عزل أخيه سليمان إلا الحجاج بن يوسف الثقفى أمير العراق ، والقائد الغازى قتيبة بن مسلم ، وبعض خاصته .

ولقد دخل جماعة من الشعراء فى مسألة ولاية العهد لعبدالعزيز ابن الوليد ، فـدعـوا له ، ورأوه أحق من عمه سليمان ، وحرضوا الخليفة الوليد على عزل أخيه سليمان من ولاية العهد وجعلها لعبد العزيز بن الوليد . ومن هؤلاء جرير الشاعر الذى أكثر المدائح فى عبد العزيز ، ودعا الناس إلى مبايعته فقال فيه :

إلى عبد العزيز سمت عيون الرّ   عية إن تخيّرت الرعاءُ
إليه دعت دواعيه إذا ما   عماد الملك خرّتْ والسماءُ
وقال أولو الحكومة من قريش   علينا البيع إذ بلغ الغلاءُ
رأوا عبدالعزيز ولى عهـــد   وما ظلموا بذاك ولا أساءوا
فزحْلفها(١) بأجمعهـــا إليه   أمير المؤمنين إذا تشاءُ
فإن الناس قد مدوا إليـــه   أكفهـــم وقد برح الخفاء
ولو قد بايعـــوك ولى عهـــد   لقام القسط واعتدل البناء

على أن جريراً كان موالياً لعبد العزيز بن الوليد قبل ظهور مسألة ولاية العهد ، وقد ظفر منه بأسنى الجوائز ، وأكرم الصلات . وقد كان عبد العزيز لا يرد له مسألة ، ولا يُخيب قصداً ، حتى بدت عليه آثار عطاياه فقال فيه :

---

(١) زحلفها : ادفعها .

إلى عبد العزيز شكوتُ جهداً　　من البيضاء[1] أو زمن القتاد
سنين مع الجـــراد تعرّقتنا　　فما تبقى السنون مع الجراد ؟
ولولا فضل نائله علينـــا　　لما أحيا بنيّ ولا تـــلادى
سنشكـــر من له أثر علينـــا　　كآثار الولى على العهاد

فلما مات عبد العزيز رثاه جرير بقصيدة يقول منها :

نعوا عبدالعزيز فقلت : هذا　　جليلُ الرزء والحدَثُ الكبير
فبتنـــا لا نقرُّ بطعم نـــوم　　ولا ليلٌ نكابده قصير . . .
وأظلمت البلاد عليه حزناً　　وقلت : أفارق القمر المنير ؟؟

* * *

وأشار بعض الخاصة من ذوى التدبير على الخليفة الوليد أن لا يصل إلى عزل أخيه سليمان عن طريق القوة والسلطان من ناحيته ، ولكن عن طريق استقدام سليمان والرغبة إليه فى خلع نفسه من ولاية العهد ، والبيعة لابن أخيه عبد العزيز .

وقد كان فى ذلك الحل حلٌّ للمشكلة على وجه ليس فيه عنف ، ولكن فيه من إيحاء القوة ونعومة المدخل مالا يذهب

(١) السنة البيضاء : هى السنة المجدبة .

ببشاعة العمل كله . فإن سمة الغدر فى العزل لا تزال تَطبع العمل ، سواءٌ أكان العزل إنزالا من صاحب السلطان ، أم نزولا من صاحب الحق . . .

وكتب الخليفة الوليدُ بن عبد الملك إلى أخيه سليمان يستقدمه ليأخذ منه إقرار النزول عن ولاية العهد ، فاعتلَّ سليمان أو أظهر العلة . . . فأراد الوليد أن يسير إليه بنفسه ، وأمر الناس بالتأهب ليسيروا معه ، للتعجيل بأخذ التنازل منه لابنه ، ولكن الموت — فى هذه المرة أيضاً — حال بين الوليد وبين أمنيته ، فلم تتم محاولتهُ لعقد ولاية العهد لابنه عبد العزيز ، ومات الوليد . . .

وانحلت مشكلة ولاية العهد هذه المرة أيضاً على يد مَلك الموت الذى يحل ما استعصى من المشكلات ، لو كان الناس يتعظون ، أو يفتحون عيونهم وآذانهم على العبر العظيمة ، والحكم البالغة التى تمر بهم . . . ولكن الله يقول ، وهو أصدق القائلين : « حكمة بالغة فما تُغنى النُّذُر » .

وذهب الوليد إلى جوار ربه بما كسب لنفسه من إثم وصالح ، وانتهى ما بينه وبين الناس فى الدنيا من صراع وخلاف ، ليبدأ

ما بين أخيه سليمانَ الخليفة الجديد ، وبين الناس من أحقاد النفوس .

لقد كان سليمانُ حاقداً على الذين وافقوا أخاه الوليد على خلعه من ولاية العهد ، وعلى رأسهم الحجاج بن يوسف الثقفى . وبات سليمان — قبل أن يلى الخلافة — لا يطيق اسم الحجاج ، ولا يطيق اسم واحد من أهله وخواصه ، بل لا يطيق اسم ثقيف كلها ، لأنها أخرجت هذا الرجل الذى يُقر خليفته على الغدر بعهد أخيه . . . وكذلك كره سليمانُ بن عبد الملك القائد الفاتح قتيبةَ بن مسلم ، لأنه ذهب مع الحجاج فيما ذهب إليه من عزل سليمان والبيعة لعبد العزيز بن الوليد ، حتى لقد خافه قتيبةُ حين صارت الخلافة إليه ، وامتنع عن المبايعة له ، وعزم على خلعه من الخلافة وتَرك طاعته ، ودعا الجند والجيوش إلى ذلك ، فسلط سليمانُ عليه — فى وسط الجموع — من قتله وقتل معه أحد عشر رجلا من إخوته وأبناء إخوته .

وكذلك كان مصرع القائد الفاتح المجاهد الذى أبلى فى الله أحسن بلاء ، وهدى الله على يديه إلى الإسلام خلقاً لا يحصيهم إلا الله . ولو لم يعجل الموت إلى الحجاج بن يوسف

قبل تولية سليمان الخلافة لما كان مصيره إلا القتل ، كما قتل قتيبة ابن مسلم ، ولم يُرْعَ فى الله بلاؤه ، ولا فى سبيل الإسلام جهاده .

ومن هنا كان جَزَع بطل السند محمد بن القاسم على موت الخليفة الوليد ، ومن هنا كان خوفه من سليمانَ بن عبد الملك حين صارت الخلافة إليه ، ودُعى له على منابر الإسلام . . .

ولم يكن بطلُ السند مستنداً فى مخاوفه إلى غير أساس ، فهو يعلم الدور الذى قام به الحجاج لإقصاء سليمان عن الخلافة ، لولا أن الموت جاء بغير ما يَهوى الوليد وخاصته ، وهو يعلم أن سليمان لم ينس هذه الفعلة للحجاج حتى لقد كره أهلَ الحجاج جميعاً من أجلها ، وكرهَ بنى عقيل قومَ الحجاج ، بل كره ثقيفاً كلها . . . وهو يعلم — فيما جاءه من الأنباء وهو بالسند — أن ابن عمه الحجاج كان يخشى أن يموت الوليد بن عبد الملك قبله ، فيقع الحجاج فى يد سليمان بن عبد الملك . لولا أن الله عجـَّل بوفاته قبل وفاة الوليد ، فمات مصوناً لم يلحقه سليمان بأذى ولا عذاب ، ولم يأمر بقتله كما قتل قتيبة ابن مسلم . . .

نعم ! لقد كان بطل السند يعلم ذلك كله من الخليفة

الجديد سليمان بن عبد الملك . ولكن ماذا يصنع ليرضى هذا القلب المنطوى على حقد وكراهة ؟ إنه لم يسئ إلى سليمان ابن عبد الملك ، ولم يُشر على الوليد بعزله من ولاية العهد وإقصائه عن طريق الخلافة ، ولم يُسهم فيما كان العراق آخذاً فيه من الفتن . . . وإنما كان بعيداً عن ذلك كله ، فكيف يجنى غيره ويُعذب هو؟ والله يقول : «ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى » ؟

إنه مُرابط فى السند التى فتحها بحد سيفه ، منتظراً أمر الخليفة الجديد، فإنه قائد عسكرى يَعرف الطاعة ، ولا يخرج إلى عصيان ، لأنه ليس له فى السلطان رغبة ، وما به إلى الإمارة اشتهاء . . .

* * *

وجاءت أوامر الخليفة سليمان بما كان متوقعاً من مثله ، فعزل قتيبةَ بن مسلم عن إمارة العراق وخراسان ، وجعل مكانه يزيد بن المهلب ، وبذلك رده إلى إمرة خراسان بعد البعد عنها عشر سنين . . . ثم أمر يزيد بن المهلب بمعاقبة آل الحجاج

ابن يوسف الثقفى ، وكان الحجاج هو الذى عزل يزيد عن خراسان . . . ثم جاء أمرٌ جديد بعزل بطل السند محمد بن القاسم عن إمارة السند ، وتولية يزيد بن أبى كبشة مكانه . فكان ذلك العزل أول ما يلقاه البطل المجاهد من أجر المجاهدين . . .

البطل المعزول

نحن الآن فى العام الخامس والتسعين من الهجرة حينما جاء أمر عزل ابن القاسم عن إمارة السند بعد أن قضينا معه فى فتوحاته بضع سنين ، تبدأ من السنة التاسعة والثمانين فى خلافة الوليد بن عبد الملك . ولقد جاء يزيد بن أبى كبشة إلى السند ، لا فاتحاً ولا غازياً ، ولكنه جاء بكتاب من سليمان بتعيينه والياً على السند وعزل محمد بن القاسم . . . ولقد كان بطل السند رجلا على الرغم من حداثة سنه ، حتى فى الساعة التى يفقد فيها الرجالُ أسباب التصرف ، ويُضيعون أزمَّة التدبير . . .

لقد استقبل ابن القاسم الوالى الجديد ، والأميرَ الذى عُين بدلا منه استقبال الرجل الهادئ ، والبطل الذى لا يبالى بحدث مهما اشتد ، ولا بخطب مهما جد . . . وجاء الأمير الجديد فى جلال الإمارة ، وعز السلطان ، ومكان الدالة عند الخليفة سليمان . جاء فى أبهة الإمرة إلى رجل زالت الإمارة عنه ، ولكن لم يزُل فضله . . . جاء فى موكب فخم إلى فتى تعطل من

المواكب ، وتجرد من الحاشية ، وصفرتْ يداه من كل كلمة آمرة أو ناهية . . . جاء وليس بينه وبين بطل السند من أسباب الحقد ما يدعوه إلى اتخاذ موقف التجهم له والسخط عليه . إلا أنه جاء متأثراً بحقد الخليفة وكراهيته ، فأراد أن يكون خليفياً أكثر من الخليفة ! أو كما يقولون اليوم ملكياً أكثر من الملك ..

وكل ذنب بطل السند حتى يُعزل ويَلقى هذا الجزاء الجاحد ، أنه ابن عم الحجاج الذى كان الخليفة سليمان يحمل له فى نفسه شيئاً ، لأنه أقر الوليد على عزله من ولاية العهد وتنحيته من طريق الخلافة . ولقد مات الحجاج ، وكان يُظن أن الموت سيزيل هنا أسبابَ العداوة ، ولكن سليمان كان غاضباً على بنى عقيل قوم الحجاج كلهم ، لم يستثن منهم أحداً . . .

وتحت تأثير هذا الشعور الذى يجاهر به الخليفة سليمان لقوم الحجاج جاء الوالى الجديد إلى السند . فلنر ماذا كان موقفه من البطل المعزول .

أخذ يزيدُ بن أبى كبشة محمد بن القاسم فى عنف لايليق بمثله ، ولا تستوجبه آثاره فى البطولة العربية ، ومواقفه فى

الفتوح . . . أخذه مقيداً فى الأغلال ، مشدوداً فى الوثاق ، كما يؤخذ المجرمون بالنواصى والأقدام . . . ووكّل به وهو فى محابس القيد ، والحديد يعضُّ بيديه ورجليه ، رجالا غلاظ الأكباد ، وحراساً قساة القلوب ، حملهم معه من العراق وعلى رأسهم معاوية بن المهلب لينجزوا له مهمة التكبيل والتغليل على أتم الوجوه قسوة ، وأشدها غلاظة وفظاعة .

ويروى المؤرخ ابن الأثير هنا أن محمد بن القاسم قال متمثلا :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ولقد أحسن بطل السند فى هذا المقام التمثيل بهذا البيت ، ولكنه لم يجد سميعاً ولا مجيباً ، كما سمع جارُ أبى حنيفة النعمان خير سميع وخير مجيب من أبى حنيفة ، حينما نزلتْ بهذا الجار محنةٌ فى ظلمات ليل . . .

فقد حدثوا أن أبا حنيفة النعمان كان له جار مولع بالشراب يُحيي الليل شارباً ، ويحييه أبو حنيفة قائماً لله . وكان هذا الجار المدمن يغنى بالليل ، كلما ثمل ، هذا البيت :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فجاء العسس ليلة وأوقعوه فى الحبس ، ففقد أبو حنيفة صوته ، فعلم أن الشرطة حبسوه ، فكتب إلى الوالى ، وتكلم فى شأن العفو عنه ، فأطلق سراحه وسراح مَن أخذ فى تلك الليلة إكراماً لأبى حنيفة . وعلم الرجل بيد أبى حنيفة عنده ، فأقبل عليه يشكره ، فقال له أبو حنيفة : هل أضعناك يا فتى ؟ قال : لا والله ! ولكنك بَررتَ وحفظت . . .

أما سليمان بن عبد الملك فما بر ولا حفظ ، بل أضاع فتى مجاهداً جريئاً ، وبطلا فاتحاً مغواراً ، أخذ بذنب غيره ، وعُوقب بجريرة سواه ، فكان شأنه شأن القائل :

غيرى جنى وأنا المعذب فيكم   فكأننى سبابة المتندّم[١]

ويروى ابن الأثير أن أهل السند بكوا على محمد بن القاسم . وحق لهم أن يبكوا . فقد فتح بلادهم على نضارة من السن ، وطراءة من الشباب ، وكان فى يده القيادة والسيادة ، والأمر والنهى ، والجاه والسطوة . فما اغتر بذلك كله ، ولا خدعه عن نفسه ولا عن ربه . لقد كان مثال المسلم الكامل: قوة فى

---

(١) سبابة المتندم : هى أصبع الرجل النادم يعضها وهى لم تجن ذنباً ..

القلب او شدة فى البأس ، ومبالغة فى العدل ، وسعة فى البذل ، وتحرياً للحق . ومن هنا علقت به النفوس ، وأحبته القلوب ، وبكاه جيشه الغالب ، كما بكاه القوم المغلوبون .

ولم يكد يفرح يزيدُ بن أبى كبشة والى السند الجديد بمنصبه ، ولم يكد يتهنأ بما صار إليه من إمارة دولة جديدة واسعة الأطراف ، ولم يكد يرقد الليل مسروراً فى أوله حتى جاءه النذير بالأسحار . . . . فقد كان الموت راصداً له ، وكانت حبائل المنون تُحكم له سداها ولحمتها ، فمات بعد قدومه أرض السند بثمانية عشر يوماً . وأغلبُ الظن أنه لم يمت بين الضرب والطعن ميتةَ المقاتلين . . .

* * *

ولم تخفّ لوعةُ أهل السند على محمد بن القاسم ، ولا بكاؤهم عليه ، ولا قلقهم للمصير الذى ينتظره فى العراق أو فى الشام أو فى أية بقعة تكون فيها نهايته . وكأنهم قدّموا البكاء عليه انتظاراً لما كانوا يتوقعونه من أمره . . . فقد صار إلى مصير لا يتكافأ مع ما أسلف ، بل هو الجحود بعينه ، والغدر بذاته .

واحتفظ أهل السند والهند فيما احتفظوا به من تذكارات البطل العربي المغامر محمد بن القاسم بصورة له ، صوروها في مدينة الكيرج التي فتحها سنة ٩٥ ، والتي كان يملكها الملك دَوْهر ، فكانت أدل على مكانة بطل السند والهند في قلوب تلك البلاد .

الأسد الحبيس

كأنّ الشاعر على بن الجهم — وهو من شعراء القرن الثالث الهجرى — كان يعبر أصدق تعبير عن محمد بن القاسم الثقفى بطل السند ، وهو يقول فى قصيدته التى نظمها وهو فى السجن :

قالت حبستَ فقلت ليس بضائر حبسى وأىُّ مهند لا يغمد
أو ما رأيت الليث يألف غيلهُ كبراً وأوباش السباع ترددُ ؟
والشمس لولا أنهـا محجوبة عن ناظريك لما أضاء الفرقد
والحبس ما لم تَغْشَهُ لدنيّة شنعاءَ نعم المنزل المتورد
بيت يجـدد للكريم كرامة ويُزار فيه ولا يزور ، ويحفد.

ولعلك أدركت — أيها القارئ الكريم أن بطل السند قد اقتيد فى الأغلال ليحبس ، ويضيق عليه فى حريته كما يضيقُ على المجرمين من أصحاب الدنايا الشنعاء .

ولقد بلغنا فى الحديث عن بطل السند مبلغَ القبض عليه وتوكيل معاوية بن المهلب به مع جماعة من أشداء الحراس

يسوقونه إلى العراق ، و يُسلمونه إلى رجل شديد العداوة للحجاج ، كثير الموجدة عليه ، لأمر سنذكره فيما يجيء من القول ، ذلك الرجل هو صالح بن عبد الرحمن .

ولم يكن صالح بن عبد الرحمن والياً على العراق ، ولا نائباً لواليه حتى يُسلمه حراس بطل السند إليه . ولم يكن صالح حرسيًّا ولا شرطيًّا ، ولم يك قواماً على سجون العراق يتولى أمرها ويدير شئونها . ولكنه كان عامل الخراج على العراق لسليمان ابن عبد الملك . فلماذا اختاره سليمان بن عبد الملك لمهمة القيام على محمد بن القاسم فى سجنه ؟ وما العلاقة بين رجل يقوم على شئون الخراج ، ورجل عُزل عن قيادة جيوش السند ، وسيق مكبلا فى أثقال الحديد ، لا يدرى إلى أين يساق ، وماذا يراد به ؟

لقد شهد بطل السند مدينة واسط وهو فى اطفولته المتأخرة وشبابه المبكر . ورأى فيها بيوتَ أهله من بنى عقيل وهى تتدانى وتتراءى نارها[1] فى حى خاص بهم ، يمتاز من بقية أحياء المدينة الناشئة النامية بجلال المظهر ، ونضرة النعيم ، وبسطة

---

(١) أى يتقارب بعضها من بعض .

العيش ، وعرض الجاه . واليوم يُساق إلى واسط ، تلك الحاضرة الجميلة التي بناها ابن عمه الحجاج أمير العراق ، فيراها وقد تغيرت معالمها في ناظريه ، وتنكرت له ؛ وعلتها كآبة موحشة بعد أن كان البشر يبدو من كل ثنية فيها ، وكل طريق من طرقاتها ، ومنعطف من منعطفاتها .

لقد كانت واسط بالأمس غير البعيد تنفسح له رحابها ، وتنبسط له مضايقها ، واليوم يدخلها — أو يُدخله الحراس إليها — فتضيق في عينيه ضيقاً لا يقوى عليه ، ويضيقُ صدره بها ضيقاً لم يعهده فيها من قبل . ولكن مدينة واسط في الحق لم تتغير ، وإنما تغيرت الحالُ بمحمد بن القاسم ، فرآها كئيبة في عينيه وهي في الواقع غير ذلك ، ورآها موحشة في ناظريه وهي ليست هنالك . . . ولو أنه عاد إليها في غير هذه الحال التي أعيد بها لرآها كما كانت ، وأنضر مما كانت : قلبَ العراق النابض ، ومركزَ الحركة فيه ، ومجتمعَ الإدارة والتنظيم والتوجيه ، ومدينة الحجاج التي بنى فيها قصراً للإمارة ، وأنفق عليه ألوف الألوف من الدراهم .

وأقام بطل السند — أو أريد له أن يقيم — في واسط سجيناً

حبيساً ، بعد أن كان له فى بلاد السند الأمر والنهى ، والحول والطول ، والتصرف فى الأمور كما يريد ، لا يعارضه معارض ، ولا يناقضه مناقض .

ولقد أنطق الحبسُ الأليم شاعرية البطل المغوار ، وفى بنى عقيل فصاحة وشاعرية كانت تجلوهما المواقف الجسام . ألم يكن الحجاج من خطباء العرب الذين كانت تسعى إليهم المنابر ، وتهتز أعوادها فتهتز منها قلوب السامعين ؟ ألم يكن يَرْقى المنابر ، فيعظ وعظ العلماء وينزل عنها فيفتك فتك الجبارين ، كما قال عنه الحسن البصرى ؟ ألم تحضرهُ الشاعرية وهو على فراش الموت ، فى آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فنظم أبياتاً فى التوبة والاستغفار ، وهو فى اللحظة التى تضيع فيها بدائه الرجال ؟

نعم ! لقد نطق بطل السند وفتى ثقيف وهو فى سجنه بواسط شعراً يقول فيه .

فلئن ثويتُ بواسط وبأرضها رَهن الحديد مكبلا مغلولا
فلرُبَّ قينة فارس قد رُعتها ولربَّ قِرْنٍ قد تركتُ قتيلا

* * *

لقد أحسن بطل السند الظن بالخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك حين تجب إساءة الظنون . ولكن الفتى الطيب القلب معذور ومعذور . فما أذنب ، ولا اقترف جرماً ، ولا اكتسب إثماً . وكل ذنبه أنه ابن عم الحجاج الذى كان عدو سليمان المبين .

ولو أن ابن القاسم رأى من وراء الغيث هذا الحبس الذى كان ينتظره حين جاءه نبأ وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك وتولية أخيه سليمان — لو أنه رأى ذلك المصير وقدّره ، ما أسلم نفسه ليزيد بن أبي كبشة والى السند الجديد ، ولكان ركب إلى الفرار ألف سبيل وسبيل . ويقول هو فى ذلك شعراً منه :

ولو كنتُ أجمعت الفرار لوطّئت ... إناث أعِدّت للوغى وذكور
وما دخلت خيل السكاسك أرضنا ... ولا كان من عكٍّ علىّ أمير
وما كنت للعبد المزونى تابعاً ... فيالك دهر بالكرام عثورُ !

وخيلُ السكاسك هى خيل الوالى الجديد وأمير السند يزيد بن أبي كبشة ، الذى ينتمى إلى قبيلة السكاسك من كندة ، وهم من العرب اليمانية .

نعم ! كان يستطيع بطل السند الفرار لو أراده ، ولكنه – كما رأيناه فى كل مواقعه – جندى لا يعرف الهرب ، ولا يلتمس الفرار .

لقد كان مقداماً فى كل مراحل حياته القصيرة قِصر أعمار الورود ، فلماذا يفر فرار الجبان وهو واثق أنه برىء ؟

إن الأبطال يُقدمون على الموت فى ساعة يتأخر فيها سرج الجبان ، ففيم الغضاضة إذن من السجن ولو كان طريقاً إلى الموت ؟

ثأر قديم

قد يكون للخليفة سليمان بن عبد الملك بعض العذر فى نقمته على قوم الحجاج جميعاً لموقفه من ولايته للعهد ، وإغرائه الوليد بن عبد الملك بعزله من تلك الولاية ليفسح الطريق لولده عبد العزيز . ولو أنه ليس من العدل أن يؤخذ الأبرياء بذنب المسيء .

لقد رَوى ابن الأثير أن سليمان بن عبد الملك استعمل يزيد بن المهلب على العراق ، وَجعل صالح بن عبد الرحمن على الخراج ، وأمره بقتل بنى عَقيل وَبسط العذاب عليهم — وهم أهل الحجاج — فكان يعذبهم ويلى عذابهم عبد الملك ابن المهلب .

والحجاج دائماً هو مركز الثارات حين يَغضب الأمويون وأتباعهم وعمالهم على بنى عقيل .

لقد وَتر الحجاجُ الخليفة سليمان بن عبد الملك حين كان يدبر الأمور سرًّا وعلانية لخلعه من ولاية العهد . وهى ترة لم

يطفئها موت الحجاج ، فظلت تتلظى على أهله وقومه . فما هو شأن صالح بن عبد الرحمن بأهل الحجاج حتى يعذبهم هذا العذاب حين صار إليه أمر الخراج فى أول عهد سليمان ؟

إن هناك ثأراً دفيناً بين الحجاج وبين صالح بن عبد الرحمن ، والعرب قوم لا ينسون التِّرات . وترجع أصول هذا الثأر إلى أوائل عهد الحجاج بإمارة العراق .

لقد كانت حرب الخوارج على أشدها بالعراق ، حتى لقد هانت على هؤلاء القوم أرواحهم فى سبيل فكرتهم التى نادوا بها ، وقاموا من أجلها . وحتى لم يَشهد التاريخ صلابة واستمساكاً بالموت فى سبيل الرأى كما شهده عند الخوارج . ولقد أقضَّ الخوارجُ مضاجع الأمويين ، فلم تذق عيونهم طعم النوم من شدة ما رأوه منهم .

وحمل الحجاجُ الناسَ على حرب الخوارج حملا ، ووكَّل بمناهضتهم المهلب بن أبى صفرة ، وهو رجل محارب قوى الشكيمة ، ماضى العزيمة ، سديد الرأى ، حَسن الاحتيال فى الأمر ، يراوغ فى الحرب ، ويَحذرُ البغتات ، ويديم المراقبة ، ويستعين بالحيلة .

وكان لا يؤتى للحجاج بخارجى إلا قتله ، حتى لقد قتل منهم بيديه خلقاً كثيراً . . .

وكان لصالح بن عبد الرحمن أخٌ اسمه آدم ، جرفته موجةُ الخوارج ، فسار فى تيارهم ، ورأى رأيهم بعد أن فتن بفصاحة دعاتهم ، وأخذ بشدة بلائهم . فلما وقع آدم فى يد الحجاج لقى منه المصير الذى كان يلقاه كل خارجى ، وهو القتل .

وكان حزن صالح بن عبد الرحمن على أخيه آدم شديداً ، ووجده عليه عظيما ، وموجدته على الحجاج مما لا تذهب الأيام بحدته . فهى كامنة فى الصدور ، مستكنة فى الضمير ، حتى يحين الأوان للانتقام .

ومات الحجاج قبيل وفاة الوليد بن عبد الملك وفى ظل حمايته ، فلم يدرك الموتورون منه ثأراً ، ولم ينالوا ترة ، فتحول السخط على الحجاج إلى السخط على قومه وأهله ، وانتقل الحساب من قائمة أمير العراق الحجاج إلى قوائم بنى عقيل . . .

* * *

ولم يكتف صالح بن عبد الرحمن بالثأر القديم بين الحجاج وبين أخيه القتيل آدم بن عبد الرحمن ليتخذه سبباً لتعذيب

محمد بن القاسم الثقفى بطل السند وابن عم الحجاج . إن بطل السند الآن حبيس فى سجن ضيق مظلم من سجون واسط مع جماعة من بنى عقيل – قوم الحجاج – يساوون العذاب كلما أجنّهم ليل، أو أشرق عليهم من خلال قضبان السجن وَميض من صباح . فلماذا لا يُقتل بطل السند على يد صالح بن عبد الرحمن، كما قتلَ الحجاجُ بالأمس أخاه آدم بن عبدالرحمن؟

ولكن بطل السند لم يقترف ذنباً يستحق عليه القتل بَله السجن ، فما هو الذنب الذى يلصق به ، وما هى التهمة التى تُفترى عليه ، حتى يكون للقتل مستوجباً ، وللحكم عليه بالموت مستأهلا ؟

هنا ستنهض أحقادُ الصدور لتشفى غليلها على حساب الأبرياء . . .

فرية على الأبرياء

كان آخر عهدنا بالأميرة "سيتا" ابنة الملك ذاهر أنها حُملت أسيرة إلى دمشق عاصمة الأمويين ، بعد أن استراب البطلُ محمد بن القاسم من أمرها ، ولاحظ عليها اتصالات خفية مع جماعة من أمراء السند المخلوعين المغلوبين على أمرهم ، وخشى أن تكون الأميرة الشرقية السمراء قد خامرت مع قومها على العرب لتثأر منهم لأبيها المقتول ، ولبلادها المغلوبة ، ولأسرتها المنكوبة .

ولقد كانت الأميرة سيتا تُظهر للأمير العربى الشاب محمد بن القاسم قبل ترحيلها إلى دمشق ما تحببت به إليه ، حتى شغفته حبًّا ، وكان يبدى لها من الاهتمام بها والعطف عليها والمودة لها ما شهدت به سماء السند وأرضها . .

والحق أن ابنة الملك المقتول لم تتظاهر بحبها للأمير العربى بطل السند إلا لتتخذ من ذلك الحب الظاهر وسيلة إلى غرضها ، وسبباً لبلوغ أهدافها . فكانت تسارُّه بالإشارة ، وتُخافيه بلحن

العبارة ، فى لكنة سندية ، ولوثة غير عربية ، لعلها تتلقف من بين شفتيه الكتومين خبراً يفيدُ الخامرين من قومها ، وينفعُ المتآمرين خفية من بنى جنسها .

وحاولت سيتا أن تُخفى شأنها قدر ما وسعها الإخفاء، حتى لا ينفضح أمرها ، أو ينكشف سرها ، فتبوء خطتها بالخيبة ، وتنقلب أمورها إلى أسوأ منقلب .

ولكن بصيرة القائد الشاب كانت أهدى من الشمس حين تجدُ فيها الأبصار هداية إلى معالم الطريق ، فأدرك من نظراتها ما تخفى سريرتها ، ورأى فى عينيها دليلا على خبايا فؤادها ، ورابه من أمرها أنها كانت تخرج فى الليالى المتشحة بالسواد ، تطأ الثرى فى رفق ، وتتسلل بين الشجر فى حذر ، وتصلُ الخطى فى نفس مكتوم ، ثم تعود بعد ذلك كأنما انزاح عن صدرها هم ثقيل . . .

وذات ليلة خرجت سيتا كعادتها ، وكان ابن القاسم قد بث لها من الأرصاد من يتابعون خطوها ، ويقفون على جلية أمرها . فسُمِّرت عيونهم المتفتحة على شبحها المجلل بسواد الليل ، وظلوا خلفها لا تنحرف عنها أبصارهم ، ولا يحيد عن مسيرها

مسيرهم ، إلى أن رأوها تلاقى ثلاثة من الرجال لقاء خفيفاً سريعاً ، امتدت فيه يدها بشيء وامتدت فيه يد أحدهم بتلقف ذلك الشيء على حذر ، ثم مضى الثلاثة ممعنين فى سير حثيث يدنو من الجرى ، وعادت الفتاة أدراجها ، وهى موقنة أن أحداً غير الليل والثلاثة الشخوص لم يشهدها . وأنها آمنة فى كنف الظلام الحالك ، من أن تأخذها عيون المتطلعين ، وأبصار المتجسسين ...

وعاد عيون ابن القاسم ينبئونه بما رأوا ، ويخبرونه بأمر الفتاة المريبة التى تتخذ من ملاءة الليل الأسود ستراً لخططها السود . . . واستدعاها ابن القاسم ، وأخذ معها فى الحديث وأعطى ، وأبدأ وأعاد ، إلى أن استيقن أن الأميرة ممالئة ، وأن العطف الذى أبداه نحوها كان فى غير موضع ، وأن الحب الذى كانت تتظاهر به كان ستراً لأخبث الأهداف ، وأن رغبة الثأر لأبيها تتحرق فى قلبها ، فود لو أن أدب الحرب فى الإسلام كان يجيز قتل امرأة ! إذن لتخلص منها بأيسر طريق كما يتخلص من الجواسيس . ولكنه رأى أن يبعث بها أسيرة إلى عاصمة الخلافة فى دمشق ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . . .

* * *

ومضت بضعة أعوام على الأميرة الأسيرة "سيتا"، قضتها فى دمشق وحيدة بعيدة عن أرضها ، ولكنها لم تكن غير واحدة من هؤلاء الموالى والجوارى الذين كان الولاة والعمال يهدونهم إلى بلاط الخليفة . ولقد كانت سيتا أول أمرها مولاة فى بلاط الوليد ، ثم أهداها إلى واحد من أسرته . واختلفت عليها فى خلال بضع السنوات من الحوادث ما لا شأن لنا به ، مما لا يتصل بتاريخ ابن القاسم فى قليل أو كثير .

وما يهمنا هنا أن نعرض من تاريخ حياتها فى دمشق ما لا يهتم به التاريخ . إلا أننا نذكر أنها كانت وصيفة فى قصور الأمراء من بنى أمية ، لعلها كانت تحسن من أمور الخدمة فى القصور ما تلقته فى قصور أبيها الملك ذاهر ، أو لعل نشأتها فى بيت ملك كانت تعينها على إجادة التنشئة فى بيوت الأمراء ، أو لعل من الكرامة والإكرام لابنة ملك مغلوب مقتول أن لا تعامل معاملة الرقيق .

ولقد بلغ آخر المطاف بها فى خدمة القصور لرجال بنى أمية أن خدمت فى دار لرجل من رجال سليمان بن عبد الملك الذين اتصلوا به قبل أن تصير إليه الخلافة ، فلما استقرت له

دعائمها بعد مسألة ولاية العهد أدناه إليه ، ورفع مكانه عنده ، وأناله الحظوة لديه . ولعل سيتا الأميرة السندية لم تكن فى دار أحد من أمراء بنى أمية أسعد حالا مما كانت فى دار الشيخ صفوان . . . .

* * *

وقضى صالح بن عبد الرحمن فى مدينة واسط شهوراً يضع فيها أصول الخراج للدولة الأموية على أساس يرضى عنه سليمان بعد أن بلغت النفقات فى عهد الوليد بن عبد الملك حداً كادت تنوء به موارد الدولة ، ولعل صالحاً لم ينشغل بأمر الخراج أكثر مما انشغل بأمر بنى عقيل — وعلى رأسهم محمد بن القاسم بطل السند — الذين وكل به سليمان بن عبد الملك أمر تعذيبهم والقيامة عليهم فى سجنهم فى مدينة واسط . . . لقد كان يفكر فى وسيلة يخلص بها جملة من بنى عقيل قوم الحجاج الذى قتل أخاه آدم فى فتن الخوارج ، وأضحى بذلك واتراً له ، وركز أطراف حقده على بنى عقيل فى البطل الشاب محمد بن القاسم . فماذا يصنع ليتخلص منه ومن بقية قومه بالقتل الذريع ؟

لقد كان لبطل السند فى قلوب المسلمين محبة لا ينزعها

نازع ، فأحبه أهل السند حبًّا يدنو من تقديس آلهتهم الأقدمين ، وصنعوا له صورة فى مدينة الكيرج ، كما يصنع الناس بالتماثيل حين يقيمونها للأبطال وعظماء الرجال تخليداً لذكرهم . وأحبه الجنود المقاتلون من رجاله حبًّا امتزج بالطاعة التامة كما امتزج بدمائهم . وبكاه هؤلاء وهؤلاء حين جاءه الأمر مع والى السند الجديد بالعزل ، وحين قيده هذا الوالى وساقه فى حرس شديد إلى العراق لينظر فى أمره .

وفوق هذا أحبه المسلمون فى العراق والشام ، وأخذتهم من أنباء شجاعته وبسالته وبطولته ما جعلهم يتحدثون باسمه ، كما كان يتحدث الأقدمون بأبطال الأساطير . . .

وما سجلت السنوات الست التى قضاها ابن القاسم فى السند فاتحاً غازياً مجاهداً فى سبيل الله ، ضارباً بسيف الله أعناق الكفر ، ومحطماً رءوس الشرك — ما سجلت عليه عيباً واحداً ، أو نقيصة واحدة يؤخذ بها ، ويستحق العقاب من أجلها .

لقد كان أميناً على أموال المسلمين وأرواحهم ، حريصاً على أعراضهم ، كما كان حريصاً على أعراض أهل البلاد المفتوحة فما استحل فيها حرمة ، ولا هتك ستراً ، ولا أباح معصية .

وكان فى سلوكه نفسه ، وفى سيرته الشخصية ما كان أحسن المثل لقومه العرب ، حتى اطمأن أهل السند إلى المسلمين ، وألقوا إليهم السلام ، ورضوا بالإقامة فى كنفهم ، لأنهم رأوا فيهم من العدل ما لم يجدوه ، ودخلوا فى الإسلام راضين لم يرغمهم سيف ، ولم يكرههم عليه عسف . وحسن إسلامهم إلى يومنا هذا ، فكسب بهم دين البيِّنة أرضاً واسعة ، وقلوباً عامرة ، وعدداً كاثراً إذا عد عليه الحصى يتخلف . . .

فماذا يصنع صالح بن عبد الرحمن إذن ليأخذ الوِتْر من الحجاج الذى مات وشبع موتاً ؟ ماذا يصنع ليثأر لمقتل أخيه آدم بن عبد الرحمن من شاب برىء ، ذنبه أنه قريب للحجاج فقط ؟ وهل كانت القرابة غرماً يحتمل فيه الأقارب المغارم دون أن يكون لهم وزر ، أو يقع منهم إضر ؟ إن الله يقول : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » . فكيف يصح فى مشارع العقل وموارد الطبع أن يلزَم إنسان برىء طائرَ غيره ، ويتحمل تبعات سواه ؟

ألا يصح لبطل السند حينئذ أن يتمثل بقول الشاعر الجاهلى :

لم أكن من جناتها — علم اللـه — وإنى بحرِّها اليوم صالى !

سمع صالح بن عبد الرحمن – وهو فى قصر الخراج بمدينة واسط – أن فى دمشق فتاة من السند تتسم بسمات الإمارة ، وتنتسب إلى الملوك من السند . فأبوها ذاهر الذى قتله جيش محمد بن القاسم فى فتح مهران . فلماذا لا تكون هذه الفتاة بداية الخيط الذى يصل به صالح إلى مأربه من قتل بطل السند محمد بن القاسم : ابن عم الحجاج ؟

خيوط المؤامرة

وَفد صالح بن عبد الرحمن على عاصمة الأمويين ليعرض على أنظار الخليفة سليمان بن عبد الملك جرائد الخراج فى العراق بعد أن ولاه الخليفة أمره . والحق أنه كان يُعد فى حقيبته لهذه الرحلة التى جاز بها العراق إلى الشام شيئاً ، ويبيِّت أمراً لبطل السند محمد بن القاسم .

وكان رَكبُ صالح إلى الشام فيه من الحرس والجند ما يليق بمقام عامل الخراج ، وهو الرجل الذى يجمع للدولة مالها ، ويلم لها أطراف ثروتها ، مما يعينها على التعمير والإنشاء والغزو ، والنفقة على الجيوش ، ومظاهر الترف التى أخذت بعد ذلك تزداد فى العصر العباسى .

وصالح بن عبد الرحمن هذا رجل من طراز عجيب ، فهو أذنٌ يتسمع الأخبار ويتلقفها من أى فم ، ويأخذها عن أية شفة ، ويتقرب إلى الخلافة بهذه الصفة التى أدنتْ محله منها .

وأخذت المطايا تخب وتضبع فى طريقها إلى حاضرة بنى أمية ، وتقف فى مراحل الطريق ، تتزود بالماء والطعام ، وترتاح من مشقة الطريق ، وطول الرحلة .

وكان صالح يتبسط إلى حراسه فى الحديث ، لعلهم يفضون إليه بما يود أن يعرف من صغير الشئون وكبيرها ، وتافهها وجليلها . وفى يوم من أيام الرحلة جاءت النوبة على حارس من حراسه يقص على الركب وصاحبه أغربَ ما شاهده فى حياته . فذكر الحارس أنه كان من جنود الغزوة التى بَعثَ بها الحجاجُ إلى ثغر السند ، وأنه رأى فى هذه البلاد،التى تركب الأفيال وتحارب عليها ، غرائب لا ينقضى منها عجب .

وكأنما سَقط صالح بن عبد الرحمن على ضالة كان ينشدها ، فلعل الرجل تخرج من بين شفتيه كلمة تعينه على إنجاح المؤامرة التى أضناه التفكير فى حَوْك خيوطها . وأقبل صالح بجملته على الحارس يصغى إليه ، وكأن كل عضو من أعضاء جسمه أذن تتسمع . . .

وتوقعَ صالح أن يُذكر محمد ابن القاسم بمايتحرق إلى شفاء غلته منه ، فما وجد إلا لسانَ صدق ، وشهادة خير .

قال له صالح : وكيف كانت سيرة ابن القاسم بينكم ، وخطته فيكم ؟ فأجاب الرجل :

— كان والله المثل الأعلى فى سيرته وخطته ، حتى لقد ودّ كل واحد من جنده أن يكون مصبوباً على قالبه . فهو يعطف على الصغير منا ، ويوقر الكبير فينا ، ويأخذ نفسه فى السلوك بما يأخذ به المسلم المتصوّن نفسه ، فلا جورَ ولا طمع ، ولا صَلَف ولا غرور ، ولا فسق ولا فجور .

— ولكنه ابن عم الحجاج الذى فجر فى العراق ، وأطال الله الطَّول له إلى أن أخذه وأراح العباد منه . ثم جاء الخليفة سليمان ، وهو أحق الناس بالخلافة علينا ، والولاية فينا ، حتى قال الناس فيه هذا القول المأثور : سليمان مفتاح الخير ، ذهب عنهم الحجاج ، وولى سليمان . أفلا كان فيه بعض ما كان فى ابن عمه من فجور ؟

— والله يا ابن عبد الرحمن ما عهدنا على الرجل من سوء ، ولا عرفنا فيه مذمة نأخذها عليه ، ونعيبها منه . وليس بحتم أن يكون الرجل كابن عمه . فقد يختلف الأخوان فى الطبع والأصل واحد ، والأب واحد ، والأم واحدة . وقد يلد الحُرّان غير نجيب ... وقد

يخرج الخبث من الفضة الخالصة ، كما قد يخرجُ الخبيث من الطيب . وقد يكون للحجاج من العيوب ما يؤاخذه عليها المؤاخذ، بعد أن سفك من دماء المسلمين ما سفك ، وأزهق من الأرواح ما أزهق . وهذه خطبته بالكوفة حين دخلها فخطب الناس بغتة، وهددهم وأوعدهم ، حتى خافوه مخافة شديدة ، وكأن الله ابتلى أهل العراق بهذا الرجل، يحكم فيهم بحكم الجاهلية، لا يقبل من محسنهم ، ولا يتجاوز عن مسيئهم . فقل فى الحجاج ما شئت ! أما ابن عمه محمد بن القاسم فلم يكن. والله فى شىء من ذلك كله . . . لقد كنا نخشى أن تغره الإمارة، وحداثة السن ، ومكان القيادة ، ووفرة المال ، وملازمة التوفيق ، فوالله ما اغتر ، ولا تكبر ، ولا زادته الانتصارات إلا تواضعاً ، كالشمس تعلو فى كبد السماء ، ويدنو شعاعها وضوؤها .

– كأنك تحدثنى عن ابن القاسم بينكم ، فهلا حدثتنى عنه مع أهل السند التى فتحها ؟

– إن الحديث عن ابن القاسم يشرّفه من حيث نظرت إليه، كالبدر من حيث التفت إليه يهدى إلى العين نوراً ساطعاً ، وضياء لامعاً... لقد كان والله كريماً مع "سيتا" كرماً لا يليق بما صنعت؟

ــ ومن سيتا هذه التي أكرمها الغلام الثاني من غلمان بني ثقيف ؟

ــ أتسألني عن سيتا التي سار بذكرها الركبان ؟ إنها أميرة من أميرات السند ، وقف أبوها في وجه المسلمين الفاتحين فقتلته جيوش محمد بن القاسم . وقد رق البطل الشاب لما آلت إليه أمورها بعد مقتل والدها ، فأكرمها ورعاها صوناً لبنات الملوك أن تبتذل حياتهن . ولكنها لم تكن أهلا لرعاية البطل الفاتح وعنايته ، وكان أيسر جزائها على نية الممالأة مع جماعة من قومها أن يقطع رأسها . . فقد كانت تتجسس على محمد بن القاسم وهي في كنف رعايته ، وتتعقب أخباره وأخبار خططه ، وهو مطمئن غير مضمر سوء ظن ، إلى أن انكشف له من أمرها ما كانت تستره وتبالغ في كتمانه . فأرسلها أسيرة إلى العراق ، حيث بعث بها أمير العراق إلى بلاط دمشق . وهناك تنقلت بها المصائر من قصر إلى قصر ، ومن دار إلى دار ، حتى انتهت آخر الأمر إلى دار الشيخ صفوان ، صفي الخليفة سليمان بن عبد الملك من قبل أن تصير إليه الخلافة .

* * *

كان صالح بن عبد الرحمن يصغى إلى هذا القسم من حديث الحارس الذى فى ركبه إصغاء بالغاً ، حتى كأنه كان يلتهم كل كلمة منه ، ثم هز رأسه هزة الذى وجد حلاً ، أو انتهى إلى قرار ، وقال :

ـــ وهى الآن فى دار الشيخ صفوان . . .

في دار صفوان

بلغَ ركبُ صالح بن عبد الرحمن عامل خراج بنى أمية على العراق أرباض عاصمة الأمويين ، وقد بدت على مرمى النظر شواهق الأبنية والمصانع التى جدّ بنو أمية فى تشييدها ، وخاصة الخليفة البنّاء المعمر الوليد بن عبد الملك ، الذى كان الناس يلتقون فى زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن الأبنية والعمارات ، كما كانوا يسألون فى عهد الخليفة التقى الورع عمر بن عبد العزيز أىّ وردٍ قرءوا ، وكم حفظوا من القرآن ، وكم قاموا من الشهر ؟

وبدت للركب الذى كان حديث عهد بدمشق فى عصر الوليد قبة الرصاص بالجامع الأموى التى وصفها الرحالة ابن جبير بعد ذلك بزمان طويل فقال : إنها من أعظم ما شاهده من مناظر الدنيا الغريبة ، وهيا كلها الماثلة البنيان . وعجب ابن جبير فوق ذلك من الحجارة التى فى جدر المسجد ، والتى يزن كل واحد منها قناطير مقنطرة ، ولا تنقلها الفيلة فضلا عن غيرها (فالعجب كل العجب من تطليعها إلى ذلك الموضع المفرط السمو ، وكيف

تمكنت القدرة البشرية لذلك ، فسبحان من ألهم عباده إلى هذه الصنائع العجيبة) .

ولو أن ركب صالح بن عبدالرحمن تأخر به الزمان أربعة قرون أو تزيد قليلا ، لما سمع فى وصف الجامع الأموى بدمشق — الذى بناه الوليد بن عبد الملك — أجمل ولا أدق مما وصفه به الشاعر العربى الفارسى أسامة بن منقذ الكنانى حيث قال :

وكأن جامعها البديع بناؤه ملك يمير من المساجد جحفلا
ذو قبة رُفعت فضاهت قنة ومنابر بنيت فحالت معقلا
تبدو الأهلة فى أعاليها كما يبدو الهلال تعاليا وتهللا
ويريك سقفاً بالرصاص مدثراً يعلو جداراً بالرخام مزملا
قد ألف الأقوام بين شكوله فغدا الرخام بذاته متشكلا
لم يرض تجليلا بجص فانبرى بالفص يعلو والنضار مجللا
فإذا تذرُّ الشمس فيه تخاله يلقاً[1] تألق ، أوحريقاً مشعلا
فكأنما محرابه من سندس أو لؤلؤ وزمرد قد فصّلا
وتخال طاقات الزجاج إذا بدت منه للحظك عبقرياً مسدلا
تبدو القباب بصحنه لك مثلما تبدو العرائس بالحلى لتجتلى
وعلت به فوارة من فضة سالت فظنوها معيناً سلسلا

---

(١) اليلق : البياض الشديد .

وتفرق ركب صالح فى دمشق ، ومضى كل على وجهه حتى يقضى "صالح" المهمة التى جاء من أجلها . وهم لا يعلمون أكثر من أنه جاء لشأن من شئون الخراج الذى ولى أمره ، ولا يدرون شيئاً مما يدور فى باله حول محمد بن القاسم، وما يُعده له فى حقيبته . . .

ومضى صالح بن عبد الرحمن إلى دار الشيخ صفوان ، وهو صديق قديم له ، وقد التقيا فى حب الخليفة سليمان بن عبد الملك قبل أن تصير الأمور إليه . فسلم كل منهما على صاحبه ، ورحب المضيف بضيفه، وفرح لرؤية صديق قديم، وأخذ كل واحد منهما يسأل صاحبه عن طائفة من المسائل ، مما يخوض الصحاب القدامى فيها حين يلتقون ويتدانى بعيدهم .

وأراد الضيف صالح بن عبد الرحمن أن يستطلع أمر الوصيفة السندية "سيتا" التى بلغه فى آخر مراحل رحلته أنها نازلة بدار صفوان التى هو الآن فى رحابها . . .

ولا يعدم المرء ذو الحاجة أن يجد سبلا كثيرة يستطلع بها طلع الشىء الذى يريده ، فصالح بن عبد الرحمن عامل على خراج البصرة، والبصرة ثغر لا تنقطع السفن بينه وبين ثغور السند

التى فتح الله بها على المسلمين . فلم لا يأخذ الحديث بعضه برقاب بعض ، حتى يصل إلى قصة فتح السند من أولها ، أو إلى قصة محمد بن القاسم فيها ، وإلى قصة العذاب والسجن الذى وكل به صالح بن عبد الرحمن نفسه ؟

وكان من طبائع الأشياء ومساق الحديث أن تتذكر الأميرة سيتا فى مجال الحديث عن بلادها ، وأبيها الملك ذاهر المقتول ، وفتح المسلمين لهذه الأرض الشاسعة .

واستدعى الشيخ صفوان الوصيفة السندية سيتا ليراها الضيف الوافد من العراق صالح بن عبد الرحمن عامل الخراج على البصرة . فدخلت وقد تغيرت ثيابها ، وتغيرت لكنتها السندية التى كانت فى لسانها منذ بضع سنوات ، فهى تجيد الكلام فى لسان عربى مبين . ولو أن صالح بن عبد الرحمن قد رآها يوم مقتل والدها ورآها اليوم لما أدرك تغيراً فى سحنتها إلا بمقدار ما يغيره مر بضع سنوات من عمر الإنسان . . . فهى لا تزال سمراء ، ولا تزال عيناها تفتحان وتغمضان على أعمق الأسرار . . . وما زال صالح يثير فيها بالأسئلة كوامن حزن قديم عميق . فتارة يذكرها — أو يدعوها إلى تذكر — ماضيها فى قصر والدها الملك ذاهر حيث

نشأت وعلى وجهها نضرة النعيم ، وحيث كان الجوارى فى قصر ذاهر يقبلن مواطئ أقدامها ، وحيث كانت الدنيا كلها فى يديها ، فلها ما تمنت ، وعلى الأقدار أن تجيب . . .

وتارة يذكرها - أو يحملها على أن تذكر - أحاديث الفتح ، حيث لقى أبوها مصرعه على يد رجل مسلم وهو يدافع عن حماه .

وتارة يذكرها بالأسر الذى وقعت فيه ، والمصير الذى صارت إليه منذ أن بعث بها محمد بن القاسم أسيرة إلى بلاط الأمويين . وسألها صالح بن عبد الرحمن عما بقى لها فى بلاد السند بعد أن قتل أبوها وضاع ملكه ، وتهاوى التاج من فوق رأسه ؟ فأجابت :

- لقد خطبنى فى السند - قبل أحداث الفتح العربى بقليل - أمير من أشرف أمراء السند نسباً ، وأكرمهم محتداً ، وكنت أحلم بالسعادة فى قربه ، وأتعجل دورة الزمان لأصير ملك يديه. ودار الزمن دورة قصيرة من دوراته ، ولكنها كانت محملة بما لم يكن فى حسباننا ، فمات أبى الملك ذاهر قتيلا فى معركة الفتح العربى وزال الملك الذى كنا نمرح فى أفيائه ، وراح الحبيب الذى كنت أرجو وصاله . . . ولا أدرى أين راح ، ولاأيان دارت به

عجلة الأيام ! وهأنذا الآن هنا بعيدة عن الوطن المنكوب ، فلا أهل ولا مال ولا حبيب . فمن يردنى إلى أرضى التى افتقدتها ، وإلى أهلى الذين ضربت بينى وبينهم الأيام بالأسداد والأسوار واللجج ؟

ـ إن صديقى صفوان قد تؤله شكواك كما آلمتنى ، ولعلى أنا الذى هيجت لك الجرح الذى يُدمى قلبك، ولعلها أول مرة يستمع فيها صفوان إلى مثل هذا الحديث الموجع . . . وأنا ضمين لك عند هذا الشيخ ذى المروءة أن يعتقك ويُعين على ردك سالمة إلى بلادك البعيدة ، حيث قد تصادفك فيها عجائب المقدور بالأهل الذين تتوقين إليهم ، وبالخاطب الذى لا تعلمين ما أصارته إليه الأمور . ولكن لى عندك شيئاً واحداً فيه خلاصك وعودتك إلى وطنك .

ـ أرجو أن يكون فى طاقتى بلوغ ما تريد .

ـ لن يكلفك ذلك شيئاً ، فما هى إلا كلمة من بين شفتيك يتقرر فيها مصير محمد بن قاسم عدوك وعدو أبيك من قبل . . .

ـ آه من ابن القاسم أيها السيد الكريم ! لقد وترنى بالأسر ، ووتر أبى بالقتل ، ووتر السند كلها بالفتح . . ! ولقد نسيت

السندُ الآن ترات الفتوح والغزو بعد أن دخلوا فى الإسلام ، ودانوا بالطاعة ، ونزلوا على إرادة الفاتحين . . . أما ترة قتل أبى وترة أسرى فأرجو أن لا تطول بى الأيام حتى آخذ بهما .

ـــ وهل تضمرين العداوة لابن القاسم إلى هذا الحد ؟

ـــ وأية عداوة أشد مما لقيت من هذا الذى كان يظهر لى الود ويُسر لى البغضاء؟ لطالما شهدتْ أودية أنهار السند آثار حبه لى! ولو سألتم حصى نهر مهران لنطق من وقع أقدامنا عليه!

ـــ تقولين إن محمد بن القاسم أحبك أيتها الأميرة السمراء !

ـــ نعم أحبنى حتى أسلمت له قلبى ، وسلمته زمام هواى ، ولكننى ما كنت أدرى أنه كلف بالنساء ، متقلب فى الأهواء . ولو كنت أعلم أنه لا يثبت على حب ما منحته من نفسى ما منحت ... فلما أبنت له العبث الذى يعبثه بقلبى ، رمانى بدائه ، وتجنى علىّ ذنب التآمر والمخامرة ، ووجد السبيل إلى الخلاص منى ، والقذف بى إلى مطارح هذا الإسار البعيد .

ـــ وما ظنك أيتها السمراء لو أبلغت خليفتنا المحبوب سليمان ابن عبدالملك على لسانك أن محمد بن القاسم لم يكن ـــ حين قتل أباك واحدٌ من جنده ـــ أميناً عليك ، ولا عفيفاً معك ، ولا صائناً فيك أمانة العذارى المصونات ؟

غضب الخليفة سليمان

دخل صالح بن عبدالرحمن على الخليفة سليمان بن عبدالملك يعرض عليه من أمور خراج العراق ما كان موكولا به ، فسلم تسليم الخلافة ، فلما أذن له سليمان بالجلوس تبع ذلك بسؤاله قائلا :

— كيف حال العراق يا صالح بعد أن استعملتُ عليه يزيد بن المهلب وهو الضارب بسيوفنا ، المتقلب فى نعمنا ، المقيم على طاعتنا ؟

— إن العراق يا أمير المؤمنين يدين لك بالطاعة ، ويقر لك بالبيعة ، ويؤكد لك العهد الذى كان أخوك الوليد يريد أن ينزعه منك ، ويكرر لك التهنئة بما صرت إليه من ولاية أمر المسلمين.

— وما حال الخراج يا صالح منذ ألقينا تبعاته عليك ؟

— تَعْلَمُ يامولاى أن الحجاج مع عنفه الشديد لم يستخرج من خراج العراق كبير أمر . . . وما كان — قبحه الله — يصلح للدنيا ولا للآخرة ، لقد ولى العراق فى العام الخامس والسبعين من

الهجرة ، والعراق أوفر ما يكون خراجاً ، فأخسّ به إلى أن صيره إلى أربعين ألف ألف ، مع أنه بلغ فى عهد الخليفة الثانى عمر ابن الخطاب إلى عشرة آلاف ألف ومائة ألف ألف . وكان من الواجب أن يزيد خراج العراق مع زيادة الفتوح ، واتساع العمارة . ولكن الحجاج لم يكن يعرف كيف يحتال للمال فيجلبه ويعمر به خزائن الدولة ، فلا بد من بعض الوقت يمضى ، حتى أستصلح من أمر الخراج بالعراق ما فسد . . . والله يبلغنا الأمل بك ، ويطيل العمر لك . . .

– آه يا ابن عبد الرحمن لقد ذكرتنى بالحجاج ومساوئه ! ذكرتنى المظالم التى ارتكبها ، والسجون التى ملأها بكل من أخذه بريبة ، والأرواح التى أزهقها . . . ثم جرّنى التذكر إلى ما كان من موقفه منى فى مسألة ولاية العهد ، وأنا أحق بها من ابن أخى الوليد . ولقد رد الله كيده فى نحره فأفسد عليه وعلى قتيبة بن مسلم تدبيرهما ضدى . فأنا ما زلتُ كارهاً لهذا الرجل الذى استوجب سخطى عليه بما سلف لى منه . . . والشىء بالشىء يذكر ! ما حال قوم الحجاج من بنى عقيل ، وقد طلبتُ إلى يزيد بن المهلب أن يخلص أموالهم ويعذبهم ، فترك يزيد ذلك إليك ؟

— إن بني عقيل يا مولاى يلقون فى مدينة واسط جزاء ما أسلف الحجاج من ظلم وعسف ، ولا أظنهم إلا خليقين بالعذاب الذى يُصب عليهم اليوم فى سجن واسط ، فإن هواهم كهوى عميدهم الحجاج لم يكن معك يوماً ما ، ولا كانت قلوبهم معك قبل أن يعهد الله إليك أمر المسلمين ، ولا بعد أن صار إليك أمرهم . فليذوقوا فى غيابات السجن وبال أمرهم ، وجزاء ميلهم .

— ولكن يؤلمنى يا ابن عبد الرحمن أننى أغلقت فى بداية عهدى السجون التى ملأ بها الحجاج الأبرياء ، وأخليت سراح الأسرى الذين كان يأخذهم بأدنى الشبهات ، ثم أجىء أنا فأفتح سجن مدينة واسط — التى بناها الحجاج لدولتنا فى العراق — لأملأ به أهل الحجاج وقومه من بنى عقيل .

— ليرتح ضميرك ، ولتطمئن نفسك يا أمير المؤمنين بما صنعت ! فإن قوم الحجاج قد استطالوا وتكبروا ، وظنوا أنهم فوق منال كل سلطان ، حتى لقد بلغ من جرأة أحدهم — وهو محمد بن القاسم — أن يستعلى فى السند حين نصر الله جيش المسلمين على يديه ، فعلا فى تلك البلاد علواً كبيراً ، وظن أنه أكبر من حدود الله التى أخذ بها عباده ، فاعتدى على "سيتا" بنت

الملك ذاهر ملك السند اعتداء فاحشاً ، ونال من عفتها ما لا يصدر عن كواسر الوحوش، وما لا يليق ببنات الملوك، وأميرات القصور . ولو أن الجناية الفاحشة ، والفعلة البالغة الفاجرة وقعت من جندى من عامة الجيش لعظمت فيها البلية ، وجلّ فيها الخطب... فكيف وقد وقعت من القائد الغر الذى أرسله الحجاج إلى السند ، ليكشف لأهلها عن مساويه، ويبين لهم عن مخازيه . فكل عيب فيه فهو مردود إلينا نحن العرب ، وكل فضيحة منه فهى منسوبة فى نهاية المطاف إلينا ، وعائدة علينا . . .

— ومَن أنبأك بهذه الشنعاء يا صالح ؟

— أنبأتنى بها الضحية نفسها ، التى أوقعها سوء حظها فى مخالب وحش من وحوش بنى عقيل ! أخبرتنى بها الفتاة السندية "سيتا" بعينها ، وهى فى دار الشيخ صفوان ، وما داره منا ببعيدة .

— يأبى الله يا صالح إلا أن يكشف من قوم الحجاج كل يوم عورة جديدة ! إن الحياة فى السجن لا يستحقها مغرور بنى عقيل ! إنه لحقيق أن تسلب منه الحياة بعد الذى سمعتُ منك عنه . وأنا واثق مما قلت ، فلا حاجة إلى تحقيق أو استشهاد بأحد . ولا أجد غيرك يا صالح أقدرَ على القيام

باستلال نفس هذا الفتى الغر من بين جنبيه ! فتى أنجزت مهمتك هنا وعدت إلى العراق ، وحللت فى مدينة واسط حيث دار الخراج تنتظر عودتك ، فلا تبطئ فى تنفيذ ما يستحقه ابن القاسم من الجزاء .

* * *

وانقضت مهمة صالح بن عبد الرحمن فى شأن الخراج ، وهى التى من أجلها وفد على دمشق . وعاد إلى واسط وقد حمل من الخليفة سليمان تفويضاً بقتل محمد بن القاسم الثقفى ، وإذا زاد بقتل بنى عقيل كلهم المحبوسين فى سجن واسط فإنها زيادة يرجو بها زيادة الحظوة عند الخليفة سليمان . . .

وما كادت المطايا يبلغن واسط — مدينة الحجاج — بما يحملن من صالح بن عبد الرحمن ورجال حرسه ، ولم يكد المسافر العائد يقر عيناً بالإياب ، حتى خيم على المدينة الصاخبة وجوم عميق . . . وسرى النبأ من واسط إلى كل بقعة من بقاع الأرض — وأسبقهن دمشق — بأن صالح بن عبد الرحمن عامل خراج سليمان على العراق قتل فى السجن محمد بن القاسم — بطل السند — وقتل قومه من بنى عقيل . . .

يقظة الضمير

لم تأخذ سيتا إلى هذه اللحظة ثمن الفرية التى افترتها على البطل الشهيد . . . لقد وعدها صالح بن عبد الرحمن ، وهو يحيط أطراف مؤامرته : أن يساعد على إطلاق سراحها ، وردها إلى قومها فى بلاد السند ، لعلها تلقى هناك شمل أسرتها متجمعاً بعد أن سكنت حركة الفتوح . ولعلها تعود فترى حبيبها الأمير السندى الذى كان خاطباً لها ، ففرقت الأحداث ما بين الاثنين . . .

ولكن صالح بن عبد الرحمن كان فى شغل عن الوعد الذى وعد به سيتا . . . لقد كان فى هم من أمر الخراج وزيادته حتى يزيد فى نظر الخليفة سليمان قدراً ومكانة ، وهل فكر عمال الخراج فى أمر غيرهم مثل تفكيرهم فى أمر أنفسهم ؟

ألم يكن عمال بنى أمية قبل هذا العهد الذى نحن بصدد الكلام فيه يزيدون فى الخراج ما يرهق الناس من أمرهم عسراً ، حتى ضج الناس وضاقوا ؟ ألم تكن رغبة معاوية — أول خلفاء

هذه الدولة — أن يزيد الخراج فى مصر على كل امرئ قيراطاً ، فامتنع وردان مولى عمرو بن العاص أمير مصر قائلا : كيف أزيد عليهم ، وفى عهدهم أن لا أزيد عليهم ؟

ألم يستقل الخليفة عبد الملك بن مروان قدر الخراج فى عهده على كل رأس ، فبعث إلى عامله ، فأحصى الجماجم ، وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم ، وحسب ما يكسب العامل سنة كلها ، ثم طرح من ذلك نفقته فى طعامه وإدامه وكسوته ، وطرح أيام الأعياد فى السنة كلها ، فوجد الذى يحصل بعد ذلك فى السنة لكل واحد أربعة دنانير ، فألزمهم ذلك جميعاً وجعلها طبقة واحدة ؟

لقد كان همّ عمال الخراج أن يرضوا الخليفة ، ولا يكون رضاه إلا بالزيادة فى الخراج . . . ففيم يفكر صالح بن عبد الرحمن إذن فى أمر سيتا ابنة الملك ذاهر ، أو فى غيره من توافه الأمور ؟

* * *

جلست سيتا ذات يوم فى مكان خدمتها بدار صفوان تتحدث مع جارية من جوارى الشيخ البّرى كان اشتراها من

سبي فارس وأغلى فيها الأثمان . وكان فى الجارية الفارسية براعة فى الحديث ، ولطف فى مداخل القول ، وذكاء يبدو على بريق عينيها ، فوق ما حباها الله به من رقيق الجمال .

ولقد كانت الجارية الفارسية حديثة عهد بالاجتلاب من بلادها ، ومرت فى طريقها إلى الشام بمراحل ، كانت البصرة إحداها . وفى البصرة سمعت طائفة من الأخبار التى كانت تتلقفها أفواه الغادين والرائحين فى هذا الثغر الإسلامى الذى كان يموج بألوان من الخلق . . .

وسمعت الجارية الفارسية فيما سمعته أن بعض بلاد السند قد انتقضت على الدولة الأموية ، وأن ملوك السند رجعوا إلى ممالكهم ، وأن الأمير جيشبة بن ذاهر ملك السند المقتول قد رجع إلى مدينة برهمنا باذ . وجيشبة هذا هو أخو الأميرة سيتا التى كان لها مع ابن القاسم بطل السند شأن أى شأن . . . جلست سيتا تستمع إلى هذه الأنباء من رفيقتها فى الرق ، وزميلتها فى دار الشيخ صفوان . ولما ذكر اسم أخيها جيشبة على مسمعها عادت بها الذاكرة إلى ماض لا ينسى . . .

لقد كان جيشبة هذا أحد الشبان الثلاثة الذين كانت

تتسلل إليهم الأميرة سيتا فى ظلمات الليل الأليل ، لتحمل إليهم فى مطاوى الظلام كل ليلة أنباء عن محمد بن القاسم أمير السند وقائد جيوش المسلمين فيها . فهى إذن كانت عيناً على المسلمين وجاسوساً على جيوشهم و بطلهم فى السند ، وكان العدل وعادل القصاص يقتضى أن يقطع رأسها حين انكشف أمرها ، ولكن البطل العربى الشاب أبدلها من القتل بالأسر .

مر هذا الماضى الذى أوجزناه فى شريط طويل أمام عينى سيتا ، وتذكرت مروءة محمد بن القاسم معها ، وحبه لها ، وصيانته لشرفها ، وحفظه لعرضها . وكيف قلبت كل هذه الفضائل إلى أضدادها أمام صالح بن عبد الرحمن عامل خراج سليمان على العراق ، لعلها تشفى حقدها على بطل السند لقتل والدها وضياع بلادها . أو لعلها تظفر من هذا الافتراء المحض بثمن بخس وهو أن يفك إسارها ، و يطلق سراحها ، وتعود إلى أرضها وقومها وخاطبها . . .

وتذكرت سيتا فوق ذلك كرم ابن القاسم فى معاملة أهلها وأهل السند عامة ، حتى بكوه يوم صدور أمر الخليفة الجديد سليمان بعزله من إمارة السند وقيادة الجيش ، فاحتقرت نفسها أن

يكون هذا جزاء من أحسن إليها ، وبرّ بها ، واقتضاه الشرف العربى والخلق العربى أن يصون لها شرفها .

وأخذ ضميرها يؤنبها ، ويتنبه فيها شيئاً فشيئاً ، حتى بات يعذبها بوخزاته ، وأليم حسابه . فلم تطق سيتا صبراً على عذاب لا يطاق بجانبه عذاب الأسر ، ووجهت الحديث إلى رفيقتها الجارية الفارسية قائلة :

ــ يا أختاه ! إن السند الذين تخبرين الآن عنهم هم قومى ، وجيشبة هذا هو أخى ، وذاهر هو أبى الذى قتله محمد ابن القاسم حين فتح مملكتنا وأضاع ملكنا . . . والحق أن ابن القاسم لم يقتل أبى بيديه ، ولكنه قتل على يديه . . . قتله القاسم ابن ثعلبة بن عبد الله . فهو اسم سيظل عاكفاً على ذاكرتى حتى أوسد فى التراب . . . ولا أدرى يا أختاه لم حملت كل هذا الحقد على محمد بن القاسم؟ ألأن اسمه اقترن دائماً بمقتل والدى ذاهر الذى أحببته بما لا تحب به ابنة أباها ؟ أم لأنه ضيع الملك الذى بناه أجدادى فى مئات السنين؟ أم لأنه شتت شمل أسرتى فتفرقوا بعد أن كان شملهم جميعاً ، وأمرهم مجموعاً ؟ أم لأنه أرسل بى إلى الأسر فى العراق والشام حتى بلغت بى الأيام هذا المقام ؟

لقد اعترفتُ أمام صالح بن عبد الرحمن عامل خراج الخليفة سليمان بأن محمد بن القاسم عبث بشرفى ، ولم يصن عرضى . وما كنت – شهد الله – إلا متجنية ومفترية على رجل برىء لم أرَ الكرامة مكتملة إلا فيه ، ولا الشرف لاصقاً إلا به ، ولا الأمانة إلا أولى فضائله . وإن ضميرى الآن ليعذبنى عذاباً لا أظن أن أحداً من العالمين قد لقيه . فأشيرى علىّ يا أختاه !

– بماذا أشير عليك يا سيتا وقد سبق السيف العذل ؟ أما سمعت الأنباء التى تجاوبت بها أنحاء العراق ، واهتزت جنباته ، واحتملها البريد إلى الشام بأن محمد بن القاسم – بطل السند – قد قتله صالح بن عبد الرحمن عامل الخراج لسليمان ، وقتل معه قوماً من بنى عقيل ؟

– قتل محمد بن القاسم ! ولا تزال الفرية التى افتريتها عليه عالقة به ؟ ! إن هذا لن يكون ! منْ يُبلغ الخليفة سليمان بن عبد الملك أننى اختلقت على محمد بن القاسم ما لم يتسرب به الوهم إلى نبالة نفسه ، وشرف خلقه ؟ من مُبلغ الخليفة أنى ادعيت على الرجل الشريف ما هو منه براء ؟ إن سماء السند وأرضها ، وجبالها وأوديتها تشهد بأن محمد بن القاسم برىء مما

نسبته إليه ، واختلقته عليه .

ومضت الجارية الفارسية — وقد أذهلها ما سمعت من سيتا وما رأته منها — إلى سيدها ومولاها صفوان ، وأبلغته ما حدث . فاستقدم سيتا إليه واستوضحها الأمر ، فأعادت عليه ما قالته لزميلتها .

وانطلق صفوان إلى قصر الخليفة سليمان وأنبأه بما قالت سيتا كلمة كلمة ، لم يخرم منه حرفاً واحداً .

وكان فى سليمان عدالة وتحر للإنصاف ، فقد اتخذ الرجل الطيب والمسلم المثالى عمر بن عبد العزيز مستشاراً له ، وعهد إليه بالخلافة من بعده ، لما لمح فيه من الخير والفضل والحرص على مصالح المسلمين ، ولم يعهد بها إلى أحد من أبنائه ، كما كان يحرص أسلافه من الأمويين .

فاهتز الخليفة سليمان لما سمعه ، وأمر بسيتا أن تحضر وأن تقرر بين يديه ، فحضرت وأقرت ببراءة ابن القاسم مما اتهمته به حقداً وانتقاماً .

وعز مقتل محمد بن القاسم على سليمان مأخوذاً بفرية لم تخطر له على بال ، ولم تعلق له بوهم ، ولم يتلوث ضميره

بالتفكير فيها بشهادة المفترية نفسها . فأمر بها أن تقتل كما تسببت فى قتل بطل السند بالظلم والعدوان ، والإفك والبهتان ...

* * *

ومضت العصور متتابعة تحمل لمحمد بن القاسم بطل السند بعض الإنصاف حيناً ، وبعض الجحود أحياناً ، فضن عليه التاريخ بإفاضة الحديث عنه كما يُفيض على الفاتحين والأبطال . ولم يجُد عليه التاريخ — بعد أن أدخل الملايين فى الإسلام — إلا بنتف يسيرة من الأخبار لا تتكافأ مع ما قام به من جلائل الفتوح ، والجهاد فى سبيل الله .

ولعل هذه الصفحات هى أول كتاب يكتب فى تاريخ فاتح السند : محمد بن القاسم الثقفى ، رحمه الله ، وعطر ذكراه . . .

* * *

مصارع الفاتحين
فى عهد الخليفة سليمان

لعل أعجب ما فى عصر الخليفة سليمان بن عبد الملك — وهو لم يزد فى خلافته على سنتين وستة أشهر — أن ثلاثة من أبطال الفتح الإسلامى لقوا مصارعهم على يديه أو بتوجيه منه.

وأول من قتل من الفاتحين المسلمين فى عهده هو الفتى الثقفى المغوار ، والبطل الشاب الجرىء محمد بن القاسم الذى قرأنا من أنبائه وأخباره إلى الآن ما لا حاجة معه ازيادة ، ولا موضع لإعادة . . .

أما ثانى الأبطال المسلمين الذين قتلوا بسبب الخليفة سليمان ابن عبد الملك فهو المجاهد الغازى قتيبة بن مسلم الباهلى ، الذى فتح خراسان وتركستان وأوغل فى بلاد الصين حتى خشيه ملوكها وتقربوا إليه ، والذى تدين له ألوف الألوف من المسلمين فى قلب القارة الأسيوية بأنه نشر الإسلام فيهم ، وأعلى كلمة الله بينهم ، وأنشأ فيها المساجد ترتفع من مآذنها

أصوات المؤذنين ، وهم يدعون إلى الصلاة ، وإلى الفلاح ، ويهتفون : الله أكبر ، الله أكبر ، فتستجيب لهم القلوب ، وتخشع النفوس ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجاً ، كما كانوا يدخلون فى العهود الأولى للإسلام .

واختلف الناس فى المصرع الذى لقيه القائد قتيبة بن مسلم على يد رجال سليمان ، فمنهم من استفظع قتل مجاهد رفع الله به ألوية الإسلام فوق كل مكان . . . ومنهم — كالمؤرخ ابن كثير — من سوغ قتله بأنه زل زلة كان فيها حتفه ، وفعل فعلة رغم فيها أنفه . . وخلع الطاعة فبادرت المنية إليه ، وفارق الجماعة فمات ميتة جاهلية . . . ولكن سبق له من صالح الأعمال ما قد يكفر الله به سيئاته ، ويضاعف به حسناته .

والحق أن مصرع قتيبة كان شديداً على المسلمين الذين أدركوه والذين جاءوا بعده إلى يومنا هذا . . . ولقد رثاه الشعراء مراثى رقيقة مفجعة حزينة تتفق مع بشاعة المصرع ، منهم عبد الرحمن بن جمانة ، والطرماح ، والشاعر جرير الذى يروى ابن خلكان المؤرخ أنه قال متفجعاً يلوم قاتليه :

ندمتم على قتل الأغر ابن مسلم   وأنتم إذا لاقيتم الله أندم
لقد كنتم من غزوه فى غنيمة   وأنتم لمن لاقيتم اليوم مغنم
على أنه أفضى إلى حور جنة   وتطبق بالبلوى عليكم جهنم . .

* * *

أما ثالث الفاتحين الذين قتلوا فى عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك وبتحريض منه فهو عبد العزيز بن موسى بن نصير . ولقد كان عبد العزيز هذا أميراً على الأندلس بعد أن فتحها أبوه موسى بن نصير ، فضبط أمورها ، وحمى ثغورها ، وأكمل فتح عدة من المدن الأندلسية . ولكن سليمان بن عبد الملك سخط على أبيه موسى بن نصير وهو بالشام ، فيقال إنه بعث إلى الجند بالأندلس فى قتله . . . فدخلوا عليه المحراب وهو يقرأ الفاتحة بعد صلاة الصبح ، وضربوه بالسيوف ضربة واحدة ، وأرسلوا رأسه إلى الخليفة سليمان بدمشق ، فعرضها سليمان على أبيه فتجلد الرجل للمصيبة

* * *

وجزع المسلمون هذه المرة أيضاً لمصرع جديد لفاتح وابن فاتح فى عهد سليمان ، ولكنهم لا يزالون يذكرون أن مصرع

بطل السند كان أمعن فى الغدر ، وأشد فى الفرية التى أحاطت به ، والكذبة الشنعاء التى افتريت عليه .

ولعل المسلمين لا يزالون يرددون كلما ذكروا فتحاً ، أو شجاعة ، أو مروءة ، أو سؤدداً على حداثة من السن ، وميعة من الشباب . . . لعلهم لا يزالون يرددون قول الشاعر حمزة بن بيض الحنفى فى رثاء بطل السند محمد بن القاسم :

إن المروءة والسماحة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... ياقرب ذلك سؤددا من مولد !

ولعلهم فى وفائهم لذكرى أبطالهم ، والخالدين من رجالهم يذكرون قول الشاعر الآخر فى رثاء البطل العظيم :

ساس الرجال لسبع عشرة حجة ... ولداته عن ذاك فى أشغال

مطابع دار المعارف بمصر
١٩٦٩

اقرأ

ثروت أباظه

ابن عمّار

دار المعارف بمصر

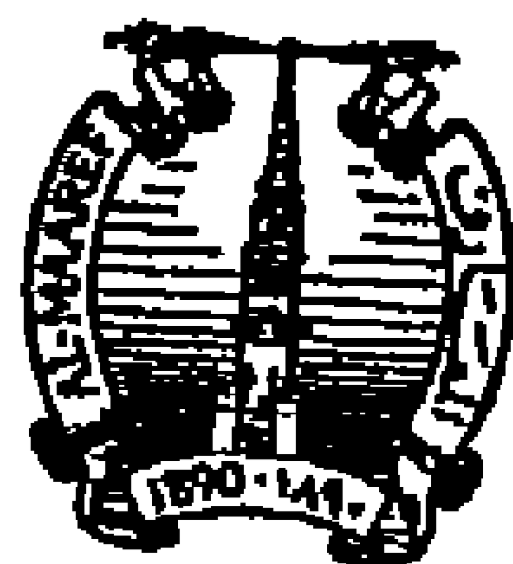
ابنُ عمّار

ثروت أباظه

ابن عمّار

اقرأ ١٤٣
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٤٣ - أول نوفمبر سنة ١٩٥٤



١

عودة

أهكذا يعود ! ! يالها من آمال عراض تلك التى صحبها يوم ترك موقفه هذا منذ سنين . . . إنه لم ينس بعد تلك الأمانى العذبة التى كانت تزحم نفسه يوم ضاق به العيش فى بلدته « شلب » فنزح عنها وفى نفسه آمال ، وفى قلبه أمان ، وفى صدره عزم ، وفى كل دمائه شعر . . . لقد ترك بلدته مهد ميلاده ومدرج طفولته ومغنى شبابه ليدور بشعره على الملوك يسترفد مالهم بما يرفده عليهم من شعره ولقد دار ، ولقد مدح . فبالغ فى المديح ولقد كذب على الحق فأوغل فى الكذب ، ولقد أمات ضميره ليجعل الظالم منهم عادلا والمجنون فيهم حكيماً ولقد محا من ذاكرته كل ما يعرفه عن هؤلاء الملوك من شر ولقد أنمى بشاعريته كل ما كان يعرفه عنهم من خير . . . ثم هو زاد عليه ، ثم هو أنشأ لهم الخير ثم هو قلب مقابحهم أفضالا ثم مدح ثم مد يده وثناها . . . ألا ما أبخس ثمن الضمير فى رحاب الملوك . . . إنه ليفكر أنال كفء ما أعطى ؟ أكانت

تساوى هذه الدريهمات خروجه ودورانه وكذبه واختلاقه؟ . . . بل أتعدل هذه الدريهمات أن يترك بلده الحبيب . . . إن يكن ضاق به فها هى ذى الدنيا جمعاء تضيق به . . . ولكن أضاقت الدنيا أو ضاقت « شلب » به هو أم أنها ضاقت ببضاعته . . . وكيف تضيق ؟ ؟ إنه يبيع شعراً . . . إنه يهب لمادحه فكراً انتظم فصار شعراً . . . أهذا قليل ! ! ما شأن ممدوحه إن خالج هذا الفكر شعور أو لم يخالجه . . . ألم ينظم شعراً . . . ألم يحسن ما نظم فما هذه الدريهمات الضئيلة التى يصيبها ! ! فأين هذا العدل الذين يزعمون وجوده فى الدنيا ؟ ! وأى دنيا تلك التى تجعل الشاعر العبقرى يتمسح بأبواب الجهلة من الملوك والوزراء ! ! يسكب عليهم شعره فلا يصيب منهم غير هاته الضحكة البلهاء التى تلتصق بشفاههم يحاولون بها إفهامه أنهم يفهمون ما يقول، ويحاولون بها أن يصدقوا هم فى أنفسهم أن هذا المديح الذى يسمعون حق لا رياء فيه ولا كذب، ثم هو لا يصيب من بعد إلا هذه الدريهمات يلقونها إليه إلقاء ! ! ولو تجسمت السعادة التى يحسونها بالمديح ولو وضعت مجسمة فى كفه لما عادلها مال العالم أجمع، ولكنهم مع هذا يبخسونه حقه واهمين أن ما قاله لا يعدو الحق فى شىء فهو لم يخلق جديداً، ولم يمت ضميراً ، ولم ينشىء

فضلا،ولم يقلب القبح حسناً ، وهو لا يستحق إلا هذا القليل .

هكذا كان يفكر ابن عمار وهو واقف بأبواب شلب عائداً إليها من سفره هذا الطويل وقد تضاءلت آماله ، فبعد أن كانت تهفو إلى الغنى والشهرة والجاه العريض أصبحت تحوم حول حفنة من الغلال يقيم به أود نفسه وأود حماره الذى أضناه السفر فى تحقيق الآمال .

دخل ابن عمار « شلب » راكباً حماره الهزيل يفصله عن ظهره خرج قديم قذر كان هو كل ما يلبسه الحمار . أما هو . . . أما أبو بكر محمد بن عمار فقد كان يضع على نفسه بضعة أخلاق من الثياب إن اختل نظام واحدة منها وضحت من تحتها عظام الشاعر بارزة تكاد تطل من جسم صاحبها وكان يضع على رأسه قلنسوة صغيرة يكاد شعره أن يلقى بها . دخل ابن عمار شلباً لا يقصد فيها إلى أحد فلقد ربى وشب فى قرية من أعمالها وإن كان قد تلقى علومه فى شلب على « ابن الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم » إلا أن أستاذه هذا قد مات ومات معه أغلب من كان يعرفهم ابن عمار من الأساتذة والباقى منهم لا يجرؤ ابن عمار أن يقصد إليه ليطلب فجميعهم فقير فلم يبق أمام ابن عمار إلا أن يكافح وحده ليرد جوع نفسه وجوع حماره الذى أضناه .

٨

سار ابن عمار يتلفت فى ذلة الجائع وفى عزة الشاعر فلا يجد وسيلة إلى أحد ممن يرى، وكان الناس ينظرون إليه على حماره هذا الهزيل فتبدو على وجوه بعضهم الشفقة والإشفاق على هذا الهزال المركب وتبدو على وجوه أخرى السخرية من تلك الأثمال التى تكاد تلتئم جنباتها جميعاً من شدة هزال صاحبها والتى كانت تبدو وكأن أحداً لا يلبسها وإنما هى منتصبة بقدرة معجزة، وكانت السخرية تتضح وتستبين حين تنصب عين الساخر على الحمار المضنى من كثرة المشى لا من الحمل الذى يحمل فهو لا يحمل شيئاً . . . .

ولكن ابن عمار كان مشغولا عن هذا كله بجوعه وجوع حماره الذى تركه يسير لم يوجهه وجهة معينة بل ترك له حق القيادة والحمار لا يعرف طريقاً إلى بيت ولا سبيلا إلى مرتع وإنما هو يرى طريقاً فيسير، ولقد يعوج الطريق أو يعتدل فيعوج معه ويعتدل حتى إذا وجد طريقين عليه أن يختار بينهما اختار دون أن يكون لعقله وازع فى هذا الاختيار فهو حمار يسير لا يدرى لماذا يسير ولا أين الطريق . . . وطال الأمر على ابن عمار والحمار فالطريق طويل على من لا يعرف مقصداً ، ولقد مالت الشمس لغروب وكادت أن تغيب وكاد أن يغرب معها أمل ابن عمار الأخير الذى تضاءل حتى أصبح حفنة من غلال .

وفجأة أشرق سوق الغلال فى عين ابن عمار فوقف الحمار من تلقاء نفسه على مبعدة قريبة من السوق وأخذ ابن عمار يفكر فى وسيلة ينال بها أمله الأخير هذا . . . أيسأل تاجراً أن ينسئه حفنة غلال يرد له ثمنها عند ميسرة ، ولكن ما الذى يدعو التاجر إلى ائتمانه وهو لا يعرفه ، وهل هو نفسه يأتمن نفسه ، وأين هى تلك الميسرة التى يريد أن يرد فيها الثمن . . . لا . . . لا فائدة من النسيئة . . . أيستجدى التاجر ؟ . . . لا ودون هذا موته وموت الحمار جميعاً . . . فكر ابن عمار فأطال التفكير ثم وثب إلى ذهنه خاطر . . . أخذ يقلبه على أوجهه . . . لماذا لا يمدح هذا التاجر بشىء من الشعر ! . . . نعم إنه لم يمدح غير الملوك والسراة السراة من القوم ولكن ما البأس فى أن يمدح هذا التاجر ، لقد كان يمدح الملوك والسراة ليصيب منهم مالا يشترى به غلالا . . . لقد كان الملوك والسراة طريقاً له إلى هذا التاجر وأمثاله . . . وقد مدح هو الطريق ليصل إلى المقصد فماله لا يمدح المقصد بعد أن خذله الطريق ، ولكن أيفهم التاجر الشعر ؟ وحينئذ ضحك ابن عمار فى نفسه فأغرقت نفسه فى الضحك . . . وهل فهم الملوك والسراة جميعهم الشعر . . . سوف يمدح التاجر فإنه بهذا ينال ما يصبو إليه وإنه بهذا سيدخل إلى نفس هذا التاجر فرحاً لم يتوقعه فى يوم

من الأيام ، وعزم ابن عمار وبدأ فى التنفيذ وأخرج من جيبه قرطاساً وخط عليه فى سرعة بضعة أبيات ثم هم أن يدع ظهر الحمار ويسعى إلى التاجر ولكنه عاد إلى نفسه وخجل أن يفعل فهو لم يعود وقفه فى سوق وهو لم يعود أن يرى ممدوحه معه على الأرض بل كان يراه دائماً على ذروة عرشه . . . فكر ابن عمار فى وسيلة يبلغ بها قرطاسه إلى التاجر وبينما هو حائر ، مر به غلام استوقفه ابن عمار وطلب إليه أن يبلغ ورقته وفيها شعره إلى التاجر الذى استوجهه ابن عمار ، وكان الغلام طيعاً فأخذ الورقة وقصد بها إلى التاجر فأخذها وألقى إليها نظرة كانت كافية لأن يغمر السرور وجهه فلقد أصبح ممدوحاً يقال فيه الشعر ويرجى لديه النوال ، ولم يفهم التاجر من الشعر شيئاً غير أنه شعر وغير أن هذا الشعر لا يمدح به غير الملوك والسراة . . . ولما كان التاجر واثقاً أنه ليس ملكاً فلابد إذن أن يكون من السراة وهكذا أسرع إلى مخلاة لديه وأراد أن يملأها براً[1] ولكن غريزة التاجر فيه ردت يده فى سرعة وألقت بها إلى الشعير فملأ المخلاة منه وأعطاه إلى الغلام ثم التفت إلى غلاله يجمعها يريد أن يبلغ بيته فيفهم زوجه التى لا تنى عن إيذائه أنه أصبح ممدوحاً وأنه من السراة .

---

(١) البر بضم الباء القمح .

وانكفأ الغلام إلى ابن عمار يحمل إليه المخلاة بحملها الجديد ففرح ابن عمار ورأى فى هذه المخلاة آماله قد تحققت بل إن آمال حماره أيضاً قد تحققت معه ولم يبق له إلا أن يفكر فى مثل هذه الآمال لغده الذى ينتظره والذى يتربص به ليفعل به مثلما فعل الأمس ، ومثل ما يفعل اليوم ، ومثل ما تفعل كل إخوان هذا الغد من ذاهب وحاضر فى ابن عمار فويل لابن عمار من غده . . . أو ويل للغد من ابن عمار .

٢

عهد الملوك

لم يمكث ابن عمار فى شلب فقد أصبحت فى عينيه مثل سائر البلدان التى مر بها فى تطوافه وإن تكن فى نفسه مهد طفولة ومدرج صبى ومعهد ذكريات .

كان لابد لابن عمار أن يأكل وكان لابد لحماره أن يأكل معه ولم يكن فى مقدور ابن عمار أن يقصر شعره على التجار ، وما كل تاجر مثل ذلك الرجل الكريم الذى وصله وإن تكن آمال ابن عمار تضاءلت إلا أنها فى البعيد البعيد من نفسه ما زالت هى هى وما زالت تلقى به إلى كل متجه يرجى فيه خير .

وكانت الأندلس فى ذلك الحين مقسمة إلى دويلات على كل منها حاكم وقد أصر هؤلاء الحكام أن يسموا دويلاتهم ممالك حتى يتسنى لهم أن يسموا أنفسهم ملوكاً ، ولقد كثر بينهم التنازع ولكنهم لم يتنازعوا فى هذه التسمية قط فقد اعترف كل منهم للآخر بها حتى يضمن اعتراف هذا الآخر لنفسه

ولكن التاريخ أبى أن يعترف باعترافاتهم هذه ولم يقبل أن يطلق عليهم ملوكاً ثم يسكت عنهم وإنما أطلق عليهم اسم « ملوك الطوائف » فكانت هذه التسمية من التاريخ دليلا على أن هذا التاريخ قد يصدق فى بعض الأحايين .

كان بنو عباد هم أقوى أسرة حكمت فى عهد ملوك الطوائف هؤلاء، وقد كانت إشبيلية هى مقر حكمهم وقد تحدر الملك فى بنى عباد حتى وصل إلى « أبى عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد » . وقد ولى الحكم بعد أبيه وأطلق على نفسه اسم المعتضد، وكان أبوه القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل من خيرة الملوك الذين حكموا فى هذا الزمان، وقد سار المعتضد فى طريق أبيه قليلا فكان يستشير ويعدل ، ثم مال عن هذا الطريق فاستبد بالحكم وحده ، ولم يكن عهده كله شراً فإن التاريخ ليقول عنه كثيراً من الخير ، ولكنه كان سفاكاً باطشاً ، ولعل النقائض لم تجتمع فى شخص كما تجمعت فى المعتضد، فهو قاس غليظ القلب ولكنه فى مجالسه رقيق الحاشية حسن الذوق شاعر محب للشعر وقد كان مستمعاً للشعر خبيراً به ناظماً له .

سمع ابن عمار عن المعتضد وعن حبه للشعر فشد إليه الحمار عساه أن يجد لنفسه متسعاً فى الزحام ، ووقف ابن عمار إلى المعتضد

وقد جلس إلى جانبه ابنه المعتمد وقد كان من أحسن شعراء عصره . . . وقف ابن عمار وألقى قصيدته التى أضنى ذهنه فى إعدادها فقد كان يعلم أن آمال المستقبل أجمع رهينة بأبياته هذه قال ابن عمار :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السُرى
والصبح قد أهدى لنا كافورةً لما استردَّ الليل منا العنبرا
والروض كالحسنا كساه زهره وشيا وقلده نداه جوهرا
أو كالغلام زها بورد رياضه خجلا ، وتاه بآسهن معذرا
روض كأن النهر فيه معصم صافٍ أطل على رداء أخضرا
وتهزه ريح الصبا فتخاله سيفَ ابن عباد يبدد عساكرا
عبادٌ المخضرُّ نائلُ كفه والجو قد لبس الرداء الأغبرا
ملك إذا ازدحم الملوك بمورد ونحاه لا يردون حتى يصدرا
أندى على الأكباد من قطر الندى وألذ فى الأجفان من سنة الكرى
يختار أن يهب الخريدة كاعبا والطرف أجرد ، والحسام مجوهرا
قدَّاح زند المجد ، لا ينفك عن نار الوغى إلا إلى نار القِرى (١)
لا خلق أفرى من شفار حسامه إن كنت شبهت المواكب أسطرا
أيقنت أنى من ذراه بجنة لما سقانى من نداه الكوثرا

---

(١) ما يقدمه المضيف لضيفه .

وعلمت حقاً أن ربعي مخصبُ   لما سألت به الغمام الممطرا
من لا توازنه الجبال إذا احتبى   من لا تسابقه الرياح إذا جرى
ماض وكف الرمح يكهم ، والظبا   تنبو ، وأيدى الخيل تعثر فى الثرى
من كل أبيض قد تقلد أبيضاً   عضباً ، وأسمر قد تأبط أسمرا
ملك يروقك خَلقه أو خُلقه   كالروض يحسن منظراً أو مخبرا
أقسمت باسم الفضل حتى شمته   فرأيته فى بردتيه مصـــورا
وجهلت معنى الجود حتى زرته   فقرأته فى راحتيه مفسرا
فاح الثرى متعطراً بثنائه   حتى حسبنا كل ترب عنبرا
وتتوجت بالزهر صلع هضابه   حتى ظننا كل هضب قيصرا
هصرت يدى غصن الندى من كفه   وجنت به روض السرور منورا
حسبي على الصنع الذى أولاه أن   أسعى بجد أو أموت فأعذرا
يأيها الملك الذى حاز المنى   وحباه منه بمثل حمدى أنورا
السيف أفصح من زياد خطبة   فى الحرب إن كانت يمينك منبرا
ما زلت تغنى من عنا لك راجيا   نيلا ، وتفنى من عتا وتجبرا
حتى حللت من الرياسة محجرا   رحباً وضمت منك طرفا أحورا
شقيت بسيفك أمة لم تعتقد   إلا اليهود وإن تسمت بربرا(١)
أثمرت رمحك من رءوس كماتهم   لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وصبغت درعك من دماء ملوكهم   لما علمت الحسن يلبس أحمرا

---

(١) كانت هذه القصيدة على أثر وقعة انتصر فيها المعتضد على البربر.

نمقتها وشياً بذكرك مذهبا　　وفتقتها مسكاً بحمدك أذفرا
من ذا ينافحنى وذكرك صندل　　أوردته من نار فكرى مجمرا
فلئن وجدت نسيم حمدى عاطراً　　فلقد وجدت نسيم برك أعطرا
وإليكها كالروض زارته الصبا　　وحنا عليه الطل حتى نورا

وإن فى هذه القصيدة أبياتاً تظهر فى جلاء كيف تمتزج الوحشية بالجمال فالرمح على سنانه الرأس هو — فى رأى ابن عمار — غصن مثمر ، والسيف خضبه الدم هو الحسن الذى يلبس أحمر ، ولعل ابن عمار قصد إلى اجتماع القسوة والجمال فى نفس المعتضد أو لعله لم يقصد . . . ولعله حينما أمات ضميره ومدح جاءت هذه الأبيات فى زحمة المديح ورأى نفسه يمدح شخصاً لأنه قتل فأراد أن يعتذر عما فعل ، ويعتذر للممدوح عما قتل فكانت هذه الأبيات . . . لعله ، ولعله لم . . . أيا يكون الأمر فقد ألقى ابن عمار قصيدته ثم خرج من الديوان لينتظر ما قد يجود به عليه المعتضد ، ولقد انتظر ابن عمار فطال به الانتظار حتى رأى بقاءه بعد هذا عبثاً لا طائل تحته وحاول أن يصبر نفسه ولكنه أحس أن آماله فى جائزة خيال فقام من جلسته وفى نفسه حسرة لاعجة فقد كان كل مناه أن يقيم بهذا الرحاب غير نازح وهاهو ذا يخرج منه حتى بغير الجائزة التى كان ينالها من الملوك الذين لايفهمون الشعر ولا يقدرونه . . . لقد علق مناه بقصيدته وكم يخذل الشعر

أصحابه . . . ليخرج إذن من القصر فلا يقيم . . . بل ليخرج من غير جائزة وحسبه أنه خرج سالماً إن كان في السلامة مع التشرد احتساب لمحتسب . . . خرج ابن عمار إلى حماره الذى تركه خارج القصر وسار إلى حيث ترك الحمار ولكن يا للمصيبة النازلة ! ! لم يكن الحمار هناك . بحث ابن عمار حول القصر وأطال البحث فلم يهتد إلى حماره الأثير فجلس على سور القصر وفي نفسه ألم وحسرة وأخذ يفكر فى حماره الذاهب . . . لقد صحبه منذ سنين ولقد رأى معه مر الحياة وحلوها . . . وماذا ؟ ! . . . حلوها ! ؟ . . . أين حلو الحياة هذا الذى ذاقه معه الحمار . . . إنه لم يعرفه . . لا بأس لقد كان إذن حماراً صبوراً احتمل مر الحياة وحده فلم يطالب بحلوها . . . ولكن أكان يستطيع أن يطالب لقد كان صامتاً لأنه مرغم على الصمت، ثم من أين يدرى أنه سرق الآن لعله هو الذى هرب وحده دون سارق . . . إنه هو هذا الخائن لم تكد بارقة أمل تلوح له فى هذه المدينة الضخمة حتى ترك صاحبه أحوج ما يكون إليه ليبحث عن صاحب آخر . . . لم يكن وفياً ذلك الحمار . . . ولعله أيضاً كان نحساً على صاحبه فإن خيراً ما لم يصب ابن عمار وهو راكبه . . . أكان نحساً حقاً ابن عمار أم أنك تصبر نفسك على ما أصابها . فكر ابن عمار فأطال

التفكير وقد انتهى إلى أن هذا الحمار كان نحساً عليه، فمس قلبه طيف من الراحة لم تتركه نفسه دون أن تفسده عليه فحادثت صاحبها هازئة : «أكان الحمار نحساً أيها الشاعر فانظر إذن أى خير سيصيبك من بعد ذهابه . . . لم تعد لك حجة فى فقرك أيها الشاعر إن كان الحمار هو حجتك» فغضب ابن عمار من نفسه هذه المتشائمة وهب يريد أن يسير وهم أن يبحث عما يركب ولكنه تذكر أن حماره قد سرق فعلم أن نفسه على حق فى سخريتها وامتطى قدميه وهم بسير . . . لم يكد ابن عمار يخطو متباعداً عن القصر حتى لحقه من ينادى به فكذب أذنيه أول أمره ولكن النداء ألح فالتفت إلى من ينادى فإذا هو خادم من القصر يسعى إليه، فانبثق فى نفسه وامض أمل غشته سحابة خوف ولكن صوت الخادم ما لبث أن علا طاغياً على هواجس نفسه طالباً إليه أن يعود معه إلى القصر .

ورجع ابن عمار إلى القصر الذى ترك فيه رماد أمل ضخم من آماله ولكن ما لبث هناك أن رأى هذا الرماد من الأمل قد تجسم فصار الأمل حقيقة واقعة يكاد لا يصدقها لطول عهده بالآمال المحترقة ولا يستطيع أن يكذبها لأنها قائمة أمامه وهو يقظان غير نائم ، وهو مفيق غير مخمور بغير هذه النشوة

التى انسابت فى إحساسه لأول مرة فى حياته . . . لقد تحقق أمل . أمر المعتضد أن يكافأ ابن عمار فتجزل له المكافأة وأمر له بملبس فخم وبمركب فاخر ،جعل ابن عمار يلعن حماره وأيامه النكدة وكل هذه الأعطيات لا تساوى شيئاً فى نظر ابن عمار إذا قاسها بالأمر الأخير الذى قضى بأن يكتب اسمه ضمن شعراء القصر .

أصبح ابن عمار إذن من شعراء القصر . . . لقد آن للشريد فى أقطار الأرض أن يراح إلى ملجأ وأن يهدأ إلى مستقر . . . يتلقى ابن عمار ذلك الخبر ويهم بأن يذهب إلى الحجرة التى خصصت به ، ولكن خادماً يأتى إليه ويخبره أن مولاه المعتمد يطلبه فيجف قلبه ! وكيف لا ؟ ؟ المعتمد شاعر رقيق غزل لم يقل الشعر فى يوم تكلفاً ولم يقله محتاجاً وإنما أحسه فقاله وابن عمار لم يقل الشعر إلا صناعة . . . وكيف لا ؟ وهو قد تلقى هذا الخير جميعه ولابد لشر أن يلحق بالخير ، ولا بد للمعتمد أن ينتقد ، ونقد الأمير شتيمة قد تصل إلى ما هو أدهى .

يذهب ابن عمار إلى حيث يدله الخادم فإذا هو يجد ثلة من القوم ليس بينهم من هو أفضل من الآخر وقد افترشوا جميعاً وسائد على الأرض ويبحث بينهم عن المعتمد الذى رآه

فى مجلس أبيه فلا يجده فيلتفت إلى الخادم يسأله عن المعتمد ولكن الخادم كان قد انصرف ، فيعيد وجهه إلى القوم فإذا هم مشرئبون إليه وإذا واحد منهم كان قد رآه حين أنشد قصيدته يقوم إليه ويقدمه إلى الجالسين ويفهمهم أنه أصبح منهم، فيعلم ابن عمار أن هؤلاء هم شعراء القصر فلا يحتشم منهم شيئاً فقد كان يعلم أنه خير منهم صناعة وأنه أكبر منهم نفساً . . . يجلس إليهم فيقولون ويقول ويسمرون فيسمر فإذا هو أكثرهم دعابة وإذا دعاباته تنطلق على طبيعة مواتية لا أثر فيها للكلفة فقد رأى كثيراً وتعلم . . . ولقد اختلط بأقوام كثيرين وعلم أن المرح هو خير عون له بعد الشعر وعرف أيضاً أن هذا المرح إن شابه تكلف أو صناعة أصبح ثقلا لا يحتمله أحد، وكان من حسن طالعه أن روحه كانت صافية بطبيعتها فهو ينطلق على سجيته فيجد الجالسين يميلون إليه بحديثهم ويؤثرونه بالتفاتهم وإذا هو روح المجلس المنطقلة الجميلة . . .

وبينا ابن عمار منطلق فى دعاباته إذا بالمجلس قد غشية الوقار فجأة وإذا بالمنطرحين إلى الأرض قد نفروا جميعاً وقوفاً، فيعجب ابن عمار عجباً يقطعه صوت جديد عليه يلقى السلام إلى من بالحجرة ،ويلتفت ابن عمار فيجد المعتمد داخلا إليهم من باب لم يكن ظاهراً فيرى ابن عمار تلك الأبواب السرية

التى كان يسمع عنها وإن كان لم ير داعياً لهذا التخفى الذى اتخذه المعتمد وهو يدخل إليهم . . . يدخل المعتمد وعينه على ابن عمار ثم هو يطلب من الشعراء أن يتخذوا مجالسهم فيتخذوها متوقرين ويلتئم الجمع حول المعتمد فيلتفت إلى ابن عمار ويقول له :

— هيه يا ابن عمار لو أن الشعراء فعلوا ما فعلت اليوم ما ربح أحد منهم شيئاً . . . أتمشى أيها الرجل قبل أن تنال جائزتك .

فيقص ابن عمار على المعتمد كل ما لاقاه فى يومه هذا من آمال خابت وحمار سرق ثم يكمل القصة بهذا الخبر الذى سكب عليه . . . وكان ابن عمار يقص فى انطلاقة لم يعهدها المعتمد فيمن يحادثه وفى مرح طرب له المجلس وعلى رأسه المعتمد . . . وابن عمار جذلان بما يلاقى كلامه من استحسان يشجعه على المضى فى حديثه علمه أن الأمير يشتهى دائماً أن يسمع الحديث عبيطاً لا أثر فيه لتنميق لكثرة ما يسمع من التنميق ، ويشجعه من قبل ذلك الضحك الذى يستقبل به ، وهكذا عرف ابن عمار كيف ينفذ إلى المعتمد فيصل إلى نفسه من الطريق القريب وهو طريق الطبيعة العارية التى لا تحب التعمل ولا التكلف ، وهو الطريق الذى عمى عنه كل

من صاحب المعتمد من قبل فإن أقرب الطرق دائماً هى أبعدها عن الذهن المحدود .

سر المعتمد بالشاعر الجديد وقربه إلى مجلسه ثم حادثه عن قصيدته التى ألقاها فى أول الليل فإذا هو معجب بها فيجيب ابن عمار .

وأين هذا يا مولاى من قصيدتك التى تقول فيها :

سكّن فؤادك لا تذهب بك الفكر
ماذا يعيد عليك البث والحذر
وازجر جفونك لا ترض البكاء لها
واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر
وإن يكن قدر قد عاق عن وطر
فلا مردّ لما يأتى به القدر
وإن تكن كبوة فى الدهر واحدة
فكم غزوت ومن أشياعك الظفر
كم زفرة فى شغاف القلب صاعدة
وعبرة من شئون العين تنحدر
واصبر فإنك من قوم أولى جلد
إذا أصابتهم مكروهة صبروا

لم أوت من زمنى شيئاً أسر بـــه
فلست أعهد ما كأس وما وتر
ولا تملــكنى دل ولا خفــر
ولا سبي خلدى غنــج ولا حور
رضاك راحة نفسى — لا فجعت به —
فهو العتاد الذى للدهر أدخــر
لا زلت ذا عزة قعساء شامخــة
لا يبلغ الوهم أدناها ولا البصر

قال ابن عمار هذه الأبيات وهو يترنم بها ترنم المعجب المخمور بما ينشد والمعتمد يستمع وعلى وجهه تتوالى موجات من السخط والرضى ، فليس يدرى أيها أولى بالظهور وأيها أدعى إلى الاستخفاء حتى إذا انتهى ابن عمار من الأبيات التى يحفظها تغلب السخط على الرضى فى نفس المعتمد وإن السخط لغالب دائماً فى نفس الملوك . . . انتفض المعتمد صارخاً .

— أتذكرنى بموقعة هزمت فيها وباعتذار عن خذلان ! ! لبئس ما اخترت لى يا ابن عمار ولبئس ما شاء لك حظك .

— بل نعم ما اخترت لك ونعم ما اختار لى حظى أيها الشاعر ... أنا لا أعرفك فى موقعة وأنا لا أعرفك أميراً وإنما أنا أعرف فيك الشاعر الرقيق وأعرف فيك المعتمد بمجده الذى

أنشأه.هو بقلمه لا بمجده الذى أنشأه له أبوه وأجداده .

وفكر المعتمد قليلا ثم هز رأسه وقد أعجبه الكلام فكل جديد جميل وقال لابن عمار :

— لقد أجبت أيها الشاعر فأحسنت .

— بل ليس بعد يا مولاى فإن لى مأخذاً على شعرك هذا الذى ذكرت .

وبهت المعتمد فهو لم يسمع كلمة المأخذ هذه لاحقة بكلام يقوله أبداً ولكن ابن عمار لم يلتفت دهشة المعتمد وأكمل ما يقول .

— لقد قلت فى بيتك الثانى : وازجر جفونك لا ترضى البكاء لها . . . إنك لتخاطب أباك فى قصيدتك تعتذر له عن هزيمتك وأنا لا أظن أن أباك بكى بل لو كان بكى لكان عليك أنت أن تكتم الأمر فلا تبن عنه أما أن تقوله شعراً فهذا مالا أرضاه لك شاعراً أبداً .

سمع المعتمد الحديث ووعاه وأصابته وخزة النقد ولكنه وجد لها مساً رقيقاً حلواً لم يعهده من قبل فى المديح الذى يسمع ، لقد أحس صدقاً فى حديث ابن عمار وهو لم يعهد الصدق فى كل من يخاطبونه ، بل كان يشعر بفراغ ضخم من الناس فقد كانوا جميعاً يتملقونه فهم فى عينه لا يملأون الفراغ الذى أتاحه الله لهم فى الدنيا . . . بل إنهم يزيدون هذا الفراغ فراغاً . . .

سمع المعتمد وفرح بما يسمع ثم هب فى الجالسين :

ـ أسمعتم أيها الشعراء . . . إن فى العالم صدقاً . . . لقد مكثتم السنين تستمعون وتعجبون ألم أقل شيئاً ينتقد فى يوم من الأيام؟ ومن أنا أيها الشعراء أكنت الله يرسله تنزيلا ولكن صدقاً انبثق فى القصر . . . فأهلا . . . أهلا بالصديق الذى طال عنه البحث .

مال المعتمد إلى ابن عمار يذاكره شعره وابن عمار يمدح فى تحفظ وينقد فى أدب ووضوح وحين يجد المعتمد معجباً بنفسه يشجعه على إعجابه ، فهو يلاينه ويشعره أنه يقسو عليه ، وهو يمدحه ويجعله يحس أنه ينقده . . . حتى انتهى الليل ودارت الرؤوس تهفو إلى النوم فانفض السامر وافترق الشاعران الصديقان وقد اعتزما لقاء فى يومهما التالى بل لقد اعتزما لقاء فى كل أيامهما التالية . . . فهلمى أيتها الأيام وأرينا ما الذى تخفينه لصداقة جديدة وعهد جديد :

٣

عهد جديد

انصرف ابن عمار إلى غرفته معجباً بنفسه فقد سارت الخطة في الطريق الذى رسمه لها ولقد ظفر بالمعتمد وقد عرف من أين يذهب إليه، وقد لاقاه وأمسى أو هو أضبح وقد حقق لنفسه من الأمنيات ما ظن أنه لن يتحقق فى يوم من الأيام، فلقد أصبح شاعر الملك المعتضد وقد أصبح قريباً إلى نفس المعتمد ولى العهد الشاعر الذى يحب الشعراء . ويفكر ابن عمار فيما كان بينه وبين المعتمد حين أفهمه أنه ينقده وأنه مخلص له . . . فكر ابن عمار فى هذه الخطة التى رسمها لنفسه يوم كان فقيراً ويوم كانت آماله تصبو إلى يومه هذا . . . فقد كان حينذاك يفكر فيما يلقاه هؤلاء الأمراء من تزلف وتملق، وكان يفكر فى غباء هؤلاء المتملقين المتزلفين كيف يفوت عليهم أن الأذكياء من الأمراء يضيقون أحياناً بكثرة المديح كما يضيقون من كثرة النقد . . . وكان يفكر كيف يجب أن يضع المتقربون إلى الأمراء مدحهم فى قالب من النقد حتى

يخيل للأمراء أنهم يستمعون إلى صادق . . . إنه لم ينقد المعتمد اعتباطاً ولم تكن سرعة خاطر ولا حدة بادرة وإنما هى خطة نظمها فى نفسه منذ آماد بعيدة غاية فى البعد ورأى الفرصة أمامه فاهتبلها ، ولقد نجحت الخطة وقفز وثباً إلى الهدف الذى تقطعت أنفاس الكثيرين ممن يحيطون بالمعتمد ليصلوا إليه فما بلغوا مما بلغ ابن عمار شيئاً .

وأغفى ابن عمار يؤرقه شوقه إلى الغد بعد أن كان يؤرقه خوفه من هذا الغد . . . وهكذا ذاق حلو الحياة ابن عمار حليف البؤس وأخو الطريق .

حتى إذا أقبل الصبح وكاد أن يغدو ظهراً دلف إلى حجرة ابن عمار خادم من القصر يوقظه وما أسرع ما تيقظ وما أجمل ما سمع . . . فقد جاء الخادم يدعوه إلى المعتمد .

ووضع ابن عمار على نفسه تلك الحلة الجديدة التى أنعم به عليها المعتضد فى ليلته الذهبية ثم نظر إلى المرآة فوجد شيئاً . . ولم يكن قد نظر إلى المرآة منذ كان طفلا وما كان بحاجة لينظر إليها وما كانت حاجته إلى هذه النظرة ! ! أما وجهه فهو يعلمه ، وأما الأسمال التى كانت عليه فهو ضيق بها يريد أن تغرب عن وجهه فهو يدعو الله أن يعفيه منها أو يعفيها منه . . . أما اليوم فهو ينظر إلى المرآة ويجد شيئاً . . . يجد

إنساناً فى وجهه حمرة من أثر الفرح ، وفى عينيه حمرة من أثر السهر ، وفى ملبسه فخامة من عند الملك .

سعى ابن عمار إلى المعتمد ومكثا معاً وتحادثا وكانا كلما فعلا اقترب ابن عمار إلى نفس المعتمد ، فهو يقص عليه ما رأى وما سمع ويقص عليه ما أصابه به الدهر حتى إذا حس ابن عمار نفسه وكأنه يكلم شخصاً يعرفه منذ زمن بعيد تجرأ فسأل المعتمد عن دخوله فى الأمس من باب سرى وأوشك أن يأخذ هذا على المعتمد ولكنه لم يكد فإن المعتمد أسكته وطلب إليه أن ينتظر حتى يقبل المساء .

وأقبل المساء والأمير والشاعر متلازمان وسأل ابن عمار الأمير أن يجيب عن سؤاله الذى أبداه فى صدر النهار فإذا الأمير يقف ويأخذ بيد ابن عمار إلى حجرة ليس بها من شىء غريب ، فهى حجرة ذات باب وبها بعض الستائر تزين جدرانها ولكن الأمير يزيح ستارا منها فيرى ابن عمار من خلفه ثقباً فى الحائط ويسأل الأمير عنه فيطلب إليه الأمير أن ينظر من الثقب فيفعل فيرى مجلس الشعراء الذى كان فيه بالأمس وقد التأم لا ينقصه غير نفسه وغير المعتمد . . . ويستوضح الأمير فيخبره أنه يريد أن يرى الشعراء وهم جالسون فى الغرفة الأخرى دون أن يحسوا به فيتاح له أن يراهم فى مباذلهم من غير

هذه الكلفة التى يصطنعونها فى مجلسه، فلقد ضاق بهم أمام الأمير وأراد أن يراهم أمام أنفسهم فيسأل ابن عمار :

– فإذا مسك أحدهم بما لا تحب .

– إن أحداً منهم لا يجرؤ فكلهم عين على كلهم وهم يخشون على أنفسهم من أنفسهم .

– فلماذا أريتنى هذه الحجرة .

– لأنى أحسست فيك الصدق ولقد رأيتك بالأمس من هذا الثقب وأنت لا تعلم ثم رأيتك تتكلم أمامى فما رأيت اختلافاً بين الحديث والحديث بل رأيتك فى كل مجالسك تطلق نفسك على سجيتها فهذا الثقب لا أحتاج إليه معك .

– والباب لماذا جعلته مختفياً .

– حتى لا يحاول واحد منهم فتحه ليعرف أن وراءه حجرة . . . إنهم يظنون حين أدخل منه أنه مفض إلى دهليز من دهاليز القصر .

وهكذا تكشفت الحقيقة لابن عمار وهى فى تكشفها جعلته يحس أنه صار أقرب الناس إلى المعتمد ويفتح المعتمد الباب المختفى ويمضى إلى المجلس ومن خلفه ابن عمار .

ويرى الجالسون ابن عمار مصاحباً للأمير فتشتعل نفوسهم غيرة ولكن النار التى بقلوبهم ما تلبث أن تنقلب تملقاً

لابن عمار وتوسيعاً له فى المجلس وفى الحديث فقد صار القريب إلى المعتمد . . . وناهيك بقريب إلى المعتمد . ومرت الأيام فكان الشاعر يلازم الأمير لا يفارقه بل إن الأمير لم يعد يطيق أن يفارق الشاعر لحظة من حياته فهو معه طول يومه وليله لا يفارقه إلا لهجعة فى أصيل ، أو نومة فى مساء . . . بل لعله كان يلازمه عند الأصيل أيضاً ويكتفى المعتمد بضجعة يتخذها ويبيح للشاعر أن يتخذ لنفسه الجلسة التى يريدها . . . ومرت الأيام سريعة على المعتمد بصداقته الجديدة بعد أن كانت بطيئة ثقيلة لا يحس لها جمالا ولا رواء وهى إن كانت تسرع على المعتمد فهى تومض ومضاً لابن عمار لا يكاد يحسب أنها أيام مثل تلك الأيام التى مرت به وبحماره حتى لقد كان يخيل إليه أن الدهر قد تغير فأصبح يلد أياماً جديدة لا صلة لها بتلك الأيام البائسة النكدة التى قاساها .

وانقطع المعتمد عن مجلس أبيه وفرغ لابن عمار فى الصباح ثم لشعرائه جميعاً منذ صدر الليل حتى يشارف نهايته ، وهو يخلو بعدئذ إلى ابن عمار وهكذا حتى لم يصبح له لحظة يخلو فيها لأبيه أو لمجلسه ، وأحس الوالد بانقطاعه هذا وقد كان يعلم أن ابنه شاعر وقد كان يعلم أنه يحب الشعراء ويهفو لمجلسهم ولكنه مع هذا كان يراه خالياً إليه حيناً وإلى مجلسه أحياناً فأحس

الوالد أن ثمة جديدة فى حياة ابنه استقصاها فعرف أنها ابن عمار وأنه قد زاد على الشعراء فالتهم وقت ابنه الذى كان يبقيه له هؤلاء الشعراء، وما كان المعتضد ليسكت عن هذا فهو يحب الشعر ويحب المجلس المرفه ولكنه يحب ملكه أولا وهو يخشى أن يصر المعتمد على شعره وشعرائه فلا يصبح الملك الذى يرجوه الغد ويرنو له العرش .

لم يسكت الملك عن هذا الأمر ولكنه خشى أن يلوى ابنه فى عنف ، أو يزجره فى قسوة فينفلت الزمام من يده فهو يعلم أن ابنه ذو روح شاعرة طليقة لا تطيق القيد ولا ترضاه حتى ولو كان هذا القيد ملكاً، فهو يدعو ابنه ويبصره فى روية ويسايره فى الحديث والرأى أول الأمر ليصل به إلى رأيه الذى يريده له فى آخر الأمر، فهو يقول عن نفسه إنه شاعر وإنه يحب الشعراء ويقربهم وإنه ليترسل مع ولده فى الحديث حتى ينتهى به إلى تلك الأبيات التى قالها فى صدر شبابه :

قسمت زمانى بين كد وراحة فللرأى أسحار وللطيب آصال
إذا نام أقوام عن المجد ضلة أسهد عينى أن تنام بى الحال
وإن راق أقواماً من الناس منطق يروق .. بدامنى مقال وأفعال

وإن المعتضد ليطلب إلى ابنه أن يقسم زمانه بين شعر وإمارة ولكن المعتمد لا يقطع برأى بل يلف مع المقال ويدور فى

طاعة من الحديث وعصيان عن الوعد، والمعتضد ذكى يعلم ما يجول بخاطر ابنه ويعلم أنه يخشى من وعد يقطعه ثم لا يطيق أن ينفذه، ويترامى الحديث ويطول فلكل إحراج من المعتضد مخرج عند المعتمد، حتى إذا أحس المعتضد أنه مفض إلى إخفاق فيما يريد صارح ابنه أنه سيوليه إمارة شلب فيستهول الولد الخطب ويهم بأن يستقيل أباه فهو شاعر لا شأن له بالإمارة فإن تفض إليه فى غد له بعيد فهو سيصاب بها مرغماً لأنه لا يطيق لها دفعاً، أما أن يصاب بها وأبوه على قيد حياة وهو بعد ما يزال غارقاً فى الشعر وابن عمار ودون أن يرى داعياً لتلك الإصابة فهذا ما لا يطيق، ويقرأ المعتضد هذا المعانى على وجه ابنه وفى عينيه فيشير إلى ابنه أن يسكت قبل أن ينطق ثم يبدأ فى حديث آخر نابع من القلب .

— وبعد يا بنى أتعين الدهر على فلقد أصابنى بأخيك الأكبر أرغب ما يكون فى الخلافة وأعجل ما يكون إليها حتى لقد هم بقتلى ليعتسفها منى قبل أن يتيحها له موتى . . . وقتلته ، وقتلت به شطراً من نفسى وجانباً كان فى حياتى إشراقاً حين ميلاده فإذا هو السواد الحالك .

ثم صرت أنت الأكبر والأمل فإذا أنت أزهد ما تكون فى الخلافة وأقعد ما تكون عنها فلا والله لن يصاب ملك فى ملكه

وأولاده كما أصاب فبالله إلا أعنتني على الدهر وأعيذك أن تكون عوناً له .

واغرورقت عينا المعتضد بالدمع وهمت أن تفيض به لولا أن أمسكه عزة الملك وقبول الابن .

٤

صداقة وحب

شلب إذن هي الإمارة التي اختارها المعتضد لابنه المعتمد .. بلد ابن عمار ، ومهبط رأسه ، ومكان تعلمه ، ومغنى شبابه ، ومصدر فقره ، وأيام شقائه ، لقد علم ابن عمار أن المعتمد راحل إلى شلب ليكون بها أميراً وهو يعلم أن المعتمد لم يعد يطيق الحياة من غيره فهو إذن راحل مع المعتمد وما أطيب هذا . . . سوف يدخل شلباً هذه المرة وهو الصديق الأول لأميرها ومن يعلم أى غد ينتظره هناك فقد أصبح الغد ينتظره دائماً بالخير .

وسافر المعتمد إلى شلب وسافر فى صحبته ابن عمار وأقبل المعتمد على إمارته كارهاً وحاول أن يصرف أمورها ولكن أى أمور تلك التى يراد به أن يراودها إنه شاعر لماذا لا يريدون أن يفهموا هذا . . . إنه شاعر يحب شعره أما الأمارة فإنها مشقة سوف يتحملها فى حينها . . . إن أحداً لا يريد أن يفهم عنه هذا إلا صديقه الأثير ابن عمار . . . هو وحده الذى يعلم ما يعتمل بنفسه . . . وهكذا يقبل المعتمد على شئون الإمارة

إقبالا خيراً منه الإحجام فما يكاد يقطع فى أمر حتى يهرع إلى ابن عمار ويتناشدان ثم هو يضيق بتلك الفترة الوجيزة التى يبت فيها فى أمور الحكم ، فهو يطلب إلى ابن عمار أن يجلس معه حين تعرض عليه الأمور فيفعل ابن عمار متثاقلا أو مظهراً للتثاقل . مخفياً للرغبة العنيفة فى هذه الجلسة ، متحرقاً شوقاً إليها فى بعيد نفسه . . . ويجلس ابن عمار وتعرض الأمور فيسكت بعض الحين ولكن المعتمد لا يريد أن يراه ساكتاً فهو يلتفت إليه ليشركه فى الحديث إشراك المجاملة . . . فما كان ليدرى عنه خبرة فى غير الشعر . . . يلتفت المعتمد إلى ابن عمار يطلب منه رأياً عابراً فإذا ابن عمار ينبثق متفجراً وإذا هو ثاقب النظرة خبير بدقائق ما يقول . . . فإنها بلدته وإنه ابن عمار ذلك الرجل الذى دار على قصور الملوك فرأى وفهم ما رأى ، ثم هو حليف الطريق الطويل فما أكثر ما خلا به وبحماره هذا الطريق ، فكان يفكر ويمحص ويتعمق الأمور حتى يبلغ أعماقها وهو يقرأ فيصل إلى أغوار ما يقرأ . فما هو إذن بالشاعر الهاذر الذى يمد يده ليثنيها إلى فمه فلا يفكر فى غير مد وانثناء . . . وما هو بالذى يغبى عن فهم الأمور الجلائل فقد عاصرها مشاهداً ، وإن تكن الحياة النكدة لم تتح له أن يعاصرها عنصراً فيها ، فما هو ذا المعتمد ينتقم له من تلك الحياة ويوسع لخبرته

بالتفاتته تلك ، وها هو ذا يتدفق فى تبصر ويرشد فى خبرة ويهدى فى مران والمعتمد يستمع عاجباً معجباً وقد وسع ما بين هدبيه ، فما دار له بخلد أن ابن عمار يفهم شيئاً غير الشعر وغير تلك الأحاديث الطلية التى كان يترسل فيها ولكن ها هو ذا يتضح عن رجل مارس السياسة ومارسته فليكن صديق الشعر هو هو صديق السياسة وما أجمل أن يكون هذا الصديق الدائم ابن عمار .

ولكن ابن عمار الذى سعى إلى صداقة المعتمد وإلى مجالس شعره لا يطيب له أن يشارك هذا المعتمد فى الإمارة وقد كان يعلم أن إبعاد المعتمد عن شئون الإمارة أمر ما أيسره ولكنه يتعجل ولا يطيق الانتظار أكثر مما انتظر .

لا يطول التفكير بابن عمار فهو يعلم أن المعتمد عازف عن شئون الأمارة وهو يعلم أنه يحب الشعر ومجالس النساء ، فما أسرع ما يعقد ابن عمار هذه المجالس وما أجمل ما ينضدها فيقبل عليها المعتمد لا يفيق ويتظاهر ابن عمار أنه مقبل معه . . . وتملأ هذه المجالس وقت المعتمد فهو يترك شئون الإمارة شيئاً فشيئاً لابن عمار حتى يستقل بها لا يشاركه فى ذلك المعتمد ، بل إن المعتمد ليغتبط بهذا التوفيق الذى هيأه الله له فى ابن عمار فجعل منه شاعراً فذاً ومنظماً عبقرياً للجلسات الممتعة ثم شاء

تبارك وتعالى أن يتوج هذا كله بخبرة نابغة فى السياسة وشئون الحكم .

وتسير الحياة طيبة للصديقين فأما الأمير فيمرح مع الشعراء والحسان وأما الشاعر فيصرف شئون الإمارة وينظر فى كل شئونها كبر هذا الشأن أو صغر ولكنه مع هذا يفكر فى أمره وأمر المعتمد فيجد نفسه هو السيد بغير لقب وبغير وظيفة رسمية فإن وظيفة شاعر الأمير لم تكن فى يوم من الأيام منفذاً إلى شئون الحكم . . . لابد إذن من وظيفة ولم لا وقد أصبح المعتمد خطرة منه ولم يكن من دأب ابن عمار أن يقف تفكيره عند التفكير أبداً بل إنه دائماً يتبع الفكر بعمل .

وجلس ابن عمار إلى المعتمد وامتلك ابن عمار عنان الحديث ودار به ولاب حتى انتهى إلى الإمارة فهو يذكر للمعتمد ما يشقى به فيها، ثم هو يتكلم مترسلا مظهراً للمعتمد أنه لا يقصد إلى غير الترسل فى الكلام فيعرض إلى المخالفات التى تقع من صغار الموظفين وكيف أنه لا يملك أن يردهم عنها، ويفهم المعتمد مرمى الحديث وهدفه فلا يصبح الصباح إلا وابن عمار قد أصبح وزير المعتمد فى إمارة شلب .

هكذا أصبح ابن عمار فى بلدته . . . بلدته تلك التى لفظته شاباً ، ثم أقفلت أبوابها دونه كلما حاول أن يلجأ إليها . . .

لقد صار فيها وزيراً . . . وزيرها الذى يحمل وحده عبئها فلا يعرف أميرها من أمرها أمراً غير أن ابن عمار هو المتصرف فيها . . .

هيه ابن عمار ما أحسب أيامك الحالية أتاحت لك أن تتخيل هذا الذى تمرح فيه اليوم من سعادة . . . فهل تقف بك آمالك ابن عمار عند حد تنتهى إليه أم رأيت من الأيام ليناً فأنت توغل غير ناكص . . . شأنك والأيام ابن عمار . . . شأنك وإياها .

* * *

ظلت هكذا حياة الأمير ووزيره الشاعر . . . ولم يكن المعتمد رغم ما هيأه له ابن عمار من حسان وشعراء ليستطيع أن يتخلى عن جلسات صديقه، فهو يتوق إليه منفرداً يتطارحان الشعر أو يجيزانه فإن ضاقا بالقصر وشلب خرجا متنكرين إلى إشبيلية يمرحان فيها ما وسعهما المرح، وقد كانت المدينة مهيأة لهذا المرح أحسن تهيئة حتى إذا ضاقا بصخبها خرجا إلى « مرج القطة » على ضفاف الوادى الكبير فيجلس ابن عمار إلى المعتمد فى هذا المنفسح العريض من الخضرة يحف به نهر صاف يكمل الجمال الذى يشيع فى الروض .

جلس المعتمد إلى ابن عمار وقد اقتعدا السندس يرنوان

إلى ذلك النهر تمسه نسمات من الهواء فتجرى مياهه فى تموج رجراج كأنه شعر غانية ترسله، وإن الشاعرين لينعمان بتلك النسمات تنفح وجهيهما بهواء لين كأنما هو القبلات الرقيقة تغمر به الحبيبة وجه من تحب ، وإذا الشاعران يصمتان تائهين تيه المخلوق أمام روعة الخالق، ولكن المعتمد كان أسبق من ابن عمار فى التخلص من إنسانيته ليرف إلى شاعريته، فهو يتكلم دون أن يلتفت إلى ابن عمار وإنما هو ناظر إلى النهر لا يريم يقول المعتمد :

— أجز يا ابن عمار .

ترقرق الماء بهفهاف النسيم واطـــرد
يالوحة أبدعها بفنـــه الفرد الصمد

ولكن ابن عمار يغرق فى صمته وتخشعه ويهم بأن يسأل المعتمد أن يعفيه من إكمال الأبيات ويهم بأن يعتذر بروعة المنظر المسكتة عن عجز، فهو يعرف أن أى كلام مهما كان، شعره هو أو شعر المعتمد لن يحيط بهذه الفتنة التى تحيط بهما... يهم ابن عمار أن يفعل ولكن صوتاً رقيقاً عذباً ينساب من قريب يخاله الشاعر نسيما من النسيم أو خفقة من النهر أو صوتاً للكون الطروب حولهما قد انبعث يكمل البيتين . . . ويلتفتان إلى الصوت فيجدان حورية قد جلست منهما غير بعيد رانية إلى

النهر غير ملتفتة إلى الصاحبين وإنما هى تنشد شعرها وكأنما تنشده لنفسها ،وينظران إلى جانب وجهها فيريان جمالا لم يرياه من قبل وهما المعتمد وابن عمار ، ثم يسمعان شعراً لم يسمعاه من امرأة قبل وهما المعتمد وابن عمار قالت الفتاة :

أجمل بها يوم الوغى   لو أن ذا الماء جمد
تخالها منسوجة   من حلق ومن زرد

ويقفز الشاعران من مكانيهما ويهفوان إلى تلك الحورية التى انبعثت لا يدريان من أين،ويسرع المعتمد إليها فيضع يده على جسمها فقد خشى أن يكون الخيال قد خلق ما يريان ولكن الحورية تلتفت إليه وفى فمها ضحكة وفى وجهها بشر وفى عينيها وميض ثم هى تقول :

— بل هى حقيقة أيها الأمير . . . بل هى حقيقة .

ويضطرب المعتمد من ذلك الجمال الذى شع فى عينيه فهو يقول :

— وتعرفيننى .

— ومن لا يعرف الأمير الشاعر وصاحبه الوزير ؟!

— فمن أنت إذن ؟!

— أنا روميكا .

أشاعرة أنت ؟

ــ بل جارية .

ــ بل أميرة ... دونك والقصر .

وتذهب روميكا إلى القصر ويشتريها المعتمد من صاحبها ويتزوجها ويبدأ حب فى قصر المعتمد هو حبه الأول والأخير فقد عرف النساء من قبل جوارى ولكنه لم يعرفهن حبيبات ولا شاعرات .

ويغير المعتمد اسم روميكا فيصير « اعتماد » . وابن عمار يرى هذا فيفرح به فقد سقط عن كاهله تدبير المجالس والنساء وفرغ للأمارة وحدها لا يشغله عنها إلا أن يجلس أحياناً إلى المعتمد فلا يسمع من المعتمد إلا عن اعتماد إن كان شعراً فشعر أو يكن حديثاً فحديث ،وابن عمار فى الحالين يشجع المعتمد أن يسير فى حبه فما الشباب إلا حب وما الشعر إلا خفقة القلب صيغت ، والمعتمد يقبل على هذا الحديث إقباله على حب اعتماد والإمارة بين حديث ابن عمار وفراش اعتماد ضائعة لا تعرف أميراً غير وزيرها فالوزير منفرد بالأمر . . . ولم يكن الوزير ذا ضمير مرهف ، ولم يكن ذا مال ، ولا هو بذى قناعة . . . وقد عرفت يده كيف تمتد بعد شعر المديح يقوله لسانه فهى اليوم تعرف كيف تمتد بعد شعر المديح تسمعه أذنه ، وإن لم يكن لهذا سعى إلى

الوزارة .. فلماذا ؟ ؟ فما هو بالوطنى الصادق الوطنية لوجه الشرف ، ولا هو بالوفى الخالص الوفاء لآل عباد ، إن ابن عمار لم يكن صادق الوفاء ولا خالص السعى إلا لابن عمار وحده . وبهذا المبدأ الواقعى سار ابن عمار فى وزارته وسارت به الأيام حتى إذا فاض المال لديه علا رنينه . وللمال الحرام رنين ضخم لو أن آذان المعتمد خلت لحظة لصكها ، ولكن من أين لها وهى تمتلىء بحديث الحب فى المساء وبالحديث عن الحب فى الصباح . . . ولكن الرنين يعلو وتتواكب أصداؤه حتى تبلغ آذان المعتضد ذاته فى إشبيلية فيثور .

ويصبح المعتمد ذات صباح فيقصد إلى الإيوان ويرسل فى طلب ابن عمار ولكن الحاجب يستأنيه حتى يرى رسول أبيه ، ويدخل الرسول فإذا هو يحمل ورقة يأمره أبوه فيها أن ينفى ابن عمار من شلب ويسأل الرسول تفسيراً لما يحمل فما يحير الرسول بجواب فهو لا يعرف ماذا يحمل ، ويعود الأمير إلى الورقة فيجد الأمر قاطعاً أبكم لا يبين بغير الأمر وحده . . . فتدمع عين المعتمد ويعود إلى طلب ابن عمار فيأتى الوزير ويهم بأن يفسح للحديث ما كان يفسح ولكن المعتمد مقطب الوجه مغرورق العينين مكروب النفس فلا يسأله ابن عمار عما به فقد تعود أن تتهدى إليه نفس المعتمد دون أن يسعى إليها . . .

ولا يطول الصمت بالمعتمد بل هو يفضى لابن عمار بما حمله الرسول فيخفف ابن عمار عن المعتمد وإن يكن الخبر قد أكربه إلا إنه يعلم من أين يلج إلى النفوس ، ويعلم أنه لو أثار المعتمد على أبيه فإنه قد يثور لحظة ثم تمسك به بنوة ويهبط به إيثار لسلامة . فهو إذن يحاور المعتمد ويسوق إليه أن أباه لم يرد إلا خيره وأنه إنما أمر ليتيح للمعتمد أن يقوم بأمر الإمارة وحده بغير معين حتى يمرن على الحكم ويحسن الدربة . ويصل هذا الحديث إلى نفس المعتمد فيخفف مما يحس ثم هو يلتفت إلى ابن عمار ليقول له :

ـ أنا أعلم أنك احتملت عبء الوزارة فلم تصب منه مالا فحتى تجهز أمرك أكون قد دبرت لك ما يعينك فى غربتك ، وإنى سأظل على وصلك ما دمت بعيداً حتى يقضى الله أمراً وألقى أبى فأترضاه وتعود الأيام صافيات كما كن .

وقد استطاع ابن عمار وهو يسمع هذا الحديث أن يحد دمعتين بدتا نابعتين من القلب وإن يكن ابن عمار نفسه قد عجب كيف بدرتا من العين .

وخرج ابن عمار يستهدف أقاصى الأندلس وحاول من تركهم فى « شلب » أن يفضحوا أمره للمعتمد فراحوا يتحسسون نفس المعتمد ليروا أى اللونين تقبل أهو مديح ابن عمار أم

هجاؤه فرأوا المعتمد باكى النفس على فراقه دامع القلب لهذا الأمر الأصم الذى صكه من أبيه، فإذا هم يحيدون بما كانوا ينتوونه من ذم واغل إلى مديح مفرط لابن عمار يتقربون به إلى المعتمد، فتتفتح آذان المعتمد لهذا المديح ويزيد حبه له إن كان ثمة مكان لزيادة، وهكذا يظل ابن عمار فى نفسه هو الصديق المخلص وهو الوزير الأمين وهو كل شىء فى حياته ما خلا اعتماد .

٥

إلى الطريق

إلى الطريق عاد صديقه . . . ولكن أى عودة . . . لقد تركه على حمار متهالك لا يجد قوته ثم عاد إليه يمتطى صهوة حصان صافن أصيل أجرد شبعان . . . وقد تركه وهو أشعث أغبر لا يستر جسده إلا أخلاق بالية مركبة عليه تركيباً وهو يعود إليه أنيقاً وضيئاً ملبسه من ثمين الخز ورقيق الحرير وقد فصل عليه تفصيلا . . . وقد تركه وهو شاعر خامل لا يكاد يحس به حماره الذى يحتمله وعاد إليه الوزير الفذ والشاعر الضخم صديق الملوك ورفيق المعتمد . . . ابن عمار .

عودة ميمونة تلك التى يعودها ابن عمار إلى الطريق فهو اليوم ملء الجيب آمن عوادى الطريق والتواءات الملوك وارتفاع الأنوف . . . فلقد أصبح هو نفسه ممن يسمعون شعر المديح فيلوون رؤوسهم من الكبر ، وترتفع أنوفهم من العظمة . . . فليعد إذن ولكن وزيراً يعود .

ذهب ابن عمار إلى أقاصى الأندلس ومن هناك أرسل

شعره إلى المعتمد ليصل مستقبله بمستقبل أمير اليوم وملك الغد وليعرف المعتمد أين استقر بشاعره المقام فيصله إن أراد وصله أو يطلبه إن عفا عنه أبوه . . . أرسل إليه قصيدة من خير قصائده يقول فيها :

عليَّ وإلا ما بكاء الغمـــائم وفيَّ وإلا ما نواح الحمائم
وعنى أثار الرعد صرخة طالب لثأر وهز البرق صفحة صارم
وما لبست زهر النجوم حدادها لغير ولا قامت له فى مآتم

ثم هو يميل إلى المعتضد يمدحه وإن له فى مدحه لمذاهب فهو يترضاه وهو يظهر للمعتمد خضوعه مهما فعل به المعتضد وهو يمدح الأب لابنه عالماً أن مدح الجريح بجارحه يعلى من شأن المادح فهو يتقرب من نفس الابن ويرضى فيه حبه لأبيه ويبدى مشاركته له فى هذا الحب . . . يقول ابن عمار عن المعتضد :

أبى أن يراه الله إلا مقلــدا حميلة سيف أو حمالة غارم

وتصل القصيدة إلى المعتمد فيبكى مع الغمائم الباكية ويكاد ينوح مع الحمائم لولا الرجولة والشهود ويعلم من الرسول أين مكان ابن عمار فيصل بكل ما يستطيع أمير صديق أن يصل ويعود الرسول يحمل إلى ابن عمار المال خير دليل على حب مقيم وصداقة ما زالت أصيلة الجذور فى نفس المعتمد يعلم

الله وحده مدى ما تأدت إليه فى نفس ابن عمار . ويعود ابن عمار فيكتب شعراً جديداً يبدأه بغزل رائع ويرسل بالقصيدة.

جاء الهوى فاستشعروه عاره ونعيمه فاستعذبوه أواره
لا تطلبوا فى الحب عزا ، إنما عبدانه فى حكمه أحراره
قالوا أضر بك الهوى فأجبتهم يا حبذاه وحبذا إضراره
قلبي هو اختار السقام لجسمه زيا فخلوه وما يختاره
عيرتمونى بالنحول .وإنما شرف المهند أن ترقّ شفاره
وشمتّمُ لفراق من آلفته ولربما حجب الهلال سراره
أحسبتمُ السلوان هب نسيمه أو أن ذاك النوم عاد غراره
إن كان أعيا القلب من حر الجوى خذلته من دمعى إذن أنصاره

والقصيدة بعد ذلك مفضية إلى مدح المعتضد وما يكاد المعتمد يقرأها حتى يجن بها ويرتاح إلى هذه الخطة التى انتهجها ابن عمار فى مدح أبيه ويمتد أمله إلى صفح أبيه عن ابن عمار إن هو قرأ هذا الشعر فهو يعلم أن أباه يطرب للشعر الجميل ويرتاح إليه ويدعو المعتمد رسولا يهم أن يبعث به إلى أبيه حاملا القصيدة ولكنه ما يكاد حتى يسمع ضجيجاً عالياً وصخباً يقترب من حجرته حتى يبلغها ويفتح الباب ويدخل رسول من عند المعتضد يلهث يخبر المعتمد أن أباه قد اشتد به المرض وأنه يدعوه فيقوم المعتمد من مجلسه إلى حصانه فلا يتزود بشيء

حتى ولا بنظرة من اعتماد ويغمز المعتمد الحصان ويصل إلى أبيه فيجده ينتزع أنفاسه الأخيرة فيمثل أمامه فيوصى الأب ابنه بما يوصى به الملك خليفته ويموت الملك المعتضد ويصير الملك إلى الملك أبى القاسم محمد بن عباد المعتمد آخر ملوك بنى عباد .

٦

عند قوم

عاد ابن عمار إلى الملك المعتمد وقد أمن الدهر وعواديه واطمأن إلى المقام فى إشبيلية عاصمة الملك . . . وعادت الليالى وضاء كما كن وأصبح ابن عمار وزير دولة بنى عباد أجمع وقد أراد ابن عمار أن يفعل شيئاً عقب توليه الوزارة فزين للمعتمد أن يفتح قرطبة ففتحها فكان هذا بداية رائعة لعهد حافل بالأحداث .

ويرى الوزير الجليل أن القصر لم يصبح بالمكان الذى يليق به فى منصبه الجديد فقد كان هذا القصر يصلح حين كان شاعر المعتضد أو صديق المعتمد أو وزير شلب أما وهو وزير الدولة المدلل فلابد للوزير من بيت فقد أصبح الوزير ذا عائلة وأولاد أنجبهم من الجوارى اللواتى أنعم بهن عليه المعتمد فلابد إذن من بيت ولابد لبيت الوزير أن يكون ضخماً شاهقاً متسع الجنبات . . . فإنه الوزير .

وقد اتخذ الوزير مسكناً وسمى باسمه وأحس ابن عمار

بحلاوة الجرس الذى لم يسمعه قط فقد أصبح الناس يقولون « بيت الوزير » أو « بيت ابن عمار » وقد كان كل مناه أن يسمع اسم الحجرة يضاف إلى اسمه . . . أنه لم يسمع « حجرة ابن عمار » إلا حينما تعلق بصلة من القصر . ثم ها هو ذا أصبح لا يرضيه قولهم « حجرة » ولا قولهم « جناح ابن عمار » فأصبح له بيت بأكمله ذو حجرات وأجنحة .

إن يكن الوزير قد ابتنى بيتاً فأصبح بيت ابن عمار إلا أن ابن عمار لم يكن يلم ببيته هذا إلا إلمامة العاجل التى لا ريث بها ولا هدوء فأغلب أوقات صباحه بين الديوان ومجلس المعتمد وهو فى أغلب لياليه مع المعتمد يقضيها سمراً ولهواً أو يقضيها نوماً فى القصر . . . هو لم يطلب البيت لمبيت وإنما طلبه ليتصل اسمه ببيت وقد اتصل . . .

وأقبل المعتمد يوماً على ابن عمار وطلب إليه أن يعد له ليلة من ليالى شلب ، تلك التى كانت قبل أن يعرف اعتماد ويذعن ابن عمار ويعد الليلة فى خبرة ودربة ومران ويقبل المعتمد على المرح فيشيع السرور فى الجلسة ويغتبط المعتمد نفسه بما أنعم به الله عليه من حب وفىّ هو اعتماد ومن صداقة مخلصة حكيمة هى ابن عمار ويشيد المعتمد بقدرة ابن عمار النابغة فى السياسة وفى الشعر وحتى فى تهيأة الليلة

الأنيسة ويبالغ المعتمد فى تلك الإشادة ويقرب ابن عمار أكثر مما تعود أن يفعل وكلما دارت الخمر برأسه رفع من شأن ابن عمار حتى آذن الليل بزوال فإذا المعتمد وقد أصبح ثملا وإذا هو قد أبلغ ابن عمار ذروة السها وينفض المجلس ويوشك ابن عمار أن ينصرف إلى بيته ولكن المعتمد يمسك به ويقسم إيماناً مغلظة أن يبيت ابن عمار معه على وسادة واحدة ويتحرج ابن عمار أول الأمر ولكنه لا يملك من أمر نفسه أمراً فهو يتبع المعتمد فرحان جذلان إلى حجرة أعدت للنوم ويستلقى المعتمد ويطلب إلى ابن عمار أن يستلقى إلى جانبه على أن يضع رأسه معه على وسادة واحدة ويهمان بحديث ولكن السهر والخمر والتعب ما لبث أن عقدت أجفانهما . . . نام ابن عمار يكاد صدره يتفجر بالسرور ازدحم به وإن تكن اليقظة قد هيأت له هذا السرور إلا أن النوم أبى أن يسكت عنه . . . فإن الأحلام لتتواكب أمام ابن عمار ثم تنشق عن رجل أشيب جليل ناصع الإشراق يومى إلى ابن عمار ويتحدث فى هدوء فيقول زائر الحلم.

ـ هيه يا ابن عمار . . . هل أمنت كيد الملوك واستراح بك المقام ووثقت من المعتمد فأنت إذن تمرح فى سرور مطمئن ونشوة صافية . . . أفق أيها المخمور لذ بنفسك أن المعتمد سيقتلك . . . نعم هذا الصديق الحبيب . . . نعم هذا

الذى انتشلك من على ظهر الحمار إلى دست الوزارة . . . هو نفسه سيقتلك . . .

وفزع ابن عمار من نومه وقد أرسى فى نفسه إنذار الحلم وقد شعشعت فى رأسه خمور الأمس فهو يتسلل من الغرفة خائفاً ويمشى فى دهاليز القصر قاصداً إلى الباب الخارجى ولكنه ما يلبث أن يقف باهتاً حين يقرع صوت المعتمد أذنيه .

تقلب المعتمد فى فراشه ووضع يده حيث طلب من ابن عمار أن يلقى بنفسه ولكنه لم يجد ابن عمار فقام من فوره ونادى بالخدم وسألهم عنه فما علم أحد عنه شيئاً فطلب مصباحاً وخرج إلى دهاليز القصر يتوكأ على سيفه يبحث عن ابن عمار ومن خلفه حاشيته أجمع وطال بهم التطواف بغير جدوى فوقف المعتمد يتساءل فيدير خدمه رؤوسهم ويضربون أكفهم بأكفهم وبينما هم كذلك إذا بحصير يتزحزح من مكانه فانعقدت ألسنتهم واتجهت رؤوسهم إلى حيث كان الحصير قد وقف وامتنعت أكفهم عن ضرب نفسها وامتلأت نفوسهم بالذعر ... إلا أن المعتمد قد كره أن يظنوا به خوفاً وما هو بالجبان فهو يقصد إلى الحصير ويرمى السيف من يده ويطبق على الحصير فيجد بداخله أعضاء آدمى مايلبث أن يصيح «عفوك يا مولاى» ... فيصيح به المعتمد .

ـ من ؟ ؟

فيتخلص صاحب الحصير منه وإذا هو ابن عمار عارياً لا يكسوه غير فضلة من ثياب فيصيح المعتمد مرة أخرى صيحة داهشة عاجبة من ذلك الذى آثر الحصير على فراش الملك .

ـ ابن عمار .

ـ نعم مولاى ابن عمار .

فلا يملك المعتمد من نفسه إلا أن يضحك لصديقه ويفرح إن وجده فكأنما هو عائد من سفر بعيد ثم يسأل ابن عمار فى غبطة ؛

ـ ما الذى فعلت بنفسك ؟؟

ـ عفوك يا مولاى فقد زارنى فى النوم طائف حذرنى منك وقال إنك قاتلى فقلت أهرب وكفانى ما لاقيته عندك من الخير ومن أيام إن جعلتها زاد حياتى من السعادة كنت أسعد من ولد ومن هو فى مطوى الغيب سعيد . لقد رأيت منك الرضى وأخشى أن أرى الغضب ولقد بلغت عندك الذروة وليس بعد الذروة إلا المنحدر والملوك مولاى لا يستقرون على حال فلو أنك انتقمت منى للسعادة التى أشهدتنيها لكان انتقامك فوق الشدة .

فترقرق الدمعة فى عين المعتمد ويربت كتف عمار ويهدأ روعه ويقول له فى صوت متهدج بالبكاء .

ـ يا أبا بكر إنك أخو شبابى ومجلى شعرى وشقيق حياتى وخدن حاضرى . . . عرفتك وأنا بعد فى زهرة الشباب وصحبتك منذ عرفتك حتى بلغت الكهولة أو كدت . . . أ أقتلك ! ! أرأيت شخصاً يقتل شبابه وشعره وماضيه وحاضره . . . أفق ابن عمار إنها لآثار نوم وخمار . . . فوالله لو شهدت هذا الزائر الذى بث إليك الخوف لقتلته أن أقلق منك مضجعاً وخوف منك آمناً . . .

ثم يلتفت إلى حاشيته يأمرهم أن يحضروا قسطاً من اللبن فيحضرون ويسقيه لابن عمار ويذهب به إلى الوسادة وينامان .

نومة لم تكن هادئة تلك التى أصابها ابن عمار فقد أصبح من نومه ولا هم له إلا أن يباعد بينه وبين المعتمد قليلا حتى يطمئن ما أثير بنفسه ويهدأ ما أضطرب من خاطره ولكنه لم يستطع أن يسوق إلى المعتمد ما يعتمل بنفسه فى صباحه هذا فتريث حتى نسى المعتمد ما كان من أمر الحلم والهاتف ثم تقدم متودداً وقال له :

ـ مولاى . . . بقيت . . . فإنى لأطلب منك الكثير وأنت تجيب حتى لقد غدوت أخشى الإثقال عليك .

ـ إلا أن من وراء قولك لمطلبا . . .

ـ هو ذاك يا مولاى .

ـ فقله

ـ حتى تقسم

ـ بصداقتنا

ـ أريد ولاية شلب .

فيألم المعتمد لهذا الطلب ويبادر ابن عمار :

ـ أملالةً يا أبا بكر .

ـ لا عشت إذن . . . ولكنى يا مولاى شهدت نفسى بشلب هذه وأنا فقير وربيت بها وأنا لا أملك شيئاً حتى لقد تركتها وخرجت أطوف بالملوك أمدحهم فما أصبت من ذلك شيئاً ثم عدت إليها عودة لا كانت لقد شهدت نفسى هناك جائعاً على حمار جائع عريان على حمار متهالك حتى لقد أسمحت لى نفسى أن أمدح تاجراً لأصيب منه حفنة من شعير . . . ثم تعلقت أسبابى بك . . . وللنفس بدرات . . . إن نفسى لتشتهى اليوم أن تشهد نفسها هناك وفى هذا البلد والياً عليها من قبلك وأن آمالى لأعدمتك . تظل آمالا حتى تلقى بين يديك فإذا هى حقيقة ، وأن أمانى لا تزال أمانى حتى تنتهى إليك فإذا هى واقع .

وهكذا غدا ابن عمار والياً على شلب مهد طفولته ومدرج حياته ومغنى شبابه ، وأيام فقره فإليها إذن يعود . . . والياً يعود .

٧

. . . وعودة

إلى شلب عاد ابن عمار . . . لم يعد الشاعر الطريد ، ولا راكب الحمار المتهالك ، ولا مادح التاجر ولا مستجدى القمح ، وإنما عاد الأمير الخطير صديق الملك . . . عاد وهو صاحب الموكب الضخم يتبعه الخدم والحاشية وتنساق من قبله الطوالع والأعلام وتدق الطبول ويعلو الزمر . . . ووقف أهل شلب الذين نظروا إليه على حماره يسخرون أو يشفقون أو يتعجبون ، وقفوا اليوم يرحبون ويكبرون ويعجبون ، ولم يدر بخلد الناظرين أن صاحب الحمار هو صاحب الموكب ، بل إن صاحب الحمار هذا لم يجر على ذاكرتهم فهم لم ينعموا النظر فى الحمار أو راكبه وإنما كانوا يعبرونه بنظرتهم أو يعبرهم هو بحماره فما أدركوا من ملامحه شيئاً . ولو أن واحداً منهم كان قد أنعم النظر ثم أنعمه حتى عرف ملامح ابن عمار أجمع فإن هذا الواحد لا يجرؤ بحال أن يذكر ابن عمار والحمار فى هذا الموكب الضخم . وأين ذلك النضو القمىء من هذا الأمير العظيم ، وأين

ذلك الحمار المتهالك من هذا الموكب الضخم ، وأين هذا الطيف الذى مر رهواً لا يحس به أحد من هذا الذى أقام المدينة وما زالت قائمة . . . لا . . . لا صلة بين الشخوص ولا نسب .

إن يكن أهل شلب جهلوا الصلة بين صاحب الحمار وصاحب الموكب فإن ابن عمار يدرك هذه الصلة تماماً ، وهو إن يكن اليوم فى هذا الموكب الضخم الأنيق من الطبول والزمور فهو لم ينس هذا الموكب الضخم الحقير من الفقر والعوز الذى تسلل به إلى شلب وكل أمانيه أن تعمى العيون حوله وأن يصيب حفنة من غلال . . . لم ينسى ابن عمار الحمار والتاجر والشعر والصبى والشعير ، بل إنه أخذ نفسه أن تذكر هذا الذى كان فيه حتى يحمد ما هو اليوم فيه ، فهو يحمل معه ذلك الكيس الذى أنقذه وأنقذ حماره من جوع بما حمله من شعير . . . هو يحمل الكيس معه لم يفقده فى كل مناصبه التى تولاها ولم يفقده فى الذروة التى اقتعدها وإنما أبقى عليه ليشكر به من أنقذ . . . فما يكاد يجلس على كرسى الإمارة حتى يرسل من يبحث عن التاجر فيجده ويعلم ابن عمار أن الخشية قد تولت هذا التاجر حين علم أن الأمير يبحث عنه ، فيشفق عليه أن يستقدمه ويكتفى بأن يرسل إليه الكيس وقد ملأه فضة

وأوصى من يحمل الكيس إلى التاجر أن يقول له . . . « لو كنت ملأته براً لملأناه تبراً »(١).

وتشيع قصة الكيس بين أهل شلب فيكبرون ابن عمار ويرون فيه رجلا لم يتنكر حاضره لماضيه ولم تزهه الإمارة أن يذكر ذلك الماضى العريق فى هذا البلد وكان أهل الأندلس فى ذلك الحين قوماً ذوى حس مرهف يقدرون اللفتة الكريمة ويكبرون النفس العالية ويعجبون بالخلق المكتمل وقد كان ابن عمار يعرف فيهم هذا وكان يعرف تماماً أخلاق أهل شلب خاصة فهو خبير بما يرضيهم عالم بما يجلب له السمعة الطيبة والاسم الكريم وهو إن كان قد نال من مالهم حين كان وزير المعتمد لديهم إلا أن الأمر قد اختلف اليو تمام الاختلاف ، فابن عمار الوزير كان يعمل باسم المعتمد فما أيسر أن يلصق بالمعتمد التهم أما ابن عمار والى شلب فلا يحمل غير اسم نفسه فإن أساء فهو إنما يسيء إلى هذا الاسم وحده ، وقد كان ابن عمار يحب ألا يسيء إلى هذا الاسم ، وابن عمار الوزير كان فقيراً أو هو فى الحق جديد على الغنى يحب أن يستكثر من المال خشية من الغد وقد كان محقاً فى تفكيره هذا إذ سرعان ما حققته الأيام وأمر به المعتضد فنفى . أما ابن عمار والى شلب

(١) التبر : الذهب .

فغنى قديم فى الغنى أمن الغد وما بعده من أيام مهما اشتد بها السواد . وابن عمار الوزير جديد فى المنصب الكبير لا يهمه أن تصل السمعة السيئة إلى اسمه فهو حتى ذلك الحين لم يكن يحمل اسماً ، أما ابن عمار والى شلب فذو اسم وذو ماض يهمه أن ينقى السيء منه فلا يبقى غير الحسن فهو يأمل أن يحسن السيرة فى شلب عساه أن يجعل عارفيه فى الوزارة يحسنون به الظن وهكذا سار ابن عمار فى طريقه على خير ما يسير وال فى ولايته فهو عادل أمين حصيف عالم بدقائق الأمور .

وقد تحادث الناس بسيرة الوالى الجديد وتسامعوا عنه خيراً وارتقت سيرته إلى المعتمد ففرح بصديقه وبما يبنيه لنفسه من مجد ولم يهمه أن الوالى الجديد كان يقوم بأمر ولايته دون أن يرجع إليه فى جلائل الأمور ، ولم يهمه أنه استقل بالأمر وحده وأصدر الأوامر باسمه . . . لم يهمه هذا لأنه كان يحب ابن عمار ويثق به مطمئناً أنه مهما استقل بالأعمال فإنه لن يستقل بعواطفه وسيظل هو هو الصديق الوفى والأخ الحبيب .

لم يهمه شيء من هذا ولكن شوقه إلى ابن عمار ولياليه هى التى تهمه فهو يضيق بإشبيلية من غير ابن عمار حتى ليرسل إليه الشعر يخفف من بعض شوقه . . . أرسل إليه يوماً قصيدة يقول فيها :

ألا حي أوطاني بشلب أبا بكر[١]
وسلهن هل عهد الوصال كما أدري
وسلم على قصر الشراجيب[٢] عن فتى
له أبداً شوق إلى ذلك القصر
منازل آســاد ، وبيض نواعم
فناهيك من غيل . وناهيك من خدر
وكم ليلة قد بت أنعم جنحهــا
بمخصبة الأرداف ، مجدبة الخصر
وبيض وسمر فاعلات بمهجــتي
فعال الصفاح البيض والأسل السمر
وليل بســد النهر لهــوا قطعته
بذات سوار مثل منعطف البدر
نضت بردها عن غصن بان منعم
نضير كما انشق الــكمام عن الزهر

وقد كان ابن عمار يستقبل هذه الأبيات جامد الحس هادئ الشعور فى داخله . . . وكان يستقبلها فى بشر عريض وفرح غامر فى ظاهره .

---

(١) كناية لابن عمار .
(٢) قصر الإمارة فى شلب وهو غاية فى الروعة .

ولم يطل الأمر بالمعتمد وشوقه ولم يطق أن يظل البون شاسعاً بينه وبين ألف روحه وشقيق فنه ابن عمار . . . فأرسل إليه يستقدمه فقدم إلى إشبيلية وعوضه المعتمد عن منصبه الذى فقده خيراً فعينه كبيراً لوزراء الأندلس فرضى نفساً ونسى ما كان من أمر الحلم القاتل واطمأن جانبه إلى المعتمد وعادت الأيام تصل ما انقطع وتسعى بالصديقين إلى مزيد من الصداقة للمعتمد ومزيد من ارتقاء لابن عمار .

٨

دهاء الوزير

لم تكن الأندلس فى ذلك الحين خالصة الحكم لملوكها فلقد كانوا أضعف من أن يقوموا بالأمر وحدهم وقد انتهز الإفرنج هذا الضعف فراحوا يهددونهم فى ديارهم ويفرضون عليهم الجزية لقاء سكوتهم عنهم . ولقد أذعن الملوك لهذا التهديد فدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون فما كان الخلف بينهم ليترك لهم سانحة يفرغون فيها من عدوهم المشترك ولو كانوا قد تضامنوا لتغلبوا عليه . . . ولكن من أين لهم وقد تقطعت بينهم السبل فأصبح ما بينهم وبين بعضهم خراب بلقع لن يعمره الشر الذى يحيق بهم ولن يصله العدو الذى يتنمر لهم .

ولقد كان هذا العدو حصيفاً فهو لم يهجم لأنه يعلم أن جيوشه لا تكفى فهو يهدد فى تبجح فتهلع نفوس الملوك فهى خائرة ، وهو يطلب الجزية فتمتد بها أيدى الملوك صاغرة ذليلة .

ولم يكن حال المعتمد خيراً من حال إخوانه وإن يكن هو أقواهم وأعزهم جانباً إلا أن أمواله كانت جميعها منزوفة على

مطالب اعتماد وقد كانت لا تنتهى والقليل الباقى لم يكن كافياً لإقامة جيش ولكنه كان كافياً لأن يدفع الجزية فهو يدفعها .

وكان الأذفونش هو كبير ملوك الفرنجة فى ذلك الحين هو الذى يتقاضى الجزية من المعتمد ومن ثم كان على صلة وثيقة بابن عمار وقد كان الأذفونش معجباً به كل الإعجاب حتى لقد أطلق عليه اسم « رجل الجزيرة » فكان كلما مر اسم ابن عمار فى حديث يسمعه الأذفونش قال عنه « هو رجل الجزيرة غير منازع » وقد علم ابن عمار بما يقوله عنه ملك الفرنج فارتاحت نفسه إليه وكان يخرج إليه بالجزية فعرف عاداته وعرف ما يحب وما يكره وعرف هواياته فما غفل شيئاً مما يحيط به .

ولكن هذا الإعجاب الضخم الذى يكنه الأذفونش لابن عمار لم يمنعه يوماً أن يأخذ الجزية كاملة بل إنه زاد على ذلك . .

أحس الأذفونش أن مملكة المعتمد فى حال ضعف شديد وكان هو قد تكاثر المال لديه فانتوى فى نفسه أمراً ولم يسكت عند النية . . .

وبينما كان المعتمد فى إشبيلية على حاله لا يفيق من حب اعتماد إلا ليجلس إلى ابن عمار وبينما كانت الدولة جميعها

مشغولة لاعتماد تنفذ مطالبها وتحقق رغباتها كان الأذفونش يقوم بعمل أكثر قيمة وأجل منفعة .

وفى يوم نظرت اعتماد من شرفتها فرأت فتيات يملأن الجرار فحدقت مليا ثم همت بزوجها تريد أن تراه فى سريع حاسم من الأمر ويسارع الخدم ومن خلفهم الجوارى يسألون عن الملك ، وكان المعتمد جالساً إلى حفنة من وزرائه يبحث معهم فى حاجة الدولة إلى المال ولكن هذا لم يقف بالخدم أن يقتحموا المجلس ويطلبوا إليه أن يسارع إلى اعتماد فيسارع وإذا هى تطلب إليه أن يجعل لها ما تملأ منه الجرار فقد اشتهت أن تفعل مثلما يفعل أولئك النسوة وينشئ المعتمد معجنة من المسك ومن ماء الورد تكلف الدولة ما كانت ستبذله لتقوية الجيش فلا يبقى بالخزانة إلا القليل .

كان هذا فى أندلس الإسلام حين كان الأذفونش يبذل من المال فوق ما تحتمل موارده جميعاً ليقيم شيئاً آخر غير معجنة المسك ، وليرضى غايات أخرى غير نفس امرأة .

وفى يوم بينما المعتمد جالس إلى النافذة يرنو إلى اعتماد ترفع ذيل الثوب عن أرجل ناعمات غائصات فى المسك وماء الورد وبينما المعتمد منتش بما يرى يستخفه الفرح ويصفق قلبه بين ضلوعه كأنه طائر يحوم حول من يحب . . وبينما السرور

يشيع فى أجواء المعتمد إذا بوزير من وزرائه يدخل فلا يحتشم من مقاصير الحريم شيئاً وإنما هو يقصد إلى المعتمد لا يريم وإذا هو يصيح به .

ـ أدركنا يا مولاى .

فينتفض المعتمد فما كان بيده حينئذ أن يدرك أحداً وما كان يتوقع أن يتجاوز رجل مهما كان وزيراً أعتاب اعتماد . . . انتفض المعتمد من الدهشة ومن الغضب وإذا هو يقول للوزير بصوت يخنقه كل ما يثور بنفسه من اضطراب :

ـ ماذا أبا القاسم . . . ماذا بك .

فيجيب الوزير هالعاً ملتاعاً .

ـ لقد هاجمنا الأذفونش بجيش أوله هنا وآخره لم يظهر حتى الآن .

ـ وأين هو .

ـ فى ظاهر المدينة

ـ ومتى رأيته

ـ لقد رآه من رآه فى باكر الصباح وما زال يتقاطر حتى الآن .

ـ ويحك وماذا نفعل .

ـ أمرك يا مولاى .

– على بابن عمار .

وما أسرع ما يجيء ابن عمار وما أروع ما يرى من ملك مضطرب ووزير هالع فإذا هو يشرق بينهم كالأمن يشيع فى النفس وإذا هو هادىء أهدأ ما يكون المرء وكأن ما يلقى إليه بشريات لا أثر فيها للحرب فالقتل فالخراب والدمار ودولة تهوى وعرش يزول . . . كأن شيئاً من هذا لم يلق إلى ابن عمار فهو يتكلم فى هدوء وهو يهدئ الروع الثائر ولكنه يقول عجباً . . . يقول ابن عمار :

– مولاى . . . إنى مخلص الأندلس والإسلام من كل ما تخشاه . . . كل ما أرجوه منك أن تفعله هو شطرنج .

فيذهل المعتمد ويسأله وكأنه لم يسمعه .

– ماذا .

– شطرنج

– أتقصد الشطرنج الذى يلعب به .

– نعم أقصد الشطرنج الذى يلعب به

– أتهذى ؟؟ ! !

– بل أجد

– وماذا أنت فاعل به ؟؟

– هذا سرى يا مولاى . . . فابقه على أبقاك الله .

ـ وكيف تريده أن يكون ؟؟

ـ أريده أفخم ما يكون الشطرنج . . . أريده من خالص الذهب ومن خالص الفضة وأريد أمهر الصناع أن يتركوا أعمالهم جميعها فلا يفعلوا شيئاً إلا أن يتقنوا صناعة هذا الشطرنج .

ـ يسير مطلبك يا ابن عمار . . . يسير مطلبك .

ويأمر المعتمد فيمتثل الصناع أمره ويفرغون للشطرنج حتى يفرغوا منه . . . ويخرج ابن عمار إلى خيام الأذفونش فيلتقى بقادته والمقربين إليه ويتكلم معهم حديثاً جارياً لا يقصد ظاهره إلى هدف ولا يهدف فى لفظه إلى غاية . . . يتكلم ابن عمار فإذا حديث الشطرنج وصفاته وإتقان صناعه حديث شائع بين خيام الأذفونش وإذا القوم لا يتكلمون فيما بينهم إلا عن الشطرنج حتى يرتقى حديثهم إلى الأذفونش وإذا الأذفونش وقد أصبح كل همه أن يرى هذا الشطرنج فهو يستدعى ابن عمار ويسأله :

ـ أصحيح ما يقال عن الشطرنج يا رجل الجزيرة .

ـ وما الذى يقال يا مولاى .

ـ يقولون إن الصناع قد أبدعوه إبداعاً فهو ما لم ير الأوائل ولا الأواخر

ـ ليس السماع كالعيان يا مولاى .

ـ فمتى أراه .

ـ متى تحب .

ـ فهاته الآن .

ـ أحضره الآن .

ويقوم ابن عمار إلى الشطرنج فما هى إلا بعض ساعة حتى يكون الشطرنج بين يدى الأذفونش يقلبه بين يدية عاجباً معجباً مادحاً كل قطعة فيه ويرى ابن عمار إعجابه فيسكت ولكن الملك لايطيق السكوت .

ـ كيف السبيل إلى مثله يا رجل الجزيرة .

ـ ليس إلى مثله من سبيل يا مولاى .

ـ وكيف ؟؟ أنى أبذل لنيله ما تشاء من المال .

ـ أن المال لا يعوق يا مولاى . . . غير أن الصناع الذين قاموا بصناعته قد ماتوا جميعاً ولن يقدر على إبداع مثله صناع اليوم . . .

ـ فليس من سبيل إلى مثله .

ـ إلى مثله لا سبيل . . . أما إليه . . . فلعل هناك سبيلا .

ـ وما هو .

ـ أراهنك عليه .

ـ علام .

ـ ألاعبك به فإن غلبتنى فهو لك وإن كانت الغلبة لى فإن لى عندك مطلباً .

ـ وما مطلبك .

ـ لا أقوله حتى تكون الغلبة لى .

ـ ولكنك تعلم أن أحداً لا يتقن لعب الشطرنج مثلما أتقن.

ـ وأعلم ذاك .

ـ ولكنك لا تبين عن مطلبك .

ـ حتى يتم النصر لى .

ـ لا أظننى أرضى بهذا فأنا لا أعرف مدى قدرتك فى اللعب وأنا لا أعرف مطلبك وأخشى أن يكون عسيراً .

ـ ولكنك يا مولاى تتقن اللعب إتقاناً فما خشيتك .

ـ إن الذى عند الملك كثير فأخشى أن يكون مطلبك كثيراً .

ـ أمرك إذن يا مولاى .

ـ أنظرنى إلى الغد

وخرج ابن عمار من عند الملك واجتمع بقواده المقربين إليه كل على حدة وأغراهم أن يطمعوا الملك باللعب والقم من يمد يده ذهباً وأفهم من لا يمدها أن الملك لا يجمل به أن

يتراجع وهو اللاعب الحاذق . . . وانتقل الإغراء إلى الملك ألقاه إليه أصحابه مظهرين له أنهم ينصحونه وأنهم يخشون أن يتسامع الناس بتقهقره .

ويطلع الصباح فإذا الملك قد انتصح بنصح قواده وإذا هو يرسل من يدعو ابن عمار فيجيء فيخبره الملك أنه قبل الرهان .

ويبدأ اللعب وقواد الأذفونش شهود فما يلبث ابن عمار أن يتغلب على الأذفونش غلبة واضحة لا سبيل إلى نكرانها . فيعترف الأذفونش بها ، يغتصب ابتسامة يلصقها بفمه ويسأل ابن عمار .

— فما مطلبك يا رجل الجزيرة .

— لا شيء إلا أن يتفضل مولاى فيأخذ جيوشه ويعود بها من حيث أقبل

يسمع الأذفونش هذا الحديث فتصبح ابتسامته تشنجاً مرتعشا ويصيح بابن عمار :

— ويحك أجاد فيما تقول .

— ليس لى مطلب آخر يا مولاى .

فيعلم الأذفونش أن الوزير قد أحاط به فيلتفت إلى قواده ثائراً بهم .

— أرأيتم ما نصحتم به . . . أرأيتم ما أوقعنا فيه الرجل . . .

ولكن لا . . . لا يمكن أن يصبح الهذر جداً .

فيجيب ابن عمار :

— إن هذر الملوك جد يا مولاى .

فيعود الملك إلى وزرائه يكاد يقتلهم من شدة غيظه فيتركه ابن عمار ثائراً هائجاً ويخرج ولكنه لا يترك الخيام قبل أن ينتظر القواد مرة أخرى فيلقمهم مالا أو يلقنهم أن كلام الملوك لا يمكن أن يتراجع فإنه كلام الملوك .

ويترك القواد ملكهم ليلتهم هذه ثم يصبحون إليه فيقولون له إنه وعد ووعد الملك تنفيذ ولابد أن يقوم بما طلبه إليه ابن عمار إيفاء للرهان فما يصبح اليوم التالى حتى يكون الأذفونش قد دعا ابن عمار فيذهب إليه فيقول الأذفونش .

— لقد أوقعتنى يا ابن عمار ولن أنساها لك .

— أسيئة تحتسبها لى يا مولاى أم حسنة .

— ويحك أتريدنى أن أعتدها لك حسنة .

— ومالك لا تفعل يا مولاى ألم أخدم بها ملكى وبلادى .

— ويحك قد يعتدها غيرى حسنة لك يا ابن عمار أما أنا فلا . . . لا يا ابن عمار .

— بل سوف تفعل يا مولاى حين يهدأ ثائرك .

— والآن .

ـ والآن يا مولاى .

ـ لا أترك بلادكم حتى أنال الجزية مضاعفة هذا العام .

ـ أمرك يا مولاى .

وينصرف ابن عمار ليعود إلى الأذفونش بالجزية مضاعفة فيأخذها الملك مزمجراً ولكن ابن عمار يتقدم إليه بشىء كان قد لفه فهو لا يظهر ويسأله الأذفونش :

ـ وما هذا .

ـ فليزل مولاى عنه لفافته .

ويفعل الملك فيجد الشطرنج فيقول ابن عمار :

ـ هدية خالصة متواضعة من ابن عمار .

فيسر الملك من هذه اللفتة ، يكاد ابن عمار أن يعود إلى سابق مكانته فى نفس الأذفونش ويعود الأذفونش إلى بلاده ويعود المعتمد إلى نافذته يرنو منها إلى اعتماد وذيل ثوبها قد رفع وقدماها قد غاصتا فى المسك وماء الورد . . . إلا أنه فى هذه المرة لم يكن وحده بل كان ابن عمار إلى جواره يرنو هو أيضاً إلى جواريه يغصن بأقدامهن مع الملكة فى المسك وماء الورد .

٩
صفقة . . أهى رابحة ! ؟؟

أحس ابن عمار بعد أن خلص البلاد من خطر الغزو أنه أصبح دعامة هذه البلاد وأحسن أنه داهية فى السياسة يتلاعب بالملوك ويرد بدهائه الجيوش عظيمة ما عظمت تلك الجيوش . . . ثم أحس بعد فترة من الوقت أن ذكاءه لابد أن يجد شيئاً ينشغل به فما تعود أن يراح إلى هدوء ، وما كانت النساء مأرباً لحياته وهو لم يصطنع الخمر والجلسات المازحة إلا إرضاء للمعتمد . . . ووافت ابن عمار أنباء عن مرسية المجاورة لإشبيلية والمستقلة عنها فى الحكم ، وكان مؤدى هذه الأنباء أن مرسية تفتقر إلى الجيش . . . وأن حاكمها على غناه لا يملك خيلا ولا رجلا . . . وكان ملك مرسية فى ذلك الحين هو « أبو عبد الرحمن بن طاهر » ينتمى إلى أصل عربى ويملك أموالا ضخمة لم تلهه عن ثقافة واسعة فكان حصيف الرأى قويم الفكرة ، وكان أيضاً ضعيف الجيش منكسر الشوكة .

وكان يقيم بجوار مرسية « كونت » يدعى « الكونت دى

برشلونة ريمون بيرنجيه » وكان ذا قوة وأيد وكان صديقاً لابن عمار . . . وهكذا تهيأ لابن عمار أن يدعى أنه ذاهب لزيارة هذا الكونت وكان لابد له أن يمر بمرسية فى طريقه إلى الكونت . . . فلم يكن غريبا إذن أن يظهر ابن عمار فى مرسية . . . وإن يكن رأى فيها بعض من يريدون خيانتها وأن يكن قد رشاهم فقبلوا الرشوة إلا أن هذا لم يكن إلا تحت ستار كثيف من الكتمان لم تخترقه أعين « أبى عبد الرحمن بن طاهر » .

وقصد ابن عمار إلى الكونت وأجرى الحديث فجرى إلى حيث يريد فإذا الكونت يتحدث عن مرسية وعن ضعفها وإذا ابن عمار يظهر عن الحديث إغضاء يكاد فى ظاهره أن يصل إلى الملالة ثم لا يلبث أن يميل إلى الحديث رويداً ثم هو يشارك فيه ويشجع عليه فينطلق الكونت وينطلق ابن عمار حتى إذا رأى منفذاً إلى غايته نفذ فعرض على الأمير أمراً .

— ما دمت يا مولاى ترى هذا الأمر فما حبسك عن أن تعتسف هذه المملكة وأنها لثمرة ما تحتاج منك لغير إصبع تمدها .

— ومن أين لى المال يا ابن عمار .

— أيمنعك المال أيها الأمير .

— والله يا ابن عمار إن شئت الحق فإن المال وحده لم يكن

ليمنعني ولكنني أخشى أن أثير فى الدول الإسلامية الأخرى حفيظة لا أريدها أن تثور .

— لقد أصبت فاصلا من الأمر ولكن ماذا تراك تقول لو أن دولة عربية إسلامية هاجمت مرسية فاحتلتها وتصيب أنت ربحاً وأنت فى مكانك لا تريم

— أكاد أفهم ما تريد

— بل إنك لتفهمه .

— فزده إيضاحاً .

— أجيئك بالمال وتمدنى بالجيش .

— أليس الجيش دماء تراق فعائلة يتبدد شملها ، فزوجا أيماً ، وابناً يتيماً ، وأماً ثكلى .

— ولكنه المال . . . والحاكم — بعد — ينظر للمصلحة العليا فشأنه الملك وما شأنه زوجاً ولا طفلا ولا أماً .

— وهل الملك يا ابن عمار إلا هذه الزوجة وذلك الطفل وتلك الأم .

— ولكنك تريد مالا .

— وأريد رجالا .

— الرجال كثير ولكن المال . . . المال .

— كم تدفع .

ـ كم تقبل .

ـ عشرة آلاف مثقال ذهباً .

ـ فإن كانت خمسة ؟؟

ـ عشرة

ـ قبلت

ـ ومن يضمن لى أنك سترسل المبلغ

ـ ومن يضمن لى أنك سترسل الجيش

وحينئذ اقتحم الغرفة ابن أخى الكونت فكأنما وجد الكونت طلبته فهو يلتفت إلى ولد أخيه ويطلب إليه أن ينتظر ريثما ينتهى حديث ويخرج الفتى ثم يلتفت إلى ابن عمار قائلا :

ـ ابن أخى

ـ مرحباً به

ـ ألا تسأل من يضمن لك إرسال الجيش ؟؟

ـ أجل

ـ وأنا أقول ابن أخى .

ـ ماله ؟؟

ـ يضمن لك

ـ وكيف ؟

ـ تأخذه رهينة

ــ وماذا تريد منى رهينة ؟

ــ أريد ابن المعتمد

وأخذ ابن عمار بهذا المطلب ولكن تردده لم يطل فقد كانت القيمة المتفق عليها حاضرة عند المعتمد ، ثم ماله لا يتصرف فى أولاد المعتمد وقد تصرف فى المعتمد نفسه وما البأس الذى يخشاه . . . لا بأس عليه إذن ولكنه عاد يسأل :

ــ وكيف يجىء إليك ؟ إن أباه لن يرضى كما تعلم . وأنا لن أخبره أن ابنه سيصبح رهينة لديك .

ــ ألن ترسل المال فى موعده .

ــ بلى

ــ إذن فاخبر المعتمد أن ابنه سيتولى قيادة الجيش حتى يمرن على الحرب والقتال

ــ لقد قبلت .

ــ وقد قبلت .

وخرج ابن عمار من عند الكونت وهو يعتقد أنه غلبه على أمره والكونت يعتقد أنه غلب ابن عمار على أمره وشاع فى نفسيهما الفرح بصفقة يعتقد كلاهما أنها الرابحة .

١٠

مع الملك

عاد ابن عمار إلى الملك يقص عليه ما قام به فى رحلته تلك من أعمال والمعتمد يستمع وكله إعجاب بوزيره العظيم وكيف لا وابن عمار لا يقص غير ما يرضى المعتمد فهو لا يروى له عن الرهينة التى ستكون ولده ، وهو لا يقص له غير أن عشرة الآلاف مثقالا ذهباً سوف يقدمها لريمون لينال بها ملكاً جديداً ، وفتحاً مبيناً ، ونصراً مؤزراً ، ومجداً سامقاً .

سر المعتمد بهذا الاتفاق وعاهد ابن عمار أن يجهز الجيش وعاهده كذلك أن يؤدى المال إلى ريمون فى الموعد المضروب ولقد دهش المعتمد بعض الوقت حين وجد ابن عمار يحذره أن يتأخر فى أداء هذا المال . . . دهش إن وجده يحذره من تأخير يوم واحد فما كان ليدرى سَبباً لذلك ومن أين له أن يدرى . . . ! !

وحين حاول الشك أن يسرى إلى نفس المعتمد مال إلى ابن عمار يسأله عما يضمن له أن « ريمون » سيوفى بوعده فأطلق

ابن عمار بسمة ساخرة وقال للمعتمد :

ـ مولاى أتعتقد أن ابن عمار يفوته مثل هذا الأمر .

ـ حسبتك فعلت .

ـ بل لا يا مولاى ولهذا . . .

ـ ولهذا ؟

ـ أحضرت معى ابن شقيق ريمون رهينة عندى

ـ بوركت ابن عمار . . . بوركت .

وسد سبيل الشك فى نفس المعتمد وأصبح واثقاً أن الأمر سيدين له . . .

تلفت الملك حواليه يبحث عن قائد للجيش وما كان بحاجة لهذا التلفت فهو يعلم أين هو ولكنه أغضى . . . نعم هو يعلم أن ابن عمار خير من يقود الجيش ولكن كيف له أن يصبر عن بعده مدة أطول من تلك التى قضاها فى السفر ! ! ولكن ابن عمار يحتال وما أيسر ما يحتال ابن عمار على المعتمد ويتولى قيادة الجيش .

تهيأ ابن عمار للخروج من إشبيلية وأوصى المعتمد أن يرسل المال بمجرد وصول رسول منه يخبره أن ريمون أوفى بوعده وأن الجيوش من قبل ريمون قد اتحدت مع جيش المعتمد . . . ولم ينس ابن عمار أن يحتال مرة أخرى فينال إذناً من المعتمد

بأن يصحب « الراشد » ولده ليمرن على الحرب وقيادة الجيوش . . . وما كان المعتمد ليمنع ابنه عن ابن عمار فما تعود أن يمنع عن ابن عمار شيئاً حتى وإن كان ابنه . . .

واتفق المعتمد مع ابن عمار أن يلاقيه فى مرسية وضربا لذلك موعداً وقال المعتمد لابن عمار أنه سيصحب ابن شقيق ريمون معه إلى مرسية ليسلمه من ثم إلى عمه .

خرج الجيش إذن وقائده الراشد ابن المعتمد شكلا وأميره فى الواقع هو ابن عمار وكان ابن عمار فرحاً أن وصل إلى ما قدر لنفسه أن يصل فابن المعتمد معه ووعد المعتمد بأداء المبلغ وعد مؤكد موثق .

وما هى إلا أيام حتى اتحد جيش ريمون وجيش المعتمد ... وأرسل ابن عمار رسوله بذلك إلى المعتمد ووعد ريمون أن المبلغ سيصل فور عودة الرسول من إشبيلية . . .

وفى انتظار الرسول زحف الجيشان على ولاية « مرسية » ولكن أيام الزحف طالت . . . أو أن ريمون فى الواقع شاء لها أن تطول فإن المال لم يكن قد وصله بعد وهو لا يريد أن يفقد المال والرجال فى وقت معا .

وكان المعتمد فى طريقه إلى مرسية ليلاقى ابن عمار كما اتفقا وجاءه الرسول من ابن عمار ينبئه أن الجيشين قد اتحدا

وأنه لم يبق غير أن يؤدى المعتمد المال . . . ولكن إخراج المال عسير فى كل وقت وما كان المعتمد ليعرف خطر تأخره رغم تحذير ابن عمار . . . فإن ابن عمار لم يبن لتحذيره عن غاية ... تراخى المعتمد فى أداء المال . . . ولعله أزمع فى نفسه أن يؤدى هوالمال بيده حين يصل إلى مرسية .

وما كانت هذه الفكرة لتصل إلى ذهن « ريمون » الذى رأى أن تأخر المال دليل على شر يبيت له ورجح لديه أن ابن عمار خدعه وكبر عليه أن يخدع فما أسرع ما أمر جيشه أن ينسلخ عن جيش المعتمد . . . وحين حاول ابن عمار أن يستمهله أمر بالقبض عليه وعلى الراشد ابن المعتمد معا . . . وحاول الجيش . . . جيش المعتمد أن يذود عن أميريه ولكنه ما لبث أن هزم .

تم هذا جميعه والمعتمد فى طريقه — ما زال — إلى مرسية يبنى فى نفسه الآمال الكبار عن مدينة جديدة يضمها إلى ملكه سيجدها مفتحة الجوانب له ولحاشيته ثم ما يلبث ذهنه أن يأخذ به إلى ابن عمار فيشكره فى نفسه أن مهد له هذا الفتح المبين وما أكثر ما يشكر المعتمد ابن عمار فى نفسه .

وأراد المعتمد أن يطيل الأمد لهذه الفرحة التى تغمر نفسه وهو فى طريقه إلى مدينته الجديدة فهو يبطىء فى السير . . .

فما يرى خميلة إلا وقف لديها وما يرى وادياً إلا بات فيه ليلة أو أكثر وما زال كذلك حتى بلغ ضفاف « الوادى اليانع » وكان وصوله فى موعد فيضان النهر فأقام لديه حتى ينحسر الفيضان فيعبر النهر .

ولكنه لم يكد يضرب الخيام حتى شق الماء إليه بقية جيشه الهزيم يصحبهما فارسان من فرسان ريمون ألقيا إليه النبأ جميعه فانشطر فؤاده حزناً على ولده الواقع فى الأسر وحاول أن يخفف من بعض حزنه فوضع ابن أخى ريمون فى الحديد ولكن هيهات ما كانت نفسه لتهدأ بمثل هذا .

حينذاك فقط عرف المعتمد لماذا أوصاه ابن عمار أن يؤدى المال فى الموعد وعرف لماذا اصطحب ابن عمار ولده . . . عرف كل شىء ولكن لات حين . . . فما يغنيه اليوم أسفه وما يغنيه اليوم غضبه على ابن عمار .

يعود المعتمد إلى إشبيلية وتصيبه وجمة تظل رانية عليه عشرة أيام لا يدرى من أمر نفسه أمراً . . . ولكن ابن عمار الذى ألف الصعاب وعركها كان سريع البديهة حاضر الذهن فما أسرع ما يلجأ إلى أحد أمراء الأندلس من أصدقائه ويرسل إليه أنه لائذ به فيتشفع هذا الأمير لدى ريمون فيفك إسار ابن عمار ويبقى على الراشد ابن المعتمد حتى يضمن وصول المال.

ويقصد ابن عمار إلى المعتمد يكاد أن يلوى به الخوف ولكنه لا يضعف إليه بل يقصد إلى إشبيلية وحين يصل إلى أبواب القصر يعاود قلبه طائف خوف أن يكون المعتمد شديد الغضب عليه فيترك القصر إلى بيته ومن هناك يرسل إلى المعتمد قصيدته الضخمة :

أأسلك قصداً أم أعوج عن الركب
فقد صرت من أمرى على مركب صعب
وأصبحت لا أدرى أفى البعد راحتى
فأجعله حظى أم الحظ فى القرب
إذا أنقدت فى أمرى مشيت مع الهوى
وإن أتعقبه نكصت على عقبى[1]
على أنى أدرى بأنك مؤثر
على كل حال ما يزحزح من كربى
أهابك للحق الذى لك فى دمى
وأرجوك للحب الذى لك فى قلبى
أيظلم فى وجهى لذا قمر الدجى
وتنبو بكفى صفحة الصارم العضب

(١) يقصد أنه إذا اتبع القلب قصد إلى المعتمد ولكنه أن فكر قليلا خاف ونكص على عقبيه .

حنانيك فيمن أنت شاهد نصحه
وليس له غير انتصاحك من حسب
وما جئت شيئاً فيه بغى لطالب
يضاف به رأى إلى العجز والعجب
سوى أننى أسلمتنى لملمة
فلت بها حدى وكسّرت من غربى
وما أغرب الأيام فيما قضت به
تريني بعدى عنك آنس من قربى
أما إنه لولا عوارفك التى
جرت جريان الماء فى الغصُن الرطب
لما سمت نفس ما أسوم من الأذى
ولا قلت إن الذنب فيما جرى ذنبى
سأستمنح الرحمى لديك ضراعة
وأسأل سقيا من تجاوزك العذب
فإن نفحتنى من سمائك حرجف
سأهتف يا برد النسيم على قلبى

وهكذا أنشأ ابن عمار قصيدته تتسابق فيها السياسة مع الشعر فلا تدرى لأيهما السبق فهو يمهد بالاعتذار والتودد والتخوف وهو يذكر بالحب والصداقة وهو يوحى إلى المعتمد

أنه صافح مؤثر ما يزحزح كرب ابن عمار . . . ثم هو فى لباقة معجزة يحمل المعتمد العبء فيما وقع بل هو يزيد فيعتب عتباً رقيقاً فيذكره أنه أسلمه للمة فلت سيفه وحطمت سلاحه ولا ينسى ابن عمار أن يقول أنه لم يأت وزراً وأنه ما فعل إلا ما يظنه الخير وأنه ما جاء شيئاً فيه بغى ولا ظلم وبعد هذا الدوران السياسى البارع يعود فيستمنح الرحمى والضراعة ويسأل السقيا من الصفح الجميل والمعتمد – قبل – شاعر يصل القصيد إلى قلبه أسرع ما يصل ويفهم الخافى منه على أوضح فهم فهو يحس ما فى قصيدة ابن عمار من خشية واعتذار وتذكير بصداقة ويحس أيضاً ما فيها من توجيه اللوم المهذب مشفوعاً بالعتاب ثم يمس قلبه بعد هذا طلب الصفح وتدمع عينه حين يعجب ابن عمار من الأيام فيما قضت به فأرته البعد عن المعتمد آنس من القرب إليه فلا يملك نفسه أن يتناول قرطاساً ويكتب به إلى ابن عمار :

لدى لك العتبى تراح من العتب
وسعيك عندى لا يضاف إلى ذنبى
واعزز علينا أن تصيبك وحشة
وأنسك ما نذريه فيك من الحب

فدع عنك سوء الظن بى وتعــده
إلى غيره فهو الممكن فى القــلب
فريضك قد أبدى توحش جــانب
فراجعت تأنيســاً وعلمك بى حسبى
تكلفته أبغى بــه لك سـلوة
وكيف يعانى الشعر مشترك اللب

وهكذا جاء الصفح أروع وأجمل ما يكون الصفح بل إنه ليزيد فيعترف بالخطأ منه حتى إذا فرغ مما يجيش بنفسه نحو اعتذار ابن عمار عاد إلى حزنه المقيم ذاكراً لابن عمار أنه لم يكتب هذا الشعر على سجية مواتية وإنما هو يتكلفه تكلفاً يبتغى به سلوة لوزيره وصديقه فما كان لمشترك اللب الحيران القلق على ولده أن يكتب الشعر أو يعانيه .

يهدأ روع ابن عمار ويقصد إلى المعتمد فيلاقيه وقد بدت عليه علائم فرح يغشيه الحزن ولكن ابن عمار يسرع فيدبر الأمر والمال الذى يطلبه ريمون ويرسله إليه ليفك ابن المعتمد من أسره ولكن ريمون يطمع فلا يقبل أن يفك الأسير بالآلاف العشرة التى انتهى إليها الاتفاق وإنما هو يزيدها إلى ثلاثة أضعاف فيطلب ثلاثين ألفاً من خالص الذهب .

وحين يبلغ هذا الطلب مسمع المعتمد ينشق قلبه من

الغيظ والإشفاق على ابنه فإن هذا القدر من المال لم يكن موجوداً لديه وإنما الموجود لديه هو ابن عمار رجل الملمات .

ولا يطول التفكير بابن عمار بل هو يأمر فتضرب مسكوكات جديدة مزيفة ليس فيها من الذهب إلا القليل النادر الذى يكفى ليجعل ريمون يظنها ذهباً وما هى من الذهب إلا فى اسمها .

وتجوز الحيلة على ريمون فيطلق الراشد من أسره ويعود إلى أبيه فرحاً أنه كان ذا أهمية غير شاعر بما كان فى نفس أبيه من ألم وحسرة وخوف . . . ويعود ابن عمار إلى معتمده صديقين أخلص ما تكون الصداقة فرحين بحيلتهما التى خالت على ريمون يوهم كل منهما الآخر أن النصر كان فى جانبهما فهكذا النفس إن رامت أمراً كبيراً ولم تنل منه إلا القليل أو ما هو أقل من القليل حاولت أن تقتنع أن ما نالته كان النصر مؤزراً ، وما أكثر ما تخادع نفسها النفس .

١١

قمة المجد

لم يكن ابن عمار ليغبى عن فهم الأمر فهو على يقين أنه قد هزم ولكن لابد له أن يظهر للمعتمد أنه انتصر حتى يهدأ طائره وتطمئن نفسه . . . أما ابن عمار فإنه يعلم الحق من الأمر ولكنه لم ييأس إلى الهزيمة بل إنه ليصر فى بعيد نفسه أن ينال مرسية وقد خشى ابن عمار أن يظهر إصراره هذا للمعتمد فيغضب فأخذ يعمل وحده مستخفياً مرسلا الرسل إلى مرسية متنطساً أخبارها وقد خشى ابن عمار أن يعرف المعتمد بما يفعله فلم يجد وسيلة خيراً من الإغراق فى الخمر والتظاهر بهذا الإغراق ما وسعه التظاهر حتى تناقل الناس عنه ذلك وحتى بلغته قالة الناس فإذا هو ينظم أبياتاً ثلاثة يكتبها فلا يظهرها لغير المعتمد حتى يثق المعتمد أن ابن عمار قد عاد إلى ما كان عليه من خمر وشعر بعيداً عن السياسة وطموحها :

نقمتم علىّ الراح أدمن شربهـــا

وقلتم فتى راحٍ وليس فتى مجـــد

ومن ذا الذى قاد الجيـــاد إلى الوغى
سواى ، ومن أعطى كثيراً ولم يكد
فديتكمو لم تفهمـــوا السر إنمـــا
قليتـــكموا جهدى فأبعدتكم جهدى[١]

يظهر ابن عمار المعتمد على هذه الأبيات مبدياً فيها كرهه للناس ولا يخشى أن يغضب عليه المعتمد لأنه بإظهارها له يستثنيه من هؤلاء الذين قلاهم فأبعدهم . فقد كان ابن عمار يعلم أن هذه الأبيات لابد واقعة فى يد المعتمد وخشى أن يظن نفسه ضمن هؤلاء الناس . . . فابن عمار يسارع بقراءتها عليه لهذا جميعه وليفتح للمعتمد باباً يقول فيه الشعر بعد أن ثاب إليه ولده فعاد إليه لبه غير مشترك فعساه إذن أن ينشغل بمعالجة الشعر عن متابعة ابن عمار .

ويفرح المعتمد بعودة ابن عمار إلى الشعر والخمر ويفرح أيضاً ببغضه للناس فإنه بهذا سيفرغ له فيرتاح نفساً ، ويهدأ خاطراً ، فقد كان يخشى طموح ابن عمار فهو يعلم أن آماله لن تقف به إلى حد ينتهى إليه . . . وهو يعلم أن آمال ابن عمار هذه محفوفة بالأخطار فهى تمتد إلى الفتوح الجديدة وإلى الممالك بأكملها وكان لابد لفتح الممالك من الجيوش

(١) قليتكم أى كرهتكم شديد الكره فهو يباعد ما بينه و بينهم .

والأموال والرجال . . . وكان لابد أيضاً أن يتعرض ابن عمار في هذه الفتوح إلى الأخطار المحدقة وهو لا يكتفي بأن يقدم نفسه بل هو يزيد فيحيط أبناء المعتمد أنفسهم بما يخشاه المعتمد عليهم . . .

كان المعتمد يعلم هذا جميعه وكان يعلم أيضاً أنه لا يستطيع أن يرفض مطلباً لابن عمار فهو يخشى أن تظل هذه الآمال تداعبه فيطلب الجيوش والأموال ويضطر المعتمد إلى أداء هذه المطالب وهو كاره وإنما يؤديها حباً لابن عمار لا لشيء آخر . . . كان المعتمد يتمنى أن تفتح الممالك وأن تنضم إلى ملكه ولكنه يريد ذلك بغير عتاد ولا مشقة فإنما لا يزهيه من هذا الاتساع إلا أن يقول الشعر ويفخر بمجده ومجد وزيره . . . أما إذا كانت الفتوح تكلفه عنتاً من أمره فبحسبه المجد الذي تم له وهو غني كل الغنى عن فتوح أخرى . وهكذا فرح المعتمد أن ابن عمار عاد إلى الخمر والشعر وأغضى عن آماله الواسعة . . .

ويحس ابن عمار بهذه المعاني التي تدور بنفس المعتمد فينكب على الشعر والخمر متحيناً الفرصة ليعود إلى ما كان يطمع فيه واثقاً أن المعتمد لن يخذله . . . ويزيد ابن عمار من إظهار ميله هذا للخمر ومجالس الغناء حتى أنه لا يكتفي بتلك المجالس التي يفسحها له المعتمد بل هو يقبل دعوة من دعاه

إلى مثلها فهو يقصد إلى بيوت خاصة أصدقائه فيشرب ويسمع ويبلغ هذا المعتمد فيشتد يقينه أن ابن عمار لن يعود إلى السياسة أبداً .

وقد حدث يوماً أن أرسل إليه أحد خاصته يدعوه إلى ليلة من تلك الليالى وكان هذا الصديق شاعراً فكتب إلى ابن عمار يقول :

ضمان على الأيام أن أبلــغ المنى
إذا كنت فى ودى مسرا ومعلنا
فلو تسأل الأيام من هو مفــرد
بود ابن عمار لقلت لهــا أنا
فإن حالت الأيام بينى وبينـــه
فكيف يطيب العيش أو يحسن الغنا

ووصلت الرقعة إلى ابن عمار وهو فى زاوية من بيته يتسقط أنباء مرسية من عيونه بها فلم يستطع أن يترك هذا الأمر الجليل من أجل إتقان تظاهره فأغضى عن الدعوة وظل ليلته فى شغل عنها خطير حتى إذا طلع الصبح كتب إلى هذا الصديق يقول له :

هصرت لىَ الآمـــال طيبة الجـــنى
وسوغتنى الأحـــوال مقبـــلة الدنا

وألبستني النعمى أغض من الندى
وأجمل من وشى الربيع وأحسنا
وكم ليلة أحظيتني بحضورها
فبت سميراً للسناء وللسنا
أعلل نفسى بالمكارم والعلا
وأذنى وكفى بالغناء وبالغنى
سأقرن بالتمويل[1] ذكرك كلما
تعاورت الأسماء غيرك والكنى
لأ وسعتنى قولا وطولا كلاهما
يطوق أعناقاً ، ويخرس ألسنا
وشرفتنى من قطعة الروض بالتى
تناثر فيها الطبع ورداً وسوسنا

وهكذا وفق ابن عمار بين التظاهر بالمجون وبين العمل الجليل الذى يقوم به ولكنه فى هذه الليلة كان قد سمع أنباء ضخاماً وكان لابد له أن يتهيأ للعمل بعد أن طال به الهجوع إلى الخمر والغناء والرقص .

كانت الأنباء تقول أن مرسية قد حان قطافها ولكن ابن عمار لم يشأ أن ينقلب بفجأة أمام المعتمد من مخمور لاه

(١) التمويل : الإكثار .

إلى رجل عمل . . . فهو يتقدم إلى المعتمد ليتحدث عن ولده الأمير الراشد الذى أصبح أميراً على قرطبة ثم هو يطيل من الحديث عنه ليثير شوق المعتمد إليه حتى إذا وصل إلى غايته قال للمعتمد إن الأمير أرسل يطلبه ليقضى عنده بعض ليلة يسرى عنه فيها فيفرح المعتمد لإخلاص ابن عمار ويسأله أن يبلغ تحياته إلى ابنه .

ويذهب ابن عمار من فوره إلى الراشد بقرطبة ويجلس إليه يروى له من شعره وشعر غيره حتى إذا دارت الكأس وانتشى الراشد نظم ابن عمار أبياتاً فى جلسته تلك يقول :

ما ضر إن قيـــل إسحاق وموصلة
ها أنت أنت وذى حمص وإسحـــاق

أنت الرشيد[1] فدع ما قد سمعت به
وإن تشابه أخـــلاق وأعـــراق

لله درك . . . داركها مشعشعـــة
واحضر بساقيك ما قامت بنا ساق

وتمتد الجلسة إلى الصباح والجالسون لا يحسون بليل ينحسر ونهار يشرق حتى يأتى خادم فيؤذن سيده أن الإصباح قد أقبل

---

(١) يقصد بهذا المقابلة بين الراشد والرشيد وقد كان الراشد يدعى بالرشيد أحياناً .

فإذا ابن عمار ينطلق ناظماً موجهاً كلامه إلى الخادم والخادم مبهوت لا يفهم شيئاً مما يلقى إليه :

« ليلة ضمنت معانى السرور وأضاءت بنور وجه الأمير
وغدا الليل كالضحى بمحيا ه وبالبشر غامراً والحبور
ليلة كلهـــا صباح وضى أين منه نور الصباح المنير
أتقول الصباح ويحك يا أحـ مق إن الصباح وجه الأمير »(١)

وهكذا مكث ابن عمار لدى الراشد يظهر أنه يسليه وهو فى الواقع يستطلع أنباء مرسية بعيداً عن أعين المعتمد حتى إذا علم أن الوقت قد حان أرسل إلى المعتمد يخبره أن مرسية ثائرة على حاكمها « ابن طاهر » وأن زعماءها قد كتبوا إليه يريدون جيشاً من المعتمد يفتحها ويلح ابن عمار فى خطابه ولا يفوته أن يذكر أن ليس ثمة رهينة ولا اتفاق فليس ثمة خشية . . . ومرة أخرى يصدق المعتمد أقوال ابن عمار فيرسل الجيش على أتم أهبة ويتولى ابن عمار قيادة الجيش ويأخذ سبيله إلى أقرب حصن وهو حصن « بلج » وكان زعيم الحصن رجلا يدعى « ابن رشيق » ما أن يسمع بقدوم ابن عمار حتى يخرج إليه ليستقبله ويدعوه للنزول فى قصره فيقبل ابن عمار الدعوة ويفسح

(١) هذه الأبيات لم يعثر عليها منظومة ولكن معناها ورد فى أصول إفرنجية وقد تفضل بنظمها الأستاذ العوضى الوكيل .

له الضيف مكاناً رحيباً ويسكب عليه من الحفاوة والتكريم ما لم يكن ابن عمار ينتظره . . . وامتحن ابن عمار « ابن رشيق » فعرف أنه يستطيع أن يثق به فحادثه فى أمر « مرسية » وطريق فتحها فإذا ابن رشيق على أتم معرفة بحالة مرسية وبالوسيلة التى تصل بهما إلى الفتح وهكذا وجد ابن عمار عوناً من حيث لا يحتسب وما هى إلا بعض الساعة حتى كانت حامية حصن بلج تحت قيادة ابن رشيق قد مشت مع جيش ابن عمار فى طريقهما إلى مرسية .

كانت بلدة « مولا » هى طريق المؤن إلى مرسية وليس غيرها من طريق فحاصرها ابن عمار وابن رشيق حتى وقعت فى أيديهما فأصبحت مرسية فى حال من الضنك شديد . . . وفرح ابن عمار بفتحه هذا ولم يطق صبراً . . . فترك ثلة قليلة من فرسانه فى « مولا » وسارع إلى المعتمد ليزف إليه البشرى وليمحو أثر الهزيمة الأولى وليتقبل من مولاه التهنئات . . . و . . . ولشىء آخر يرجو مولاه أن يحققه له . . . أنه يريد أن يكون حاكماً على مرسية إن هى وقعت له . . . وما كان المعتمد ليمنع عنه مرسية أو غيرها فهى له . . .

وتلقى ابن عمار أنباء من عونه ابن رشيق يقول فيها إن وجوه مرسية من ذوى السطوة والسلطان قد خرجوا إليه يسألونه أن

يأذن لهم أن يعاونوه فى فتح مرسية وطلبوا إزاء ذلك بعض المال والهدايا ولا ينتظر ابن عمار حتى يستأذن المعتمد بل هو يرسل إلى ابن رشيق أن اقبل ما يعرضون ثم هو يلتفت إلى من معه فيقول« إن هو إلا يوم أو بعض يوم حتى توافينا الأنباء بفتح مرسية »

وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى فتحت مرسية أبوابها بأيدى الخونة الذين ما لبثوا أن مدوا أيديهم هذه ليتلقوا بها الهدايا والأموال .

وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى كان ابن عمار فى مرسية ومعه الكثير العديد من الهدايا الفخمة الجميلة فإن أملا ضخماً فى حياته قد تحقق وما أهون ما يبذله فى سبيله وإن غلا . . .

لم يكن ابن عمار قد تهيأ لدخول مرسية بموكب فخم فكان دخوله لها على غير انتظار من أهلها ولكنه فى صباح وصوله أعد لنفسه استقبال الملوك الغزاة الفاتحين بل إنه لبس مثل ما يلبس الملوك فوضع على رأسه تاجاً كتاج المعتمد الذى يتخذه حين يجلس إلى استقبال .

وكان « ابن طاهر » حاكم مرسية المعزول قد استكان إلى كسرة من بيته يبكى ملكه الضائع وأراد ابن عمار أن يبدو لأهل مرسية كريم النفس عف الخصومة فأرسل إلى ابن طاهر

بضعة حلل فاخرة ليختار منها ما يريد هدية خالصة من ابن عمار ولكن ابن طاهر أبى أن يجود عليه ابن عمار الذى يعرفه ويعرف خرجه وحماره وإخلاق ثيابه ... ولم يرد ابن طاهر أن يرد الثياب دون أن يخز ابن عمار وخزة تريح بعض ما فى نفسه فإذا هو يقول لمن يحمل إليه الحلل . . . « ارجع إلى مولاك ابن عمار فقل له إن ابن طاهر لا يريد من الثياب غير جبة طويلة خلقة من خشن الصوف الناحل ، وغير قلنسوة قذرة ، فإن سألك مولاك عنهما فقل له إنك أنت أعلم الناس بهما » .

وعاد الرسول يحمل الحلل والرسالة . . . وأحس ابن عمار وخزة الحديث ولكنه لم يرد أن يفسد فرحه بمثل هذه القالة فكتمها فى نفسه وقد أزمع ردها حين يفرغ إلى ابن طاهر . . . ثم التفت إلى أفراحه القائمة . . . لقد أصبح ملكاً . . . فإن مرسية لم تكن مدينة فحسب كبلدته « شلب » ولكنها كانت مملكة تتبعها مدن وولايات . . .

إنها القمة ابن عمار . . . فانظر إلى قدميك واحذر . . . احذر . . . فما وراء القمة غير الهاوية .

١٢

بين مرسية وإشبيلية

أقام ابن عمار بمرسية حاكماً مطلق اليد يأمر فأمره تنفيذ ، ويشير فإشارته أمر فأصبح بعد أن لبس التاج واستبد بالسلطان لا يحس بالمعتمد فى شىء فأخذ يصدر الأوامر ويمهرها بخاتمه هو لا بخاتم المعتمد ، وأمر فأنشىء جامع وأطلق عليه اسم نفسه دون المعتمد وتبلغ هذه الأنباء آذان المعتمد فيقول قول كثير :

هنيئاً مريئاً غير داء مخـــامر
لعزة من أعراضنا مــــا استحلت

ولكن ابن عمار لا يرعوى ولا يلتوى به فضل من المعتمد يطوق عنقه وكان ابن عمار فى ذروة مجده حين نما إليه أن فئة ممن لا يزالون على ولائهم لابن طاهر يدبرون أمراً فيما بينهم وأنهم حادثوا ابن طاهر أن يتزعمهم وحينئذ تذكر ابن عمار ما كان قد نسيه من أمر ابن طاهر وتذكر أنه اغتمزه فذكره بملبسه فأمر ابن عمار بابن طاهر فسجن بقلعة يطلق عليها قلعة (منتاجو) .

وكان لابن طاهر صديق اسمه (ابن عبد العزيز) وكان حاكماً على (بلنسية) القريبة من مرسية . ، . . فأرسل هذا الصديق إلى ابن عمار يرجوه أن يطلق ابن طاهر ولكن ابن عمار أبى واستكبر فقد خشى أن يخرج ابن طاهر من سجنه فيؤلب عليه الأعداء . . فلما يئس ابن عبد العزيز من ابن عمار أرسل يستنجد بالمعتمد فى أشبيلية وألح عليه حتى أرسل المعتمد إلى ابن عمار يأمره بإطلاق أسيره ولكن ابن عمار لم يلتفت أمر المعتمد كما لم يلتفت رجاء ابن عبد العزيز وأبقى على ابن طاهر فى سجنه .

واغتاظ المعتمد من ذلك . . . وكان الذين حوله فى القصر قد أوغرت صدورهم على ابن عمار فاهتبلوا فرصة غضب المعتمد ، وأخذوا يكيلون التهم لابن عمار يتزعمهم فى ذلك أبو الوليد ابن زيدون ابن شاعر الأندلس الأشهر ابن زيدون وكان آنذاك ذا نفوذ فى قصر المعتمد يلى نفوذ ابن عمار وقد أحب ألا يلى هو أحدا فينفرد وحده بجاه الملك وجبروته فحق له إذن أن يقدح فى ابن عمار ويتسقط مظاهر خروجه على المعتمد ويرويها له مضيفاً إليها ما يزيدها بشاعة حتى فاضت الكأس بالمعتمد ولكنه أراد أن يجرب تجربة أخيرة قبل أن يقطع صداقة حياته فأراد أن يرسل

إلى ابن عمار رسولا آخر يأمره أن يطلق سراح ابن طاهر ولكن الأخبار وافته أن ابن طاهر قد تمكن أن يهرب من قلعة منتاجو وأنه قصد إلى ابن عبد العزيز ونزل بقصره ضيفاً كريماً وكانت هذه الأخبار حقًّا كلها . . . وقد نزلت على المعتمد برداً وسلاما فقد كفته مؤونة التجربة واستراح وأوهم نفسه أن ابن عمار قبل أن تدبر هذه المؤامرة تحت عينيه فيهرب الأسير بدلا من أن يطلق فيحفظ بها على نفسه كرامتها أمام من يحكمهم ويطيع فى الوقت ذاته أمر المعتمد إليه . . .

هكذا اعتقدت نفس المعتمد الصافية ولكن الحقيقة أن هروب ابن طاهر والتجاءه إلى ابن عبد العزيز نزل على ابن عمار نزول الصاعقة فأصبح كالمجنون يبحث عن وسيلة ينتقم بها من ابن طاهر وابن عبد العزيز معاً حتى إذا ضاقت به السبل لجأ إلى سلاحه القديم الذى أوصله إلى ما هو عليه الآن وأخذ يكتب القصائد الطوال فى هجاء ابن عبد العزيز ولم يكن ابن عمار كريماً فى هجائه بل كان ثائراً لا يدرى ماذا يقول فكتب يهجو زوجة ابن عبد العزيز ويحرض أهل بلنسية أن يثوروا بصاحبهم .

وبلغت هذه القصائد مسامع المعتمد فعرف أن حسن ظنه بابن عمار كان أوهاماً واغتاظ أن يكتب ابن عمار هذه

الأبيات فيشهر للملأ أنه كان يعارض المعتمد فى إطلاق ابن طاهر وغاظه أن يتهجم ابن عمار وهو من هو على أقدار أمثال المعتمد من الملوك الكابرين . . . اغتاظ المعتمد وأراد أن يحارب ابن عمار بذات سلاحه فأمسك بقلم وأخذ ينظم . . . ماذا ينظم . . . ! لقد أخذ المعتمد بعد صداقة خمسة وعشرين عاماً لابن عمار ينظم قصيدة فى هجاء ابن عمار .

وبلغت القصيدة ابن عمار وكان فى أوج مجده وكان الذين حوله يوهمونه أنه الفرد العلم فتمكنت نشوة المديح من رأسه وأنسته ماضيه وعقله وكياسته وأنسته كل ما تعلمه من تدبر للأمور بل أنسته كل ما سكبه عليه المعتمد من فضل .. بل نسى أن هذا المديح الذى يسمع هو نتيجة لفضل من أفضال المعتمد عليه وخيل إليه أنه هو صاحب الفضل على المعتمد وأنه هو الذى أدى إليه من الخير ما لم يستطع أحد أن يؤديه له . . . نسى ابن عمار كل هذا وخيل إليه أنه غدا ملكاً مثل المعتمد وقابل قصيدة الهجاء من المعتمد بقصيدة هجاء من ابن عمار ولم لا وكلاهما ملك وكلاهما شاعر .

ولكن ابن عمار لم يكن فى مثل شجاعة المعتمد فهو فى عميق نفسه يحس — ما زال — بأنعمه وهو يعرف تماماً الفارق بين المفضل والمفضول فهو يلقى القصيدة فيمن

ظنهم خاصته وكان من بينهم يهودى من عيون ابن عبد العزيز استطاع أن ينال ثقة ابن عمار فما أن سمع القصيدة حتى أبدى إعجابه الضخم بها ثم طلب خمراً ليستمع إليها مرة أخرى وهو مخمور فتزداد نشوته وجاءت الخمر فأخذ اليهودى يشرب حسواً فى إقلال ورزانة بينما يعطى ابن عمار الكؤوس دهاقا مليئة حتى دار رأس ابن عمار فسرق اليهودى القصيدة منه مكتوبة بخط يمينه وأرسل رسولا إلى ابن عبد العزيز فى مرسية وما لبث هذا أن أرسلها إلى المعتمد فى أشبيلية وقرأ المعتمد . . . ولأول مرة بعد خمسة وعشرين عاماً من صداقته لابن عمار قصيدة يهجوه فيها ابن عمار . . . بل إنه لم يهجه وحده وإنما زاد فهجا « اعتماد » وسخر من حب المعتمد لها وزاد فذكر بنياته وأهل بيته بشر .

سفر العداء إذن وصرح الشر وتقطعت السبل بين الصديقين فما لاصلاح من سبيل وملأ الغيظ قلب المعتمد فأخذ يدبر للانتقام .

ولها ابن عمار عما يدبر له والتفت إلى ما يحيط به من مجد وقد استقر لديه أن الأمور قد أسلست قيادها له .

نسى ابن عمار أن الذى فتح له مرسية يستطيع أن يثيرها عليه . . . نسى ابن رشيق صاحب حصن بلج الذى عاونه ...

نسيه وهو فى أوج مجده وفى غمرة ملكه فما التفت إليه وما أناله مما كان يطمع شيئاً . . . و يل المديح أنه يعمى أشد الناس ذكاء عن أبسط الأمور وأقربها إلى الذهن . . . لقد استطاع أن يعمى حتى ابن عمار فما عاد يلتفت إلى تلك الأشياء الدقيقة التى ما كانت لتفوت عليه قبل أن يصل إلى الملك .

لقد وجد ابن رشيق ألا غناء عند ابن عمار وعرف بقصيدة المعتمد ثم بقصيدة ابن عمار فعرف أن المعتمد يريد الانتقام فشد إليه الرحال وعرض بين يدى الصديق الذى يريد أن ينتقم لصداقته ، والزوج الذى يريد أن ينتقم لزوجه ، والأب الذى يريد أن ينتقم لولده ، وصاحب الفضل الضائع الذى يريد أن ينتقم لفضله . . . عرض بين يدى المعتمد وسيلة الانتقام .

كان ابن عمار ما يزال فى بلهنيته ليس يدرى بأمر أعدائه الذى ألبهم هو على نفسه . . خيل إليه أن ابن عبد العزيز وابن طاهر لن يمدا إليه يدا بشر وخيل إليه أن ابن رشيق لن يهم به فهو صديقه وحسب ابن رشيق فخاراً أن يكون صديقاً لابن عمار .

خيل إليه هذا كله فانصرف إلى مادحيه ، وبينما ابن عمار فى هالة من صحابته إذ سمع أصوات ضجيج وصخب وصراخ

تتقارب نحو قصره فقام إلى الشرفة فوجد جموعاً حاشدة تدنو وما هى إلا لحظات حتى استبان صراخهم . . . لقد كانت الثورة به. . . لقد جاء الجنود يطالبون بمرتباتهم ويهددون بالويل العظيم إن هم لم ينالوا ما يريدون . . . أدرك ابن عمار حينئذ أنه وقع فريسة خيلائه ويهم أن يلوذ بسهم أخير فيخطب الجموع أنه سيسأل المعتمد أن يرسل إليه المال فيعطيهم رواتبهم ولكن قبل أن يفعل هتف به نائب الجنود من أسفل الشرفة :

ـ هيه ابن عمار أحسبت أن تقطع عنا رواتبنا ونسكت عنك . . . هيهات . . . لقد أقسمنا فيما بيننا قسماً غليظاً إن لم تسلمنا حقنا سلمناك للمعتمد من فورنا... إلى المعتمد يا ابن عمار أتعلم من هو المعتمد اليوم .

كان القول حاسماً . . . نعم إن ابن عمار يعلم من هو المعتمد اليوم إنه النقمة التى كانت خيراً . . . وأنه الذل الذى كان مجداً . . . وأنه النار التى كانت ندى ورحمة وبراً . . . عجز ابن عمار الذى احتال على الملوك والوزراء والكابرين . . . عجز عن أن يحتال على ثلة ليست من الملوك ولا الوزراء ولا الكابرين وإنما هم أصحاب حق يطالبونه به . . . مهما تكن الأيدى التى حركتهم قد ابتعثها الحقد والانتقام والبغض الشديد إلا أن هذا لا يغير من موقفهم شيئاً . . . إنهم أصحاب حق

يطالبونه به .

لم يبق أمام ابن عمار إلا أن يفلت بحياته فهو يتكلم لا ليدافع ولا ليطلب من القوم الريث فقد رأى منهم عزماً وإصراراً . . . إنه يتكلم فلا يقول شيئاً إلا

ـ أيها الجند . . . إن هى إلا بعض الساعة حتى تكون رواتبكم بين أيديكم . . . ويدخل ابن عمار إلى القصر لا ليؤدى الرواتب فما كان بخزائنه شيء فلقد اشترى المديح الذى تهدى إليه بكل المال الذى كان لديه . . . يدخل ليجمع ما يطيق أن يحمل . . . ومن باب سرى يخرج ابن عمار من القصر فلا يراه الجنود ويظل مستخفياً حتى يخرج من مرسية جميعها إلى . . . إلى الطريق

سلام إذن يا قصر الملك ، وسلام أيتها الأحلام التى ما تحققت حتى انهارت ، وسلام أيها المديح الذى ما قيل حتى هوى بالممدوح . . . سلام على كل هذا وإلى . . . إلى الطريق .

١٣

« إلى أين ... ؟؟ »

حار ابن عمار . . . أين يولى وجهه وضاقت به السبل وطال الطريق عليه مرة أخرى فذكر حماره وذكر أيامه الأول وما تبعها وذكر صداقته للمعتمد ثم خيانته له وذكر . . . وذكر . . . ثم أخذ يورد بذهنه كل الأصدقاء الذى أتيح له أن يعرفهم عساه أن يختار من بينهم من يلجأ إليه . . . فكر فى ملوك الأندلس المسلمين الذين يعرفهم أجمعين ولكنه خشى أن ينصرفوا عنه بل إنه عزف عن الالتجاء إليهم فقد كان فى قصر أعظمهم شأناً وأعزهم سلطاناً فعرف أنه لن يرضى بالأدنى بعد أن ترك مجد المعتمد وقصوره . . . وانتقل ذهنه على غير إرادة منه إلى ملوك الفرنجة فى الأندلس . . . وفكر فى ريمون صديقه ولكنه لابد قد اكتشف زيف الذهب الذى أرسل إليه فدية . . . ثم فكر فى الأذفونش .

أجل الأذفونش ولم لا . . . لقد ترك أعظم ملوك الأندلس العربية فما له لا يذهب إلى أعظم ملوك الأندلس الإفرنجية . . . .

تذكر الشطرنج ولكنه تذكر أيضاً أنه أهداه للأذفونش وتذكر أن الرجل يقدره فيطلق عليه « رجل الجزيرة » وأن قصة الشطرنج فى ذاتها لدليل على ذكاء ابن عمار وإن يكن الأذفونش هو ضحيته فيها إلا أنه سيقدر الذكاء — لا شك — لأنه رجل ذكى وسيقدر الولاء الذى عمل به ابن عمار من أجل المعتمد وسوف ينتظر نفس هذا الولاء من ابن عمار له إذا عمل به من أجله . . . وإن يكن ثمة غضب ما زال فى نفس الأذفونش فلا شك أنه سيكون غضباً هيناً غشت عليه السنون يستطيع ابن عمار ببعض كياسته أن يزيله.

واتجه ابن عمار إلى « ليون » عاصمة الأذفونش وألقى رجاءه ببابه ولكن ويح الأيام . . . هيه ابن عمار لقد بدأت هبوطك إلى الهاوية فلات حين صعود . . . لقد رفض الأذفونش إيواء ابن عمار وكان قد علم بكل ما حدث فى بلنسية فبده ابن عمار بقوله :

— أنت سارق يا ابن عمار . . . سرقت الملك من ابن طاهر على يد ابن رشيق فليس ظلماً أن يسرق منك الملك بنفس اليد التى سرقته لك .

وخرج ابن عمار من ليون ولم يبق له إلا أن يرتمى بأبواب الملوك العرب مرة أخرى ولكنه فى هذه المرة لا يعرض شعراً يقوله

خامل ذكر لا يعرفه أحد وإنما هو يعرض ابن عمار بتاريخه كله الذى لا يجهله أحد . . . يعرض ابن عمار الوزير الداهية والسياسى البارع والقائد الصنديد .

يذهب ابن عمار إلى « سرقسطة » وهى مملكة أندلسية عربية يقوم عليها أحد ملوك الطوائف يطلق على نفسه اسم الملك « المقتدر » وكانت هذه المملكة هينة الشأن صغيرة الرقعة ففرح صاحبها أن يكون بين رجاله وزير المعتمد الأول ومن كان صديقه الأثير . . . يأوى المقتدر ابن عمار ويوليه بعض شؤون الدولة ولكن هذه المملكة الصغيرة التى تتضاءل لا أمام إشبيلية فحسب بل إنها لتتضاءل أمام مرسية مملكته . . هذه البلدة . . . سرقسطة لا تتسع له فهو لا يطيق العيش فيها فيزعم ابن عمار للمقتدر أنه لم يعد يطيق العيش فى زحمة من الناس وأنه يود لوأ تيح له أن يذهب إلى مملكة بعيدة منقطعة عن الناس الذين كرههم جهده والذين يريد أن يباعدهم جهده فيسأله المقتدر عن المكان الذى يريد فيجيبه ابن عمار أنه يتوق أن يذهب إلى « لاردة » التى يحكمها « المظفر » أخو « المقتدر » ويقبل المقتدر آسفاً ويذهب ابن عمار إلى « لاردة » فيستقبله « المظفر » أحسن استقبال وينزله بأكرم مكان. ويفرح ابن عمار بما لقى وتعود إليه بعض ثقته بنفسه ولكنه ما يلبث

أن يضيق بهذه العزلة التى فرضها على نفسه فيرجو المظفر أن يسمح له بالعودة إلى سرقسطة ويزعم له أنه اشتاق أن يرى أخاه «المقتدر» ويصدق المظفر قوله كما كان المعتمد يصدق قوله ويأذن له بالذهاب ولكن ابن عمار يبلغه وهو فى الطريق إلى سرقسطة أن المقتدر قد مات وأن ابنه « المؤتمن » قد قام على الملك من بعده فيواصل طريقه كأن لم يسمع شيئاً إنه يريد أن يذهب إلى سرقسطة لا يهمه إن كان عليها المقتدر أو المؤتمن أو من يكون .

ويصل ابن عمار إلى سرقسطة وينزله المؤتمن منزلة كريمة ويستشيره فى أمور مملكته فيصرفها ابن عمار وكأنها شئون ضيعة صغيرة لا مملكة ذات ملك ووزير ويضيق ابن عمار بتضاؤل أعماله فما هى مهما عظمت فى سرقسطة بشىء يذكر إلى جانب أعماله فى إشبيلية أو مرسية أو حتى شلب .

وتلوح لابن عمار فرصة يعمل فيها فيهتبلها . . . فقد جاء إلى المؤتمن من يخبره أن أحد أصحاب القلاع التابعين لسرقسطة قد خرج عن طاعة المؤتمن فيعرض ابن عمار على المؤتمن أن يذهب هو لإخضاع هذا الخارج فيقبل المؤتمن فرحاً ويسأل ابن عمار :

ــ كم جندياً تريد ؟

ــ اثنين .

ـــ أسألك كم جنديًّا تريد لتحارب القلعة .

ـــ أريد اثنين ـــ جنديين .

ـــ ولكنك تمزح لا شك .

ـــ بل أجد

ولكن المؤتمن لا يصدق هذا القول ويأبى إلا أن يرسل جنداً كثيفاً فيصر ابن عمار على أن يكون جيشه مكوناً من اثنين حتى إذا طال النقاش وقفا عند أوسط الأمر فقبل ابن عمار أن يصحب كوكبة صغيرة من الفرسان .

ويصل ابن عمار إلى مكان قريب من القلعة فيأمر الكوكبة أن تختفى وراء الجبال ويصطحب هو جنديين يقصد بهما إلى القلعة ثم ينادى ابن عمار على صاحبها المتمرد فيجيبه فيقول ابن عمار :

ـــ هلا نزلت إلى أحدثك حديثاً قصيراً .

وينظر صاحب القلعة فلا يجد إلا ثلاثة أشخاص فلا يرهب منهم شيئاً وينزل إلى ابن عمار فيستقبله خارج القلعة ويأخذه بيده ليعود به إليها فإذا بالجنديين يطعنان الرجل طعناً متلاحقاً دراكاً فيسقط فى مكانه وقد فارق الحياة ويرى جنود القلعة ما حدث لقائدهم فتملك الخشية نفوسهم ويستسلمون ويعود ابن عمار وقد نجحت حيلته ويستقبله المؤتمن والفرح

يغمره فيذكر ابن عمار كيف كان يستقبله المعتمد حين كان يعود إليه بعد أن يوقع أعداءه فى الأشراك فتدمع عيناه ولكن لات حين . . .

وثق المؤتمن فى ابن عمار بعد حيلته تلك وكان المؤتمن يفكر أن يحقق أمنية أبيه فيستولى على قلعة « شقورة » وهى قلعة حصينة لا تتبع لسرقسطة وإن كانت قريبة منها فطلب إلى ابن عمار أن يستولى عليها بنفس الطريقة التى استولى بها على القلعة المتمردة ولم يكن ابن عمار يدرى أن أهل هذه القلعة قوم أذاقهم هو مر العذاب فى مرسية . . . ولم يكن يدرى أن الطريق إليها وعر لا يستوى ولا يعتدل ولكنه كان يدرى أنه يريد أن يعمل وكان يدرى أنه لا يطيق الخمول . . .

تزعم ابن عمار بضعة من الفرسان وكما فعل فى المرة الأولى فعل فى هذه المرة فأمر الجنود بالاختفاء واصطحب اثنين وعمد إلى القلعة لا يريم ونادى ابن عمار فلم يجبه أحد فاقترب ونادى فلم يجبه أحد حتى أصبح ملتصقاً بجدران القلعة فإذا حبل قد أحاط بوسطه وإذا هو معلق فى الهواء صاعد إلى أعلى لا يدرى من يجتذبه حتى بلغ نافذة للقلعة فأدخل منها وألقى إلى الأرض ثم عاجله القوم بالقيود فأحاطوا بها معاصمه وأقدامه . . .

وقع ابن عمار أسيراً فى يد أعدائه وحاول من معه أن

ينقذوه فحين رأوا مناعة القلعة أصبح كل همهم أن ينقلبوا إلى ذويهم سالمين فانقلبوا .

ماذا يفعل صاحب القلعة بابن عمار . . . إنه يدخل عليه فيجبهه .

ـــ ألم تر إلى نهايتك يا رجل الجزيرة . . . ماذا تريدنى أن أفعل بك . . لست من أهل السراء حتى أصطنعك لتقول فى شعر المديح . .. ولست ذا ملك حتى أجعلك وزيراً . . . نعم إنك وزير حصيف لا شك أنك بضاعة رائجة يا ابن عمار . سأعرضك فى سوق الملوك فمن يغلى الثمن كنت له .

فيجيبه ابن عمار والغضب آخذ منه كل مأخذ :

ـــ ألا والله ما نلتنى إلا بالختل القذر ولا والله ما كنت لأمدح مثلك وإن كنت أكبر الملوك .

أتتحدث عن الختل يا ابن عمار . . . ياللك من جرىء وقح . . . على أننى لن أقتلك كما فعلت أنت بصاحب القلعة . . . بل أنا سأبيعك يا أخى إلى الملوك . . . لتعود وزيراً كما كنت . . . ألا تشكرنى إذن ..

وخرج الرجل وترك ابن عمار .

لم تكن إجابة ابن عمار الجريئة عن شجاعة خالصة بل إنه أدرك أن الرجل يجد فيه بضاعة رائجة فأدرك أنه لن يمسه

بسوء حتى يتمكن من بيعه بثمن كبير .

بقي ابن عمار في سجنه وانسابت إلى ذهنه الذكريات وتطلع إلى القابل من الأيام فوجد نفسه يعود إلى أسوأ مما كان في شلب يوم عاد إليها على الحمار فهو اليوم يباع كعبد رقيق وهو لم يكن عبداً في يوم من الأيام . . . نعم كان عبداً للتملق والخداع . . . كان عبداً لرغباته ومطامحه . . . كان عبداً للمديح الذى أحاط به ولكنه لم يكن عبداً في سوق الرقيق فهو يقول دون أن يفارقه كبره :

أصبحت في السوق ينادى على
رأسى بأنواع من المال
والله ما جار على ماله
من ضمني بالثمن الغالى

ثم ينظر حوله فيجد حجرته في قلعة شقورة تلك صغيرة ويجد القيد في يديه وقدميه فتدمع عينه وينتظم البيتان في ذهنه :

بؤسى شقورة عندى أربى على كل بوسى [١]
فقدت هارون فيها وظلت أطلب موسى [٢]

---

(١) البوسى : كنعمى وهى البؤس .

(٢) يعنى أنه فقد النصير إشارة إلى قوله تعالى (واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى) وهو يطلب موسى أى الذى يتشفع له .

١٤

« سحيق الهاوية »

ابن عمار فى السوق سلعة لمن يغلى الثمن والمعتمد ممن عرض عليهم الشراء فمن يشترى ويغلى ثم يغلى إذا لم يكن المعتمد . . .

إنه يشترى صداقة خمسة وعشرين عاماً . . . إنه يشترى شبابه جميعاً . . . شباب أمير شاعر ملك . . إنه يشترى نفسه فى أمتع فترات نفسه . . . وماذا للشاعر الشيخ غير شبابه وشعر شبابه . . . إن كل لحظة من شبابه لم يدر بها الفلك إلا وابن عمار قطب فيها . . . لماذا لا يغلى المعتمد . . . إنه يشترى فى ابن عمار مرآة أنضر ملاوة[1] من حياته .

ثم يشترى من بعد أبغض فترة فى حياته . . . يشترى الصداقة الخائنة . . . يشترى العهد المضاع . . . يشترى الأخوة الخادعة ... يشترى من هدم الصروح الشوامخ من ثقته وحبه ووفائه . . . يشترى ذلك الذى سود الدنيا فى عينيه فبعد أن كانت إشراقة حب وضياء ووفاء أصبحت ظلام خيانة ، وليل خداع .

---

(١) الملاوة القطعة من الزمن .

اشتراه المعتمد إذن وأرسل بابنه الراضى ليأتى به وأوصى ابنه أن يحذر من خداعه وأن يكثر عليه الأحراس . . .

وأخذ الراضى صديق أبيه وسار الركب حتى بدت طوالع قرطبة فتذكر ابن عمار وما كان بحاجة إلى قرطبة ليتذكر فهو لا ينسى ابدا . . . لا ينسى كيف فتح قرطبة هذه فى أول عهد المعتمد . . . ولا ينسى كيف كان يدخل قرطبة بعد ذاك تحف به المواكب الضخام وترنو إليه العيون والسعيد السعيد من يلمس حوافر خيله والسعيد الأسعد من يلم بطرف ردائه ، لا ينسى ابن عمار . . . لا ينسى . .

وبلغت طوالع موكب الأسير ظاهر قرطبة فإذا هناك حشد كبير . . . لم يجتمع لتحية ابن عمار . . . ولم يجتمع لإكرامه . . . وإنما جاء يشهد القمة تنحط إلى الهاوية ، والمجد ينحدر إلى الحضيض .

والناس للدنيـــا تبع ولمن تحالفه شيـــع

ونزل ابن عمار من على الحصان الذى كان يمتطيه ومشى إلى حيث يمشون به . . . يا لسخرية الأقدار . . . إنه سيركب حماراً . . . حماراً مرة أخرى . . . نظر ابن عمار إلى الحمار فلم يتمالك نفسه من الضحك رغم هذا الضنك الذى يحيط به . . . حمار . . . أبعد كل هذا السفر الطويل فى مدارج المجد وعليا

المراتب يعود إلى الحمار . . . ويح الأقدار . . . بل إن الحمار ليشبه ذلك الذى سرق أو انسل فى إشبيلية عند قصر المعتضد .. أنه ليكاد أن يكون هو نفسه يحمل خرجاً كذلك الذى كان يحمله حماره بل إنه ليكاد أن يكون نفس الخرج وإن كانت جنباته قد ملئت اليوم تبناً بدلا من تلك الكسرات التى كانت فيها . . . عود على بدئه يرجع ، بل إلى شر من بدئه لا بأس إذن فمن على ظهر الحمار صعد إلى القمة فعلى ظهر الحمار ينحدر إلى الهاوية .

لقد كان المعتمد هو الذى مهد سلم المجد لابن عمار فصعد وهو هو نفسه من يمهد له الطريق إلى الهاوية . . . هو الذى أوصله وها هو ذا يعيده . . . وعلى الحمار يعود .

ركب ابن عمار الحمار وهم بمسير ولكنه رأى عن بعد رجلا يركب حصاناً يعدو إليه ناهباً الطريق نهباً . . . فسارع ابن عمار ومد يده إلى عمامته ورفعها عن رأسه وألقى بها إلى الأرض وكان راكب الحصان قد وصل فوقف حائراً لا يدرى ماذا يفعل . . . فسأل ابن عمار واحد ممن يحيطون به ماذا فعلت حتى جعلت الرجل يقف باهتاً فقال ابن عمار :

ــ لقد كان هذا الراكب قادماً من عند المعتمد ليرفع عمامتى من على رأس ويلقى بها إلى الأرض إمعانا فى تحقيرى

والنيل منى فسبقته إلى ما يريد أن يفعله فبهت كما ترى .

ونظر السائل إلى راكب الحصان فإذا هو يؤيد ابن عمار فيما قال معجباً من ذكاء الوزير ودهائه وهكذ لم تتخلل الومضة النافذة عن ابن عمار حتى وهو فى أحلك أوقات حياته .

سار موكب الخزى يطوف بأنحاء قرطبة . فلم يبق من أحد فيها إلا وقد رأى ابن عمار على مطيته الجديدة القديمة إلا المعتمد الذى كان فى قرطبة وأبى أن يرى ابن عمار . . .

نعم ابن عمار الذى كان كل ما يخشاه أن يبعد عنه لحظة من زمن . . . هو نفسه من يأبى رؤيته اليوم . . . بل يأمر المعتمد أن يسير الركب إلى إشبيلية فيدخلها ابن عمار كما دخل قرطبة ثم يلقى به فى السجن . . . فكان ما أمر به المعتمد واستقر ابن عمار فى السجن .

ومن هناك أخذ ابن عمار يستشفع بكل ذى أكرومة أن يطلب الصفح من المعتمد ، والمعتمد يزجر كل محاول فتتكسر على أبوابه الشفاعات حتى إذا ضاق بكثرتها نادى ابن عمار وذكره . . . ذكره المعتمد بملابسه القذرة التى دخل بها القصر . . . وذكره بليلته الأولى بين شعراء القصر . . . ذكره بنفسه وزيراً فى شلب . . . ثم أميراً لشلب ثم قائداً للجيش . . . ثم ملكاً أو شبه ملك لمرسية . . . ذكره فما ألفاه ناسياً . . .

ثم ذكره بخروجه عليه فى مرسية . . . وذكره بقصيدته التى هجاه فيها . . . ذكره فلم يلفه ناسياً . . . فهب المعتمد فى وجهه .

ــ فماذا تريد إذن . . . لقد أفقدتنى شبابى وهيهات أن يعود . . . ألا لعن الله يوما عرفتك فيه إذن لأبقيت لنفسى ذكرياتى نقية منك .

وعاد ابن عمار إلى السجن وأخذ يكتب إلى أصحابه أن يعاودوا الشفاعة وهو يكتب إلى أصدقاءه ينظم أنته شعراً عساها أن تريح بعضاً مما يجد فيقول لأحدهم :

أدرك أخاك ولو بقافية   كالظل يوقظ نائم الزهر
فلقد تقاذفت الركاب به   فى غير موماة ولا بحر
طاحت صحابته بلا سنة   وتساقطوا سكراً بلا خمر
بمعارج أدت إلى جرد   حتى من الأنواء والقطر
عال كأن الجن إذ مردت   جعلته مرقاة إلى النسر
وحش تناكدت الوجوه له   حتى استربت بصفحة البدر
قصر تمهد بين خافيتى   نسرين من فلك ومن وكر
متحير سال الوقار على   عطفيه من كبر ومن كبر
ملكت عنان الريح راحته   فجيادها من تحتها تجرى
مأوى العزيز وقد نصحت فإن   يهمل فقد أبليت فى العذر

واصلت خدمة قاطع سببي   وأطعت أمر مضيع أمـــرى
دع ذا وصلنا غير مؤتمـــر   مستأثر بالحمد والشـــكر

وهكذا يبلغ البؤس بابن عمار حتى إنه ليبحث عمن يحادثه أى حديث ولو كان هذا الحديث مكتوباً .

ويلح ابن عمار فى رجائه ويرسل به إلى شتى الناس فيضيق المعتمد بكثرة الشفعاء فيه فيأمر أن تمنع عنه الأوراق فتمنع . . . ثم يزيد المعتمد قسوة عليه فيخرجه فى الحفلات التى كانت تقام فى القصر ويجعل منه سخرية للجوارى والخدم فيبصقون فى وجهه ويفتنون فى إهانته وابن عمار صامت ذاهل لا يدرى أفى حلم بشع هو ، أم فى حقيقة ملموسة . . . هذه الطنافس ، هذه المقاعد ، تلك البسط ، هاته الثريات ، هذه الأقداح ، هؤلاء السقاة أولئكن النسوة ، إنه يعرف جميع هذا . . . ويعرف أنه كان ريحانة هذا المكان . . . أهكذا يفعل الدهر بأعدائه .. ويل لأعداء الدهر . . ويعود ابن عمار إلى سجنه شر ما يعود عائد إلى السجن .

وفى يوم يطلب ابن عمار ورقاً ويلح فى الرجاء ويسأل الخدم المعتمد فيأذن فى ، رقتين لا تزيدان ورقة ويأخذهما ابن عمار ثم ينشىء قصيدته الخالدة :

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح   وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح

وإن كان بين الخطتين مزية فأنت إلى الأدنى من الله أجنح
حنانيك فى أخذى برأيك لا تطع عداتى و إن أثنوا على وأفصحوا(١)
وماذا عسى الأعداء أن يتزايدوا سوى أن ذنبي واضح متصحح
نعم لى ذنب ! ! غير أن لحلمه صفاة يزل الذنب عنها فيصفح
وإن رجائى أن عندك غير ما يخوض عدوى اليوم فيه و يمرح
ولم لا وقد أسلفت ودًّا وخدمة يكران فى ليل الخطايا فيصبح
وهبنى قد أعقبت أعمال مفسد أما تفسد الأعمال ثمت تصلح
أقلنى بما بينى وبينك من رضا له نحو روح الله باب مفتح
وعف على آثار جرم جنيته بهبة رحمى منك تمحو وتصفح
ولا تلتفت رأى الوشاه وقولهم فكل إناء بالذى فيه يرشح
وما ذاك إلا ما علمت فإننى إذا ثبت لا أنفك آسو وأجرح
وقالوا سيجزيه فلان بفعلـــه فقلت وقد يعفو فلان ويصفح
إلا أن بطشاً للمؤيد يتـــقى ولكن حلماً للمؤيد أرجح
وبين ضلوعى من هواه تميمة ستنفع لو أن الحمام مجلح(٢)
سلام عليه كيف دار به الهوى إلى فيدنوا وعــلى فينزح
ويهنيه إن مت السلوّ فإننى أموت ولى شوق إليـــه مبرح

---

(١) يقصد و إن تظاهروا بمدحى ثم أوغلوا فى ذمى.

(٢) مجلح : أى منحسر أو متق .

ويرسل ابن عمار بخالدته إلى المعتمد فيقرأها فيطرب ثم ينشدها على الجالسين مترنماً وقد هملت عبراته وكان بين السامعين أبو الوليد بن زيدون فحاول جهده أن يجد لنفسه مأخذاً إلى القصيدة فتأبت عليه ولكنه استطاع آخر الأمر أن يقول :

ـ ما أتفه قول الخائن :

وبين ضلوعى من هواه تميمة ستنفع لو أن الحمام يجلح

وما يهمنا نحن بما بين ضلوعه ولماذا لم يرع لهذه التميمة حرمة ولكن المعتمد عاجله :

ـ بل إنه والله لم يفقد الذكاء وحسن الإشارة . . . إنه ابن عمار وإن خان ، لقد قصد إلى بيت الهذلى :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

وهكذا استعصت القصيدة حتى عن ذم الكارهين . . . وحركت فى نفس المعتمد ذكريات قديمة وكان قد تهيأ لجلسة خمر فأرسل إلى ابن عمار أن يأتى وطلب ممن أرسله ألا يراه أحد وهو قادم بابن عمار . . . وأخلى المعتمد القاعة وانفض القوم وهم لا يعلمون بما أسره للخادم ويجيء الصديق الشاعر ويجلس إلى المعتمد ويتذاكران ويتناشدان حتى لتكاد النفوس أن تصفو ويشرق الصباح فيقول المعتمد لابن عمار :

– إياك . . . إياك ابن عمار أن تقول لأحد عن جلستنا تلك . . . إياك ابن عمار وإلا . . .

ولا يكمل فقد كان ابن عمار يعرف تماماً ما بعدها وينصرف المعتمد إلى جناح نومه ويعاد ابن عمار إلى السجن والفرحة تكاد تنفجر من فؤاه فلا يملك نفسه أن يمسك الورقة الثانية الباقية لديه ويكتب إلى الراضى ابن المعتمد يخبره أن أباه قد صفح .

وتصل الورقة إلى الراضى وهو جالس بين صحاب فيهم من يبغض ابن عمار ويحقد عليه ولا يكتم الراضى ما جاء به الخطاب بل هو يذيعه .

ويصحو المعتمد فإذا سر الأمس هو حديث اليوم فيذهب إلى ابن عمار فى سجنه :

– أ أذعت ما حذرتك أن تذيع .

– بل لا و . . .

– وحق

– . . . وحقك

– إذن فأين الورقة الثانية

– أى ورقة

– لقد أرسلت إليك ورقتين كتبت فى إحداهما القصيدة فأين الثانية .

ـ لقد . . . لقد . . . لقد سودت بها القصيدة .

ـ فهات التسويدة .

وتنغلق الطرق على ابن عمار . . . فيبلغ الغيظ أقصاه بالمعتمد فيمسك بقطعة من حديد ذات مقبض كان قد أعدها ويهوى بها على رأس ابن عمار ثم ما يزال يضرب ويضرب حتى يموت ابن عمار بيد المعتمد . . . بيد صداقة خمسة وعشرين عاماً بيد المجد الذى اقتعده . . بيد القمة التى ساورها . . .

مجموعة قصص الأنبياء

مجموعة جديدة فى أسلوب سهل ممتع ، وإخراج أنيق جميل ، للصغار والكبار ، تصف حياة الأنبياء ، وجليل أعمالهم ، وتسرد ما صادفهم من حوادث مع أقوامهم ، خالية من الشوائب والإسرائيليات حتى تظل العقيدة سليمة نقية تمكن الإنسان من التقرب إلى الله تعالى وحده ، والاعتصام بدينه وتعاليمه ، والتحلى بالفضائل الحسنة ، والتمسك بالأخلاق الكريمة .

برنامج المجموعة

١ — آدم	١١ — موسى والسحرة
٢ — نوح	١٢ — موسى وبنو إسرائيل
٣ — هود	١٣ — داوود
٤ — صالح	١٤ — سليمان وملك الجزائر
٥ — إبراهيم الخليل	١٥ — سليمان وبلقيس
٦ — إسماعيل الذبيح	١٦ — يونس
٧ — يوسف الصديق	١٧ — أيوب .
٨ — يوسف العفيف	١٨ — ابنة عمران
٩ — يوسف على خزائن مصر	١٩ — عيسى المسيح
١٠ — موسى الرضيع	٢٠ — الحواريون

ثمن النسخة ٣ قروش

دار المعارف

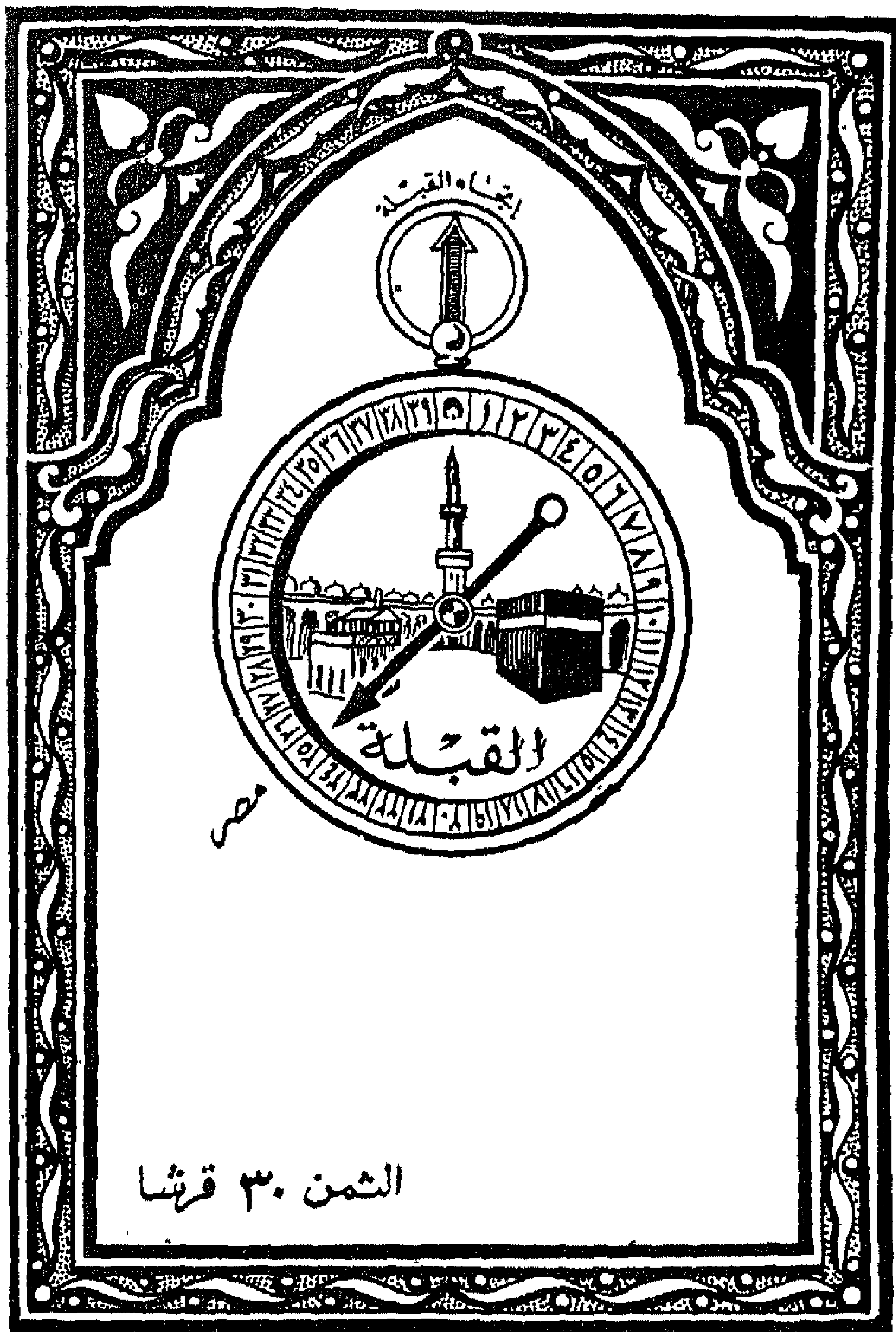
مجموعة سيرة الرسول

تضمنت هذه المجموعة حياة الرسول الكريم ، وجمعت فيها الحقائق التى يجب أن يعرفها كل مسلم حتى يكون على علم بأهم التطورات المختلفة التى لابست حياة النبي العظيم ويتبين ما كان له من أثر فى العالم كله : قديمه وحديثه . وفى كل حادثة وردت مواضع للعظة والاعتبار ، ودلائل على أن حياة محمد كانت حياة مثالية كريمة على الله والناس وتصور لنا البذل والتضحية فى أسمى الصور وأرقى المعانى .

برنامج المجموعة

١ — المولد
٢ — النشأة
٣ — الوحى
٤ — فجر الدعوة
٥ — مشرق الدعوة
٦ — سحاب وضباب
٧ — نور وضياء
٨ — مع القبائل
٩ — الهجرة
١٠ — غزوة بدر
١١ — غزوة أحد
١٢ — غزوة الأحزاب
١٣ — فتح مكة
١٤ — الوفاة

ثمن النسخة ٣ قروش


اتجاه القبلة
القبلة
مصر
الثمن ٣٠ قرشا

اقرأ

الدكتور ابراهيم احمد العدوى

ابن بطوطة
في العالم الإسلامي

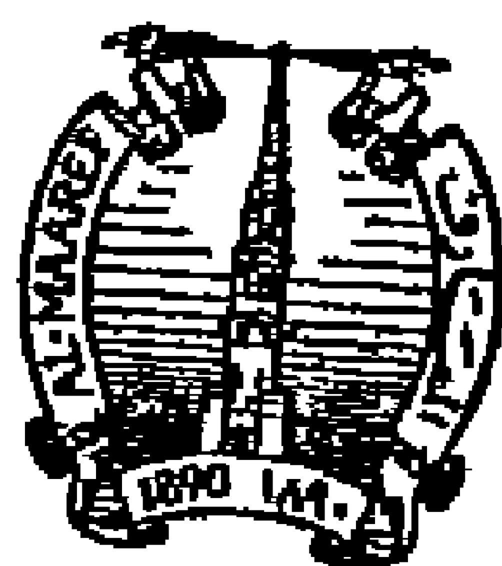
دار المعارف بمصر

الدكتور ابراهيم أحمد العدوى

ابن بطّوطة
فى العالم الإسلامى

اقرأ ١٤٤
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٤٤ — ديسمبر سنة ١٩٥٤



١

جواب الآفاق

في مدينة فاس ، ببلاد المغرب الأقصى ، ألقى شيخ في الخمسين من عمره ، عصا التسيار عام ٧٥٤ هـ(١٣٥٣م) عائداً من بلاد الشرق الأقصى . وأخذ يقص من أخبار هذه البلاد النائية ما أثار دهشة السامعين من معاصريه وضجتهم حول تصديقها أو تكذيبها . فأخذ الناس يتجادلون فيما بينهم عما رواه الشيخ العجوز من مشاهدات ، لا فرق في ذلك بين متعلم وجاهل فذكر ابن خلدون وهو من معاصريه : « ورد على المغرب لعهد السلطان أبي عنان . . . رجل يعرف بابن بطوطة ، كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق ، وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ، ودخل دهلي حاضرة ملك الهند . . . وكان يحدث عن شأن رحلته ، وما رأى من العجائب بممالك الأرض . . . فتناجى الناس في الدولة بتكذيبه. ولقيت أنا يومئذ في بعض الأيام وزير السلطان . . . ففاوضته في هذا الشأن ، وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض الناس في تكذيبه .

« فقال الوزير . . . إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول ، بما أنك لم تره ، فتكون كابن الوزير الناشئ فى السجن . وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ، فمكث فى السجن سنين ربى فيها ابنه فى ذلك المحبس . فلما أدرك وعقل ، سأل عن اللحمان التى كان يتغذى بها ، فإذا قال له أبوه هذا لحم الغنم ، يقول وما الغنم ؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها ، فيقول : يا أبت تراها مثل الفأر ؟ فينكر عليه ويقول ، أين الغنم من الفأر ؟ ! وكذا فى لحم البقر والإبل ، إذ لم يعاين فى محبسه إلا الفأر ، فيحسبها كلها أبناء جنس للفأر . »

لكن سلطان فاس نفسه كان ممن أعجب بأحاديث ذلك الشيخ ، وأمر أحد كتابه أن يدون ما يمليه ذلك الرحالة المحنك : « وما شاهده فى رحلته من الأمصار ، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ، وذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار.. ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ويعظم الانتفاع بدرها . »

ولم يكن هذا الشيخ الذى عرف بابن بطوطة نكرة رفعته المقادير إلى مصاف الرحالة والرواد الكبار ، وإنما هو سليل محتد أصيل ، وعنصر كريم ، تحلى بصفات هيأت له السمو والرفعة ، وترك أثراً خالداً لا يبلى ، إذ ولد هذا الرحالة من أبوين كريمين فى مدينة طنجة سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٤ م) ،

وشب بين أحضان أسرة عريقة فى الاشتغال بالعلوم الشرعية الإسلامية ، وتولى مناصب القضاء بين الناس . فتربى محمد ابن بطوطة وترعرع فى مهد دينى ، وسار على نهج أسرته ، حيث درس العلوم الدينية وتفقه فيها ، كما تعلم الأدب وفنون الشعر . وقد صقلته هذه التربية ، وجعلت منه رجلا تقياً ورعاً محباً للعلماء والأولياء ، وخير مثال لما تمتع به أبناء الأسر الدينية العليا فى المجتمع الإسلامى من طموح ومقدرة على تحمل المشاق والارتحال فى طلب العلم والعرفان .

تفتحت مواهب محمد بن بطوطة حين شب عن طوق الفتيان ، وغدا شاباً رشيداً فى الثانية والعشرين من عمره . إذ آثر مغادرة بلاده ، والذهاب إلى بيت الله الحرام ، لأداء الفريضة ومشاهدة قبر الرسول الكريم . وجاء هذا العزم على الحج حدثاً هاماً فى حياة ابن بطوطة ، دفعه إلى أن ينفض عنه ثياب الدعة والاستقرار ، ويرتدى ثوب الارتحال والتجوال ، مخلداً اسمه فى ميدان الرحلات التى قام بها قبله كثير من المسلمين ، إذ دأب نفر من المسلمين منذ القرن الثالث الهجرى على ارتياد بلاد الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف ، من حدود الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، ومن آسية الوسطى وجبال القوقاز شمالا إلى صحارى إفريقيا جنوباً .

وبدأت رحلات أولئك المسلمين الأول متخذة صبغة رسمية ، قام بها مبعوثون وسفراء من قبل السلطات المركزية الإسلامية ببغداد ، لوصف الطرق والممالك التى تربط العاصمة بالبلاد التابعة لها ، ولدراسة الأحوال التى تعين أولى الأمر على إدارة هذه الإمبراطورية ، وتطبيق أحكام الشريعة فيها . على أن هذه الرحلات لم تلبث أن احتضنت طائفة الحجاج المسلمين إلى بلاد الحجاز بصفة خاصة .

فكان الحج من أغنى الينابيع التى زودت المسلمين بالمعلومات ، إذ صاحب عودة الحجاج إلى بلادهم سرد كثير من القصص والأخبار التى سمعوها فى طريقهم ، ووصف المشاهدات التى رأوها فى سبيلهم . ودون بعض الحجاج الواسعى الثقافة مشاهداتهم بعد عودتهم ، لينتفع بتجاربهم سائر المسلمين ، ولتساعدهم على أداء مناسكهم . ومن ثم زخرت كتبهم بأحوال سكان البلاد الإسلامية ، وطبيعة مزاجهم ، وأسس اقتصادياتهم ، وينابيع ثروتهم ورخائهم .

وقف ابن بطوطة على أخبار أولئك الرحالة السابقين ، فأثارت عنده ملكة مشاهدة أقاصى البلاد ، مع البدء بحج بيت الله الحرام . على أنه تفوق عليهم وتمتع بمركز الصدارة بينهم بفضل ثقافته الدينية الواسعة . إذ هيأ له تفقهه فى شئون

الدين الإفادة مما كان بالعالم الإسلامى من مزايا تشجع الرحلات وتساعد على القيام بها . فكانت طبيعة العالم الإسلامى على عهده تتسم بالبساطة فى العيش ، وشدة التقوى والصلاح ، وما يصاحبهما من مظاهر تكفل للمسافر الطمأنينة فى ظلها والتمتع بمميزاتها . فكان المسلمون فى أنحاء الإمبراطورية الإسلامية يرحبون بإخوانهم الذاهبين إلى الأراضى المقدسة ، ويقفون الأوقاف للإنفاق على الغرباء من المسافرين المسلمين .

ولذا كانت الطرق بين البلاد الإسلامية آهلة بالركبان ، إلى جانب قوافل التجار التى انتشرت بين هذه الأقطار حاملة منتجاتها وخيراتها ، ووصلت بها إلى الهند والصين . فسافر ابن بطوطة إلى حيثما شاء مندمجاً فى ركب تجارى أو مع قافلة حجاج ، متجنباً بذلك أن يضل السبيل . على حين فتح له تدينه وعلمه الغزير قلوب الناس أينما نزل ، ودور ضيافة حكام الأمصار والمدن . فنعم ابن بطوطة بالتمتع بثمار الأخوة التى سادت بلاد العالم الإسلامى ، برغم ما فقدته على عهده من الوحدة السياسية ، حيث دلت روابط الدين واللغة والثقافة على أنها من أقوى العوامل القادرة على إبقاء التضامن بين البلاد الإسلامية ، أما القوميات الإقليمية فقد تضاءلت أمامها .

وهكذا تابع ابن بطوطة رحلاته ، حاملا بين جوانحه

شخصية خفيفة الظل حلوة الشمائل إذا ما حل بقوم ؛ وقوية البأس شديدة السطوة إذا ما واجه مصاعب فى الطريق . ثم عاد إلى وطنه بأرض المغرب الأقصى حاملا صورة فريدة عن الحالة الاجتماعية فى بلاد العالم الإسلامى على عصره . إذ خلت مشاهداته من الإطناب الجاف فى ذكر جغرافية البلاد التى اجتازها ، ووصف جبالها وأنهارها ، وإنما جاءت صورة اجتماعية تنبض بالحياة عن أحوال المسلمين ، ولا سيما الأشخاص الذين التقى بهم أو تعامل معهم . ونال بذلك ابن بطوطة قصب السبق على سائر الرحالة المسلمين ، وضرب أحسن مثل عملى على ما ساد روح المسلمين فى عصره من حب للمغامرة ، واعتزاز باتساع إمبراطوريتهم ؛ على نحو ما افتخر به شاعر إسلامى من الرواد :

ومن كان من الأحرا ... ر يسلو سلوة الحر
ولا سيما فى الغربة ... أودى أكثر العمر
وشاهدت أعاجيبا ... وألواناً من الدهر
فطابت بالنوى نفسى ... على الإمساك والفطر
على أنى من القوم الـ ... ـبها ليل بنى الغر
فنحن الناس كل النا ... س فى البر وفى البحر

أخذنا جزية الخلق من الصين إلىْ مصر
إلى طنجة ، بل فى كـ ل أرض خيلنا تسرى
إذا ضاق بنا قطر نزل عنه إلى قطر

٢
بداية المطاف

خرج ابن بطوطة من طنجة يوم الخميس الثانى من شهر رجب سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٦ م) قاصداً حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول الكريم . وكان والداه إذ ذاك على قيد الحياة ، فبكى لفراقهما ، لأنه كان رجلا رقيق الشعور مرهف الإحساس . وسافر منفرداً دون أن يصحبه أحد فى الطريق ، أو يجد ركباً يندمج فيه . ولكن حين بلغ مدينة تلمسان وجد بها رسولا يدعى أبا عبد الله الزبيدى ، متجهاً إلى مدينة تونس . فرافقه فى الطريق ، بعد أن اشترى من هذه المدينة بعض المؤن والحاجات .

ولما بلغ الركب مدينة بجاية ، أصيب ابن بطوطة بالحمى . فأشار عليه أبو عبد الله الزبيدى أن يقيم بهذه المدينة حتى يشفى مما ألم به . لكن ابن بطوطة أبى ، وصمم على مواصلة الرحلة ، مفضلا أن يلقى ربه وهو فى طريقه لأداء فريضة الحج . فنصحه أبو عبد الله الزبيدى عندئذ بأن يبيع

دابته ، وما معه من متاع ، على أن يُعيره دابة من عنده وما قد يحتاج إليه من أشياء ، ليصبح سيره خفيفاً ، غير قلق على متاع أو زاد . وقد اشتدت وطأة الحمى على ابن بطوطة فى أثناء مواصلة الركب السير ، فكان يشد نفسه بعمامته فوق السرج ، حتى لا يسقط من الضعف ، وظل على ذلك حتى وصل الركب إلى أطراف مدينة تونس ، حيث شفى من المرض .

وشاهد ابن بطوطة الناس خارج مدينة تونس لاستقبال أبى عبد الله الزبيدى ومن معه . ولما أهل الركب عليهم ، أقبلوا بالتحية على الزبيدى ، وكذلك على سائر أفراد الركب ، دون أن يحيي أحداً منهم ابن بطوطة ، إذ كان غريباً عن أهل المدينة ، ولا يعرفه أحد بها . فهاج ذلك من نفسه الشجن ، وأحس لأول مرة بآلام الفرقة ، وأجهش بالبكاء . على أن أحد أفراد الركب شعر بحال ابن بطوطة ، وأقبل عليه بالسلام ، وأخذ يؤانسه بالحديث حتى دخل الناس مدينة تونس .

أقام ابن بطوطة بهذه المدينة حتى تم إعداد ركب الحجاج القاصدين إلى الحجاز . ولما انتظم عقد الركب ، نصّب الحجاج ابن بطوطة قاضياً عليهم لعلمه وورعه ، وتفقهه فى الدين . فزالت عنه الوحشة ، وأحس للمرة الأولى أيضاً بأخوة الروح الإسلامية . وقد تزوج فى طرابلس حين نزل الركب بها ،

ولكن لم يلبث أن طلق زوجته لشجار وقع بينه وبين صهره ، وتزوج من امرأة أخرى ، وأعد للركب بمناسبة الزواج وليمة ، قضوا فيها يوماً كاملا فى مرح وسرور ، ثم ودع زوجته ، وسار مع الركب متابعاً رحلته إلى الحجاز .

من وحى النيل :

وفى أول جمادى الأولى وصل الركب إلى مدينة الإسكندرية ، التى أعجب بها ابن بطوطة أيما إعجاب . ولكن كان نزوله أرض مصر فاتحة عهد جديد فى تاريخ حياته ، أفاض عليه النيل فيها من نفحاته ما رفعه إلى مصاف الخالدين . إذ قابل ابن بطوطة فى الإسكندرية عالماً يدعى برهان الدين ، نزل فى ضيافته ثلاثة أيام . وكان لهذا العالم أثر كبير فى خلق ابن بطوطة خلقاً آخر ، إذ استشف من أحاديثه معه أنه أمام شخص محب للتجوال ، وأن روحه تحب المغامرة وارتياد الآفاق . فقال لابن بطرطة : أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد ، فأجابه بالإيجاب . وهنا قال له : لا بد لك إن شاء الله من زيارة الهند ، ومقابلة أخى فريد الدين بها ، وكذلك النزول بأرض الصين ، والالتقاء بأخى برهان الدين هناك ، فإذا بلغت هذه البلاد ، فأقرئ إخوتى بها السلام . ولم يكن

ابن بطوطة قد حدثته نفسه بعد بالتوغل فى مثل هذه البلاد القاصية ، فجاء حديث العالم المصرى حافزاً أثار عنده غريزه حب الأسفار ، وجعل نفسه تتوق لمشاهدة هذه البلاد ، التى يقيم بها إخوة ذلك الفقيه العظيم .

* * *

وكانت فترة إقامة ابن بطوطة بمصر مرحلة مباركة فى حياته ، نمت فيها عنده ملكة الارتحال وزيارة أقاصى البلاد ، إذ دفعه حرصه على مقابلة العلماء والأولياء إلى زيارة كل من ترامى اليه شىء من أخبارهم . فسمع وهو بالإسكندرية عن الشيخ الصالح أبى عبد الله المرشدى ، وأنه من كبار الأولياء ، ومنقطع للعبادة بمنية بنى مرشد قبالة فوة ، فى زاوية منفردة لا يخدمه فيها أحد . فرحل لزيارة هذا الولى وقابله فى زاويته ، حيث لقى منه الكرم والعطف . وقضى ابن بطوطة ليلة عند أبى عبد الله المرشدى ، ورأى حلماً عجيباً فى هذه الليلة ، قصه على الولى فى صباح اليوم التالى . ففسر له أبو عبد الله المرشدى الرؤيا ، قائلا له : سوف تحج وتزور قبر النبى ، ثم تجول فى بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند وتبقى بها مدة طويلة . ففارق ابن بطوطة منية بنى مرشد وهو شديد الإيمان بطواف البلاد التى سمعها من قبل من العالم برهان الدين ،

ثم من نبوءات الولى أبى عبد الله المرشدى .

* * *

وانتهز ابن بطوطة وجوده فى أرض مصر وعول على زيارة أمهات مدنها ، ومشاهدة أحوالها . فذهب إلى دمياط وأعجب بنظامها ، إذ لم يكن يسمح لأحد بالخروج منها إلا بتصريح من الوالى ، فمن كان ذا منزلة رفيعة فى المدينة منح جوازاً يبيح له الخروج ، على حين توضع علامة على ذراع عامة الناس بمثابة تصريح لهم بمغادرة المدينة إذا شاءوا ، وشاهد بهذه المدينة كذلك الطائفة المعروفة بالقرندرية التى يحلق مريدوها لحاهم وحواجبهم . وذكر ابن بطوطة أن السبب فى ذلك يرجع إلى محاكاة رئيسهم الشيخ جمال الدين الساوى مؤسس هذه الطائفة ؛ إذ يروى أنه كان جميل الصورة حسن الوجه ، فعلقت به امرأة أخذت تراسله وتعارضه فى الطريق ، وهو يمتنع عنها . فلما أعياها أمره دست له عجوزاً تصدت له بالقرب من أحد المنازل الواقعة على طريق المسجد ، وبيدها كتاب . فلما مرّ بها ، قالت له : يا سيدى ؛ أتحسن القراءة ؟ قال نعم ، قالت له هذا الكتاب بعثه إلى ولدى ، وأحب أن تقرأه على . جافأبها إلى طلبها ، ولما فتح الكتاب قالت له : يا سيدى ،

إن لولدى زوجة ، وهى فى فناء الدار ، فلو تفضلت بقراءته بين بابى الدار بحيث تسمعها . فأجابها لذلك ، ولكن لما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب ، وخرجت المرأة وجواريها فتعلقن به وأدخلنه إلى داخل الدار ، وراودته المرأة عن نفسها . فلما رأى أن لا خلاص له ، انتحى ركناً من المنزل وأخرج موسى كانت معه وحلق لحيته وحاجبه ، ثم خرج عليها . فاستقبحت هيئته واستنكرت فعله وأمرت بإخراجه . وبذلك عصمه الله ، وبقى على هيئته فيما بعد ، وصار كل من يسلك طريقته يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، على نحو ما فعل .

وركب ابن بطوطة النيل متجهاً إلى القاهرة عاصمة البلاد . فذكر أن القرى والمدن منتظمة على النيل ، متصل بعضها ببعض ، ولا يحتاج راكب النيل إلى أخذ طعام معه ، لأنه مهما أراد النزول إلى الشاطئ توضأ وصلى واشترى ما يحتاج إليه من طعام وغير ذلك لاتصال الأسواق بعضها ببعض . ولما وصل إلى العاصمة رأى كثرة سكانها وأن المدينة تموج بهم موج البحر ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها ، كما لاحظ أن شبابها مجد كادح ، ولكل عمل خاص به . فذكر أن بها من السقائين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء ، وأن بها ثلاثين ألف مكار ، وأن بنيلها من المراكب ستا وثلاثين ألفاً

للسلطان والرعية . على أن هذه المبالغة تدل على الأثر الطيب الذى تركته مصر فى نفس ابن بطوطة ، وغادرها إلى الشام أخيراً ليخرج مع قافلة حجاج دمشق إلى الحجاز .

٣

ابن بطوطة فى الشام

رحل ابن بطوطة من مصر إلى الشام عن طريق بلبيس والصالحية ، وكان طريقاً مزوداً بما يكفل الراحة للمسافرين ، إذ به محطات لرجال الأمن وفنادق للنازلين . ووصف ابن بطوطة هذا الطريق قائلا : « ثم وصلت إلى الصالحية ومنها دخلنا "الرمال" ، ونزلنا منازلها ، . . . وبكل منها فندق ، وهم يسمونه الخان ، ينزله المسافرون بدوابهم ، وبخارج كل خان ساقية للسبيل ، وحانوت يشترى منه المسافر ما يحتاج إليه لنفسه ودابته ، ومن منازلها "قطيا" المشهورة . . . وبها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث ، وفيها الدواوين والعمال والكتاب ، . . . ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة (أى تصريح) من مصر ، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام ، احتياطاً على أموال الناس وتوقياً من الجواسيس . . . وطريقها فى ضمان العرب ، وقد وكلوا بحفظه ، فإذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى

به أثر ، ثم يأتى الأمير صباحاً فينظر إلى الرمل ، فإن وجد به أثراً طلب العرب بإحضار مؤثره ، فيذهبون فى طلبه فلا يفوتهم ، فيأتون به الأمير فيعاقبه . بما شاء » .

وتنقل ابن بطوطة وهو فى الطريق ، بين مدن فلسطين والشام ، بعد أن أكرمته سلطات الحدود وأباحت له ولمن معه اجتياز البلاد إلى الشام . فزار أولا بيت المقدس وشاهد مسجدها العظيم وقبته الرائعة التى توجد تحتها الصخرة التى عرج منها الرسول إلى السماء . وأبدى ابن بطوطة إعجابه بروح الإخاء والمودة التى كانت سائدة بين المسلمين والمسيحيين بالشام . إذ قال : إن هناك ديراً خارج مدينة اللاذقية من أعظم أديرة الشام ومصر ، يسكنه الرهبان ويقصده النصارى من الآفاق ، وكل من نزل به من المسلمين يضيفه النصارى ويكرمونه ، وطعامهم الخبز والجبن والزيتون .

* * *

على أن دمشق أخذت بلب ابن بطوطة حتى قال إنها جنة المشرق وعروس المدن ، تحدق بها البساتين إحداق الهالة بالقمر . وكان أول ما حرص على مشاهدته بها هو جامعها المعروف بجامع بنى أمية . فذكر أنه أعظم مساجد الدنيا بهاء وأتقنها صناعة ، له قبة هائلة ، ترى من أية جهة فى المدينة ،

وبه صحن فسيح يجتمع به أهل المدينة من قارئ ومحدث ، وفى وسطة شباك حديد فى وسطه أنبوبة نحاس يخرج منها الماء ، فيرتفع فى الهواء ثم ينثنى كأنه قضيب لجين ، يستحسن الناس وضع أفواههم فيه للشراب . وفى الركن الشرقى منه خزانه كبيرة فيها المصحف الكريم الذى بعثه أمير المؤمنين عثمان بن عفان إلى الشام . وتفتح هذه الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة ، فيزدحم الناس على لثم المصحف ، كما يستحلف الناس دائنيهم هناك على الوفاء بأماناتهم .

وأشار ابن بطوطة إلى تركز الحياة والنشاط بمدينة دمشق حول هذا المسجد . فذكر أن له أربعة أبواب كل منها يطل على مرفق هام من مرافق المدينة . فيجد الخارج من الباب الشرقى المعروف بباب الساعات غرفة ، لها طاق كبير مقسم إلى طيقان صغيرة لها أبواب على عدد ساعات النهار . والأبواب ملونة من الداخل باللون الأخضر ، وظاهرها باللون الأصفر ، فإذا انقضت ساعة من النهار انقلب الجانب الداخلى الأخضر إلى الخارج ، وحل اللون الأصفر محله بالداخل . وكان بداخل الغرفة رجل يتولى قلب هذه الأبواب بيده عند مضى الساعات ، وأمام هذا الباب شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين ، وكذلك حوانيت صناع أوانى الزجاج ، وبالقرب منها سوق

الوراقين الذين يبيعون أدوات الكتابة من الورق والأقلام والمداد . ويمتد مع الجدار الجنوبى للمسجد سوق آخر رائج ، كان موضع قصر معاوية بن أبى سفيان وقومه من قبل . ويجد الخارج عن يمين الباب الغربى المعروف بباب البريد حوانيت الفاكهة .

وبهذا المسجد حلقات تدرس فيها فنون العلم ، إذ يجلس المدرس على كرسى مرتفع يقرأ الكتب على الحاضرين ، على حين ينتحى معلمو الصبيان جانباً من جوانب المسجد يلقنون الصغار القراءة ومعهم معلم الخط كذلك . ولاحظ ابن بطوطة أن معلم الخط غير معلم القرآن ، وأن الأخير يعلم الصبيان قراءة القرآن دون كتابته فى الألواح تنزيهاً لكتاب الله ، على حين يتولى معلم الخط تدريس الكتابة للصغار عن طريق كتابة الأشعار وما سواها . فكان الصبى يبدأ بالقراءة ثم الكتابة . وأشار ابن بطوطة إلى العالم المتقشف المحافظ تقى الدين بن تيمية ، وحضره يوم الجمعة بمسجد دمشق وهو يعظ الناس . فكان من جملة كلامه أن قال : إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولى هذا ؛ ونزل درجة من درج المنبر ، فعارضه فقيه مالكى يعرف بابن الزهراء ، وأنكر هذا القول ، فقامت العامة إلى هذا الفقيه ، وضربوه بالأيدى والنعال ضرباً كثيراً حتى سقطت

عمامته ، وظهر على رأسه غطاء من حرير ، فأنكروا عليه ذلك ، وحملوه إلى قاضي الحنابلة الذى أمر بسجنه .

* * *

وتحدث ابن بطوطة عن أهالى دمشق وطريقة حياتهم . فذكر أنهم لا يعملون يوم السبت ، وإنما يخرجون إلى المتنزهات وشطوط الأنهار ، ودوحات الأشجار ، بين البساتين النضرة والمياه الجارية ، ويقضون يومهم فى راحة وبهجة حتى يمسى الليل . وتكلم عن حب أولئك الأهالى لعمل الخير ، وعن الأوقاف الكثيرة التى خصصوها بمختلف الشئون الاجتماعية ، « فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج ، يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن ، وهن اللواتى لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ؛ ومنها أوقاف لفكاك الأسارى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان فى جنبيه يمر عليهما المترجلون ، ويمر الركبان بين ذلك ، ومنها أوقاف لغير ذلك من أفعال الخير » .

وضرب ابن بطوطة مثلا على هذا النوع الأخير من الأوقاف بحادث شاهده بدمشق ، فقال : « مررت يوماً ببعض

أزقة دمشق ، فرأيت مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصينى وهم يسمونها الصحن ، فتكسرت واجتمع عليه الناس ، فقال له بعضهم : اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأوانى ، فجمعها وذهب الرجل معه إليه ، فأراه إياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن . وهذا من أحسن الأعمال ، فإن سيد الغلام لابد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره ، وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك ، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب ، جزى الله خيراً من تسامت همته فى الخير إلى مثل هذا . »

* * *

ولم يغفل ابن بطوطة غرضه فى تأدية مناسك الحج برغم تجواله فى بلاد الشام . فأخذ يعد نفسه للرحيل إلى الحجاز ، وانضم إلى ركب حجاج الشام ، الذى عرف بالركب الحجازى لخروجه إلى الأراضى المقدسة .

٤

الحاج ابن بطوطة

خرج ابن بطوطة مع الركب الحجازى من دمشق أول شوال متجهاً إلى مكة . ووقف الركب عند مدينة بصرى مدة أربعة أيام ، ليلحق به من تخلف بدمشق لقضاء مآربه . فانتهز ابن بطوطة هذه المناسبة وزار الآثار الموجودة بهذه المدينة، وشاهد مبرك ناقة الرسول ، حين وفد إلى بصرى فى تجارة خديجة قبل بعثته ، ورأى مسجداً عظيماً شيد على هذا المكان المبارك . ثم استأنف الركب سيره حتى بلغ تبوك ، وكانت من المحطات الهامة على طريق القوافل إلى الحجاز ، يقيم بها الركبان للتزود بالمياه وغيرها لاجتياز ما بعدها من الصحراء .

وكانت فى تبوك عين ماء نزل عندها الرسول فى غزوته المعروفة باسم هذه المدينة ، وتوضأ منها ، مما جعلها تعرف ببركة رسول الله . وحط الركب الشامى رحاله على هذه العين ، وأقام بها أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال . « ومن عادة السقائين أنهم ينزلون على جوانب هذه العين ، ولهم أحواض مصنوعة من

جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملأون الروايا والقرب ، ولكل أمير أو كبير حوض كبير يسقى منه جماله وجمال أصحابه ، ويملأ رواياهم ، وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقى جمله وملء قربته بشىء معلوم من الدراهم » .

ومن تبوك أخذ الركب يسير مسرعاً مجتازاً صحراء موحشة ، وصل بعد مسيرة خمسة أيام فيها إلى بئر الحجر ، المعروف بحجر ثمود . وهى عين تفيض بالمياه ، لكن الركب لم يتزود منها ، وكذلك يفعل غيرهم من الناس مع شدة عطشهم ، اقتداء بما فعله الرسول حين مر بهذه العين فى غزوة تبوك ، إذ أسرع براحلته وأمر أن لا يسقى منها أحد . وشاهد ابن بطوطة بهذا المكان ديار ثمود منحوتة فى جبال من الصخر الأحمر ، ولها عتب منقوشة يظن رائيها أنها حديثة الصنعة ، ورأى بالقرب منها كذلك مبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هناك . ثم تابع الركب سيره حتى بلغ « العلا » .

« والعلا قرية كبيرة حسنة ، لها بساتين النخل والمياه . . . يقيم بها الحجاج أربعا يتزودون ويغسلون ثيابهم . . . وأهل هذه القرية أصحاب أمانة ، وإليها ينتهى تجار نصارى الشام لا يتعدونها ، ويبايعون الحجاج بها الزاد وسواه . » فأخذ منها

ركب الشام ما احتاج إليه من طعام ومياه ، ثم استأنف سيره حتى بلغ المدينة المنورة قرب المساء .

* * *

ولم يضيع ابن بطوطة فترة إقامة الركب بهذه المدينة سدى ، ولا سيما أنها تحفل بالكثير من الذكريات والآثار الإسلامية الرائعة . فزار قبر الرسول والمسجد الشريف والتقى بالمشرفين عليه . وكان إمام المسجد الشريف فى ذلك الوقت بهاء الدين بن سلامة من كبار أهل مصر ، وكذلك كان سلفه ، إذ كانت مصر ترعى المدن المقدسة وتزودها بالعلماء والمال . فذكر ابن بطوطة أن « خدام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الأحابيش وسواهم ، وهم على هيآت حسان وصور نظاف وملابس ظراف ، وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام ، وهو فى هيئة الأمراء الكبار ، ولهم المرتبات بديار مصر والشام ، ويؤتى إليهم بها فى كل سنة ، ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الامام المحدث الفاضل جمال الدين المطرى من مطرية ، قرية بمصر . »

أقام ابن بطوطة ورفاقه بالمدينة أربعة أيام ، وكانوا يبيتون بالمسجد ، حيث أوقد الناس فيه الشمع الكبير ، وأخذوا يرتلون القرآن ، على حين ترنم غيرهم بالأناشيد فى مدح الرسول .

وسط هذه المظاهر الدينية الرائعة خرج الحجاج من المدينة قاصدين مكة لأداء فريضة الحج .

وصل الركب إلى مكة صباحاً « وهى مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة فى بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها ، وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ . . . وهى بواد غير ذى زرع . . . ولكن سبقت لها الدعوة المباركة ، فكل طرفة تجلب إليها ، وثمرات كل شىء تجبى لها ، ولقد أكلت (أى ابن بطوطة) بها من الفواكه والعنب والتين والخوخ والرطب ما لا نظير له فى الدنيا ... وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادى نخلة . »

* * *

وبدأ ابن بطوطة حديثه عن شعائر الحج وما قام به قائلا :
« وإذا كان فى أول يوم شهر ذى الحجة تضرب الطبول والدبادب فى أوقات الصلوات ، وبكرة وعشية ، إشعاراً بالموسم المبارك ، ولا تزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات . فإذا كان اليوم السابع من ذى الحجة خطب الخطيب إثر صلاة الظهر خطبة بليغة يعلم الناس فيها مناسكهم ، ويعلمهم بيوم الوقفة . فإذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود إلى منى ، وأمراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك

الليلة بمنى ، وتقع المفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق فى إيقاد الشمع . . . فإذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح إلى عرفة . . . وعرفات بسيط من الأرض فسيح أفيح ، تحدق به جبال كثيرة ، وفى آخر بسيط عرفات جبل الرحمة ، وفيه الموقف . . . وفى أسفل هذا الجبل . . . صهاريج وجباب للماء ، وبمقربة منه الموضع الذى يقف فيه الإمام ويخطب . . . وإذا حان وقت النفر أشار الإمام المالكى بيده ، ونزل عن موقفه ، فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها الأرض وترجف الجبال ، فياله موقفاً كريماً ، ومشهداً عظيماً ، ترجو النفوس حسن عقباه . »

« وكانت وقفتى الأولى يوم الخميس سنة ست وعشرين . . . ولما وقع النفر بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة . . . ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها إلى منى ، بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام . . . ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصبات الجمار ، وذلك مستحب ، . . . ولما انتهى الناس إلى منى بادروا الرمى ، جمرة العقبة ، ثم نحروا وذبحوا ، ثم حلقوا ، وحلوا من كل شىء إلا النساء والطيب . . . وفى يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصرى إلى البيت الكريم ، فوضعت فى سطحه . فلما كان اليوم

الثالث بعد النحر أخذ المختصون ، فى إسبالها على الكعبة الشريفة ، وهى كسوة سوداء حالكة من الحرير ، مبطنة بالكتان ، وفى أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض . . . ولما كسيت شمرت أذيالها صوناً من أيدى الناس ، والملك الناصر هو الذى يتولى كسوة الكعبة الكريمة ويبعث مرتبات القاضى والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة ، وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت فى كل سنة . »

وتحدث ابن بطوطة عن عطف الملك الناصر ، سلطان مصر ، على الأراضى المقدسة ، وأن الدعاء فى خطبة الجمعة كان باسمه أولا ، وأشاد بذلك فى وصفه لإحدى الصلوات بمكة يوم الجمعة ، قائلا : « فإذا خرج الخطيب أقبل لابساً ثوب سواد ، معتما بعمامة سوداء ، وعليها طيلسان أسود ، كل ذلك من كسوة الملك الناصر ، وعليه الوقار والسكينة ، وهو يتهادى بين رايتين سوداوين ، يتمسكها رجلان من المؤذنين ، وبين يديه أحد القومة فى يده الفرقعة ، وهى عود فى طرفه جلد رقيق مفتول ، ينفضه فى الهواء ، فيسمع له صوت عال يسمعه من بداخل الحرم وخارجه . . . إعلاماً بخروج الخطيب . . . ثم يقصد المنبر ، والمؤذن الزمزمى — وهو رئيس المؤذنين — بين يديه ، لابساً السواد وعلى عاتقه السيف . . .

وتركز الرايتان على جانبي المنبر . . . فإذا استوى فى عليا الدرجات . . . وقف داعياً . . . ثم يقبل على الناس ، فيسلم عن يمينه وشماله ويرد عليه الناس . . . فإذا فرغ الأذان ، خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم . . . ثم يدعو للملك الناصر . . . فإذا فرغ من خطبته صلى وانصرف ، والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة أمامه إشعاراً بانقضاء الصلاة . »

* * *

ولم يغفل ابن بطوطة عن الإشادة بالحياة الاجتماعية فى مكة وسط إسهابه فى الحديث عن أماكنها المقدسة ، والشعائر الدينية بها . فذكر ما تحلى به أهل مكة من مكارم الأخلاق وما طبعوا عليه من حميد العادات . فكانوا يبالغون فى إكرام الغرباء والمنقطعين للعبادة والفقراء . وإذا أقام أحدهم وليمة بدأ فيها بإطعام الفقراء والتلطف فى دعوتهم والإحسان إليهم . وأشار إلى أن أكثر المساكين المنقطعين يقيمون بالأفران ، حيث يطبخ الناس أخبازهم ، فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله تبعه المساكين ، فيعطى لكل واحد منهم ما قسم له ، ولا يردهم خائبين ، ولو كانت له خبزة واحدة فإنه يعطى ثلثها أو نصفها ، طيب النفس بذلك من غير ضجر . ومن

أفعالهم الحسنة أن الأيتام الصغار يقعدون بالسوق ، ومع كل واحد منهم قفتان ، كبرى وصغرى ، وهم يسمون القفة « مكتلا » ، فيأتى الرجل من أهل مكة إلى السوق ، فيشترى الحبوب واللحم والخضر ، ويعطى ذلك للصبى ، فيجعل الحبوب فى إحدى قفتيه ، واللحم والخضر فى الأخرى ، ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها ، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته ، فلا يذكر أن أحداً من الصبيان خان الأمانة فى ذلك قط ، بل يؤدى ما حمل على أتم الوجوه ، ولهم على ذلك أجرة معلومة من النقود .

« وأهل مكة لهم ظرف ونظافة فى الملابس ، وأكثر لباسهم البياض ، فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة ، ويستعملون الطيب كثيراً ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر » . وأعجب ابن بطوطة بحسن روائهم وصحتهم الحسنة ، وذكر معللا ذلك بأنهم لا يأكلون فى اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر ، ويقتصرون على هذه الوجبة ، ومن أراد الأكل فى سائر النهار أكل التمر .

واسترعى نظر ابن بطوطة أن « نساء مكة فائقات الحسن ، بارعات الجمال ، ذوات صلاح وعفاف ، وهن يكثرن التطيب حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيباً ، وهن

يقصدن الطواف بالبيت فى كل ليلة جمعة ، فيأتين فى أحسن زى ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن ، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً . »

* * *

ولم يبق ابن بطوطة طويلا فى مكة بعد أن انتهى من مناسك الحج ، ولم يفكر كذلك فى العودة إلى وطنه ، إذ تحركت فى نفسه غريزة التجوال وارتياد البلاد ، وبدأ مرحلة جديدة من الرحلات ، كانت الدرجة الأولى فى سلم طويل ارتقاه ابن بطوطة ، حتى وقف على قمة العالم المعروف على عهده ، وشاهد عجائبه وآثاره ، قانعاً بأن يقضى من عمره نحواً من عشرين سنة فى أسفار متصلة ورحلات متعاقبة . وهكذا حقق ابن بطوطة فراسة العالم المصرى برهان الدين ، ونبوءات الشيخ المرشدى .

٥
جولة فى ربوع العراق

غادر ابن بطوطة مكة فى عشرين من ذى الحجة فى صحبة ركب العراق ، وكان أمير هذا الركب شيخاً يدعى شهاب الدين قلندر ، ممن كان يحلق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية ، التى شاهد ابن بطوطة أتباعها فى مدينة دمياط . لكن توفى هذا الرجل قبل تحرك الركب العراقى ، وخلفه رجل آخر من أهل الموصل يدعى محمد الحويح . وكان ركب العراق يضم عدداً لا يحصى من الناس ، « تموج بهم الأرض موجاً ، ويسيرون سير السحاب المتراكم ، فمن خرج عن الركب لحاجة ، ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس . » وكان هذا الركب مزوداً بالمؤن والحاجات التى تكفل لأفراده الراحة والطمأنينة ، من جمال تحمل الماء والطعام ، والأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض ، فضلا عن عدد آخر من الجمال حمل عليها من لا قدرة له على المشى .

سار الركب ليلا تتقدمه المشاعل ، حتى أصبحت الأرض

تتلألأ نوراً ، وغدا الليل نهاراً ساطعاً . وظل يضرب فى طريقه إلى العراق نازلا بالمحطات الهامة، ومتزوداً منها بما يحتاج إليه من طعام وماء . وكان الركب إذا حط رحاله طبخ الطعام فى قدور نحاسية عظيمة تسمى الدسوت، وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معه فى الركب .

* * *

ولما وصل الركب إلى أرض النجف انفصل ابن بطوطة عن الناس ، وعول على مشاهدة هذه البلاد ، بادئاً بذلك أول حلقة فى سلسلة مشاهدات عديدة جديدة . وكانت بالنجف إذ ذاك مدينة من أبهى مدن العراق وأشهرها ، وتدعى مدينة « مشهد على ابن أبى طالب » . وهى عامرة بالأسواق والعلماء ، بها مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ، ويضاف بها كل وارد عليها مدة ثلاثة أيام ، يتناول فيها الخبز واللحم والتمر مرتين فى اليوم . وكان سكان هذه المدينة من غلاة الشيعة، ويتولى تصريف شئونهم رجل يلقب بنقيب الأشراف ، يعين رأساً من السلطات المركزية ببغداد ، وله مطلق الحرية فى إدارة المدينة .

وترك ابن بطوطة مدينة مشهد على متجهاً إلى مدينة واسط فى رفقة ركب من عرب خفاجة ، الذين كانوا من أعظم الناس

شوكة ومهابة أثناء اجتيازهم البلاد العراقية ، وغدا السبيل الوحيد للسفر هو الاندماج فى ركبهم . فاكترى ابن بطوطة جملا بمساعدة أمير القافلة شامر بن دراج الخفاجى ، وخرج معهم إلى واسط . ولما وصلت القافلة إلى مدينة واسط أقامت بخارجها ثلاثة أيام للتجارة ، استغلها ابن بطوطة لدراسة المدينة وأحوالها .

لاحظ ابن بطوطة أن مدينة واسط من أشهر المدن فى العناية بالقرآن الكريم ، إذ يحفظه أهلها ويجيدون قراءاته الصحيحة ، ويأتى إليهم أهل بلاد العراق لتلقى العلم عليهم فى هذا السبيل ، وكان فى القافلة التى صحبها ابن بطوطة جماعة من الناس أتوا لتجويد القرآن على من بها من الشيوخ . وشاهد بها ابن بطوطة مدرسة عظيمة لتعليم القرآن ، بها ثلاثمائة خلوة ، ينزلها الغرباء الذين يبغون العلم . وأضاف رئيسها الشيخ تقى الدين عبد المحسن الواسطى ابن بطوطة ، وزوده بالطعام والمال .

كذلك ذهب ابن بطوطة فى أثناء إقامته بواسط إلى زيارة قبر أحمد الرفاعى ، بقرية تعرف بأم عبيدة ، على مسيرة يوم من واسط . وبعث الشيخ تقى الدين مع ابن بطوطة ثلاثة من الأعراب رافقوه فى رحلته القصيرة . وتصادف فى أثناء وجود ابن بطوطة لزيارة قبر أحمد الرفاعى وصول حفيده الشيخ

أحمد قوجك ، الذى انتهت إليه رياسة أتباع أحمد الرفاعى . فشاهد الاحتفال باستقبال الشيخ الجديد . وهناك لما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف ، وأخذ الفقراء فى الرقص . ثم صلوا المغرب ، وبسطوا الموائد عليها خبز الأرز والسمك واللبن والتمر . ولما فرغ الناس من الأكل وصلاة العشاء ، أخذوا فى الذكر ، والشيخ أحمد جالس على سجادة جده الشيخ الرفاعى يشاهدهم . وقد أعدوا أحمالا من الحطب ، فأججوها ناراً ، ودخلوا فى وسطها يرقصون ، ومنهم من تمرغ فيها ، أو أخذ يأكلها بفمه حتى أطفئوها جميعاً . على حين شاهد غيرهم يأخذ الحية العظيمة ويعض بأسنانه على رأسها حتى يقطعه .

* * *

ولما انتهى ابن بطوطة من زيارة الشيخ الرفاعى عاد إلى مدينة واسط . فوجد الركب قد رحل ، فأسرع فى الطريق حتى لحقه ، وصاحبه حتى بلغ البصرة . وهناك لقى من سادتها كل ترحيب . فبعث إليه قاضيها حجة الدين صرة مملوءة تمراً ، باعها ابن بطوطة بتسعة دراهم ، أخذ الحمال الذى نقلها إلى السوق ثلثها أجرة له . كذلك أضافه بها أحد العلماء ويدعى علاء الدين بن الأثير ، ومنحه ثياباً ومالا .

واسترعى نظر ابن بطوطة ما وصلت إليه هذه المدينة من تدهور فى الشئون الثقافية ، فقال « شهدت مرة بمسجدها صلاة الجمعة ، فلما قام الخطيب به إلى الخطبة وسردها ، لحن فيها لحناً كثيراً جلياً ، فعجبت من أمره ، وذكرت للقاضى حجة الدين ، فقال لى : إن هذا البلد لم يبق منه من يعرف شيئاً من علم النحو ؛ وهذه عبرة لمن تفكر فيها ، سبحانه مغير الأشياء ! ومقلب الأمور ! هذه البصرة التى إلى أهلها انتهت رياسة النحو ، وفيها أصله وفروعه ، ومن أهلها إمامه الذى لا ينكر سبقه ، لا يقيم خطيبها خطبة الجمعة على دءوبه عليها ! » .

* * *

ولم يستطع ابن بطوطة أن يكبح جماح رغبته فى التجوال ، إذ ساقه الطريق من البصرة إلى زيارة بعض المدن بغربى إيران ، ثم عاد منها إلى العراق ، حيث نزل بالكوفة ، وسلك فى ذلك طريقاً آخر قائلا : « ومن عادتى فى سفرى أن لا أعود على طريق سلكتها ما أمكننى ذلك . » وهناك لاحظ ما طرأ على هذه المدينة من انحلال ، وتحطم سورها وتعرضها لإغارات البدو . على أنه زار مقابر الكوفة وشاهد بها قبر ابن ملجم الذى اغتال على ابن أبى طالب ، ورأى هذا القبر مغطى بسواد

حالك ، لأن أهل الكوفة يأتون كل سنة بالحطب الكثير ، ويوقدون النار على موضع القبر سبعة أيام ، تأسفاً على هذا الحادث الشنيع والخطب الجلل .

واسترعى نظر ابن بطوطة كثرة الشيعة بالقرب من الكوفة ، إذ زار بالقرب منها مدينة تسمى « الحلة » كل أهلها من طائفة الإمامية الاثنى عشرية[1] ، وشاهد بالقرب من سوقها مسجداً على بابه ستر من حرير مسدول ، يسميه أهالى المدينة مشهد صاحب الزمان ، ويعتقدون أن إمامهم محمد بن الحسن العسكرى دخل ذلك المسجد وغاب فيه ، وأنه سيخرج منه ، وأنه الإمام المنتظر ، فذكر ابن بطوطة أن « من عادتهم أن يخرج فى كل ليلة مائة رجل من أهل المدينة ، عليهم السلاح ، وبأيديهم سيوف مشهورة ، فيأتون أمير المدينة بعد صلاة العصر ، فيأخذون منه فرساً مسرجاً ملجماً ، أو بغلة كذلك ، ويضربون الطبول والأنفار والبوقات أمام تلك الدابة ، ويتقدمها خمسون منهم ، ويتبعها مثلهم ، ويمشى آخرون عن يمينها وشمالها ، ويأتون مشهد صاحب الزمان ، فيقفون بالباب ، ويقولون : باسم الله يا صاحب الزمان ، باسم الله اخرج ،

(١) الإمامية الاثنى عشرية طائفة من طوائف الشيعة .

قد ظهر الفساد ، وكثر الظلم ، وهذا أوان خروجك ، فيفرق الله بك بين الحق والباطل ، ولا يزالون كذلك ، وهم يضربون بالأبواق والطبول والأنفار إلى صلاة المغرب . »

اتجه ابن بطوطة من الكوفة إلى بغداد ، ومرّ فى طريقه على كربلاء التى استشهد فيها الحسين بن على بن أبى طالب . وكانت مدينة صغيرة تحف بها حدائق النخل ، تسقى من الفرات ، وبها مدرسة عظيمة وزاوية يقدم فيها الطعام للزائرين . وشاهد بها ابن بطوطة مشهد الحسين ، على بابه الحجاب ، ولا يدخل أحد إلا عن إذنهم ، فيقبل العتبة الشريفة ، وهى من الفضة ، وعلى الضريح قناديل الذهب والفضة ، وعلى الأبواب ستائر الحرير .

* * *

ولما وصل ابن بطوطة إلى مدينة بغداد كانت عظمتها قد زالت[١] ، وأصبحت تستحق قول القائل :

لقد أقام على بغداد ناعيها
فليبكها لخراب الدهر باكيها
كانت على مائها والحرب موقدة
والنار تطفئ حسناً فى نواحيها

---

(١) زالت عظمة بغداد بسبب تدمير هولاكو المغولى لها سنة ٦٥٦ ﻫ .

ترجى لها عودة فى الدهر صالحة
فالآن أضمر منها اليأس راجيها
مثل العجوز التى ولت شبيبتها
وبان عنها جمال كان يحظيها

فشاهد ابن بطوطة الجانب الغربى من بغداد مشوهاً بالخراب ، بعد أن كان أول قسم فيها ظهر به العمران . على حين احتفظ جانبها الشرقى بشيء من أسواقها العظيمة . وشاهد أعظم هذه الأسواق ويدعى سوق « العجيبة » ، كل صناعة فيه لها مكان مخصوص ، وفى أحد جوانبه المدرسة المستنصرية ، التى مثلت فيها المذاهب الأربعة فى التدريس . لكل مذهب مكان ، فيه مسجد وموضع للتدريس . ويجلس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى مغطى بالبسط ، عليه السكينة والوقار ، لابساً ثياباً سوداء ، وعن يمينه ويساره معيدان ، يعيدان كل ما يمليه ، وكذلك سائر ترتيب الدراسة حسب المذاهب الأخرى . وكان بالمدرسة حمام للطلبة ودار للوضوء .

على أن أهل بغداد احتفظوا بمرحهم وحبهم للتمتع بما بقى فى مدينتهم من مباهج . فكانوا يخرجون رجالا ونساء للنزهة كل ليلة ، ولهم يوم فى كل جمعة لزيارة شيخ من أوليائها . وكان صاحب الأمر على العراق حين وصول ابن بطوطة بغداد « أبو سعيد

بهادر خان» ، الذى أعجب ابن بطوطة بموكبه وحاشيته . فعندما يريد أبو سعيد الرحيل يُعد موكب حافل له ، ويأتى كل أمير من الأمراء بعسكره وطبوله وأعلامه ، ويقف فى موضع لا يتعداه ، مخصص له إما فى الميمنة أو الميسرة . فإذا تم الجمع وتكاملت الصفوف ، ركب الملك ، وتضرب طبول الرحيل ، فيأتى كل أمير منهم ويسلم على الملك ، ثم يعود إلى موقفه . ويتقدم موكب الملك الحجاب والنقباء ، ويليهم أهل الطرب ، وعددهم مائة رجل عليهم أبهى الثياب . وأمام أهل الطرب عشرة من الفرسان معهم عشرة من الطبول يدقون عليها .

ويتولى أمير الجند تنظيم الموكب ، ويسأل عمن تخلف عن الركب ، وينزل به أقصى العقوبة . فإذا غاب أحد عن الاشتراك مع فرقته ، أخذ وعلق فى رقبته كيس مملوء رملا ، ويمشى على قدميه حتى يصل إلى دار الأمير ، فينبطح على الأرض ويضرب خمساً وعشرين مقرعة على ظهره ، سواء أكان رفيعاً أم وضيعاً ، لا يستثنى منهم أحد . وقبل مسير الموكب يغنى أهل الطرب ، ثم يتحرك الموكب ، يحف بالسلطان الأمراء عن اليمين والشمال ، ومن ورائه أصحاب الأعلام والطبول والبوقات ، ثم مماليك السلطان ، ثم الأمراء على اختلاف مراتبهم .

* * *

ومن بغداد قام ابن بطوطة بعدة رحلات إلىٰ بعض مدن العراق الهامة قبل مغادرته هذا القطر ، حيث عزم على أداء فريضة الحج للمرة الثانية . وشاهد فى رحلاته الأخيرة آبار البترول بالعراق الواقعة بالقرب من مدينة تكريت . فبعد أن غادر هذه المدينة فى طريقه إلى الموصل ، مر بقرية تعرف « بالقيارة » على مقربة من دجلة . وقال ابن بطوطة « هنالك أرض سواد ، فيها عيون تنبع بالقار ، ويصنع له أحواض ، ويجتمع فيها ، فتراه أشبه الصلصال على وجه الأرض ، حالك اللون ، صقيلا رطباً ، وله رائحة طيبة ، وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء ، يعلوها شبه الطحلب الرقيق ، فتقذفه إلى جوانبها فيصير أيضاً قاراً ، وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة ، فإذا أرادوا نقل القار منها ، أوقدوا عليها النار ، فتنشف بالنار ما هنالك من رطوبة مائية ، ثم يقطعونه قطعاً ، وينقلونه . »

وقضى ابن بطوطة فى هذه الجولة الأخيرة شهرين عاد بعدها إلى بغداد ، حيث وجد ركب الحاج قد تهيأ بها تحت إمرة محمد الحويج وهو بعينه أمير الركب الذى وفد معه ابن بطوطة إلى العراق . وكان التعب قد حل بابن بطوطة حين غادر بغداد قاصداً الحجاز للمرة الثانية، إذ أصابه إسهال عانى

منه كثيراً فى أثناء الرحلة . ووصف حالته قائلا : « كانوا ينزلوننى من أعلى المحمل مرات كثيرة فى اليوم ، والأمير يتفقد حالى ، ويوصى بى . ولم أزل مريضاً حتى وصلت مكة حرم الله تعالى . » وكان وصوله مكة إذ ذاك سنة ٧٢٨ هـ ، أى بعد سنتين تقريباً من حجته الأولى .

وظل الضعف يعمل عمله فى ابن بطوطة ، حتى إنه طاف وسعى بين الصفا والمروة راكباً ، ولم يستطع مغادرة مكة ، بعد أن انقضى الحج فى تلك السنة ، فأقام بها سنة كاملة ، قضاها فى الدرس ، حيث نزل فى المدرسة المظفرية . وفى نهاية العام حج للمرة الثالثة فى سنة ٧٢٩ هـ ، وكان قد استرد نشاطه وحيويته . فتجدد عنده الشوق للارتحال ، وإشباع رغبته فى التجوال . وتوجه إلى زيارة أقوام جدد من المسلمين على ساحل أفريقية الوسطى الشرقى ، وعزم على الذهاب إلى هذه البلاد ماراً ببلاد اليمن .

٦

حول البحر الجنوبى

خرج ابن بطوطة من مكة سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م) ، قاصداً بلاد اليمن . فبلغ جدة ميناء الحجاز على البحر الأحمر ، وركب منها البحر فى مركب يسميه أهاليها « الجلبة » . وهاب ابن بطوطة الرحلة فى أول الأمر لأنه لم يسبق له أن ركب البحر قبل هذه التجربة . وصاحبه فى هذه الرحلة جماعة من أهل اليمن عائدين إلى بلادهم ، ركبوا بدورهم فى هذه السفن المعروفة « بالجلب » حاملين فيها زادهم ومتاعهم . وكانت الرياح طيبة مواتية حين أبحروا إلى اليمن ، ولكن بعد يومين تغيرت الرياح ، وهاج البحر حتى طغت المياه على المراكب ، واشتد هلع المسافرين وجزعهم ، وظلت تتقاذفهم الأمواج حتى وصلوا مرسى يعرف باسم « رأس دوائر » فيما بين عيذاب وسواكن .

وهناك نزلوا بالساحل ، ووجدوا به عريش قصب على هيئة مسجد ، فاستراحوا فيه ، وأقاموا به بعض الوقت . وأعجب

ابن بطوطة بهذا الميناء ، وبصيد السمك فيه ، فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجونه وقد امتلأ سمكاً ، كل سمكة فى حجم الذراع ، ويسمى بالبورى . فاشترى المسافرون منه ما سد حاجتهم . وجاء إلى رهط ابن بطوطة هناك طائفة من البجاة سكان هذه الأرض التى نزلوا بها . وهم سود اللون ، لباسهم ملاحف صفر ، ويشدون على رؤوسهم عصائب حمراً فى عرض الأصبع . وكانوا أهل نجدة وشجاعة ، سلاحهم الرماح والسيوف ، يركبون جمالا يسمونها الصهب ، ويضعون فوقها السروج .

استأجر الرهط المسافر منهم جمالا ، وسافروا معهم فى منطقة مملوءة بالغزلان ، لم يتعرض لها البجاة بسوء ، أو صيد . وأخيراً وصلوا إلى جزيرة سواكن التى لا حظ ابن بطوطة أن المياه تجلب لها فى القوارب ، فضلا عن الصهاريج المقامة بها ليتجمع بها ماء المطر . ومن سواكن ركبوا البحر مرة أخرى إلى اليمن . ووصف ابن بطوطة الطريق قائلا : « وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره ، وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ، ويرسون وينزلون إلى البر ، فإذا كان الصباح صعدوا إلى المركب . وهم يسمون رئيس المركب « الربان » ، ولا يزال أبداً فى مقدم المركب ، ينبه

صاحب السكان على الأحجار ، وهم يسمونها " النباث " . »

* * *

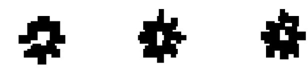
وبعد ستة أيام من مغادرتهم سواكن وصلوا إلى مدينة تسمى « حلى » ، أكرم سلطانها المسمى عامر بن ذويب ابن بطوطة واحتفى به ، وكانا قد تعارفا فى موسم الحج السابق . وأقام ابن بطوطة فى ضيافته أياماً ، ثم سافر بحراً إلى مدينة زبيد . وقال إنها من أبهى وأغنى مدن اليمن » ، « ولأهلها لطافة الشمائل وحسن الأخلاق وجمال الصور ، ولنسائها الحسن الفائق الفائت ، . . . ولأهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة ، وذلك أنهم يخرجون فى أيام البسر والرطب فى كل سبت إلى حدائق النخل ، ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء ، ويخرج أهل الطرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات . »

على أن ابن بطوطة أعجب أيما إعجاب بنساء هذه المدينة وتقاليدهن ، إذ « تخرج النساء ممتطيات الجمال فى المحامل ، ولهن مع ما ذكرناه من الجمال الفائت الأخلاق الحسنة والمكارم. وللغريب عندهن مزية ، ولا يمتنعن من تزوجه ، كما يفعل نساء بلادنا ، فإذا أراد السفر خرجت معه وودعته ، وإن كان بينهما ولد فهى تكفله ، وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه ، ولا تطالبه فى أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها ؛

وإذا كان مقيماً فهى تقنع منه بقليل النفقة والكسوة . لكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبداً ، ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل . »

أقام ابن بطوطة فى هذه المدينة فى ضيافة فقهائها ، فأكرموه وأروه بساتينهم وحدائقهم . وزار علماءها والأولياء المقيمين فى ضواحيها . ثم سافر إلى مدينة « تعز » حاضرة ملك اليمن . وكانت عبارة عن ثلاثة أحياء ، يسكن أحدها السلطان وحاشيته ، والثانى يسكنه الأمراء والجند ، والأخير يقيم به عامة الناس ، وبها السوق التى يسمونها « المحالب » . ونزل ابن بطوطة فى هذه المدينة فى ضيافة قاضى قضاتها صفى الدين الطبرى ، وأقام عنده ثلاثة أيام .

وفى اليوم الرابع من نزول ابن بطوطة فى هذه المدينة ، وهو يوم الخميس ، اصطحبه القاضى لمقابلة السلطان ، حيث يجلس لعامة الناس فى هذا اليوم . فسلم ابن بطوطة على السلطان وروى المقابلة قائلا : « وكيفية السلام عليه أن يمس الإنسان الأرض بسبابته ، ثم يرفعها إلى رأسه ، ويقول : أدام الله عزك . . . وقعد القاضى عن يمين الملك ، وأمرنى فقعدت بين يديه ، فسألنى عن بلادى . . . وعن ملك مصر والعراق . . . فأجبته عما سأل من أحوالهم ، وكان وزيره بين يديه ، فأمره بإكرامى . »



ووصف ابن بطوطة طريقة جلوس هذا الملك ، إذ « يجلس فوق دكانة مفروشة مزينة بثياب الحرير ، وعن يمينه ويساره أهل السلاح ، ويليه منهم أصحاب السيوف والدرق ، ويليهم أصحاب القسى ، وبين يديهم فى الميمنة والميسرة الحاجب ، وأرباب الدولة ، وكاتب السر وأمير جندار (حارس الملك) على رأسه ، والشاوشية وهم من الجنادرة وقوف على بعد ، فإذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة باسم الله ، فإذا قام فعلوا مثل ذلك ، فيعلم جميع من بالمشور[1] وقت قيامه ووقت قعوده . »

وكان الطعام الذى يقدم فى مجلس الملك نوعين ، طعام للعامة وآخر للخاصة . ويأكل من الأخير السلطان وقاضى القضاة وكبار الأشراف والفقهاء والضيوف . أما الطعام العام فيأكل منه سائر الفقهاء والقضاة ووجوه الأجناد والناس . رأقام ابن بطوطة فى ضيافة الملك أياماً ، ثم رحل إلى مدينة صنعاء .

استرعى نظر ابن بطوطة فى هذه المدينة نزول الأمطار بها

---

(١) المشور ، مجلس السلطان للاستقبال .

صيفاً ، إذْ هو من أبناء حوض البحر الأبيض المتوسط الذى تهطل أمطاره شتاء . فذكر أن المطر فى صنعاء « إنما ينزل فى أيام القيظ ، وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم فى ذلك الأوان . فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر ، وأهل المدينة ينصرفون إلى منازلهم لأن أمطارها وابلة متدفقة ، ومدينة صنعاء مفروشة كلها ، فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها . »

غادر ابن بطوطة صنعاء إلى عدن ميناء بلاد اليمن العظيم ، ومن أهم المرافئ بها ، لما تأتى إليه من سفن الهند وغيرها من أقاصى البلاد . ونزل ابن بطوطة بها فى ضيافة أحد كبار التجار فيها ويدعى ناصر الدين الفأرى . وذكر أن هذا التاجر كان يضيف كل ليلة نحواً من عشرين تاجراً ، وله غلمان وخدم كثيرون . ولاحظ ابن بطوطة بها كذلك عظم ثراء التجار ، وكثرة المفاخرات والمباهاة فيما بينهم .

أرض الصومال

عبر ابن بطوطة البحر من عدن إلى زيلع ، ودون مذكراته قائلا : « سافرت من مدينة عدن فى البحر أربعة أيام ،

ووصلت زيلع ، وهى مدينة البربرة ، وهم طائفة من السودان شافعية المذهب . وبلادهم صحراء مسيرة شهرين ، أولها زيلع وآخرها مَقْدَشو . ومواشيهم الجمال ولهم أغنام مشهورة السمن ، وأهل زيلع سود الألوان . » ولم يعجب ابن بطوطة بمدينة زيلع رغم ما شاهده من رواج فى أسواقها ، إذ قال : « إنها أقذر مدينة فى المعمور ، وأوحشها وأكثرها نتناً ، وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الإبل التى ينحرونها فى الأزقة . ولما وصلنا إليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله ، ولم نبت بها لقذرها . »

سافر ابن بطوطة من زيلع إلى مَقْدَشو بطريق البحر ، ووصلها بعد خمس عشرة يوماً . وذكر ما بينها وبين مصر من اتصال تجارى ، ورواج الصناعات المصرية بها ، كما أشاد باهتمام أهلها بالتجار الوافدين عليها . فكان « من عادة أهل هــذه المدينة أنه متى وصل مركب إلى المرسى تصعد الصنابق ، وهى القوارب الصغار إليه ، ويكون فى كل صنبوق جماعة من شبان أهلها ، فيأتى كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام ، فيقدمه لتاجر من تجار المركب ، ويقول هذا نزيلى ، وكذلك يفعل كل واحد منهم ، ولا ينزل التاجر من المركب إلا إلى نزيله من هؤلاء الشبان ، إلا من كان كثير التردد إلى البلد ، وحصلت له معرفة بأهله ، فإنه ينزل حيث

شاء . فإذا نزل عند نزيله باع ما عنده واشترى له . ومن اشترى منه ببخس أو باع منه بغير حضور نزيله فذلك مردود عندهم ، ولهم منعة فى ذلك . »

* * *

ونزل ابن بطوطة فى ضيافة علماءهذه المدينة وعند سلطانها ، واحتفوا به منذ استقباله وهو فى المركب . وأشاد بذلك قائلا : « ولما صعد الشبان إلى المركب الذى كنت فيه ، جاء إلى بعضهم ، فقال له أصحابى ، ليس هذا بتاجر ، وإنما هو فقيه ، فصاح بأصحابه وقال لهم : هذا نزيل القاضى . وكان فيهم أحد أصحاب القاضى ، فعرفه بذلك ، فأتى إلى ساحل البحر فى جملة من الطلبة ، وبعث إلى أحدهم ، فنزلت أنا وأصحابى وسلمت على القاضى وأصحابه . »

اصطحب القاضى ابن بطوطة إلى سلطان مقدشو ، الذى يلقب بالشيخ ، إذ كانت العادة ألا ينزل الفقيه أو الشريف الوافد إلى هذه البلاد عند أحد إلا بعد مقابلة السلطان . وكان هذا القاضى الذى رافق ابن بطوطة يدعى بابن البرهان ، من أصل مصرى . فأخذ ابن بطوطة إلى حضرة السلطان وأعلمه أنه قد وصل من أرض الحجاز . فبعث السلطان إلى القاضى بطبق فيه أوراق التنبول والفوفل ، أخذ منها ابن بطوطة عشر

اوراق مع قليل من الفوفل ، ونال القاضى بعضاً منها وكذلك الطلبة .

وشرح ابن بطوطة هذه العادة الخاصة بتقديم ورق التنبول مع وصف لهذا النبات أيضاً . فقال إن التنبول شجر يغرس كما يغرس العنب ، ويصنع له معرشات من القصب ، كما يعمل للعنب ، ليصعد عليها . وليس لشجر التنبول ثمر ، وإنما المقصود منه ورقه ، الذى يشبه ورق العليق[1] . إذ تجنى أوراقه ، ويقدم منها رب البيت للضيوف ، فإذا أعطاه خمس ورقات منها ، فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها . ويستعمل مع هذا الورق ما يسمى بالفوفل[2] ، وهو شىء أشبه بجوز الطيب ، يكسر ويضعه الإنسان فى فمه ، ثم يأخذ معها ورق التنبول ويمضغها مع الفوفل ، مما يجعل نكهة الفم طيبة ، ويزيل ما به من رائحة كريهة ، ويساعد على الهضم . ويتناول المرء عادة هذا المزيج فى الصباح ليجدد به نشاطه .

* * *

وأمر السلطان أن ينزل ابن بطوطة بدار الطلبة ، وكانت معدة لضيافة من يتلقى العلم ، وتقع على مقربة من دار السلطان ، حسنة الفرش والترتيب . وجاء الطعام إلى ابن بطوطة من عند

---

(١) طعم هذا الورق يشبه القرنفل .

(٢) الفوفل نوع من النخل ، تحمل ثماراً أشبه بالتمر .

السلطان رأساً مع أحد الوزراء . ووصف ابن بطوطة هذا الطعام بأنه « أرز مطبوخ بالسمن ، يجعلونه فى صحفة خشب كبيرة ، ويجعلون فوقه صحاف الكوشان ، وهو الإدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول . ويطبخون الموز قبل نضجه فى اللبن الحليب ، ويجعلونه فى صحفة ، ويجعلون اللبن المريب فى صحفة ، ويجعلون عليه الليمون المصبر ، وعناقيد الفلفل المصبر المخلل والمملوح والزنجبيل الأخضر ، "والعنبا" ، وهى مثل التفاح ، ولكن لها نواة ، وهى إذا نضجت شديدة الحلاوة ، وتؤكل كالفاكهة ، وقبل نضجها حامضة كالليمون ، يصبرونها فى الخل . وهم إذا أكلوا اللقمة من الأرز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات . »

* * *

ولاحظ ابن بطوطة إفراط أولئك السكان فى الأكل ، وضخامة أجسامهم ، ووصف ملابس عظمائهم ، وهى من الثياب المصرية الصنعة ، وذكر ذلك فى حديثه عن حضوره صلاة الجمعة مرة معهم ، فقال : وجاءنى القاضى والطلبة وأحد وزراء الشيخ ، وأتونى بكسوة ، وكسوتهم فوطة خز يشدها الإنسان فى وسطه عوض السراويل ، فإنهم لا يعرفونها ، ودراعة من المقطع المصرى معلمة ، وفرجية من القدسى المبطن ،

وعمامة مصرية معلمة . . . وأتينا الجامع ، فصلينا خلف المقصورة . فلما خرج الشيخ من باب المقصورة سلمت عليه مع القاضى ، فرحب ، وتكلم بلسانهم مع القاضى ، ثم قال باللسان العربى : قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا وآنستنا . . . ثم خرج من باب المسجد ، فلبس نعليه ، وأمر القاضى أن ينتعل ، وأمرنى أن أنتعل ، وتوجه إلى منزله ماشياً ، وهو بالقرب من المسجد ، ومشى الناس كلهم حفاة ، ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون . . . وكان لباسه فى ذلك اليوم فرجية قدسى أخضر ، وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان ، وهو متقلد بفوطة حرير ، وهو معتم بعمامة كبيرة . »

* * *

ورحل ابن بطوطة من أرض الصومال ، وقصد جنوب بلاد العرب مرة أخرى . وانتهز هذه الفرصة وأدى فريضة الحج للمرة الرابعة ، ثم عاد إلى مصر قاصداً مشاهدة أراض جديدة ، قد وصل إليها الإسلام منذ فترة قصيرة قبل قيامه برحلته الطويلة . وكانت وجهته آسيا الصغرى ، حيث بدأ الأتراك العثمانيون نشاطهم لنشر الإسلام هناك ، وتكوين مجد سياسى جديد للإسلام .

٧
الفتوة والفروسية
شعار الأتراك العثمانيين

أرض الحظ والحب

دخل ابن بطوطة بزيارته لآسيا الصغرى فى بلد ضم جماعة مغامرة ادخرها المستقبل لرسم خريطة الشرق العربى فى العصر الحديث . وكانت هذه الجماعة عنصراً من جنس أسيوى يعرف بالأتراك هاجر إلى بلاد الدولة العباسية وانتشر فى أرجائها . وظهر على مسرح السياسة جماعة من أولئك الأتراك عرفوا بالسلاجقة ، دأبوا على توسيع رقعة الدولة الإسلامية . فاتجهوا نحو آسيا الصغرى ، واتخذوا من مدينة قونية والمنطقة المحيطة بها مستقراً لهم .

ولكن سرعان ما دب الضعف فى دولة السلاجقة وظهرت هجرات قبائل تركية أخرى ، حلت إحداها بالقرب من إمارة السلاجقة بآسيا الصغرى . وعرفت هذه القبيلة التركية الأخيرة رؤساء كباراً هيأوا لها مكانة كبرى على أنقاض إمارة السلاجقة

المتداعية . وبذ أولئك الرؤساء زعيم يدعى عثمان نسبت إليه تلك القبيلة وما تفرع عنها من مجد سياسى وغدا أبناؤها يطلقون على أنفسهم الأتراك العثمانيين .

وكان عثمان فى الرابعة والعشرين من عمره حين تولى شئون قبيلته سنة ١٢٨٨ م . واشتهر بحسن القيادة وجرأة القلب والصبر على قتال الأعداء . وتجلت مواهبه منذ كان صغيراً يتجول مع قبيلته ، فقد كان يقيم بالقرب من مضارب قبيلته شيخ يدعى « أدب عالى » عرف بسعة العلم والورع . وكان عثمان يتردد على هذا الشيخ ، وداوم على زيارته لما رأى فيه من العلم والفضل والصلاح . ولكن زاد تعلق عثمان بهذا الشيخ بعد أن رأى ابنته وتسمى « مال خاتون » وما هى عليه من الجمال البارع والطلعة البهية .

وكاشف عثمان الشيخ « أدب عالى » بما يكنه فؤاده من الحب لابنته وسأله الاقتران بها . فأنكر عليه أبوها ذلك لما كان من فارق بينه وبين عثمان فى الناحية الاجتماعية . ولكن عثمان دأب على زيارة الشيخ رغم ارتحاله إلى منطقة بعيدة حيث لم يستطع الابتعاد عن حبيبته . وكان الشيخ لا يرفض أن يضيف عثمان كلما نزل فى رحابه . ثم حدث فى إحدى الليالى التى قضاها عثمان فى بيت الشيخ « أدب عالى » أن رأى حلماً

غريباً . فقد رأى بدراً يصعد من صدر الشيخ « أدب عالى » ثم مال إلى صدره وغاب فيه . ثم خرجت من صلبه شجرة عظيمة أخذ شكلها يعظم وجمالها يزيد بالتدريج إلى أن صارت شجرة باسقة .

ورأى عثمان كأن منابع الدجلة والفرات والداوب والنيل تنفجر من أصل هذه الشجرة ، وأن مياه هذه الأنهار تموج بالسفن والزوارق . وشاهد كذلك أودية بها مدن فاخرة وتعلوها المآذن ، والهلال يضيء من السماء . ولم يلبث أن قامت زوبعة عصفت بأوراق الشجرة الهائلة ، واتجهت بعض أوراقها نحو القسطنطينية ، وتابع عثمان هذه الأوراق إلى القسطنطينية حيث وجد خاتماً عظيماً ، تناوله ليضعه فى إصبعه ، ولكن استيقظ إذ ذاك .

قص عثمان رؤياه على الشيخ « أدب عالى » . فوجد الشيخ فى الرؤيا فألاحسناً وطالعاً سعيداً ، وتوسم الشرف والمجد والفخار والسلطان لأولاد عثمان من « مال خاتون » . ولم يعترض على زواج عثمان من ابنته ، وتولى تلميذ للشيخ عقد قران عثمان . وعندما صار عثمان أمير قبيلته بنى تكية لهذا التلميذ وأوقف عليها أوقافاً عظيمة من القرى والأرض الزراعية .

وبدأ عثمان نشاطه الحربى بعد أن تحققت المرحلة الأولى

من حلمه وصار سيد قبيلته . فأخذ يستولى على البلاد والمناطق المجاورة له ، وحرص على تطبيق العدل والإنصاف على الجماعات التى اندرجت تحت لوائه . وسرعان ما تلألأ نجمه حين توفى آخر سليل للأمير السلجوقى الجالس على عرش مدينة قونية . فاستولى عثمان على المدينة وسار منها شمالا مخترقاً آسيا الصغرى والمدن بها تسقط فى يده الواحدة تلو الأخرى ، حتى وصل إلى شاطئ البحر الأسود .

وكان ابن عثمان ويدعى أورخان يساعد أباه فى عمليات الفتح ، واستولى سنة ١٣٢٦ على مدينة بروسة . واستقبل عثمان ابنه استقبالا حاراً وهنأه بهذا الفوز الباهر . ولكن الموت قد أخذ يطرق باب عثمان . فلم يجزع ، وإنما استدعى ابنه أورخان وقال له « أى بنى ! إنى أموت ، ولكن غير آسف ولا مضطرب لأنى أترك ورائى خير من يخلفنى وهو أنت يا ولدى العزيز . أى بنى ! عليك بتقوى الله فى السر والعلانية ، وانشر العدل ، فهو أساس الملك . وكن رحيماً فإن الله قد وصف نفسه بالرحمة ، وليكن أضعف الناس عندك القوى ، حتى تأخذ له الحق . روج مبادئ الإسلام ، واعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، فإنك إن عملت بوصيتى كنت من الأولياء الذين فازوا برضاء الله . »

وأوصى عثمان بأن ينقل رفاته إلى بروسة ، ولما لفظ النفس

الأخير احترمت وصاياه وبنى له هناك مقبرة هائلة . وهكذا كان مؤسسوا الدولة العثمانية يضعون البذور التى شاهد نبتها ابن بطوطة ، ولا سيما حرصهم على نشر الإسلام بآسياالصغرى . ونجم عن مجهودات الزعماء العثمانيين انتشار التصوف ، وتعدد طرق الدراويش . وإلى جانب هذه الطرق الصوفية أدت أعمال العثمانيين إلى ظهور نظام الفتوة ، الذى كان الطابع الإسلامى للفروسية العربية . ولكن أخذ هذا النظام مظهراً جديداً فى آسيا الصغرى على يد الأتراك ، عرف باسم الأخيات ، وهى تسمية مشتقة من كلمة أخى .

وكان نظام الأخيات أو الإخوان أشبه بنظام النقابات الاقتصادية ، وانتشرت فى سائر مدن آسيا الصغرى ، وعرف أفرادها بالشهامة وإكرام الضيف . وقد شاهد ابن بطوطة كثيراً من هذه الجماعات ، ولقى منها كل كرم وحفاوة ووصفها وصفاً رائعاً كشف عن المستقبل الباهر الذى كان ينتظر الأتراك العثمانيين .

الأخيات أو جماعات الإخوان

نزل ابن بطوطة فى « العلايا » على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، وكانت حينئذ ميناء كبيراً يسكنه التركمان ، وينزله تجار مصر والإسكندرية والشام للحصول على أخشابها الجيدة . ومنها بدأ ابن بطوطة طوافه ببلاد الأناضول ، ملاقياً من أهاليها كل إكرام ورعاية ، إذ هم على قوله « أكثر خلق الله شفقة . . . وكنامتى نزلنا بهذه البلاد . . . يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء ، وهن لا يحتجبن ، فإذا سافرنا عنهم ودعونا كأنهم أقاربنا وأهلنا . وترى النساء باكيات لفراقنا ، متأسفات . ومن عاداتهم بتلك البلاد أن يخبزوا الخبز فى يوم واحد من الجمعة ، يعدون فيه ما يقوتهم سائرها . فكان رجالهم يأتون إلينا بالخبز الحار فى يوم خبزه ، ومعه الإدام الطيب إطرافاً لنا بذلك ، ويقولون لنا ، إن النساء بعثن هذا إليكم ، وهن يطلبن منكم الدعاء . »

ولاحظ ابن بطوطة انتشار نظام جماعات الإخوان أو الفتيان بسائر مدن الأناضول وقراه ، يدعى رئيسهم «بالأخى». وكانت هذه الجماعات تضم الشبان الأعزاب أبناء الطائفة الواحدة أو القرية الواحدة فيقدمون عليهم رئيساً لهم ، ويتعاونون على البر

وإكرام الضيف الغريب . ووصف ابن بطوطة هذا النظام وصفاً جيداً ، وأبدى ما اتصفوا به من شهامة ، فضلا عن إشادته بالترحيب الذى ناله عندهم .

ذكر ابن بطوطة أنه «لا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس ، وأسرع إلى إطعام الطعام ، وقضاء الحوائج ، والأخذ على أيدى الظلمة . . . و« الأخى » عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ، ويقدمونه على أنفسهم . . . ويبنى زاوية ، ويجعل إليه فيها الفرش والسرج وما يحتاج إليه من الآلات . ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام ، إلى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية . فإن ورد فى ذلك العصر مسافر على البلد ، أنزلوه عندهم ، وكان ذلك ضيافة لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف . وإن لم يرد وارد ، اجتمعوا هم على طعامهم ، فأكلوا وغنوا ورقصوا ، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدو ، وأتوا بعد العصر إلى مقدمهم بما اجتمع لهم » .

ووصف ابن بطوطة كرم هذه الجماعات قائلا : نزلت فى مدينة أنطاكية عند شيخ يدعى شهاب الدين الحموى ، فأتى أحد هؤلاء الفتيان وتكلم مع الشيخ باللسان التركى ، « ولم أكن

يومئذ أفهمه . وكان عليه أثواب خلقة ، وعلى رأسه قلنسوة لبد . فقال لى الشيخ : أتعلم ما يقول هذا الرجل ؟ ، فقلت ، لا أعلم ما قال ؛ ، فقال لى : إنه يدعوك إلى ضيافته أنت وأصحابك ؛ فعجبت منه ، وقلت له نعم ! فلما انصرف ، قلت للشيخ ، هذا رجل ضعيف ، ولا قدرة له على تضييفنا ، ولا نريد أن نكلفه . فضحك الشيخ ، وقال لى ، هذا أحد شيوخ الفتيان الأخية ، وهو من الخرازين (الإسكافية) ، وفيه كرم نفس ، وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجتمع لهم بالنهار أنفقوه بالليل . فلما صليت المغرب ، عاد إلينا ذلك الرجل ، وذهبنا معه إلى زاويته ، فوجدناها زاوية حسنة ، مفروشة بالبسط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقى ، وفى المجلس خمسة من البياسيس . والبيسوس شبه المنارة من النحاس له أرجل ثلاث ، وعلى رأسه شبه غطاء من نحاس ، وفى وسطه أنبوب للفتيلة ، ويملأ من الشحم المذاب ، وإلى جانبه آنية نحاس ملآنة بالشحم ، وفيها مقراص لإصلاح الفتيل ، وأحدهم موكل بها ، ويسمى عندهم « الجراجى » .

وقد اصطف فى المجلس جماعة من الشبان ، ولباسهم

الأقبية ، وفى أرجلهم الأخفاف ، وكل واحد منهم متحزم ، على وسطه سكين فى طول الذراعين ، وعلى رؤوسهم قلانس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها فى طول ذراع وعرض أصبعين . فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد قلنسوته ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزدخانى وسواه ، حسنة المنظر . وفى وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين . ولما استقر بنا المجلس عندهم ، أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ، ثم أخذوا فى الغناء والرقص . فراقنا حالهم ، وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم ، وانصرفنا عنهم آخر الليل وتركناهم بزاويتهم . »

وهكذا كان ابن بطوطة موضع إكرام الإخوان حيثما ذهب فى بلاد الأناضول ، وتنافسوا فيما بينهم على ضيافته عندهم ومن معه من الركب . فذكر قصة طريفة تبين ذلك حين دخوله مدينة تسمى « لاذق » ، فقال : « وعند دخولنا لهذه المدينة ، مررنا بسوق لها ، فنزل إلينا رجال من حوانيتهم ، وأخذوا بأعنة خيلنا ، ونازعهم فى ذلك رجال آخرون . وطال بينهم النزاع حتى سل بعضهم السكاكين على بعض ، ونحن لا نعلم ما يقولون . فخفنا منهم ، وظننا أنهم ممن يقطعون الطريق ، وأن تلك مدينتهم ، وحسبنا أنهم يريدون نهبنا . ثم بعث الله لنا رجلا

حاجبًا يعرف اللسان العربى ، فسألته عن مرادهم . فقال إنهم من الفتيان ، وأن الذين سبقوا إلينا هم أصحاب الفتى أخى سنان ، والآخرون أصحاب الفتى أخى طومان ، وكل طائفة ترغب أن يكون نزولكم عندهم .

فعجبنا من كرم نفوسهم ، ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة ، فمن كانت قرعته ، نزلنا عنده أولا . فوقعت قرعة أخى سنان ، وبلغه ذلك ، فأتى إلينا فى جماعة من أصحابه ، فسلموا علينا ، ونزلنا بزاوية له ، وأتى بأنواع الطعام . ثم ذهب بنا إلى الحمام ، ودخل معنا ، وتولى خدمتى بنفسه ، وتولى أصحابه خدمة أصحابى . . . ثم خرجنا من الحمام ، فأتوا بطعام عظيم وحلواء وفاكهة كثيرة ، وبعد الفراغ من الأكل ، قرأ القراء آيات من الكتاب العزيز ، ثم أخذوا فى السماع والرقص . »

* * *

ومن أطرف ما لاحظه ابن بطوطة ادعاء بعض الفقهاء الأتراك معرفة اللغة العربية ، وما صادفه من مواقف نتيجة التباس بعض الألفاظ العربية بالتركية . فروى أنه نزل فى مدينة تسمى « كاوية » وجاء الفقيه ليقدمه إلى الناس بها . ولكنه خاطب ابن بطوطة وأصحابه بالفارسية ، ولم يكونوا يعرفونها ، فأجابوه بالعربية ، دون أن يفهم أحدهما الآخر .

وعندئذ أراد الفقيه ستر نفسه أمام الناس ، حين ظنوا أنه يعرف اللسان العربى ، وهو لا يعرفه ، فقال لهم « هؤلاء يتكلمون بالكلام العربى القديم ، وأنا لا أعرف إلا العربى الجديد. . . وهؤلاء تجب كرامتهم لأنهم يتكلمون باللسان العربى القديم ، وهو لسان النبى صلى الله عليه وسلم . » ويذكر ابن بطوطة أنه أدرك هذا فيما بعد ، حيث حفظ ما قاله هذا الفقيه وفهمه بعد أن درس اللغة الفارسية .

وذكر كذلك قصة أخرى فى هذا الصدد ، قائلا : « بعثت أحد الخدام ليشترى التبن للدواب ، وبعثت أحدهم يشترى السمن ، فأتى أحدهما بالتبن ، والآخر دون شىء ، وهو يضحك . فسألناه عن سبب ضحكه ، فقال ، إنا وقفنا على دكان بالسوق ، فطلبنا منه السمن ، فأشار إلينا بالوقوف ، وكلم ولداً له ، فدفعنا له الدراهم ، فأبطأ ساعة ، وأتى بالتبن ، فأخذناه منه ، وقلنا له ، « إنا نريد السمن ! » فقال : « هذا السمن » ! . واتضح أنهم يقولون للتبن سمن بلسان الترك ، وأما السمن فيسمى عندهم « رباغ » .

* * *

ولاقى ابن بطوطة كثيراً من الناس ، ممن يدعون التدين ، وليس لهم فى هذه الصفة نصيب . فقال إنه وجد أحد الحجاج

الذين يعرفون اللغة العربية ، « ورغبنا منه أن يسافر معنا إلى قسطمونية ، وكسوته ثوباً مصرياً من ثيابى ، وأعطيته نفقة تركها لعياله ، وعينت له دابة لركوبه ، ووعدته الخير . وسافر معنا ، فظهر لنا من حاله أنه ساقط الهمة ، خسيس الطبع ، سيئ الأفعال . وكنا نعطيه الدراهم لنفقتنا فيسرق منها . وكنا نحتمله لما كنا نكابده من عدم المعرفة بلسان الترك . وانتهت حاله إلى أن فضحناه ، وكنا نقول له فى آخر النهار ، يا حاج ! كم سرقت اليوم من النفقة ؟ ! فيقول كذا ، فنضحك منه ، ونرضى بذلك .

* * *

واختتم ابن بطوطة طوافه ببلاد الأناضول بالذهاب إلى صنوب ، وأشار إلى الصراع الحربى المبكر بين الأتراك والروم ، الذين كانت بيدهم القسطنطينية . وكانت صنوب من أجل ذلك مدينة محصنة ، يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا واحدة ، وهى جهة الشرق ، ولها هنالك باب واحد لا يدخل إليها أحد إلا بإذن أميرها . واشتهر من بين من تولى إدارتها من الأمراء شخص يدعى غازى ، « وكان شجاعاً مقداماً ، وهبه الله خاصية فى الصبر تحت الماء ، وفى قوة السباحة . وكان يسافر فى الأجفان (المراكب) الحربية لحرب الروم ، فإذا كانت

الملاقاة ، واشتغل الناس بالقتال ، غاص تحت الماء ، وبيده آلة حديد يخرق بها أجفان العدو ، فلا يشعرون بما حل بهم ، حتى يدهمهم الغرق . »

وأقام ابن بطوطة بهذه المدينة أربعين يوماً ، استطاع بعدها أن يجد مركباً تابعاً للروم ، ذهب به إلى شبه جزيرة القرم ، مودعاً أرض الأتراك ، ونزل ببلاد تابعة للمغول ، وهم جنس جديد اعتنق الدين الإسلامى، ووصف لنا ابن بطوطة حياته وعاداته .

٨

فى منازل المغول

إن مع العسر يسرا

كانت المرحلة الجديدة من رحلة ابن بطوطة فى بلاد المغول سجلا حافلا بعظمة الإسلام ، وأنه دين لا يستطيع إنسان أن ينال منه مهما كانت سطوته وجبروته . إذ سبق رحلة ابن بطوطة إلى ديار المغول أحداث جسام نزلت ببلاد المسلمين على أيدى أولئك الناس ، وبدا أنهم قوم عتاة لا يأبهون للنظم الحضارية أو أساليب المدنية . غير أن الإسلام سرعان ما غزا المغول وجعل منها أناساً لهم رسالتهم فى سلم الحضارة العالمية . وقد سجل ابن بطوطة ما شاهده من آثار إغارات المغول على بلاد المسلمين ، ثم ما طرأ عليهم من حياة جديدة فى ظل الإسلام .

بدأ ظهور المغول على مسرح الدولة الإسلامية قبل رحلة ابن بطوطة بقرن تقريباً . إذ حدث أن قبائل المغول التى كانت تسكن أصقاع منغوليا الشاسعة اتحدت تحت رياسة شخص يدعى جنكيزخان الملقب « بغضب الله » سنة ١١٨٩م . وكان

أفراد هذه القبائل مشهورين بالشجاعة ، ونساؤها يحاربن كما كما يحارب الرجال ، وسلاحهم الرئيسى القوس والنشاب ، ويأكلون جميع الدواب ، ولا يبقون على أحد فى حروبهم ، بل يذبحون النساء والأطفال على حد سواء ! وهم معتادون عبور الأنهار العميقة بالقرب ، أو بإمساك أذناب الخيول فيسبحون وراءها ، ولا يعرفون تعباً أو نصباً ، ويستقبلون الموت من غير خوف ولا وجل .

وقد استغل جنكيزخان هذه الصفات التى امتاز بها المغول وقام بزحف واسع استولى فيه على الصين سنة ١٢١٩ م . ثم أخذ يوجه حملاته على بلاد المسلمين غرباً حين قتل نائب خوارزم شاه بعض تجار أرسلهم جنكيز خان إلى بلاد ما وراء النهر بحجة أنهم جاءوا ليتسقطوا أخباره . فثار عندئذ جنكيزخان وزحف بجيشه الهائل على فرغانة .

وانسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج من قنن الجبال ، واكتسحت جنود الملك خوارزم شاه ، كما تكتسح السيول ما تصادفه من الحصى والرمال . وتحولت المدن الكبرى التى كانت مراكز للمدنية وأسواقاً للتجارة ، خراباً يباباً . فأصبحت بخارى ركاماً وأنقاضاً وكانت تشتهر برجال العلم والورع . وكذلك سمرقند عاصمة بلاد ما وراء النهر تعرضت

للتخريب وقتل أهلها حتى إنه لم يبق من سكانها غير ٥٠٠٠ شخص يقصون أنباء المغول وأعمالهم المروعة على الناس .

وعاد جنكيزخان إلى وطنه بعد أن قوض معالم المدنية فى أواسط آسيا وفارس . وانقسمت إمبراطوريته أربعة أقسام بين أبنائه الأربعة ، أخذ أحدهم الصين ، وآخر المنطقة الوسطى من إمبراطورية المغول ، على حين نال أكبر أبناء جنكيزخان الجزء الغربى من الإمبراطورية ، ولقب « خان القبيلة الذهبية » ، وغدت فارس فيما بعد من نصيب هولاكو .

وكان هولاكو صاحب الأعمال السيئة فى بغداد ، والمطيح بالخلافة العباسية من المشرق . فقد انتهز توتر العلاقات بينه وبين الخليفة العباسى ببغداد إذ ذاك وهو المستعصم وزحف على العاصمة سنة٦٥٦ هـ . وحاصر المغول بغداد أربعين يوماً حصاراً لا هوادة فيه ، ونصبوا المنجنيقات على جميع القلاع والحصون المشرفة عليها ، ثم طفقوا يمطرونها بوابل من الحجارة حتى أحدثوا فى أسوارها فجوة كبيرة . وعندئذ أذعن الخليفة لطلب الصلح .

ولكن ما كاد يتم الصلح حتى أصدر هولاكو أمره المشئوم بنهب بغداد وذبح أهلها ، فقد خرج الشيوخ والنساء والأطفال من منازلهم حاملين المصاحف على أكفهم وهم يتوسلون ويتضرعون إلى الجنود بلهجة تفتت الأكباد أن يبقوا على حياتهم . ولكن

الغزاة لم يأبهوا لهذا التضرع والتوسل وأنزلوا بالأهالى كافة ألوان التعذيب .

وبعد أن استمرت هذه المذابح الدامية تعصف ببغداد أربعة أيام ، قضى هولاكو على الخليفة وأبنائه ، وأمست بغداد موطن العلم وعاصمة الثقافة الإسلامية خراباً يباباً . ويروى المؤلفون القدامى قصة هذا الخراب والتدمير بأسلوب مؤثر فياض . فيقول ابن الأثير « إن غارة المغول هى الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عفت الأيام والايالى عن مثلها ، عمت الخلائق ، وخصت المسلمين » .

وعبر المغول نهر الفرات بعد تخريب بغداد ، وواصلوا زحفهم حتى وقف لهم عند « عين جالوت » بالشام السلطان بيبرس ملك مصر فيما بعد ، وأوقع بهم هزيمة فادحة ، وتعقبهم إلى ما وراء حلب ونظف الشام منهم سنة ٦٥٨ هـ — ١٢٦٠ م .

وجاءت هذه الوقعة الكبرى حداً فاصلا فى تاريخ الإسلام والمسلمين . إذ نهض الإسلام وأخذ يستعيد مجده التالد . فاستطاع بوساطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه . وكان أولئك الدعاة يتصفون بالصبر والشجاعة حتى كللت جهودهم بالنجاح . وكان بركة خان (١٢٥٦ — ١٢٦٧ م) أول من أسلم من أمراء المغول ، وهو رئيس القبيلة

الذهبية ، وحاكم القسم الغربى من إمبراطورية المغول ، الممتد من وسط آسيا إلى أقصى بلاد الروسيا الحالية .

وينسب إسلام بركة خان إلى تاجرين التقى بهما فى بخارى. فقد سألهما عن عقائد الإسلام ، واقتنع بشرحهما واعتنق هذا الدين ، ونشره بين رعاياه الذين أصبحوا غلاة متحمسين . فكان كل فارس فى جيشه يحمل سجادة للصلاة ليصلى عندما يأتى ميعاد الصلاة ، كما لم يكن فى جيشه شخص يتعاطى المسكرات . وقرب إليه مشاهير العلماء والمفسرين ورجال الحديث والفقهاء ، وعقد لهم المناظرات الدينية وحرص على مشاهدتها .

وقد قامت علاقات صداقة ومودة بين بركة خان والظاهر بيبرس سلطان المماليك فى مصر . إذ احتفى السلطان بشرذمة من جند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المائتين ، وكان العداء قد دب بين هولاكو حاكم فارس المغولى وبركة خان ، ومع سلطان مصر كذلك ، مما أدى إلى تدعيم العلاقات بين مصر ومغول القبيلة الذهبية .

وهكذا حين يمم ابن بطوطة وجهه لزيارة مغول القبيلة الذهبية كان الإسلام قد انتشر بينهم ، وسجل قوة الإسلام فى استعادة

سالف مجده ، ومحاولة مدن المسلمين التابعة لمحمد أوزبك خان القبيلةالذهبية إذ ذاك النهوض من كبوتها .

أرض المغول

رست السفينة التى أقلت ابن بطوطة عبر البحر الأسود فى مرسى يدعى « الكرش » ، ثم انتقل إلى ثغر كافا ، وكان أكثر سكانه من أهل جنوة ، جعلوه من أهم مراكز التجارة لهم . ورحل عنها إلى مدينة القرم ، وكانت تابعة للسلطان محمد أوزبك ، خان المغول المعروفين بالقبيلة الذهبية . وأكرم حاكم مدينة القرم المسمى تلكتمور وفادة ابن بطوطة ، ودعاه للركوب معه لزيارة السلطان محمد أوزبك بعاصمته . وكانت وسائل الانتقال بين مدن المغول أو البلاد التابعة لهم سهلة ميسورة ، وأهمها استخدام العجلات فى السفر . ووصف ابن بطوطة وصفاً شاملا العربات التى ركبها فى رحلته .

فذكر أنهم « يسمون العجلة « عربة » ، وهى عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار ، ومنها ما يجره فرسان ، ومنها ما يجره أكثر من ذلك . وتجرها أيضاً البقر والجمال ، على حال العربة فى ثقلها أو خفتها ، والذى يخدم العربة يركب إحدى الأفراس التى تجرها ، ويكون عليه سرج ، وفى يده

سوط يحركها للمشى ، وعود كبير يصوبها به إذا عاجت عن القصد ، ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب ، مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق . وهى خفيفة الحمل ، وتكسى باللبد ، ويكون فيها طبقان (فتحات) مشبكة ، ويرى الذى بداخلها الناس ولا يرونه ، ويتقلب فيها كما يحب وينام ويأكل ، ويقرأ أو يكتب وهو فى حال سيره . وهناك عربات خاصة تحمل المتاع والأزواد وعليها أقفال لحفظ ما بها . »

أعد ابن بطوطة لنفسه عربة على هذا الطراز ، كان يجرها جمال . وسارت القافلة عبر الطريق « كسير الحجاج فى درب الحجاز ، يرحلون بعد صلاة الصبح ، وينزلون ضحى ، ويرحلون بعد الظهر ، وينزلون عشيا . وإذا نزلوا حلوا الخيل والإبل والبقر عن العربات ، وسرحوها للرعى ليلا ونهاراً ، ولا يعانى أحد مشقة علف الدواب ، لأن المنطقة التى اجتازوها غنية بالنبات الصالح لغذاء الحيوانات . وكان الطريق آمناً ، لا يعترضه لصوص بسبب شدة أحكام المغول . فمن كان يضبط عنده فرس مسروق ، يكلف برده إلى صاحبه مع تسعة أمثاله ، فإن لم يقدر على ذلك أخذ أولاده عوضاً ، وإن لم يكن له أولاد يذبح كما تذبح الشاة .

ولما ابتعد الركب عن القرم واجه مستنقعاً كبيراً خاضت

فيه العربات يوماً كاملا . وكثر خوض الدواب والعربات فى الماء حتى اشتد وحله وزادت صعوبة اجتيازه . فأكرم الأمير ابن بطوطة غاية الإكرام ، حيث سمح له بأن يتقدم بعربته الركب حتى لا يعانى من متاعب الطريق . وأخيراً وصل الركب فى الطريق مدينة أزاق ، حيث استراح بها بعض الوقت قبل استئناف السفر .

وخرج الناس ورؤساء المدينة لاستقبال الأمير ، وبسطت له فرش من حرير ليمشى عليها ، فقدم الأمير على نفسه ابن بطوطة ، ودعاه لأن يسبقه فى المشى عليها ، ليبين للناس قدر هذا الضيف العظيم الذاهب إلى خان المغول . وانتهز ابن بطوطة فرصة الإقامة بهذه المدينة وأخذ فى مشاهدتها ودراسة أحوالها ، شأنه فى كل البلاد التى يقف بها فى رحلته .

* * *

شاهد ابن بطوطة بهذه المدينة كثرة الخيول ورخص أثمانها ، وأنها تنقل إلى بلاد الهند حيث تباع هناك . فذكر أن ما ينقل منها إلى الهند فى المرة الواحدة أكثر من ستة آلاف فرس ، ولكل تاجر فى هذا القطيع بين المائة والمائتين أو أكثر من ذلك . ويستأجر التاجر لكل خمسين من الفرس راعياً يقوم بالعناية عليها ، ويرعاها كالغنم . فيركب فرساً منها

وبيده عصا طويلة فيها حبل ، فإذا أراد أن يقبض على فرس منها اقترب منه بالفرس الذى ركبه ، ورمى الحبل فى عنقه وجذبه فيركبه ويترك الآخر . وذكر ابن بطوطة أن الهند تبتاع هذا النوع من الخيول لقوتها ومقدرتها على تحمل المشاق ، على حين تستورد خيول السباق من اليمن وعمان وفارس .

ثم استأنف الركب سيره حتى بلغ مدينة الماجر بالقوقاز ، حيث قابل بها ابن بطوطة تاجراً يهودياً من أهل الأندلس ، يتكلم العربية . فسأله ابن بطوطة عن بلاده وكيف جاء إلى هنا . فذكر له هذا التاجر أنه وصل إلى هنا براً ، وأن رحلته استغرقت أربعة شهور .

وعلى أربعة أيام من مدينة الماجر بلغ ابن بطوطة معسكر خان المغول ، وكان عبارة عن مدينة متنقلة فى موضع يقال له « بش دغ » ، ووصفها قائلا « رأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها ، فيها المساجد والأسواق ، ودخان المطبخ صاعد فى الهواء ، وهم يطبخون فى حال رحيلهم ، والعربات تجرها الخيل بهم ، فإذا بلغوا المنزل ، نزلوا البيوت عن العربات ، وجعلوها على الأرض ، وهى خفيفة المحمل . وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت . »

* * *

وتشرف ابن بطوطة بمقابلة خان المغول محمد أوزبك ، وكان على دين الإسلام ، ويعمل على نشر رايته فى البلاد التابعة لمدينة القسطنطينية . وشاهد عن كثب حياة هذا السلطان الخاصة ، وما فيها من مباهج . فذكر أنه يصطحب معه نساءه وكبار رجال دولته ، وتسمى زوجته بالخاتون ، ونسوته جميعاً بالخواتين . فإذا أراد أن يكون عند واحدة منهن بعث إليها يعلمها بذلك ، فتتهيأ له . وكان من عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة ومعه نسوته لاستقبال رعاياه ، ودراسة أحوالهم . فتنصب له قبة مزينة بالذهب ، عبارة عن قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب ، وفى وسطها مقعد من خشب يقعد السلطان عليه ، ويجلس حوله نسوته وأولاده ، ثم يحيط بهم كبار رجال الدولة . وبعد ذلك يسمح للناس بالدخول عليه للتحية ، ويظل المجلس منعقداً إلى بعد صلاة العصر ، حيث يعود كل شخص إلى مقره .

* * *

وأعجب ابن بطوطة بنظام الحياة التى سارت عليها زوجات السلطان . فكان موكب الخاتون أو الزوجة عبارة عن عربة عليها قبة مزينة بالذهب والفضة ، تجرها خيول مجللة بأثواب الحرير المذهب ، ويركب خادم العربة أحد الخيول ، على

حين تجلس الخاتون فى عربتها ، وعن يمينها امرأة من حاشيتها تسمى « أولو خاتون » أى الوزيرة ، وعن شمالها امرأة أخرى تسمى كجك خاتون أى الحاجبة ، وبين يديها ست من الجوارى الصغار يقال لهن البنات ، فائقات الجمال ، متناهيات الكمال ، ومن ورائها ثنتان منهن تستند إليهن ، وعلى رأس الخاتون تاج صغير محلى بالجواهر ، بأعلاه ريشة طائر ، وعليها ثياب حرير مرصعة بالجوهر . وبين يدى الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان ، قد لبسوا ثياب الحرير ، وبيد كل واحد منهم عمود ذهب .

على أن ابن بطوطة عمد إلى الذهاب إلى بلاد الهند ، التى بلغت شهرتها أقاصى بلاد المغول . فسار فى ركب تجارى مخترقاً وسط آسيا حتى دخل هذه البلاد الرائعة ، وبدأ سلسلة جديدة من مشاهداته .

٩
ابن بطوطة فى الهند

شعب جديد

عندما دخل ابن بطوطة بلاد الهند عادت به الذاكرة إلى تلك الفترة الأولى التى أخذ الإسلام يشق فيها طريقه إلى هذه الرقعة الحافلة بألوان المدنيات القديمة . فكانت الجهات التى بدأ بزيارتها أولى البقاع التى استولى عليها المسلمون حين أرسل الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق جيشاً تحت قيادة ابن عمه محمد بن القاسم سنة ٨٩ هـ لفتح السند .

ونجح محمد بن القاسم ابن عم الحجاج فى إخضاع السند وهى الوادى الأدنى ودلتا نهر السند . وكان ثغر الديبل (كراتشى الحالية) من المدن التى استولى عليها المسلمون ، وحطموا بها تمثالا لبوذا كان ارتفاعه يبلغ أربعين ذراعاً . واستولى القائد المسلم كذلك على البيرون ، ومكانها الآن حيدر آباد الحديثة ، ووصلت الفتوحات إلى مدينة الملتان فى جنوب البنجاب .

وكان فى مدينة الملتان مزارٌ مقدس للإله بوذا ، يدعى البد ، تهدى إليه الأموال وتنذر له النذور ، ويحج إليه أهل السند ، فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده . وكان سدنة هذا المزار أو القائمون على حراسته يلبسون الصنم جلداً أحمر لا يظهر منه إلا عينان عبارة عن جوهرتين كبيرتين ، وعلى رأسه إكليل ذهب ، والصنم متربع على سرير ، وذراعاه على ركبتيه .

وقد ظلت الفتوح الإسلامية بالسند غير مستقرة الأوضاع بعد عودة القائد المسلم ، حتى القرن العاشر الميلادى ، إذ بدأ «غزو» جديد فى عهد محمود الغزنوى سلطان الدولة الغزنوية التى قامت فى بلاد الأفغان واستقلت عن الخلافة العباسية . وكانت "غزنة" عاصمة هذه الدولة تقع فوق هضبة مرتفعة تشرف على سهول الهند الشمالية ، والتى يمكن الوصول إليها عن طريق وادى كابل الذى سلكه ابن بطوطة حين دخل الهند . وكان لهذا الموقع أثر كبير فى تشجيع محمود الغزنوى على القيام بحملات كبرى فى الهند فيما بين سنتى ١٠٠١ — ١٠٢٤ م ، خاض غمار سبع عشرة حملة على هذه البلاد .

وأدت حملات محمود الغزنوى إلى ضم البنجاب وحاضرته "لاهور" ، وكذلك الملتان وجزء من السند إلى بلاده . فتوطد

بذلك الإسلام فى بلاد البنجاب منذ ذلك الوقت بشكل قوى متين . وعاد محمود من غزواته محملا بغنائم وفيرة من معابد الهندوس ، وغدا فى نظر معاصريه محطم الأصنام ، وحامى حمى الإسلام الصحيح .

ومهدت بذلك حملات الغزنويين فى الهند الطريق إلى تطور حياة المسلمين فى الجهات التى استقروا بها . فغدت لهم إمارات بالهند ، تعلو وتنخفض حسب التقلبات السياسية ، وتستقل فى شئونها تارة كلما سنحت لها الظروف . وظهر من أولئك الحكام الذين استقلوا بكافة البلاد التى سكنها المسلمون فى شمال الهند حكام مدينة دهلى . وكانت هذه الحاضرة الجديدة مقصد أنظار ابن بطوطة ، و بدأ بذلك رحلته فى الهند .

مدينة دهلى

دخل ابن بطوطة مدينة دهلى فى فترة كان فيها السلطان غائباً خارجها ، فاستقبله حاجب الغرباء ويدعى الشريف « المازندرانى » ، واصطحبه إلى دار الضيافة . ووصف ابن بطوطة هذه الدار قائلا : « ولما وصلت إلى الدار التى أعدت لنزولى وجدت فيها ما يحتاج إليه من فرش وبسط وحصر ، وأوان

وسرير الرقاد . وأسرتهم بالهند خفيفة الحمل ، يحمل السرير منها الرجل الواحد ، ولابد لكل أحد أن يستصحب السرير فى السفر ، يحمله غلامه على رأسه ، وهو أربع قوائم مخروطة ، يعرض عليها أربعة أعواد ، وتنسج عليها ضفائر من الحرير أو القطن ، فإذا نام الإنسان عليه لم يحتج إلى ما يرطبه به ، لأنه يعطى الرطوبة من ذاته . وجاءوا مع السرير بمضربيتين ومخدتين ولحاف ، كل ذلك من الحرير . وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللحف وجوهاً بيضا تغشيها من كتان أو قطن ، فمتى توسخت غسلوا الوجوه المذكورة ، وبقى ما فى داخلها مصوناً . »

* * *

ونال ابن بطوطة فى دار الضيافة ما لا ومؤناً بقدر ما احتاج إليه ، ولكنه صمم على أن ينتهز فرصة غياب السلطان ، ويزور المدينة ويشاهد ما بها قبل التشرف بمقابلة السلطان . وكانت دهلى إذ ذاك مدينة كبيرة المساحة والعمران ، تنقسم إلى أربعة أقسام يحيط بها سور واحد . « والسور المحيط بمدينة دهلى لا يوجد له نظير ، عرض حائطه إحدى عشرة ذراعاً ، وفيه بيوت يسكنها حفاظ الأبواب ، وفيها مخازن للطعام ويسمونها "الأنبارات" ومخازن للعدد . . . ويمشى فى داخل السور

الفرسان والرجال من أول المدينة إلى آخرها . وفيه طبقات مفتحة إلى جهة المدينة يدخل منها الضوء ، وأسفل هذا السور مبنى بالحجارة ، وأعلاه بالآجر ، وأبراجه كثيرة متقاربة . »

وبخارج العاصمة حوض عظيم يشرب منه أهل المدينة ، وماؤه يجمع من ماء المطر ، وطوله نحو ميلين وعرضه نصف الطول . وعلى جانب الحوض أماكن لنزهات الأهالى . وهناك حوض آخر خاص للسلطان ، وعلى جوانبه مساكن أهل الطرب . ثم زار ابن بطوطة مسجد مدينة دهلى، وهو من أعظم الآثار الإسلامية بها . وكان من قبل معبداً وثنياً حول إلى مسجد بعد انتشار الإسلام بالهند، وحيطانه وسقفه من الحجارة البيضاء ، وعند الباب الشرقى من أبواب المسجد صنمان كبيران جداً من النحاس ، مطروحان بالأرض ، قد ألصقا بالحجارة ، ويطأ عليهما كل داخل إلى المسجد أو خارج منه . واسترعى نظر ابن بطوطة بهذا المسجد صومعة فى الصحن الشمالى ، وكانت شديدة الارتفاع وصفها ابن بطوطة قائلا : « صعدتها مرة فرأيت معظم دور المدينة ، وعاينت الأسوار على ارتفاعها وسموها منحطة ، وظهر لى الناس فى أسفلها كأنهم الصبيان الصغار . »

مقابلة ابن بطوطة لسلطان دهلى

لاحظ ابن بطوطة استعداد مدينة دهلى لاستقبال السلطان عائداً من سفره ، فزينت الفيلة ، ووضع عليها قباب من الخشب مكسوة بالحرير ، ومعهن بعض الراقصات . وزينت حيطان الشارع الذى يمر به السلطان من باب المدينة إلى باب القصر بثياب الحرير . ولم يلبث أن تقدم موكب السلطان يمشى أمامه المشاة من عبيده ، وخلفهم فيلة يرمى من فوقها بالدنانير والدراهم ، فيلتقطها الناس ، كما وزعت عليهم أوان مملوءة بشراب ماء الورد .

* * *

أخذ ابن بطوطة يستعد لمقابلة السلطان ويسأل عن التقاليد الواجب اتباعها فى مثل هذه المناسبة . فعلم أنه لابد لكل قادم على هذا الملك أن يقدم هدية بين يديه حين المقابلة ، ويكافئه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة . وأدى ذلك إلى أن صار التجار ببلاد السند والهند يعطون لكل قادم على السلطان الآلاف من الدنانير دينا ويجهزونه بما يريد أن يهديه إليه ، أو يتصرف فى المال بنفسه وفق ما يريد من شراء الهدايا . فإذا

تمت المقابلة ونال الزائر عطاء السلطان الوفير سدد ديونه واحتفظ بالباقى لنفسه وكان فى ذلك ربح وفيرٌ للتجار . ولذا سلك ابن بطوطة تلك السبيل منذ دخوله بلاد السند ، فاشترى من تاجر ثلاثين فرساً وجملا ، وكذلك بعض المماليك ليقدمها للسلطان .

وفى الفترة التى أعد فيها ابن بطوطة هداياه للسلطان ، أخذ يسأل عن طباعه وأخلاقه ، وسيرته وطريقة حياته ليستطيع أن يكسب رضاه بالابتعاد عما يكره ، وأداء ما يحب . وكان السلطان الجالس على عرش دهلى إذ ذاك محمد شاه ، عرف ابن بطوطة الشيء الكثير عن حياته ، فضلا عن دراسته لهذا السلطان بنفسه فيما بعد . فعلم ابن بطوطة أن هذا الملك أحب الناس فى إسداء العطايا وإراقة الدماء كذلك ، إذ سرت عند الناس حكاياته فى الكرم والشجاعة وحكاياته فى الفتك والبطش. وهو يمتاز إلى جانب ذلك بإنعامه الجزيل على الغرباء ، وتفضيلهم على أهل الهند وإيثارهم وإجزال الإحسان لهم ، وهو يسبغ عليهم الإنعام ، ويوليهم أرفع المناصب ، وبلغ من إحسانه إليهم أن سماهم الأعزة ، ومنع من أن يدعوا بالغرباء ، لأن الإنسان إذا دعى غريباً «انكسر خاطره وتغير حاله» .

وفى رابع شوال حدد ميعاد مقابلة ابن بطوطة للسلطان فى

قصره . فخرج ابن بطوطة إلى القصر ومعه هديته . وحين بلغ باب القصر شاهد وفوداً كثيرة منتظرة ومعها هداياها . ثم بدأوا فى الدخول على السلطان كل حسب مرتبته ، وأخيراً جاء دور ابن بطوطة . فدخل القصر ووصف ردهاته وطريقة جلوس السلطان لاستقبال الزائرين . فذكر ابن بطوطة أن للقصر أبواباً كثيرة ،أما الباب الأول عليه جملةمن الرجال معهم الأبواق والطبول يضربونها إذا جاء أمير أو كبير مرددين نغم جاء فلان ، جاء فلان . وكذلك أيضاً فى البابين الثانى والثالث . وبين هذين البابين الأخيرين دهليز كبير به غرف للحفاظ وحرس المدخل . وعند الباب الثالث يجلس كتبة لا يسمحون لأحد باجتيازه إلا إذا كان يحمل موافقة السلطان . ويكتبون الساعة التى حضر فيها الزائر ومن معه .

وعندما دخل ابن بطوطة من الباب الثالث رأى ساحة فسيحة بها عمد كثيرة من الخشب ، لها سقف خشب كذلك ، منقوش أبدع نقش ، والسلطان جالس فى صدر هذه القاعة ومعه حاشيته . « وجلوسه على مسطبة مفروشة بالبياض ، فوقها مرتبة ، ويجعل خلف ظهره مخدة كبيرة .» وعن يمينه متكأ ، وعن يساره مثل ذلك . وقعوده كجلوس الإنسان للتشهد فى الصلاة ، وهو جلوس أهل الهند كلهم . فإذا جلس وقف

أمامه الوزير ، ووقف الكتاب خلف الوزير ، وخلفهم الحجاب . . . ثم يقف على رأس السلطان رجل بيده المذبة يشرد بها الذباب. »

وقد سبق ابن بطوطة فى مقابلة السلطان عمال الدولة وشاهد عادتهم فى تقديم الهدايا له . إذ يتقدم العمال بعض الخدم حاملين الهدايا أمام الناس ، وبحيث يراها السلطان . ثم يتقدم كل موظف من السلطان ويصافحه ، وإن كان ممن يستحق التعظيم عانقه السلطان ، ويطلب بعض هديته ، ويقلبها بيده ويظهر استحسانه بها .

ولما جاء دور ابن بطوطة أخذ السلطان بيده وصافحه وأحسن له القول ، وقال له بالفارسية « حلت البركة ، قدومك مبارك ، أعطيك من الإنعام ما يسمع به أهل بلادك » . ثم سأله عن بلاده وأجابه ابن بطوطة عما سأل . وبذلك انتهى الاستقبال الأول الذى حظى به ابن بطوطة لدى سلطان دهلى .

ابن بطوطة يعين قاضياً على دهلى

بعد خروج ابن بطوطة من حضرة السلطان جاءه مندوب من قبل السلطان يسأله عن نوع العمل الذى يرغب الاشتغال به

فى الهند . وكان مع ابن بطوطة فى ذلك الوقت بعض الأشخاص الذين استقبلهم السلطان ، ومكثوا فى انتظار إنعاماته . فقال لهم مبعوث السلطان : « يقول لكم السلطان من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الإمارة أو القضاء أو التدريس أو المشيخة أعطيته ذلك . » فسكت الجميع لأنهم كانوا يطمعون فقط فى الحصول على عطاء السلطان والعودة إلى بلادهم . عندئذ خاطب مندوب السلطان ابن بطوطة باللغة العربية مستفهماً عن نوع العمل الذى يريده . فأجابه ابن بطوطة قائلا : « أما الوزارة والكتابة فليست شغلى ، وأما القضاء والمشيخة ، فشغلى وشغل آبائى . »

ولما بلغ السلطان ما ذكره ابن بطوطة استدعاه لمقابلته . وبعد أن سلم ابن بطوطة على السلطان قال له كبير الأمناء : « قد جعلك السلطان قاضى دار الملك فى دهلى ، وجعل مرتبك اثنى عشر ألف دينار فى السنة . . . وأمر لك باثنى عشر ألفاً نقداً ، تأخذها من الخزانة غداً إن شاء الله ، وأعطاك فرساً بسرجةوبلجامه » ثم أخذ بعد ذلك بيد ابن بطوطة وقدمهللسلطان ، الذى قال له « لا تحسب قضاء دهلى من أصغر الأشغال ، هو أكبر الأشغال عندنا . » وعين معه السلطان بعض المساعدين ؛ ثم تلطف فى القول مع ابن بطوطة ومن معه قائلا : « أنتم

شرفتمونا بقدومكم ، فما نقدر على مكافأتكم ، فالكبير منكم مقام والدى ، والكهل مقام أخى ، والصغير مقام ولدى ، وما فى ملكى أعظم من مدينتى هذه أعطيكم إياها . » فشكره ابن بطوطة وانصرف .

نساء الهندوس اللائى يحرقن أنفسهن

لم تصرف حياة الوظيفة ابن بطوطة عن التجوال فى بلاد الهند ومشاهدة عاداتها وتقاليدها ، وإرضاء ما طبعت عليه نفسه من حب للاستطلاع . واسترعى نظره فى أثناء رحلاته بالهند مشاهدة نساء الهندوس يحرقن أنفسهن بعد وفاة أزواجهن ، فقال « رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ، ومعهم بعض أصحابنا ، فسألتهم ما الخبر ، فأخبرونى أن كافراً من الهنود مات ، وأججت النار لحرقه ، وامرأته تحرق نفسها معه ، ولما احترقا جاء أصحابى وأخبرونى أنها عانقت الميت حتى احترقت معه .

على أن ابن بطوطة لم يلبث أن شاهد بنفسه أمثال هذه الحوادث ، فقال « وبعد ذلك كنت فى تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة ، والناس يتبعونها من مسلم وكافر ،

والأطبال والأبواق بين يديها ، ومعها البراهمة ، وهم كبراء الهنود ، وإذا كان ذلك ببلاد السلطان استأذنوا السلطان فى إحراقها ، فيأذن لهم ، فيحرقونها . ثم اتفق بعد مدة أنى كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار ، وأميرها مسلم ، وعلى مقربة منها الكفار العصاة ، فقطعوا الطريق يوماً ، وخرج الأمير المسلم لقتالهم ، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار ، ووقع بينهم قتال شديد ، مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر ، وكان لثلاث منهم ثلاث زوجات ، فاتفقن على إحراق أنفسهن .

وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر متروك إليها غير واجب ، ولكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك ، ونسبوا إلى الوفاء ، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب ، وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة ، لعدم وفائها ، ولكنها لا تكره على إحراق نفسها .

ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللائى ذكرناهن على إحراق أنفسهن ، أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام فى غناء وطرب ، وأكل وشرب ، كأنهن يودعن الدنيا ، ويأتى إليهن النساء من كل جهة . وفى صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس ، فركبته وهى متزينة متعطرة ، وفى يمناها جوزة نارجيل تلعب بها ، وفى يسراها مرآة تنظر فيها وجهها ، والبراهمة يحفون بها ،

وأقاربها معها ، وبين يديها الأطبال والأبواق ، وكل إنسان من الكفار يقول لها : أبلغى السلام إلى أبى أو أخى أو أمى أو صاحبى ، وهى تقول : نعم وتضحك إليهم . وركبت مع أصحابى لأرى كيفية صنعهن فى الاحتراق . فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال ، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار ، متكاثف الظلال ، وبين أشجاره أربع قباب ، فى كل قبة صنم من الحجارة ، وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال ، وتزاحمت الأشجار ، فلا تتخللها الشمس ، فكأن ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم .

ولما وصلت النسوة إلى تلك القباب ، نزلن إلى الصهريج ، وانغمسن فيه ، وجردن ما عليهن من ثياب وحلى فتصدقن به ، وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط ، فربط بعضه على وسطها ، وبعضه على رأسها وكتفيها ، والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج فى موضع منخفض ، وصب عليها زيت زاد فى إشعالها . وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزم من الحطب الرقيق ، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار ، وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجىء المرأة ، وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إليها ، فرأيت إحداهن لما

وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدى الرجال بعنف وقالت لهم ، « أبالنار تخوفوننى ؟ ، أنا أعلم أنها نار محرقة » ، ثم جمعت يديها على رأسها ، احتراماً للنار ، ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضربت الأطبال والأبواق ، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها ، وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك ، وارتفعت الأصوات وكثر الضجيج . ولما رأيت ذلك كدت أسقط من فرسى ، لولا أصحابى تداركونى بالماء ، فغسلوا وجهى وانصرفت »

نهر الكنج المقدس ورماد الجثث المحرقة

وأشاد ابن بطوطة بتقديس الهنود لنهر الكنج : « وهو الذى إليه يحجون ، وفيه يرمى برماد الذين يحرقون ، وهم يقولون إنه من الجنة ، وإذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره ، لا تظنوا أنى أغرق نفسى لأجل شىء من أمور الدنيا ، أو لقلة مال ، وإنما قصدى التقرب إلى « كساى » ، اسم الله عز وجل بلسانهم ، ثم يغرق نفسه ، فإذا مات ، أخرجوه وأحرقوه ، ورموا برماده فى البحر المذكور . »

السحرة ببلاد الهند

وأعجب ابن بطوطة ببراعة السحرة الذين يدعون « الجوكية » وتحدث عنهم قائلا : « وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب ، منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب ، وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض ، وتبنى عليهم ، فلا يترك له إلا موضع يدخل منه الهواء ، ويقيم بها الشهور . . . وهم يُركّبون حبوباً، يأكلون الحبة منها لأيام معلومة أو أشهر ، فلا يحتاج فى تلك المدة إلى طعام ولا شراب ، ويخبرون بأمور مغيبة . والسلطان يعظمهم ويجالسهم ، ومنهم من يقتصر فى أكله على البقل ، ومنهم من لا يأكل اللحم . . . والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة ، ولا حاجة لهم فى الدنيا وزينتها . . . ويقولون للمرأة من السحرة « كفتار » .

وذكر ابن بطوطة بعض نوادر هؤلاء السحرة ، ومنها أن امرأة منهم أى كفتار ، اتهمت بقتل صبي بأن أكلت قلبه . وأتى الناس بالصبي الميت والمرأة إلى منزل ابن بطوطة ، باعتباره القاضى . لكنه أمرهم بالذهاب إلى نائب السلطان ليختبر أمر المرأة بنفسه . فأمر نائب السلطان باختبارها بأن ملأوا أربع

جرات بالماء ، وربطوها بيديها ورجليها ، وطرحوها فى النهر فلم تغرق ، فعلم أنها كفتار ، إذ لو لم تكن كفتار لغاصت فى الماء . فأمر بإحراقها ، وجاء أهل البلد رجالا ونساء ، فأخذوا رمادها ، وزعموا أنه من تبخر به أمن فى تلك السنة من سحر أية كفتار .

وكذلك وصف ابن بطوطة حفلا عرض فيه بعض أولئك السحرة أعمالهم ، فقال : « بعث إلى السلطان يوماً ، وأنا عنده بالحضرة ، فدخلت عليه ، وهو فى خلوة ، وعنده بعض خواصه ، ورجلان من هؤلاء الجوكية . وهم يلتحفون بالملاحف ، ويغطون رؤوسهم ، لأنهم ينتفونها ، كما ينتف الناس آباطهم . فأمرنى بالجلوس ، فجلست ، فقال لهما ، « إن هذا العزيز من بلاد بعيدة ، فأرياه ما لم يره ؟ » فقالا ، نعم . فتربع أحدهما ثم ارتفع عن الأرض حتى صار فى الهواء فوقنا متربعاً ، فعجبت منه ، وأدركنى الوهم ، فسقطت إلى الأرض ، فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده ، فأفقت وقعدت ، وهو على حاله متربع . فأخذ صاحبه نعلا من شكارة كانت معه ، فضرب بها الأرض كالمغتاظ ، فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع ، وجعلت تضرب فى عنقه ، وهو ينزل قليلا قليلا ، حتى جلس معنا . »

على أن ابن بطوطة أبى البقاء فى الهند كثيراً بعد مشاهداته السالفة ، ولا سيما أن العلاقات ساءت بينه وبين سلطان دهلى . فقرر مغادرة البلاد ، وقصد زيارة جزر « الملديف » ، القريبة من الهند ، لما لها من شهرة عالية .

١٠

جزر الهدوء والسلام
جزائر ذيبة المهل

سمع ابن بطوطة أن بالقرب منه جزراً تسمى جزائر « ذيبة المَهَل » ، وهى جزائر الملديف الحالية ، تشتهر بالجمال الطبيعى الساحر والهدوء الشامل والنساء الجميلات . فصمم على زيارتها ولا سيما أنها لاتبعد عن ميناء قاليقوط كثيراً . وتصادف أنه وجد بهذا الميناء مركباً متجهاً إلى عاصمة هذه الجزائر ، فاتفق مع صاحبه على حمله إلى هذه الجزيرة . ولما اقتربت السفينة من هذه الجزر استولى العجب على ابن بطوطة ، وذكر أنها إحدى عجائب الدنيا ، فمجموعة هذه الجزر « مستديرة كالحلقة ، لها مدخل كالباب ، لا تدخل المراكب إلا منه . وإذا وصل المركب إلى المدخل فلابدّ له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر ، وهى من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التى بإحداها عند الخروج من الأخرى ، فإن أخطأ المركب فى سيره لم يمكنه دخولها وحمله الريح إلى خارجها . »

شجرة النارجيل

ولم يكن هذا الشجر الكثير الذى تكتظ به جزر ذيبة المهل غير شجر النارجيل ، وأسهب ابن بطوطة فى وصفه لما له من أهمية قصوى فى الحياة الاقتصادية لهذه الجزر . فذكر أن هذا الشجر يشبه النخل لا فرق بينهما ، إلا أن هذه تثمر جوزاً والنخل تثمر بلحاً . وجوز النارجيل يشبه رأس ابن آدم ، لأن فيه شبه العينين والفم ، وعليها شبه الشعر . وهم يصنعون منه حبالا يخيطون بها المراكب عوضاً عن المسامير من الحديد ويصنع هذه الحبال نساء هذه الجزر ، وتخاط بها مراكب الهند . وذلك لأن البحر ،فى تلك المناطق كثير الحجارة ، فإن كان المركب مسمراً بمسامير الحديد وصدم بالحجارة انكسر ، وإذا كان مخيطاً بالحبال ساعدت الرطوبة على تقليل حدة الاصطدام .

وثمار هذا الشجر يكون أخضر فى أول الأمر ، وإذا قطع بالسكين منه قطعة وفتح رأس الجوزة سال منها ماء شديد الحلاوة . أما ما فى داخل الجوزة فطعمه كطعم البيضة إذا شويت ولم يتم نضجها تماماً ، وقد أحب ابن بطوطة هذا النوع من الطعام وأقبل عليه طيلة العام ونصف العام الذى قضاها فى هذه الجزر .

وإلى جانب ذلك كان يصنع من هذا الجوز الزيت والحليب والعسل . فأما كيفية صناعة العسل فهو أن يصعد عمال مخصوصون إلى النخلة صباحاً ومساء ويأخذون ماء الجوز فى قدور خاصة ثم يغلى هذا الماء حتى يصير عسلا . أما صنع الحليب فيقوم به النساء اللائى يجلسن فوق كراسى خاصة ، وبيد كل منهم عصاً فى أحد طرفيها حديدة ، فيفتحون فى الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة ، ويجرشون ما فى باطن الجوزة ، وكل ما ينزل منها يجمع فى صحفة حتى لا يبقى فى داخل الجوزة شىء ، ثم يخلط بالماء ويقلب حتى يصير كلون الحليب بياضاً وطعماً ، أما الزيت فيضع من الجوز بعد تمام نضجه ، إذ يزيلون قشره ، ويقطعونه قطعاً ، ويجعل فى الشمس ، فإذا ذبل طبخ فى القدور ، واستخرج زيته الذى يستخدم فى الطبخ .

إكرام جديد

وصلت السفينة التى كانت تقل ابن بطوطة إلى إحدى جزر « ذيبة المهل » وكانت تدعى كنلوس . ولاحظ ابن بطوطة أن سكانها يدينون بالدين الإسلامى شأن سائر الجزر الأخرى ،

وذكر أن الإسلام انتشر فيها على يد رجل مغربى وصل إليها . وقد لقى ابن بطوطة من فقهاء هذه الجزيرة كل كرم وحفاوة .

ثم تابع ابن بطوطة رحلته حتى بلغ جزيرة المهل عاصمة الجزر بعد عشرة أيام من وصوله جزيرة كنلوس . وكان قد أخفى شخصيته ، وأنه من الفقهاء وممن سبق له الاشتغال بالقضاء لدى سلطان دهلى ، غير أن بعض الفضوليين كتبوا إلى السلطات فى هذه الجزيرة بحقيقة أمره . فما إن وطئ أرض جزيرة المهل حتى بادرت السلطات إلى الاحتفاء به . وكان يتصرف فى شئون هذه الجزر امرأة تدعى خديجة آل إليها السلطان بعد أن انقرض جميع الذكور من سلالة بيتها . وكانت متزوجة من أحد وزراء دولتها وإليه آلت مقاليد الأمور .

وكان قصر السلطانة خديجة معداً لاستقبال ابن بطوطة ، لأن السلطات رأت أن تستخدمه فى تولى منصب القضاء . وجهد ابن بطوطة فى إصلاح بعض العادات المستهجنة فى هذه الجزر ، وكان أهم هذه الأعمال القضاء على بقاء المرأة المطلقة فى بيت زوجها السابق حتى تتزوج غيره . وقد كان اشتغال ابن بطوطة بالقضاء عاملا حفزه على دراسة النواحى الاجتماعية فى هذه الجزر ، حتى يستطيع الفصل فيما يعرض له من شئون . وكان أهم شىء استرعى نظره هو طبيعة النساء فى

هذه الجزر ، وعلاقتهن بالرجال ، وأن الحياة بينهم تسودها المودة والهدوء والسلام .

الطمأنينة والنساء

أعجب ابن بطوطة بما يسود أهل هذه الجزر من هدوء ، وما هم عليه من صلاح وتقى ، إذ هم آمنون من شر إغارات القراصنة ، ولا يجرؤ أحد على إيقاع الأذى بهم ، لما شاع عنهم من أنهم أناس يتقبل الله دعاءهم وينتقم لهم من المعتدين « فلا تطرقهم لصوص الهند ، ولا تذعرهم ، لأنهم جربوا أن من أخذ منهم شيئاً أصابته مصيبة عاجلة ، وإذا جاءت سفن العدو إلى ناحيتهم لم يعرضوا لأحد منهم بسوء ، وإن أخذ أحد منهم شيئاً ، ولو ليمونة ، عاقبه أميرهم ، وضربه الضرب المبرح خوفاً من عاقبة ذلك ، ولولا هذا لكانوا أهون الناس على قاصدهم بالقتال ، لضعف بنيتهم . »

وانصرف سكان هذه الجزر إلى العناية بأنفسهم ومظهرهم ، فأكثرهم يغتسل مرتين فى اليوم تنظفاً من شدة الحر وكثرة العرق . ويكثرون من الأدهان العطرية ، فكان من عادتهم كل صباح أن تأتى المرأة إلى زوجها أو ابنها ومعها المكحلة وماء الورد

والعطور . فيكحل الرجل عينيه ، ويمسح نفسه بماء الورد والعطور ، مما جعل بشرتهم مصقولة . ولباسهم الفوط ، فهم يشدون الفوطة منها على أوساطهم بدلا من السراويل ، ويضعون على ظهورهم شيئاً أشبه بالحرام ، وبعضهم يجعل على رأسه عمامة أو منديلا صغيراً .

مظهر النساء

غير أن حالة النساء فى هذه الجزر استرعت نظر ابن بطوطة أكثر من الرجال . إذ شاهدهن يسرن دون غطاء على رؤوسهن ، ويمشطن شعورهن ويجمعنها إلى جهة واحدة . ولا يلبسن إلا فوطة واحدة تسترهن من السرة إلى أسفل ، أما سائر أجسادهن فتبقى مكشوفة ، ثم يسرن على هذا النحو فى الأسواق وغيرها . وقد جهد ابن بطوطة فيما بعد حين ولى منصب القضاء فى هذه الجزر أن يقضى على هذا العادة المتفشية بين النساء ، وأمرهن بارتداء ملابس كاملة ، ولكن ذهبت جهوده أدراج الرياح .

وإلى جانب ذلك لاحظ ابن بطوطة مغالاة النساء فى استعمال الحلى ، فكن يكثرن من لبس الأساور حتى إن

المرأة منهن تجعل فى ذراعيها من الأساور ما يملأ بين الكوع والمرفق . وكانت معظم هذه الأساور من الفضة ، إذ اختص نساء السلطان وأقاربه باستخدام الأساور من الذهب . وفضلا عن ذلك كن يضعن الخلاخيل فى أرجلهن وقلائد الذهب على صدورهن .

وانفردت عامة النسوة فى هذه الجزر بتقليد كان موضع دهشة ابن بطوطة ، فكن يؤجرن أنفسهن للخدمة بمنازل الأثرياء مقابل عدد معين من الدنانير ، وعلى مستأجرهن الإنفاق عليهن ، دون أن تجد النسوة عيباً فى ذلك . فكان يوجد فى دار الرجل الغنى عشرة أو عشرون امرأة ، يقمن بأعمال الخدمة ، وكل ما تكسره من الأوانى يحسب عليها قيمته . وإذا أرادت إحداهن الخروج من دار إلى دار أخرى ، أعطاها رب البيت الذى تركت خدمته ما تستحقه من الدنانير ، وتدعها عند صاحب المنزل الجديد الذى التحقت بخدمته .

الزواج بالنساء

وكان الزواج بأولئك النسوة من أهم الملاحظات التى أسهب ابن بطوطة فى الحديث عنها . فكان الزواج بهن سهلا ميسوراً لقلة الصداق ، فضلا عما اشتهر به أولئك النساء من حسن

العشرة . فإذا قدمت مركب إلى هذه الجزر تزوج ركابها بنساء الجزيرة التى يلقون عندها مرساهم .

وكان الزواج يتم فى أسرع وقت ، إذ كان أهل الجزيرة يخرجون إلى الشاطئ لاستقبال السفينة ويعرضون خدماتهم على ركابها . ثم يعودون إلى منازلهم حاملين أمتعة النزلاء ، الذين قبلوا النزول عندهم ، وبعد ذلك يساعدون الركاب على الزواج بمن يشاءون من النساء ، أى أن ذلك عبارة عن نوع من زواج المتعة . وقال ابن بطوطة عن هذا الزواج وما به من بهجة : « ولم أر فى الدنيا أحسن معاشرة من أولئك النساء ، ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها إلى سواها ، بل هى تأتيه بالطعام ، وترفعه من بين يده ، وتغسل يده ، وتأتيه بالماء للوضوء ، وتضم رجليه عند النوم . ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها ، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة . ولقد تزوجت بها نسوة فأكل معى بعضهن بعد محاولة ، وبعضهن لم تأكل معى ، ولا استطعت أن أراها تأكل ، ولا نفعتنى حيلة فى ذلك . »

ولم يكن نساء هذه الجزر يخرجن مع أزواجهن حين يأتى ميعاد عودتهم إلى بلادهم ، إذ كانت عادة أولئك النساء ألا يغادرن بلادهن أبداً ، ويستلزم ذلك طلاقهن ، راضين فى مقابل ذلك بالقليل من النفقة .

زواج ابن بطوطة

وكانت قصة زواج ابن بطوطة فى أثناء إقامته بهذه الجزر من أطرف الأحداث التى تصور الحياة الاجتماعية بها تصويراً شائقاً . فمنذ حط رحاله فى جزيرة ذيبة المهل وهو موضع حفاوة أحد وزرائها ويدعى سليمان . إذ منحه هذا الوزير بستاناً ، وبعث له فى اليوم التالى لهذه المنحة بجارية اسمها « قل ستان » أى « زهرة البستان » ، وكانت تعرف اللسان الفارسى ، مما أعجب ابن بطوطة كثيراً ، لأنه كان يجيد هذه اللغة ، ويفضل التفاهم بها على لغة أهل هذه الجزر المحلية . ولم يقف كرم الوزير عند هذا الحد ، وإنما بعث إليه حلياً وثياباً فاخرة .

ولكن ابن بطوطة سرعان ما فهم حقيقة أمر هذا الكرم والإغداق . إذ بعث إليه الوزير رسولا يعرض عليه أن يزوجه ابنته . وقد أبى ابن بطوطة أن يتزوج من ابنة الوزير ، وتطير من ذلك ، حيث توفى رجلان تقدما للزواج بها قبل ليلة الزفاف . وأخذ الاضطراب والقلق يعملان فى نفس ابن بطوطة حتى أصابته الحمى ، وعزم على الرحيل . ولما بلغ الوزير ذلك

بعث يطلب من ابن بطوطة رد جميع الهدايا والمال الذى حصل عليه منه . وبعث إليه رسولا ينصحه سراً بالإقامة وعدم مغادرة الجزيرة . وأدرك ابن بطوطة ألا مناص من البقاء وفضل أن يمكث بالجزيرة برغبته حتى لا يضطر إلى الإقامة بها مكرهاً ، وقبل الزواج من ابنة الوزير على مضض .

وأخذ الوزير بعد ذلك يستعد للاحتفال بعقد القران ، ونصب سرداقاً فخماً يوم عقد القران . ولكن حدث أمر غريب بعد أن اجتمع سائر المدعوين ، إذ لم يحضر الوزير إلى السرادق ، وطال الانتظار بالحاضرين . وهنا همس أحد خاصة الوزير فى أذن ابن بطوطة ذاكراً له أن ابنة الوزير رفضت الزواج منه ، وأن الوزير يعرض عليه إنقاذاً للموقف أن يتزوج بامرأة جميله من نساء القصر . فقبل ابن بطوطة ، ولا سيما أنه كان كارهاً بدوره الزواج بابنة الوزير وقد دفع الوزير الصداق وتم عقد القران . وذكر ابن بطوطة رأيه فى هذه الزيجة المفاجئة قائلا : « ورفعت (أى المرأة التى قبل الزواج بها) إلى بعد أيام ، فكانت من خيار النساء . وبلغ حسن معاشرتها أنها كانت إذا تزوجت عليها تطيبنى وتبخر أثوابى وهى ضاحكة لا يظهر عليها تغير . »

دخول ابن بطوطة فى خدمة الحكومة

بعد أن تم زواج ابن بطوطة بهذه المرأة السالفة حمله الوزير على تقلد منصب القضاء فى جزيرة ذيبة المهل . وكان السبب فى ذلك رغبة السلطات فى الاستفادة من علم ابن بطوطة ، وتفقهه فى الدين . إذ حدث أن اعترض ابن بطوطة على القاضى بهذه الجزيرة لأخذه العشر من قيمة التركات التى يقسمها على أصحابها ، وذكر أن الشرع يبيح له فقط أخذ أجر معلوم بالاتفاق مع الورثة نظير تأديته مهمته . ولذا عزلت السلطات هذا القاضى ، وعينت مكانه ابن بطوطة .

وسجل ابن بطوطة ما قام به من أعمال أثناء توليه منصب القضاء قائلا : « أول ما غيرت من عوائد السوء مكث المطلقات فى ديار المطلقين ، وكانت إحداهن لا تزال فى دار المطلق حتى تتزوج غيره ، فحسمت علة ذلك ، وأتى إلى بنحو خمسة وعشرين رجلا ممن فعل ذلك ، فضربتهم وشهرتهم بالأسواق ، وأخرجت النساء عنهم . ثم اشتددت فى إقامة الصلوات ، وأمرت الرجال بالمبادرة إلى الأزقة والأسواق إثر صلاة الجمعة ، فمن وجدوه لم يصل ضربته وشهرته . وألزمت الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله ، وكتبت إلى جميع الجزائر

بنحو ذلك . وجهدت أن أكسو النساء فلم أقدر على ذلك . »

وكان منصب القاضى يتيح لابن بطوطة إحداث ما يشاء من إصلاحات اجتماعية ، « إذ أمره نافذ كأمر السلطان وأشد ، ويجلس على بساط فى الدار ، وله ثلاثة جزائر يأخذ مجباها لنفسه . » ولذا دأب ابن بطوطة على الاشتراك فى سائر مظاهر الحياة الاجتماعية بهذه الجزر والعمل على إزالة ما بها من شوائب ، وإقرار ما بها من محاسن . وكان من الأمور التى أقرها وأعجب بها الاحتفال بالأعياد .

شاهد ابن بطوطة احتفال سكان جزيرة ذيبة المهل بأحد أعياد الفطر ، واشتراك رجال الحكومة معهم . ففى صبيحة يوم العيد خرج الوزير من داره إلى المصلى ، وجهد كل من الأمراء الذين تقع منازلهم على طريق الوزير فى تزيين دورهم . فغرسوا أمام منازلهم أشجار النارجيل الصغيرة ، ومدوا من شجرة إلى أخرى شرائط ، علقوا فيها الجوز الأخضر . ووقف صاحب كل دار أمام بابه ، وحين يمر الوزير يرمى على قدميه ثوباً من الحرير أو القطن ، فيأخذها عبيد الوزير .

وكان موكب الوزير يسير وسط هذه المظاهر الرائعة ، فيتقدم الوزير الموكب ماشياً على قدميه ، وعليه فرجية مصرية ، وجميع الناس سواه حفاة ، والأبواق والأطبال بين يديه ،

والعساكر أمامه وخلفه ، وجميعهم يكبرون ، وبعد الصلاة عاد الموكب مرة أخرى إلى دار الوزير وانصرف سائر الناس .

مغادرة جزائر المهل

كان اشتغال ابن بطوطة بالقضاء سبباً فى إثارة كراهية كثير من الناس له ، وأخذت عوامل الدس والمؤامرات تعمل عملها لإفساد العلاقات بينه وبين السلطات الرئيسية بالجزيرة . ونجحت الدسائس فى إيقاع الوحشة والفرقة بين ابن بطوطة وأحد الوزراء ويدعى عبد الله بن محمد الحضرمى ، وجاءت شدة الأحكام القضائية التى أصدرها ابن بطوطة وقسوتها عاملا مباشراً فى إيجاد صراع سافر بينهما .

بدأ ذلك العداء حين اشتكى بعض الناس من الوزير ، وأنه مدين لهم ببعض الأموال ، ويطلبون استردادها . إذ تعمد ابن بطوطة إهانة الوزير الذى دأب على إغفال أمره وتأليب الناس عليه ، وروى خطته قائلا : « وكانت عادتى إذا بعثت عن خصم من الخصوم أبعث له قطعة كاغد مكتوبة ، فعندما يقف عليها يبادر إلى مجلس الحكم الشرعى وإلا عاقبته . فبعثت إليه على العادة ، فأغضبه ذلك ، وحقدها لى ، وأضمر عداوتى ، ووكل من يتكلم عنه ، وبلغنى عنه كلام قبيح . »

وتابع ابن بطوطة بعد ذلك امتهان شأن الوزير وتلمس زلاته . فأمر الناس ألا يقدموا له التحية ، وإلا وقع عليهم العقاب . ثم انتهز فرصة رجاء من الوزير للتدخل فى قضية من القضايا وحط من قدر الوزير علانية . إذ قبض على غلام بتهمة ارتكاب جريمة زنا مع إحدى نساء القصر ، وأرسل الوزير يطلب من ابن بطوطة إطلاق سراح الشاب . فانتهز ابن بطوطة ذلك وأمر بمضاعفة عقاب الشاب ، وضربه بقضبان الخيزران التى كانت أشد وقعاً من السياط ، وأمر أن يطاف به فى أنحاء الجزيرة للتشهير به ، ووضع حبل فى عنقه .

ولما علم الوزير بذلك استشاط غضباً ، وجمع الوزراء الأخر والعسكر ، وبعث يستدعى ابن بطوطة . فجاء ابن بطوطة إلى هذا المجلس ولم يقدم التحية للوزير وقال للحاضرين « اشهدوا على أنى قد عزلت نفسى عن القضاء لعجزى عنه . » ثم أغلظ ابن بطوطة فى القول للوزير ، وأعلن أنه سيغادر البلاد .

طلق ابن بطوطة نساءه ، بعد أن طلق الحياة العامة بهذه الجزر ، وعول على متابعة الارتحال والتجوال ، وقد وفق فى الحصول على مركب كان متجهاً إلى جزيرة سيلان . فأقبل على القيام بهذه الرحلة الجديدة ، ومشاهدة هذه الجزيرة التى ارتبط بها أقدم القصص عن آدم أب البشر .

١١
مهبط آدم

اقتربت السفينة التى أقلت ابن بطوطة من جزيرة سيلان ، وطلع عليهم جبلها من بعيد شاهقاً فى الفضاء كأنه عمود دخان . وما أن ألقت السفينة مرساها حتى توجه ابن بطوطة إلى سلطان الجزيرة يلتمس منه الإذن بمشاهدة آثار آدم ، وإشباع غريزة حب الاستطلاع عنده .

وروى ابن بطوطة ما دار بينه وبين سلطان جزيرة سيلان وذهابه لمشاهدة آثارها قائلا : « فقلت للسلطان : ليس مرادى منذ وصلت هذه الجزيرة إلا زيارة القدم الكريمة ، قدم آدم عليه السلام ، وهم يسمونه (بابا) ، ويسمون حواء (ماما) . فقال : هذا هين ، نبعث معك من يوصلك . . . وبعث معى أربعة من الجوكية (رجال يحترفون الشعوذة) ، الذين عادتهم السفر كل عام إلى زيارة القدم ، وثلاثة من البراهمة ، وعشرة من سائر أصحابه ، وخمسة عشر رجلا يحملون الزاد ، وأما الماء فهو بتلك الطريق كثير . »

« ولما صعدنا جبل سرنديب كنا نرى السحاب أسفل منا ، قد حال بيننا وبين رؤية أسفله ، وفيه كثير من الأشجار التى لا يسقط لها ورق ، والأزاهير الملونة والورد الأحمر . . . وفى الجبل طريقان إلى القدم ، أحدهما يعرف بطريق (بابا) ، والآخر بطريق (ماما) ، يعنون آدم وحواء عليهما السلام . فأما طريق ماما فطريق سهل ، عليه يرجع الزوار إذا رجعوا ، ومن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر ، وأما طريق بابا فصعب وعر المرتقى ، . . . ونحت الأولون فى الجبل شبه درج يصعد عليها ، وغرزوا فيها أوتاد الحديد ، وعلقوا فيها السلاسل ليتمسك بها من يصعده ، وهى عشر سلاسل ، . . . وفى أعلى الجبل يوجد القدم .

وأثر القدم الكريمة (قدم آدم) فى صخرة سوداء مرتفعة ، بموضع فسيح ، وقد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة حتى عاد موضعها منخفضاً ، وطولها أحد عشر شبراً . وأتى إليها أهل الصين قديماً ، فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام وما يليه ، وجعلوه فى كنيسة بمدينة الزيتون يقصدونها من أقصى البلاد . وفى الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة ، يجعل الزوار فيها الذهب واليواقيت والجواهر ، فإذا وصل الفقراء إليها تسابقوا فى أخذها .

وبعد أن أتم ابن بطوطة مشاهدة الآثار عاد بطريق ماما ، وعول على مشاهدة بعض الآثار الأخرى القريبة . فمرّ بمدينة دِينَوَر التي بها صنم يعرف باسم المدينة ، موضوع « في كنيسة عظيمة فيها نحو الألف من البراهمة والجوكية ، ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود ، ويغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن... والصنم من ذهب على قدر الآدمي ، وفي موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان . » .

القرود

وشاهد ابن بطوطة في أثناء طوافه بالمدن الهامة بجبل سرنديب كثرة القرود ، وذكر أنها سود الألوان ، ولذكورها لحى كما هي للآدميين . وعلم من دراسة أحوالها أن لهذه القرود مقدماً تتبعه كأنه سلطان ، يشد على رأسه عصابة من أوراق الأشجار ، ويتوكأ على عصا ، ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القرود لها عصي بأيديها ، وأنه إذا جلس القرد الرئيس تقف القرود الأربعة على رأسه ، وتأتي أنثاه وأولاده فتقعد بين يديه كل يوم ، وتأتي القرود فتقعد على بعد منه . ثم يكلمها أحد القرود الأربعة ، فتنصرف القرود كلها ، ثم يأتي كل قرد منها بموزة أو ليمونة أو شبه ذلك ، فيأكل القرد

الرئيس وأولاده والقرود الأربعة . وكذلك علم ابن بطوطة أن لهذه القرود نظاماً تأديبياً ، إذ تتولى القرود الأربعة ضرب بعض القرود المتمردة ونتف وبرها .

الياقوت

واسترعى نظر ابن بطوطة فى جزيرة سيلان كذلك كثرة أحجار الياقوت . وذكر أنه يستخرج من أرض الجزيرة ، إذ تحفر الأرض ، ويوجد تحتها أحجار بيضاء مشعبة ، يتكون الياقوت فى جوفها . فتقطع هذه الأحجار البيضاء وتعطى لعمال مخصوصين يتولون شقها وإخراج أحجار الياقوت منها ، وهو مختلف الألوان ، منها الأصفر والأزرق .

ويتحلى جميع نساء سيلان بقلائد من الياقوت الملون ، ويجعلنه فى أيديهن كذلك وأرجلهن عوضاً عن الأساور والخلاخيل . ويحلى جوارى السلطان رؤوسهن بشبكة من الياقوت . وكان لسلطان الجزيرة فيل أبيض يستخدمه فى تنقلاته الرسمية ، ويحلى جبهة هذا الفيل فى هذه المناسبات بسبعة أحجار من الياقوت ، كل حجر منها فى حجم بيضة الدجاجة . وشاهد ابن بطوطة كذلك أحجاراً من الياقوت فى حجم الكف ، موضوعة فى خزائن السلطان .

وبعد أن أتم ابن بطوطة مشاهداته فى جزيرة سيلان أخذ يطوف بالجزر والأراضى المحيطة بها ، وقد أصابه فى تلك الأثناء مرض الحمى ، وعبر عن مشاعره وكيفية معالجته لهذا المرض قائلا : « ثم أصابتنى الحمى القاتلة ، فظننت أنها القاضية ، وألهمنى الله التمر الهندى ، وهو هنالك كثير ، فأخذت نحو رطل منه وجعلته فى الماء ، ثم شربته ، فأسهلنى ثلاثة أيام وعافانى الله من مرضى . »

ولم تقف المصاعب التى لاقاها ابن بطوطة حينئذ على إصابته بالحمى فحسب ، وإنما تعرض لإغارات القراصنة كذلك فى أثناء تجواله بحراً . إذ خرج على السفينة التى كانت تقله إثنا عشر مركباً من مراكب القراصنة ، وسلبوا جميع ما بالسفينة . ونال ابن بطوطة من الخسائر الشىء الكثير . إذ روى أنهم « أخذوا جميع ما عندى مما كنت أدخره للشدائد ، وأخذوا الجواهر واليواقيت التى أعطانيها ملك سيلان ، وأخذوا ثيابى التى كانت عندى . . . ولم يتركوا لى إلا السراويل .. »

وقد انتهت متاعب هذا الشطر من رحلة ابن بطوطة بوصوله جزيرة جاوه ، حيث شاهد من مفاتنها الطبيعية ومنتجاتها النباتية ما أنساه الصعاب التى قاسى منها الشىء الكثير . ومن جاوة رحل ابن بطوطة إلى بلاد الصين ، آخر بلاد العالم الإسلامى فى الشرق .

١٢

بلاد الشمس المشرقة
أرض الصين

اطلبوا العلم ولو فى الصين

كان ابن بطوطة يكرر ما روى عن الرسول الكريم اطلبوا العلم ولو فى الصين ، وهو فى طريقه إلى هذه البلاد . ولم يراوده خوف أو رهبة كلما اقتربت السفينة من شواطئ الصين ، فقد تذكر ترحيب أهالى الصين بالمسلمين ، ولا سيما التجار منهم الذين كانوا أول من وصلوهم بالدين الإسلامى ودولته .

وقد وفد أولئك التجار المسلمون على الصين فى عهد دولة تانج التى حكمت الصين من ٦١٨ إلى ٩٠٧ م . وتناقل أهل الصين عن أولئك التجار أنهم يعبدون الله ، وليس لهم فى معابدهم تمثال ولا صنم ولا صورة ، وكانوا لا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ، ويعتبرون الذبائح التى لا يذبحونها بأنفسهم محرمة عليهم . وقد حصل أولئك القوم من السلطان على إذن بالإقامة فى ميناء كانتون وبنوا لهم دوراً جميلة تختلف عن مبانى أهل الصين .

وسرعان ما أصبح أعضاء الجالية الإسلامية أغنى الناس فى الصين ، وكثر الوافدون عليهم من بنى دينهم ، واستقر آخرون منهم فى ميناء خانفو جنوب مدينة شنغهاى الحالية . وحرصت السلطات الصينية على منح المسلمين بها امتيازات كثيرة لما لهم من أثر كبير فى اقتصاديات البلاد . فكان لهم حق اتخاذ قاض مسلم من بينهم ، يحكم فى المشاكل التى يتعرضون لها ، ويؤمهم فى الصلاة . وكذلك حصلوا على جوازات تبيح لهم تبادل التجارة مع أهل الصين داخل البلاد .

وتابع التجار المسلمون نشاطهم حتى وصلوا إلى كوريا ، وكان لهم نشاط واسع ، وتدخلوا فى الشئون السياسية لهذه البلاد . وساعد على هذا التدخل السياسى اتصال حكام الصين بخلفاء الدولة الإسلامية ، والاستعانة بهم فى التغلب على مشاكلهم الداخلية . فقد استنجد حاكم الصين سوتسنج سنة ٧٥٦ م بالخليفة المنصور العباسى للدفاع عن عرشه ضد بعض الثوار . فأمده الخليفة بفرقة من الجند الإسلامى ، آثرت البقاء فى الصين بعد انتهاء مهمتها .

وظلت أحوال الصين تزداد قوة باتصالها بالمسلمين حتى القرن الثالث عشر الميلادى ، قبيل زيارة ابن بطوطة لها بزمن قصير . إذ دخل المغول بلاد الصين ، وتحولوا إلى الدين

الإسلامى ، وفتحوا بذلك الطريق أمام المسلمين من سائر الأجناس للدخول إلى الصين . فاستقر عدد كبير من المسلمين فى مدن الصين الهامة بشكل نهائى ، وغدا لهم كيانهم الخاص . وجاءت زيارة ابن بطوطة إلى الصين وتجوله فى مدنها سجلا حافلا عن حياة المسلمين ، ونشاطهم فى هذه المرحلة المبكرة من اتصالهم بالشرق الأقصى .

الجمارك وعمالها

نزل ابن بطوطة فى ميناء الزيتون ، « وهذه المدينة ليس بها زيتون ، ولكنه اسم وضع عليها . ومرساها من أعظم مراسى الدنيا ، أو هو أعظمها . » وبها نظام دقيق لاستقبال السفن التجارية وتفتيش متاجرها . وكانت العادة المتبعة فى هذا الميناء تسجيل السفن الواردة إليه والصادرة عنه ، فإذا أراد مركب صينى مغادرة الميناء صعد إليه صاحب البحر وكتابه ، وكتبوا من يسافر فيه من الخدام والبحارة ، وحينئذ يباح للسفينة السفر . فإذا عادت إلى الميناء صعد عمال الجمارك مرة أخرى إلى السفينة وقابلوا ما كتبوه أولا بأشخاص الركاب على المركب . فإن فقدوا أحداً من عمال السفينة وبحارتها طلبوا من رئيس المركب أن يأتى بالدليل على غياب ذلك الشخص ، سواء بالموت أو الفرار .

وبعد أن يفرغ عمال الجمارك من التحقيق من شخصية البحارة ، يكلفون صاحب المركب أن يملى عليهم أنواع السلع التى استوردها ، ثم تنزل البضائع من المركب ، وإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم صادروا جميع البضائع . وكان هذا النظام القاسى الدقيق سبباً فى ازدهار الأحوال التجارية ببلاد الصين ، وحرص التجار على مراعاة قوانين البلاد التجارية .

وكان للتجار المسلمين نظم خاصة من حيث علاقتهم بعمال الجمارك وطريقة معيشتهم بالصين . فكان يخير التاجر حين وصوله الميناء أن يقيم عند تاجر من المسلمين الصينيين أو فى فندق . فإن أحب النزول عند تاجر معين أحصى عمال الجمارك مال التاجر وبضاعته ، وأخذوا إقراراً من التاجر المستوطن بتسلمه هذه الأموال والإنفاق منها على ضيفه التاجر بالمعروف ، وإذا أراد التاجر السفر دفع له مضيفه ما أخذه من مال . أما إذا أراد التاجر النزول بفندق سلم ماله لصاحب الفندق لينفق عليه منه .

وكانت الإقامة بالفندق تكفل الراحة للتاجر ، فإذا أراد التسرى اشترى له صاحب الفندق جارية ، وأسكنه بجناح خاص فى الفندق ، وأنفق عليهما . والجوارى رخيصات ببلاد الصين ، لأن أهل الصين لا يجدون غضاضة فى الإتجار

بالجوارى والغلمان . وكانت هذه الوسيلة سبباً فى منع انتشار الفساد فى بلاد الصين ، إذ يقولون للتاجر الضيف ، « لا نريد أن يسمع فى بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم فى بلادنا .

مدينة الزيتون

شاهد ابن بطوطة كثرة الحدائق بهذه المدينة ، فلكل فرد بها منزل تحيط به حديقة غناء . وكان للمسلمين بها قسم خاص اتجه إليه ابن بطوطة . وهناك لقى شخصاً ممن قابلهم فى أسفاره فى الهند . وقدم هذا الرجل ابن بطوطة إلى السلطات فى مدينة الزيتون ، فأكرموا وفادته وأنزلوه فى منزل حسن . ثم جاء إليه قاضى المسلمين بالمدينة وكبار التجار بها للترحيب به . وذكر ابن بطوطة أن « هؤلاء التجار لسكناهم فى بلاد الكفار ، إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح ، وقالوا جاء من أرض الإسلام ، وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنياً كواحد منهم . »

جولة فى الضواحى

ورغب ابن بطوطة فى مشاهدة ضواحى مدينة الزيتون ومعرفة أحوال الناس بها وطرق معيشتهم . فبعث معه حاكم الزيتون جماعة من أصحابه إلى منطقة « صين كلان » . وتنقل

ابن بطوطة وصحبه متخذين الطريق المائى الذى يربط مدينة الزيتون بداخل البلاد . وذكر أن المراكب التى تسير فى هذا النهر تدفع بالمجاذيف ، ويجذف الجذافون قياماً وهم فى وسط المركب ، على حين يجلس الركاب فى مقدم المركب ومؤخرته . وكان يظلل المركب بثياب تصنع من نبات ببلاد الصين أشبه بالكتان .

واستغرق ابن بطوطة فى جولته سبعة وعشرين يوماً ، وفى كل يوم يرسو المركب عند الزوال بقرية من القرى ليشترى ركابها ما يحتاجون إليه ، وكذلك يفعلون حين يأتى المساء . ولاحظ ابن بطوطة من هذه الرحلة أن بلاد الصين من أكثر البلاد أمناً ، وأحسنها حالا للمسافرين . وأن الإنسان يسافر منفرداً ومعه الأموال الطائلة دون أن يخشى سوءاً . ذلك أن أهل الصين اتخذوا لهم فى كل مرحلة من مراحل الطريق فندقاً ، عليه حاكم يسكن به ومعه جماعة من الفرسان والرجال . وبعد العشاء يأتى الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه ، ويدون أسماء جميع من يبيت به من المسافرين ، ثم يقفل باب الفندق عليهم .

وحين يأتى الصباح يعود الحاكم ومعه كاتبه إلى الفندق ، وينادى كل إنسان باسمه ، ثم يبعث مع المسافرين من يوصلهم إلى المرحلة الثانية ، ويأتيه الرسول بتقرير من حاكم الفندق التالى

يفيد أن جميع المسافرين قد وصلوا ، وهكذا على طول الطريق . وزودت هذه الفنادق بجميع ما يحتاج إليه المسافر من الطعام وخصوصاً الأوز والدجاج . ودهش ابن بطوطة من ضخامة دجاج الصين ، وذكر أن ديوكها كبيرة جداً . وقد اشترى ابن بطوطة دجاجة لم يستطع أن يطبخها فى وعاء واحد ، وإنما جعلها فى إناءين . وروى أن الديك فى حجم النعامة ، على حين أن الأوز صغير الحجم .

أحوال أهل الصين

ولاحظ ابن بطوطة من تجواله فى هذه الرحلة أن معظم أهل الصين لا يدينون بالإسلام ، وإنما يعبدون الأصنام ، ويحرقون موتاهم كما يفعل الهنود . ولكن شاهد مع ذلك أن فى كل مدينة من مدن الصين حياً خاصاً بالمسلمين ، ينفردون بسكناهم به ، ولهم فيه المساجد لإقامة صلاة الجمعة وهم معظمون محترمون ، ولهم فى كل بلد شيخ يدعى شيخ الإسلام ، يرجع إليه المسلمون فى شتى شئونهم ، فضلا عن أن لهم قاضياً خاصاً يفصل بينهم .

أما سائر سكان الصين من الوثنيين فيأكلون لحوم الخنازير والكلاب ، ويبيعونها فى أسواقهم ، ولاحظ ابن بطوطة أنهم أهل رفاهية وسعة عيش ، لكنهم لا يهتمون بملبس أو مطعم . فترى

التاجر الكبير منهم الذى لا تحصى أمواله كثرة عليه جبة قطن خشنة . ولكل واحد من أهل الصين عكاز يعتمد عليه فى المشى ويسمونه الرجل الثالثة ، والحرير عندهم كثير جداً لأن دود القز تتعلق بالثمار وتأكل منها دون أن تحتاج إلى كثير مؤنة . وهو لباس الفقراء والمساكين بها ، ولولا التجار لما كانت له قيمة . ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحريرة . وكان من عادة التجار سبك ما عندهم من الذهب والفضة قطعاً ، تزن الواحدة منها قنطاراً ، ومن كان له خمس قطع جعل فى إصبعه خاتما ومن كانت له عشر جعل خاتمين .

أوراق النقد

على أن ابن بطوطة أشار إلى استعمال أهل الصين لأوراق النقد بدلا من العملة الفضية أو الذهبية ، مما يدل على علو كعبهم فى ميدان الاقتصاد والمال فى هذه المرحلة المبكرة . فذكر فى مشاهداته أن أهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم ، وجميع ما يُتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً ، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد ، (ورق) ، كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان ، وتسمى الخمس والعشرون منها « بالشت » وهى تعادل الدينار .

وإذا تمزقت تلك الكواغد فى يد إنسان حملها إلى دار السكة فأخذ عوضاً عنها أوراقاً جدداً ، ولا يدفع على ذلك أجراً ، لأن الذين يتولون هذا العمل لهم المرتبات من قبل السلطان . ويشرف على شئون هذا الديوان رجل من كبار رجال الدولة ، حتى أن الإنسان إذا ذهب إلى السوق ومعه درهم فضة أو دينار يريد شراء شيء بها لا يستطيع حتى يستبدل هذه النقود بأوراق « البالشت » .

الفخار الصينى

وتحدث ابن بطوطة عن الفخار الصينى الذى شاع استعمال الأوانى المصنوعة منه فى شتى أنحاء العالم . وشاهد طريقة صنعه بمدينة الزيتون ، إذ يحمل من جبال بالقرب منها نوع من التراب أشبه بالطفل ، ثم يقطع قطعاً على قدر قطع الفحم ، ويشعل فيه النار ، فيتقد كالفحم ، ويعطى حرارة أشد منه . وإذا ما صار رماداً عجنوه بالماء ويبسوه ، ثم يخمرونه . فالجيد منه ما خمر شهراً كاملا ، والنوع الأقل ما خمر عشرة أيام . وكانت الأوانى المصنوعة منه رخيصة جداً ببلاد الصين ، وتنقل منها إلى الهند وسائر الأقاليم بالشرق .

على أن أشد ما أعجب به ابن بطوطة هو براعة أهل الصين فى التصوير ، الذى لا يجاريهم « أحد فى إحكامه . . . فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً » ودون ملاحظاته عن التصوير قائلا : « ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أنى ما دخلت قط مدينة من مدنهم ، ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد موضوعة فى الأسواق . . . ولقد دخلت العاصمة ، فمررت على سوق النقاشين ، ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابى ونحن على زى العراقيين ، فلما عدت من القصر عشياً مررت بالسوق المذكورة ، فرأيت صورتى وصورة أصحابى منقوشة فى كاغد قد ألصقوه بالحائط ، فجعل كل واحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطىء شيئاً من شبهه . وذكر لى أن السلطان أمرهم بذلك ، وأنهم أتوا إلى القصر ونحن به ، فجعلوا ينظرون إلينا ، ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك ، وتلك عادة لهم فى تصوير كل من يمر بهم ، وتنتهى حالهم فى ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثوا صورته إلى البلاد وبحث عنه ، فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ . »

التأمين الاجتماعى

وأشاد ابن بطوطة بتقدم أهل الصين فى تأمين سبل العيش لغير القادرين منهم . فمما شاهده فى إحدى كنائس مدينة من مدن الصين « بيوت يسكنها العميان وأهل الزمانات ، ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة ، وكذلك فى داخلها المارستان للمرضى ، والمطبخة لطبخ الأغذية ، وفيها الأطباء والخدام . . . وكذلك الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب ، لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة ، وكذلك الأيتام والأرامل ممن لا حال لهم . »

الحفاوة الرسمية بابن بطوطة

وبينما ابن بطوطة يتجول فى بعض مدن الصين مشاهداً نظمها وأحوالها جاءته دعوة من « القان » ، وهو ملك الصين لزيارته فى عاصمة مملكته . فعاد ابن بطوطة إلى مدينة الزيتون وأخذ يستعد للسفر . وقد أبدى رغبته فى السفر عن طريق النهر ، فجهزت له السلطات مركباً حسناً من المراكب المعدة لركوب الأمراء ، على حين أمده التجار وغيرهم من كبار الرجال بالمؤن وسائر ما يحتاجه من مطالب . وبدأ ابن بطوطة

بعد ذلك رحلته ملاقياً من السلطات الرسمية فى القرى والمدن التى اجتازها كل حفاوة وتكريم وتسهيلات فى المأكل والمشرب .

كل غريب للغريب نسيب

وبعد سفر عشرة أيام وصل ابن بطوطة إلى مدينة قَنْجَنْفُو ، وهناك خرج الناس لاستقباله وعلى رأسهم كبير الفقهاء وأعيان التجار ، ومعهم الأعلام والطبول . ونزل ابن بطوطة فى دار شخص يدعى « ظهير الدين القرلانى » . وتعرف فى أثناء هذه الفترة بأحد أبناء قومه من بلاد المغرب ، وكان قد وفد على الصين واشتهر أمره بها ، ويدعى قوام الدين السبتى نسبة إلى مدينة سبته بأرض المغرب . وروى ابن بطوطة كيف تعرف على مواطنه قائلا : « وبينما أنا يوماً فى دار ظهير الدين القرلانى إذا بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم . فاستؤذن له على ، وقالوا مولانا قوام الدين السبتى . فعجبت من اسمه ، ودخل إلى ، فلما حصلت المؤانسة بعد السلام سنح لى أنى أعرفه ، فأطلت النظر إليه . فقال : أراك تنظر إلى نظر من يعرفنى ، فقلت له : من أى البلاد أنت ؟ فقال من سبتة . فقلت له وأنا من طنجة ، فجدد السلام على وبكى حتى بكيت لبكائه . »

في الطريق إلى عاصمة الصين

استأنف ابن بطوطة رحلته من مدينة قنجنفو ، ودخل مدينة تدعى الْخَنْسَا بعد مسيرة سبعة عشر يوماً . واشتهرت بهذه المدينة جالية مصرية أكرمت وفادة ابن بطوطة ، وروى أنه نزل هناك بدار أولاد عثمان بن عفان المصري . وكان أحد التجار الكبار ، استحسن هذه المدينة فاستوطنها . واشتهر أبناؤه بالعطف على الفقراء وإعانة المحتاجين ، ولهم زاوية تعرف بالعثمانية حسنة العمارة . وكان عدد الجالية الإسلامية كبيراً بهذه المدينة ، احتفت بابن بطوطة احتفاء بالغاً حتى أنه كان كل يوم طيلة الخمسة عشر يوماً التي قضاها في المدينة يتلقى دعوة جديدة .

مشعوذ صيني

وفي مدينة الخنسا استدعى أميرها ابن بطوطة ، وأحضر أحد المشعوذين وقال له « أرنا من عجائبك . فأخذ كرة خشب لها ثقب ، فيها سيور طوال ، فرمى بها إلى الهواء . فارتفعت حتى غابت عن الأبصار . . . فلما لم يبق من السير في يده إلا يسير أمر متعلماً له فتعلق به ، وصعد في الهواء إلى أن غاب

عن أبصارنا ، فدعاه فلم يجبه ثلاثاً ، فأخذ سكيناً بيده كالمغتاظ وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضاً ، ثم رمى بيد الصبي إلى الأرض ، ثم رمى برجله ثم بيده الأخرى ، ثم برجله الأخرى ، ثم بجسده ، ثم برأسه ، ثم هبط وهو ينفخ وثيابه ملطخة بالدم . فقبل الأرض بين يدى الأمير وكلمه بالصينى ، وأمر له الأمير بشيء ، ثم إنه أخذ أعضاء الصبي ، فألصق بعضها ببعض وركضه برجله فقام سوياً . »

وقد عجب ابن بطوطة من هذا المنظر حتى أنه أصيب بخفقان فى القلب ، فتناول دواء خاصاً أعاده إلى رشده . ولما استفهم ابن بطوطة عما شاهده ، قيل له إن شيئاً من الحادث نفسه لم يتم ، وإنما هى مهارة مشعوذى أهل الصين .

العاصمة خانبالق

وأخيراً بلغ ابن بطوطة العاصمة خانبالق ، وأعجب بعظمتها وكثرة بساتينها . ولكن استرعى نظره قصر السلطان فكان يقع فى وسط المدينة ، وله سبعة أبواب ، يجلس بالباب الأول أمير البوابين ، ومعه حفاظ القصر وعددهم خمسمائة رجل . وعند الباب الثانى يجلس الرماة ، وبالباب الثالث أصحاب الرماح ، وبالرابع أصحاب السيوف . أما الباب الخامس فيؤدى إلى ديوان الوزارة .

وهذا الديوان عبارة عن سقائف كثيرة . يجلس الوزير فى السقيفة الكبرى وأمامه دواة عظيمة من الذهب . وبالقرب من الوزير يجلس كاتب الرسائل ، وصاحب البريد ، وكذلك الشخص المختص بالنظر فى المظالم . ويسمى المكان الأخير بديوان الغوث ، ويجلس فيه أحد الكبراء ومعه الفقهاء والكتاب ، فمن له مظلمة التجأ إليه .

رحيل ابن بطوطة عن الصين

على أن ابن بطوطة لم يهنأ عندما دخل عاصمة الصين . إذ انتشرت بها الفتن والقلاقل لخروج بعض أقرباء السلطان عن الطاعة ، وتطلعهم إلى الملك . وانتهت الفتن بقتل السلطان أو « القان » . فاضطر ابن بطوطة إلى مغادرة العاصمة على عجل ، وعاد إلى ميناء الزيتون ، حيث وجد سفناً أقلته إلى الهند .

١٣
الحنين إلى الوطن

الأهل والولد

غادر ابن بطوطة الشرق الأقصى مسرعاً قاصداً العودة إلى مسقط رأسه ببلاد المغرب . واختار طريق الشام ومصر ، حيث عمد إلى استطلاع أخبار أهله من بعض أصدقائه بتلك البلاد . ودخل دمشق بعد أن قضى عشرين سنة كاملة فى بلاد الشرق الأقصى . وكان ابن بطوطة قد ترك فى هذه المدينة زوجة حاملا ، عرف فيما بعد فى أثناء تجواله فى الهند أنها أنجبت ولداً . فجهد منذ وصل دمشق فى تقصى أخبار زوجته وابنه .

علم ابن بطوطة من صديقه نور الدين السخاوى إمام المالكية أن ابنه توفى منذ اثنتى عشرة سنة ، ثم دله على فقيه من أهل طنجة مقيم بدمشق يعرف أخبار والديه . فذهب إليه ابن بطوطة ، وعرف منه أن والده توفى منذ خمسة عشرة سنة ، ولكن والدته لا تزال على قيد الحياة .

أقام ابن بطوطة بعد حصوله على هذه الأخبار فترة قصيرة

بالشام يدرس أحوالها وما طرأ عليها من جديد ، إشباعاً لغريزة حب الاستطلاع التى لم تفارقه قط . غير أن وباء الطاعون كان قد تفشى إذ ذاك بالشام ، فآثر الذهاب سريعاً إلى مصر ، وإن كان الوباء قد امتد إليها أيضاً . وبلغ عدد الموتى فى المدن التى مر عليها ابن بطوطة عدداً كبيراً ، وكان الوباء يشتد يوماً بعد يوم حتى إنه لم يخل يوم واحد لا يلقى فيه أناس كثيرون حتفهم .

حج وحنين

دخل ابن بطوطة القاهرة وكان السلطان فى ذلك الوقت الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ، ولكنه آثر أن ينتهز سهولة الطرية من مصر إلى الحجاز ، وحج إلى البيت الحرام ، ثم عاد إلى القاهرة حيث سمع بأبى عنان سلطان فاس ، وما اشتهر به من حب للعدل والإنصاف ، والعمل على الاهتمام بأحوال رعاياه .

وكان لهذه الأخبار أثر كبير فى نفس ابن بطوطة ، فعبر عما ساوره من شوق قائلا : « قصدت القدوم على حضرته العلية (يعنى أبا عنان) ، مع ما شقنى من تذكار الأوطان ، والحنين إلى الأهل والخلان ، والمحبة إلى بلادى التى لها الفضل عندى على البلدان » ..

أبحر ابن بطوطة من مصر إلى تونس فى صفرسنة ٧٥٠ هـ — مايو ١٣٤٩ م . وكانت الرحلة إلى وطنه شاقة متعبة ، إذ كثرت سفن القراصنة فى البحر ، وتعرض ابن بطوطة لكثير من المشاق . وبدأت هذه الصعاب عندما سافر من تونس فى مركب من مراكب القطلانيين . فقد وصلت السفينة إلى جزيرة سردانية ، وهناك علم أن أهل هذه الجزيرة يحترفون القرصنة ، ويعملون على سلب السفن بعد مغادرتها الجزيرة . واستولى الخوف على ابن بطوطة ، حتى إنه نذر صيام شهرين متتابعين إذا نجا من شرور أهل سردنية .

على أن ابن بطوطة أتم رحلته بسلام ، ودخل أخيراً مدينة فاس فى شعبان سنة ٧٥٠ هـ ، بعد أن عدل عن الذهاب إلى مسقط رأسه لعلمه بوفاة والدته .

النعرة القومية

أطنب ابن بطوطة فى ذكر مناقب سلطان فاس ، حيث لقى منه كل عطف وكرم . وخلد له هذا العطف فى مديحه وثنائه ، ورفعه إلى درجة تفوق سائر الحكام الذين قابلهم فى أسفاره . فقال إن هيبة السلطان أبى عنان أنسته « هيبة سلطان العراق ، وحسن ملك الهند ؛ وحسن أخلاقه حسن خلق ملك

اليمن ، وشجاعته شجاعة ملك الترك ، وحلمه حلم ملك الروم ، وديانته ديانة ملك تركستان ، وعلمه علم ملك الجاوة . »

وأخذ ابن بطوطة يشيد بعد ذلك ببلاده وما سادها من رخاء وازدهار على عهد السلطان أبى عنان ، واستشهد بقول القائل :

الغرب أحسن أرض ولى دليل عليـــه
البدر يرقب منـــه والشمس تسعى إليه

في رعاية السلطان أبى عنان

اتخذ ابن بطوطة حياة السلطان أبى عنان نموذجاً للحياة فى أرض المغرب ، وأشاد بحرص السلطات هناك على حث الناس على التمسك بالفضائل . فكان العدل مستتباً فى دولة السلطان أبى عنان حيث حرص على الجلوس للنظر فى المظالم بنفسه المتعلقة برعاياه ، ولا سيما الفقراء منهم . وكان يخصص يوم الجمعة لهذا النفر البائس ، ويبدأ بفحص شكاوى النساء ، « ومن وصلت نوبتها نودى باسمها ، ووقفت بين يديه الكريمتين يكلمها دون واسطة . فإن كانت متظلمة عجل إنصافها ، أو طالبة إحسان وقع إسعافها » .

وبذل السلطان عناية كبرى لرعاية العلم فى دولته . فكان يعقد مجالس العلم فى كل يوم بعد صلاة الصبح ، ويستدعى

أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة ، ويشترك معهم فى المناقشات العلمية ، ولا سيما فى تفسير القرآن . واسترعى هذا الاهتمام بالعلم نظر ابن بطوطة حتى إنه قال « ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم إلى هذه النهاية . فقد رأيت ملك الهند يتذاكر بين يديه بعد صلاة الصبح . . . ورأيت ملك الجاوة يتذاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة . . . حتى رأيت ملازمة مولانا (أبى عنان) أيده الله فى الصلوات كلها » .

زيارة قبر الوالدة

على أن ابن بطوطة ترك بلاط أبى عنان وذهب لزيارة قبر والدته بطنجة . وهناك تجدد عنده الشوق مرة أخرى للترحال والتجوال . فقصد بلاد الأندلس هذه المرة ليشاهد هذه الرقعة من دار الإسلام .

ولكن ابن بطوطة لم يقم بهذه البلاد كثيراً ، فكان المسلمون يعانون أخطر مرحلة فى حياتهم ، وهو انسحابهم أمام المسيحيين من أهل الأندلس ، ومن ثم عاد ابن بطوطة حزيناً إلى طنجة ، تاركاً وراءه هذا القطر العظيم من دار الإسلام .

١٤
فى أحضان السودانين

الأرض البكر

عزم ابن بطوطة بعد عودته من الأندلس على القيام برحلة ثالثة ليزور بلاد المسلمين فى السودان الغربى ، وحاز بذلك قصب السبق فى دراسة أحوال السودانيين وتدوين مشاهداته عنهم قبل أن يفكر أى رحالة آخر فى الذهاب إلى هذه البلاد .

وكان الإسلام قد سبق ابن بطوطة فى الانتشار بين السودانيين ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور . وجاءت رحلة ابن بطوطة وما حفلت به من أخبار عن أحوال السودان دليلا ناصعاً على ما تحلى به السودانيون من خلق رفيع ، وأنهم جديرون بتبوُّؤ مكانة عالية فى مضمار الحضارة العالمية .

انتشر الإسلام بين السودانيين عن طريق بلاد المغرب بعد عبوره الصحراء الكبرى . وساعد بلاد المغرب على الاضطلاع بهذا الدور الهام اتصال قوافل التجارة بينها وبين أرض السودان ، وانتظام المسالك عبر الصحراء الكبرى . وكانت قبائل البربر

سكان المغرب تتميز بصفة خاصة بحماستها الدينية ، وغيرتها على إدخال جيرانها فى حظيرة الإسلام .

وبدأ الإسلام يظهر بجلاء فى أرض السودان الغربى فى عهد يوسف بن تاشفين أحد أمراء دولة المرابطين ببلاد المغرب سنة ١٠٦٢م. فقد أخذ سكان مملكة غانة وسنغاى فى غرب السودان يدخلون فى الدين الإسلامى أفواجاً ، وعلى رأسهم الحكام وأسرهم . فأسلم ملك سنغاى المسمى زاكسى (Za - Kassi) ، بمحض إرادته ، وغدا نموذجاً لإقبال السودانيين على اعتناق الدين الإسلامى .

وجاء انتشار الإسلام بين السودانيين حافزاً على ازدياد العمران ، وظهور مدن جديدة نشأت ذات طابع إسلامى محض منذ بداية تاريخها . فقد تأسست فى القرن الحادى عشر الميلادى ، الذى اقترن عهده بدخول الإسلام السودان ، مدينتان كان لهما أكبر الأثر فى انتشار الدعوة إلى الإسلام فى السودان الغربى وتفهيم الناس أصول هذا الدين الحنيف .

وكانت هاتان المدينتان هما مدينة جنى (Genne) ، ومدينة تمبكتو (Timbuktu) . وقد غدت المدينة الأخيرة مركزاً هاماً لتجارة القوافل مع بلاد المغرب ، ونموذجاً للمدن الإسلامية ببلاد السودان . فلم « تدنسها عبادة الأوثان ، ولا سجد على

أديمها قط لغير الرحمن » وصارت هذه المدينة فيما بعد مركزاً لتعليم الإسلام فى السودان توافد عليها الطلبة وعلماء الدين فى أعداد كثيرة ، مدفوعين إلى ذلك بما يلاقونه هناك من تشجيع .

وقد شاهد ابن بطوطة هذه المدينة ودون تقريراً وافياً عن أحوالها ، ولكن كانت أعظم ولايات السودان على عهده هى ولاية ملىّ (Melle) أومالّى (Malli) . ذلك أن أهلها اشتهروا بالذكاء وحذقهم للصناعات ، كما اشتهروا بالأمانة فى المعاملة . وعرف سكان مالى كذلك بالحرص على نشر الإسلام بين جيرانهم والاهتمام بتلقين تعاليمه .

الرحلة إلى السودان

استأذن ابن بطوطة سلطان فاس فى الخروج لزيارة السودان . وفى أوائل عام ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) خرج على رأس قافلة من التجار قاصداً مدينة إيوالاتن ، أولى مدن السودان الغربى . وبعد رحلة موحشة فى صحراء شاسعة ، ظهرت طلائع مدينة إيوالاتن ، وبدأت مشاهدات ابن بطوطة فى أرض السودان .

البساطة والكرم

عندما دخل ابن بطوطة مدينة إيوالاتن أخذ يدرس أحوال

أهلها ويسجل ما يشاهده بعين الفاحص الخبير . وكان دقيقاً فى ملاحظاته ولا يعرف المبالغة أو الخداع . ومن ثم جاءت زيارته للسودان سجلا صادقاً للمرحلة الأولى من انتشار الإسلام بين السودنيين ، وكيف أنهم كانوا يفهمون الدين الإسلامى ، ويجهلون أصول بعض قواعده من ناحية أخرى .

نزل ابن بطوطة عند رجل فاضل من أهالى المدينة ، وأعجب ببساطة حياتهم ولا سيما كبار حكامها . فكان «الفربا» أو الحاكم يبذل جهده فى حفظ أمتعة التجار ، ويستقبلهم حين وصولهم ، وبعد ذلك يشرف عمدة المدينة أو نائب الحاكم « منشاجو » على راحة الضيوف ، ويدعوهم لضيافته حيث يقدم لهم مشروباً وطنياً من جريش ، وعسل ولبن لم يعجب به ابن بطوطة .

وقد أكرم قاضى المدينة وعلماؤها ابن بطوطة ، وأضافوه عندهم . على أن ابن بطوطة أحس بشدة الحر فى مدينة إيوالاتن ، وذكر أن بالمدينة قليلا من شجر النخيل يزرع أهلها فى ظله البطيخ . وقد استرعى نظر ابن بطوطة أن ثياب أهالى المدينة من نسيج مصر ، وأن نساءها جميلات فاتنات ، وأن لهن شأناً كبيراً بالمدينة .

اختلاط الجنسين

أدهش ابن بطوطة كثيراً اختلاط النساء بالرجال فى مدينة إيوالاتن . فذكر « أن رجالهم لا غيرة لديهم ، ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله ، ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه . . . ونساؤهم لا يحتشمن من الرجال ، ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات . . . والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب ، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات ،و يدخل أحدهم داره فيجد إمرأتهومعها صاحبها فلا ينكر ذلك » .

واستغرب ابن بطوطة هذا الاختلاط رغم تمسك أهالى المدينة بالإسلام . فذكر أنه دخل يوماً على القاضى بالمدينة بعد أن أذن له بالدخول ، فوجد عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن . فلما رأى ذلك أراد الرجوع ، ولكن المرأة ضحكت ولم يدركها الخجل ، وقال له القاضى : لم ترجع ؟ إنها صاحبتى ! .

وظلت هذه الظاهرة تؤرق ابن بطوطة ، إذ دخل يوماً على دار صديق له من أهل السودان ممن تردد على بلاد المغرب ، فوجد امرأة جالسة مع رجل . فسأل صديقه عن أمرهما ،

فقال له هذه المرأة زوجتى والرجل صاحبها . فقال له ابن بطوطة : « كيف ترضى بهذا وأنت سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع ؟» فقال له صديقه إن مصاحبة النساء للرجال على خير وحسن طريقة ، وأنهن يختلفن عن نساء المغرب . فعجب ابن بطوطة من رعونة صديقه ، وأعرض عن زيارته .

على أن هذه الظاهرة التى شاهدها ابن بطوطة تدل دلالة واضحة على أن أهل هذه المنطقة من السودان لم تفهم بعد تعاليم الإسلام فهما صحيحاً لقلة الدعاة والمعلمين ، لأنه عندما أخذ ابن بطوطة يسير شرقاً فى أقاليم السودان رأى ازدياد فهم السودانيين لتعاليم الإسلام لكثرة العلماء والمعلمين بها ، ولشدة اتصالهم بمصر والمغرب وبلاد الحجاز كذلك . . .

جولة فى السودان

غادر ابن بطوطة مدينة إيوالاتن قاصداً مدينة مالى أكبر مدن السودان وأعظمها شأناً . واستأجر دليلا من أهالى إيوالاتن وسافر بمفرده حيث الطريق آمن وأسباب الراحة به مكفولة . وكان الطريق غاصاً بالأشجار تبعث ظلا جميلا ، وفضلا عن ذلك كانت هذه الأشجار تحفظ داخلها مياه الأمطار ، وكأنها بئر يشرب منه الناس . وشاهد ابن بطوطة حائكاً

قد اتخذ لنفسه مأوى داخل إحدى الأشجار بالطريق .

وكان المسافر فى الطريق لا يحمل معه طعاماً أو نقوداً ، وإنما يأخذ قطع الملح وحلى من الزجاج وبعض العطور . فإذا مرّ بقرية من القرى ، خرج إليه النساء ومعهن اللبن والدجاج والدقيق فيشترى منهن المسافر ما يريد مقابل إعطائهن مما يحمل من ملح أو عطور . وكان المسافر يحرص على شراء نبات يسمى « الفوق » ، أشبه بحب الخردل ، يصنع منه الكسو والعصيدة .

ومرّ ابن بطوطة فى طريقه بنهر النيجر وظنه نهر النيل ، وقال إنه ينحدر إلى بلدة زاغة وتنبكتو ثم إلى بلاد النوبة ودنقلة . ولعل ابن بطوطة قد التبس عليه هذا الأمر لاقتراب بحر الغزال أحد فروع النيل من نهر النيجر . ولكن يلتمس لابن بطوطة العذر فى هذا اللبس ، ولا سيما أن منابع النيل الحقيقية لم تكتشف إلا منذ عهد يسير .

وكان ابن بطوطة يرى مظاهر الإسلام الحق كلما سار شرقاً ، فأعجب بأهل زاغة وذكر أنهم قدماء فى الإسلام ، متمسكون بأهداب الدين ، ومقبلون على طلب العلم . والواقع أن هذه المنطقة التى تقع على فرع النيجر الشمالى الغربى مقر مملكة «تكرور» التى كانت أول معقل للإسلام بالسودان فى بداية القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . وكان لهذه المملكة

اتصال بمصر ، ولا سيما أنها بعثت أبناءها إلى الأزهر للتفقه فى شئون الدين .

وأخيراً وصل ابن بطوطة إلى مدينة مالى حاضرة مملكة السودان المسماة بهذا الاسم ، وكان من عادة أولى الأمر فيها أن يمنعوا الناس من الدخول فيها إلا بإذن منهم . وقد سمح لابن بطوطة بدخول المدينة حيث كان قد استأذن من السلطات بها .

الجاليات الأجنبية تحتفل بابن بطوطة

كان بمدينة مالى جالية كبيرة من أهل المغرب ومصر ، ورئيسها شمس الدين بن النقويش المصرى . وقد اتخذت هذه الجالية لنفسها حياً خاصاً فى المدينة ، فأفرد رجل من أهل المغرب لابن بطوطة داراً ينزل بها . وأخذت الهدايا تتوالى عليه من كل حدب ، ولا سيما من رجال الدين السودانيين . وقد أصاب ابن بطوطة مرض لتناوله وجبة طعام عافتها نفسه ، فتولى أفراد الجالية المصرية تمريضه ، وأعطوه دواء ساعده على الشفاء .

سلطان مالى

حرص ابن بطوطة ـ شأنه فى كل رحلاته ـ على دراسة

أحوال سلطان مدينة مالى ومعرفة طباعه ، لأن تصرفات الحكام مرآه تنعكس عليها شئون البلاد . دخل ابن بطوطة على السلطان فى شهر رمضان وقال له : « إنى سافرت بلاد الدنيا ، ولقيت ملوكها ، ولى ببلادك منذ أربعة أشهر ولم تضفنى ولا أعطيتنى شيئاً . » فأمر له السلطان بدار ينزل بها ، وخصص له مرتب خاص .

وكانت أحوال مملكة مالى تدل على تقدمها فى الحضارة ، وحرص أهاليها على الاحتفال بالمواسم الدينية الإسلامية . فشاهد ابن بطوطة احتفال سلطان مالى بالأعياد ، ومشاركته شعبه فى مباهجهم . فكان يخرج للصلاة وعلى رأسه غطاء (طيلسان) أسود ومعه الناس وعليهم الثياب البيض الحسان .

وبعد انتهاء الصلاة يجرى احتفال يشهده السلطان . فيجلس على مكان مرتفع وخلفه أربعة من الأمراء يبعدون عنه الذباب ، ثم يأتى النساء عليهن الملابس الحسان ويغنين ، وكذلك يأتى غلمان صغار يلعبن حركات بهلوانية جميلة . وعند نهاية الحفل يغدق عليهم السلطان منحاً مالية .

كارنڤال بالسودان

وكان يعقب هذا الحفل مظهرٌ أشبه بأعياد الكرنفال ،

واتخاذ صور رمزية يتنكر فيها المحتفلون . على أن هذا التنكر فى الأزياء كان يقتصر فى السودان على الشعراء . فنى يوم العيد يدخل الشعراء على السلطان وقد دخل كل واحد منهم فى جوف صورة مصنوعة من الريش، لها رأس من الخشب ومنقار أحمر كأنه رأس الشقشاق ، ويقفون بين يدى السلطان فى هذا المنظر الطريف.

ويأخذ الشعراء بعد ذلك فى إلقاء قصائدهم ، وكانت أشبة بالوعظ ، حيث يذكرون السلطان بما فعله أجداده وأسلافه من أعمال عظيمة ، ويدعونه إلى السير على نهجهم ، والتمسك بتقاليدهم الطيبة . وكان الشعراء يختتمون حفلهم بعادة سودانية قديمة ، ترجع إلى ما قبل اعتناقهم للإسلام . إذ يصعد كبير الشعراء إلى مقر السلطان ويضع رأسه فى حجر السلطان ، ثم على كتفه الأيمن ، ثم على كتفه الأيسر ، ويعود إلى مقره .

* * *

وأعجب ابن بطوطة بحرص السودانيين على حضور الصلوات فى ملابس نظيفة ، واهتمامهم بتلقين أبنائهم القرآن الكريم . فقال : « دخلت على القاضى (بمدينة مالى) يوم العيد ، وأولاده مقيدون ، فقلت له ألا تسرحهم ؟ ، فقال لا أفعل ، حتى يحفظوا القرآن . » وأضاف ابن بطوطة مشاهدة أخرى قائلا : « مررت يوماً بشاب حسن الصورة عليه ثياب

فاخرة ، وفى رجله قيد ثقيل ، فقلت لمن كان معى : ما فعل هذا ؟ أقتل ؟ . ففهم عنى الشاب وضحك ، وقيل لى : إنما قيد حتى يحفظ القرآن . »

فرس البحر

غادر ابن بطوطة مدينة مالى قاصداً تمبكتو ، ورافق أحد التجار ليدله على الطريق . وركب ابن بطوطة وصحبه الجمال لأن الخيول غالية الثمن . وقد وصلا إلى شاطئ نهر النيجر واضطرا إلى التريث حتى الليل لعبور النهر لكثرة البعوض . على أن ابن بطوطة شاهد بهذا النهر عندما اقترب من ضفته ست عشرة دابة ضخمة ، وقد ظنها بادئ الأمر فيلة ، ولكن لم يلبث أن رآها تدخل النهر . فسأل رفيقه عن أمرها فأخبره أنها أفراس البحر « وهى أغلظ من الخيل ، ولها أعراف وأذناب ورؤوسها كرؤوس الخيل وأرجلها كأرجل الفيلة . » وقد شاهد هذه الأفراس تعوم فى الماء ، وترفع رأسها وتنفخ .

وكانت طريقة صيد هذه الأفراس طريفة ، إذ يخرج الصيادون ومعهم رماح مثقوبة مربوط فيها شرائط متينة . ويضربون الفرس منها ، فإن صادفت الضربة رجله أو عنقه خرقته ، ثم يشدونه بالحبل حتى يصل إلى الساحل ويذبحونه .

ولحمه يؤكل ، حتى أن عظامه ترى منتشرة على طول الشاطئ .

نيام نيام

وفى أثناء رحلة ابن بطوطة سمع بأخبار نيام نيام آكلى لحوم البشر . وقابل عند المكان الذى اجتاز عنده نهر النيجر رجلا قص عليه شيئاً عن أخبار أولئك القوم . فقال حدث أن قاضياً من البيض دخل فى خدمة سلطان مالى ، وكان يرافقه فى أسفاره . وقد منحه السلطان مبلغاً من المال ، ولكن القاضى اشتكى للسلطان ضياع ماله فى أثناء سفره ببلدة تدعى « ميمه » فطلب السلطان حاكم هذه البلدة ، وهدده بالقتل إن لم يحضر السارق .

وجد الحاكم فى طلب السارق فلم يجده . ودخل على خدم القاضى وهددهم ، فقالت له إحدى الجوارى : ما ضاع من هذا القاضى شىء ، وإنما دفنها بيده فى موضع دلته عليه . فأخرجها الحاكم وبعث بها إلى السلطان . فاشتد به الغضب ونفى القاضى إلى « بلاد الكفار الذين يأكلون بنى آدم » . على أن القاضى أقام هناك أربع سنين عاد بعدها دون أن يصيبه شىء ، إذ أن نيام نيام لا يأكلون لحم البيض متذرعين أنه لم ينضج ، وأن اللحم الأسود عندهم دليل النضج .

وسمع ابن بطوطة كذلك أن جماعة من أولئك السكان آكلى لحوم البشر وفدت على السلطان ومعهم أمير لهم . ومن عادتهم أن يجعلوا فى آذانهم أقراطاً كبيرة ، فتحة القرط منها نصف شبر . وقد أكرمهم السلطان وأعطاهم فى ضيافته خادمة ذبحوها وأكلوها ، ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمائها . وقد سألهم بعض الناس عن أطيب ما فى لحم البشر ، فقالوا : الكف والثدى .

ولا شك أن دقة ابن بطوطة أبت إلا أن يذكر أخبار هؤلاء القوم نقلا عما سمعه ، لأنه لم يشاهدهم أو يذهب إلى بلادهم .

المصريون فى السودان

وأخيراً وصل ابن بطوطة إلى مدينة تمبكتو ، وشاهد أهاليها يضعون اللثام على أفواههم . ولكنه شاهد آثار اتصال المصريين الوثيق بالسودان . وكلما اقترب من السودان الشرقى رأى ازدياد اتصال السودانيين بمصر ولا سيما فى النواحى التجارية . وذكر قصة تدل دلالة واضحة على الظاهرة السالفة . إذ حج سلطان تمبكتو المدعو منسى موسى مرة وعاد إلى مصر ونزل عند أحد التجار المصريين الساكنين بالقرب من بركة الحبش بالقاهرة ، ويدعى سراج الدين .

وقد احتاج السلطان وأمراؤه بعض الأموال فأمدهم بها هذا التاجر المصرى ، وأوفد معهم أحد وكلائه ليتسلم هذا المال بالسودان . ولكن وكيل التاجر المصرى عرج على مدينة مالى وأقام بها . فذهب سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله واصطحب معه ابنه إلى السودان . فلما وصلا تمبكتو استضافه شخص يدعى أبا إسحق الساحلى ، وتصادف أن توفى التاجر المصرى فى تلك الليلة . فتكلم الناس فى ذلك واتهموه أنه دس للتاجر سماً . ولكن ابن التاجر المصري قضى على هذه التهمة وأثبت لهم أنه أكل مع أبيه الليلة الماضية من نفس الطعام ولم يمت ، وقضى بذلك على أية تهمة قد تفصم عرى الوحدة بين المصريين والسودانيين . ثم حصل ابن التاجر المصرى على مال أبيه وعاد إلى مصر . وشاهد ابن بطوطة قبر هذا التاجر المدعو سراج الدين بن الكويك المصرى بمدينة تمبكتو .

كرم السودانيين

ولما غادر ابن بطوطة مدينة تمبكتو لقى فى طريقه كل إكرام من السودانيين ، مما دل على أنه كلما توغل شرقاً ازدادت أخلاق الأهالى حسناً ورقة . وقد تنقل ابن بطوطة عن طريق النهر راكباً قارباً صغيراً منحوتاً من خشبة واحدة . وكان

ابن بطوطة وصحبه ينزلون كل ليلة بالقرى التى يمرون بها ، ويشترون ما يحتاجونه من طعام وسمن ، بطريق المقايضة بالعطور وحلى الزجاج .

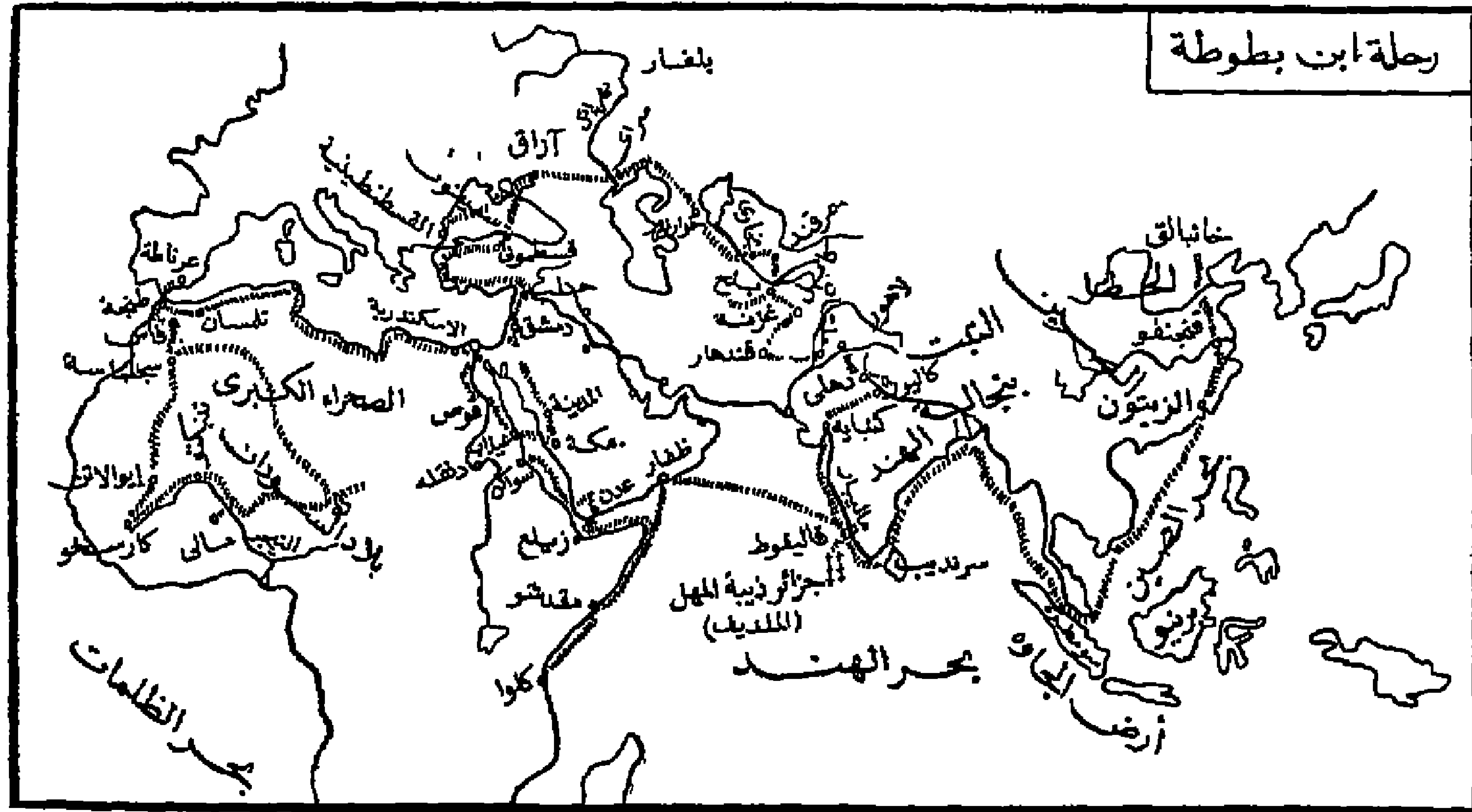
وقد مر ابن بطوطة بإحدى القرى واحتاج إلى شىء من الذرة ، فذهب إلى عمدة القرية وكتب لوحاً يطلب منه ذرة . ولما عرف العمدة طلب ابن بطوطة أخذه من يده وأدخله قاعة كبيرة بها كثير من السلاح ، وأراه كتاباً لابن الجوزى أحد مؤرخى المسلمين . وقد قرأ فيه ابن بطوطة بعض الشىء ، ثم قدم له مشروباً يسمى « الدقنو » ، وهو عبارة عن ماء فيه جريش الذرة المخلوط بالعسل واللبن . وهذا الشراب يستعاض به عن الماء الذى يضر شربه وحده بالجسم .

نهاية المطاف

واصل ابن بطوطة تجواله فى السودان حتى بلغ مدينة تدعى «تَكَدَّا» ، وهناك جاءه أمر سلطان فاس بالعودة . فاشترى جملين وبعض المؤن ، واختار فى عودته طريقاً قصيراً مقفراً ، ولكن يتوافر به الماء ، مما يساعد على السفر .

خرج ابن بطوطة من تكدا يوم الخميس الحادى عشر من شعبان سنة ٧٥٤ هـ فى قافلة كبيرة .

وكان الطريق متعباً بسبب وجود بعض قطاع الطرق به . ولكن وصلت القافلة أخيراً مدينة سجلماسة فى منتصف ذى القعدة من سنة ٧٥٥هـ ، ومن هناك قصد إلى فاس حيث تشرف بمقابلة السلطان ، ومكث فى جواره حيث سجل رحلته التى حوت الكثير من الأخبار عن البلاد التى وصل إليها الإسلام .


رحلة ابن بطوطة
بلغار
آزاق
القسطنطينية
غرناطة
طنجة
فاس
تلمسان
سجلماسة
الإسكندرية
دمشق
الصحراء الكبرى
إيوالاتن
مالي
المدينة
مكة
قوص
دنقلة
سواكن
زيلع
مقدشو
كلوا
عدن
ظفار
قندهار
دهلي
التبت
الهند
كنباية
قاليقوط
سرنديب
الجزائر ذيبة المهل
(الملديف)
بحر الهند
بحر الظلمات
خانبالق
الخطا
الزيتون
الصين
أرض الجاوة
بنجالة

فهرس

مجموعة قصص الأنبياء

مجموعة جديدة فى أسلوب سهل ممتع ، وإخراج أنيق جميل ، للصغار والكبار ، تصف حياة الأنبياء ، وجليل أعمالهم ، وتسرد ما صادفهم من حوادث مع أقوامهم ، خالية من الشوائب والإسرائيليات حتى تظل العقيدة سليمة نقية تمكن الإنسان من التقرب إلى الله تعالى وحده ، والاعتصام بدينه وتعاليمه ، والتحلى بالفضائل الحسنة ، والتمسك بالأخلاق الكريمة .

١ – آدم
٢ – نوح
٣ – هود
٤ – صالح
٥ – إبراهيم الخليل
٦ – إسماعيل الذبيح
٧ – يوسف الصديق
٨ – يوسف العفيف
٩ – يوسف على خزائن مصر
١٠ – موسى الرضيع
١١ – موسى والسحرة
١٢ – موسى و بنو إسرائيل
١٣ – داود
١٤ – سليمان وملك الجزائر
١٥ – سليمان و بلقيس
١٦ – يونس
١٧ – أيوب

اقرأ

محمود كامل

عيون معصوبة

دار المعارف بمصر

عُيُونٌ مَعْصُوبَة

محمود كامل

عيون معصوبة

اقرأ ١٤٥
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٤٥ – يناير سنة ١٩٥٥



كلمة المؤلف

هذه مجموعة أخرى من قصص مصرية أقدمها إلى قراء هذا الأدب المصرى البكر وهى مجموعة تتسم بطابع أستطيع أن أدعى — دون أن أتهم بالغلو والإسراف — أنه طابع جديد يختلف أولاً عن الطابع الذى كنت أضفيه على مجموعات قصصية سابقة أصدرتها : فى أنها تحررت من قيود « الحطة » القصصية التى تخضع لاعتبارات « العقدة » وحبكتها والرغبة المبيتة فى خيال الكاتب منذ خيوط القصة الأولى على حلها . وتختلف ثانياً عن قصص غيرى . بأنها محاولة للدفاع عن « السمو العاطفى » فى البيئة المصرية الجديدة . وأستميح القارئ عذراً إذا تصرفت هذا التصرف فى ترجمة الكلمة الإفرنجية (romance) بهاتين الكلمتين اللتين قد تنحرفان بالأصل عن مجراه وإن كانتا — فى يقينى — خير ما يعبر عن مغزاه ..

إن الكثيرين من المصريين الذين تلقوا العلم فى أوربا . أو الذين تكررت زيارتهم لها . وقراءتهم لشعر شعرائها . وقصص أدبائها قد تجنوا غاية التجنى على « الفتاة المصرية الجديدة » .

وقد يكون مصدر هذا التجنى مرضاً نفسياً منشأه الرغبة فى « التعويض » عن « مركب النقص » الذى يحس به بعض

ضعاف النفوس بعد أن تبهرهم مظاهر المدنية الأوربية . وأستميح لنفسى أن أصارح قراء هذا الكتاب بأن بعض المتزوجين من أجنبيات قد ساهموا فى محاولة تجريد الفتاة المصرية من تلك الروح الغريزية فيها . الروح « الرومانتيكية » التى تسمو بعاطفتها إلى حيث تتخيل رجلها بطل مسرحية شعرية بدوية هى بطلتها . وأن القدر قد أجرى على لسانيهما تلك العبارات الفطرية الساذجة السهلة التى تتبادلها معه . مؤمنة بطهر عاطفتها . متجردة عن اعتبارات المنفعة أو المصلحة أو « النظر البعيد » التى تلوث نظرة الفتاة الأوربية إلى هذا النوع من العلاقات .

إن القصص التى يضمها هذا الكتاب الجديد تعيش فيها — بخيالها — بضع أرواح شابة بعيداً عن العالم . على مقربة من أكواخ البدو فى الصحارى القريبة من القاهرة . أو إلى جانب الصخور النائية عن الأجزاء الآهلة بالمصطافين فى شاطئ الإسكندرية . وهذه الشخصيات تتحدث هامسة بعد منتصف الليل لتنقل أسلاك « التليفون » أحاديثها وبعضها تتجاوب ثم تفترق دون أن تتلاقى ومع ذلك فهى تعيش فى صميم العاصمة . وهى تسم العاطفة بطابع خاص . متميز . من حقه أن يسجل فى كتاب .

ومعظم بطلات وأبطال هذه القصص لا أسماء لهم أقدمهم بها . ولذا يلاحظ القارئ أن البطل « هو » والبطلة « هى »

رموز عن نساء ورجال . أعرفهم وأعرف أن أمثالهم كثيرون يعيشون حياتهم قصيدة من الشعر ، يرتلونها مرتفعين عن الأرض فى شبه نشوة متطهرة نقية .

إن العاطفة التى تجمع شخصيات هذا الكتاب ليست تلك التى تنطلق بتفصيلاتها ألسنة السكارى على أرصفة الحانات فى ساعات الليل العابثة . إنها العاطفة التى يعرف الشاعرون بها عبقرية الصمت .

إنهم سعداء . لأن لكل منهم روحاً أخرى تفكر فيه وتعنى به . وتحنو عليه . لا يتحدث عنها أمام الغير . ولا يبحث فى الأنقاض عن ماض بعيد يحيل به حياتهما إلى جحيم مسمم . إن بطلات وأبطال هذه القصص لهم عيون شابة . تلمع عاطفة وولهاً وتلهلا ولكنها معصوبة عن شرور الناس . إنها تقودهم نحو قدر محتوم متجهين إليه راضين هانئين .

لقد سعدت بالحياة إلى جانبهم بعد أن عرفتهم وأحببتهم . وكل ما أرجوه أن أوفق فى تقديمهم إلى قراء هذا الكتاب علهم يسعدون بالتأمل فى حياتهم كما فعلت .

محمود كامل

المحامى

عيون معصوبة

(ساعة مبكرة من ساعات الصباح . التليفون يدق دقات سريعة ثائرة فى غرفته ... هو ... شاب يقطن منزلا مكوناً من غرفتين وبهو حوله إلى « معمل » يقوم فيه بنحت تماثيله الجديدة. أما هى فنى طرف القاهرة الآخر . « فيلا » نحيط بها حديقة صغيرة فى « الزيتون » أحدهما لا يرى الآخر لأن مسافة بعيدة تفصل بينهما)

هى — سعدت صباحاً

هو — سعدت صباحاً يا آنستى . . من أنت ؟

هى — أيهمك هذا ؟

هو — كيف لا يهمنى ؟ ألا أعرف من يحدثنى ؟

هى — واحدة .

هو — أنا واثق من هذا . إن صوتك ليس من الخشونة بحيث يجعلنى أشك فى أنك . . أنك فتاة .

هى — هل بدأت ؟

هو — ماذا ؟

هى — هل بدأت تسخر ؟

هو — من قال لك عنى إننى مغرم بالسخرية ؟

هى — يبدو ذلك فى نظرتك .

هو — وكيف تعرفين ؟

هى — رأيتك .

هو — متى ؟

هى — أكثر من مرة .

هو — أين ؟

هى — فى أكثر من مكان . هنا وفى الإسكندرية .

هو — ولكن . .

هى — ولكن ماذا ؟

هو — ولكن من أنت يا آنستى ؟

هى — أوه ! إنك تشوه جمال حديثنا بهذا الإلحاح .

هو — أنا لا ألح . أن معرفة اسمك لا تهمنى إلى الحد الذى تتوهمين .

هى — لو لم تكن مغروراً . . .

هو — عجباً ! أليس من حقى أن أعرف من يحدثنى فى منزلى؟

هى — ستعرف .

هو — متى ؟

هى — فيما بعد . أترك هذا الآن . إننى أريد أن أتعرف رأيك فى أمر يهمنى .

هو — رأيى أنا ؟

هى — أجل

هو — من أين جاءتك هذه الثقة بى ؟

هى — لست أدرى . أنه شعور قديم يعود إلى اليوم الذى رأيت فيه أول تماثيلك الرخامية الصغيرة التى كنت تعرضها . ذلك التمثال الذى يمثل المرأة « الغجرية » التى تحمل طفلها على كتفها . أتدرى بماذا شعرت وأنا واقفة أمامه ؟

هو — لا أستطيع أن أجزم .

هى — شعرت أنك تحمل هم تلك المرأة التى كانت الكآبة تبدو على قسماتها وهم كل امرأة تعسة فى هذا العالم .

هو — أخاف من هذا المديح.

هى — لا تخف. بالعكس سترى بعد أن تعرفنى إن هناك أشياء أخرى ستخاف منها .

هو — مثلاً . . .

هى — إننى أعرف أنك لم تحب بعد . . الشىء الذى عليك أن تخافه إذا رأيتنى هو إنك مسوق إلى حبك الأول .

هو — لو لم تكونى مغرورة .

هى — لا تقلدنى . ولا تسرق كلماتى . . إننى أعرف إنك بعد أن سمعت مديحى خيل إليك أننى امرأة اعتادت أن تتملق الرجال . أنت واهم . . إننى اعتدت على العكس أن أتلقى مديحهم . إننى أنال « نجاحاً » حيثما ذهبت . . هذا الصيف مثلاً . . لقد رأيتك أكثر من مرة فى « جليم » مررت أمامى على بعد بضع خطوات . لا بد

أنك رأيتنى ولو أنك كنت تتعمد إخفاء عينيك بتلك « النظارة » ذات الزجاج الأسود .. لقد كنت أرشق وجه فى ذلك الشاطىء المحتشد بالوجوه الرشيقة . لا أذكر أن رجلاً رآنى دون أن يغرقنى فى سيل من كلمات الثناء والإعجاب . .

هو — ولمَ كل هذه « المحاضرة » ؟

هى — لأن الكثيرين يخيل إليهم إن المرأة التى تبدأ رجلاً بمشاغباتها « التليفونية » لا بد أن تكون دميمة .

هو — أنا لا أقل ذلك .

هى — ولكنك ربما سمعت الآخرين يقولون .

هو — اعتدت ألا أصدق كل ما يقال لى .

هى — ستصدق كل ما قلته لك الآن عن نفسى عند ما ترانى .

هو — أراك تكررين « عند ما ترانى » كأنك توحين إلىّ أن أطلب ر ؤيتك .

هى — ألا تريد ؟

هو — دون أن أعرف من أنت ؟

هى — أجل

هو — لا أظن

هى — أنت صريح . لا . . أكثر من ذلك . جرىء .

هو — هذا عيبى .

هى — أتراه عيباً . إننى لذلك أتحدث إليك

هو — هأنذا أستمع إليك

هى — أترى أنك طيب القلب دون أن تعرف !

هو — يضحكنى هذا الوصف

هى — اؤكد لك أنك تظن فى نفسك القسوة . ولذا تسير دائماً عابس الوجه مقطب الجبين . لقد قلت لك إننى رأيتك أكثر من مرة . أتدرى ؟ لقد خيل إلىّ ذات مرة بعد أن رأيتك أن أصيح « ياباى »

هو — ولمَ عدلت ؟

هى — لأننى كنت أعتزم أن أتحدث إليك كما أفعل الآن . ولم أرد أن أستلفت نظرك إلىّ .

هو — قلت لك إننى أستمع إليك .

هى — هل أنت على عجل ؟

هو — لا . . إننى سعيد إذ أجد منك هذه الثقة .

هى — صوتك يوحى بها . ان الموضوع الذى سأحدثك عنه له أوثق الصلة بحياتى كلها . التى تتحدث إليك الآن ليست آنسة كما خيل إليك . إنها زوجة فى الرابعة والعشرين . جميلة كما قلت . تلقت أكبر قسط من التعليم يمكن أن تتلقاه فتاة مصرية . لها ميل طبيعى إلى كل ما هو جميل ونقى . تتذوق الصورة الفنية الموفقة . وتنصت

إلى النغمة الموسيقية حيثما رنت هذه النغمة . . فى خرير الماء المتساقط من أفواه « الساقية » التى تجرها بقرتان معصوبتا العينين وسط حقل « العزبة » أو الرذاذ المرتطم بصخور الجزء النائى البعيد عن شاطىء « جليم » حيث يأبى المصطافون والمصطافات أن يذهبوا لأنهم يحبون — لسخفهم — الضجة ويأنفون من الهدوء . أو فى ارتجاف القطرات المنهمرة على زجاج غرفتها المغلقة فى ليالى الشتاء وتقف طويلاً أمام التماثيل التى تعبر عن عاطفة أو فكرة إنسانية يدق فهمها على غيرها . وهى معروفة بين زميلاتها بسمو ذوقها فى أختيار الثياب . . إنه ذوق أصيل بشهادة الجميع . كما أنها تختلف عن الكثيرات من المصريات فى أنها تستيقظ من نومها مبكرة لكى تسرع أحياناً بارتداء ثوب أنيق من « ثياب » الغرفة وأحياناً أخرى بارتداء « بيجامة » أفرغت فى حياكتها كل ذلك الذوق الذى حدثتك عنه . كما أنها لا تذكر أنها قابلت زوجها أو أحداً من أهله . فى أية ساعة من ساعات النهار إلا وهى متعطرة بالعطر الذى جعلته يحبه كما تحبه هى لأنه عطر شاعر . يرتفع بالروح إلى جو أسمى من الجو الذى يعيش فيه الناس . هذه هى المرأة التى تتحدث إليك الآن لتقول لك إنها رغم ذلك كله تعسة التعاسة

كلها . بل إنها تكاد تكون أتعس نساء الأرض .

هو — وكيف ؟

هى — لأنها تبينت أن زوجها . الرجل الذى أحبته دون سائر الرجال والذى وهبته أعز ما تملك وهو قلبها . قد خانها .

هو — خانها ؟

هى — أجل . خانها مع فتاة أخرى .

هو — ولمَ ؟

هى — وهل هناك أسباب يستند إليها الرجال عادة قبل البدء بخيانة النساء اللاتى يحببنهم ؟

« وسادت فترة صمت طويلة وخيل إليه أن صوت نحيب بعيد تحمله أسلاك التليفون إلى أذنه . وأحس بشعور غريب يستولى عليه نحو تلك المجهولة التى تتحدث إليه ... شعور من الرحمة والرفق واللاعة والحنان »

هو — وماذا تريدين منى يا سيدتى ؟

هى — لست أدرى . إننى أبكى الآن وأنا مرتاحة . ألا يدهشك هذا ؟ حتى البكاء لا أستطيعه أمام الناس . إننى اعتدت أن أبدو أمامهم متظاهرة بالفرح والسعادة . إن من العسير على شابة مثلى فى الرابعة والعشرين أن تثير شماتة الناس بها . لذلك أتظاهر بالضحك وقلبى يدمى . أقسم لك أننى أحياناً أستغرق فى الضحك لأتفه الأسباب حتى

يتعب صدرى . لأننى أكون إذ ذاك فريسة أزمة نفسية حادة من أزمات السخط على هذا الحظ الذى نكبنى وأنا بعد فى سن لا تحتمل أهوال النكبات . لم أرتكب ذنباً. إننى لم أسىء قط إلى أحد . لا أذكر أننى اقترفت إثماً أستحق أن أجازى عليه هذا الجزاء .

هو ــ إنك أذكى من أن تضعفى هذا الضعف يا سيدتى . من يدرى ؟ ربما مهدت هذه العاصفة التى اجتاحت منزلك لحياة أرغد وأسعد . إننى أذكر قولاً لألفونس دوديه أجراه على لسان إحدى بطلات قصته الخالدة « سافو » . هل قرأتها ؟

هى ــ أجل . وأكاد أحفظها عن ظهر قلب . ما هو ؟

هو ــ « إذا أردت أن تحتفظى بالرجل جيداً فاتركى له شيئاً من الحرية وتظاهرى بأنك لم تفطنى إلى زلاته » .

هى ــ أرجوك ألا تنصحنى على الوتيرة التى ينصحنى بها الآخرون . إننى لم أتحدث إليك لاتلقى هذه العظات التى أعرفها قبل أن أسمعها منك .

هو ــ آسف يا سيدتى إذا جعلتك تثورين فجأة بسبب هذه النصيحة. هل لى أن أسألك مرة ثانية «ماذا تريدين منى إذن؟»

هى ــ أن تدعنى أبكى.

هو ــ فقط ؟

هى — أجل . . دعنى أبكى فقط لأننى محرومة من أن أبكى أمام الناس المتصلين بى . القريبين منى . إن والدتى نصحتنى كما نصحت عجوز قصة « سافو » الصغيرة إيرين أن أغض عينى عن خيانة زوجى واستدلت على ذلك بأن أبى كان فى شبابه قد اعتاد السهر خارج المنزل إلى ساعة متأخرة من الليل وذاع عنه أنه اتصل بإحدى الراقصات . فلما تركته مدة طويلة انتهى بأن ثاب إلى رشده . وعاد إلى أسرته . أنا لا أفهم هذا النوع من النصائح لأننى لا أطلب من الحياة إلا أن أعيش هذه الأعوام القليلة فى الجو الذى كنت أحلم به فى طفولتى .
هل يزعجك أن أبكى هكذا بين يديك بضع دقائق فى كل يوم ؟

هو كلا . ولكن . .

هى — ولكن ماذا ؟ أكاد أثق بأننى أزعجتك .

هو — لا ولكن لمَ اخترتنى لهذا الموقف الأليم ؟ أن أقف مكتوف الذراعين أمام سيدة شابة مثلك تبكى بحرارة .

هى — ألا تعرف لمَ ؟

هو — ربما . . ولكنى أريد أن أسمع منك .

هى — آه لو أنك قللت من هذا الاعتزاز بنفسك . . كنت أظن أننى أصلب رأياً من أن أضعف أمام رجل فأعترف

له وفى أول مرة أتحدث إليه بأمر كهذا .

هو — وما هو ؟

هى — منذ رأيتك لأول مرة شعرت بانك الرجل الوحيد الذى يمكن أن أثق به . إننى أعرف نفسى عنيدة , ولكن لست أدرى ماذا دهانى بعد أن تحدثت إليك . . ألا تشاركنى نفس الإحساس ؟

إننى أحس . . أحس بأننى مسوقة إليك معصوبة العينين . مادة الذراعين ومع ذلك فإننى أسير على هدى كأننى أعرف أين تقطن. على أن أحداً لم يخبرنى بمكانك ولو سألتنى عنه الآن لما استطعت أن أصفه لك . إننى أتحدث إليك الآن وأنا أضع يدى على عينى كعصابة وأتخيل كل شيء يحيط بك . قل لى . هل أغلقت نوافذ غرفتك لتتقى حر هذا اليوم ؟

هو — أجل . ولكنى أشكو من ألم فى عينى اليسرى .

هى — لمَ ؟

هو — كنت قادماً بالسيارة من الإسكندرية فأصاب تلك العين هواء بارد أثناء الطريق .

هى — أوه . إنك تهمل نفسك كطفل مدلل . أعندك بعض أقراص « الاسبيرين » ؟

هو — أجل . . . فى درج مكتبى .

هى — وكوب ماء ؟

هو — أتحدث إليك وأنا أمسك بها .

هى — تناول هذا القرص

هو — هأنذا أفعل

هى — أنك ستستريح بعد قليل .

هو — ستسخرين منى إذا قلت لك إننى أشكو من هذا الألم الشديد منذ أمس وأقراص « الإسبيرين » عندى دون أن أذكر أنها هنا .

هى — إلى أن ذكرتك أنا . أكاد أعرف كل شئ عنك دون أن أعيش معك . لقد كنت أقول لك إننى لو عصبوا عينى لأقبلت إليك ووقفت أمام باب منزلك . ثم فتحته وصعدت السلم درجة درجة وبعد ذلك تقدمت على أطراف أصابعى ووقفت خلفك وأنت تعمل فى أحد تماثيلك . .

هو — ولم هذه العصابة على عينيك ؟

هى — لست أدرى . تلك البقرة التى تربط إلى ساقية معصوبة العينين والتى حدثتك عنها منذ برهة لو أنهم رفعوا تلك العصابة عن عينيها لما استطاعت أن تدور حول هذا القدر المحتوم شهوراً وأعواماً . . أنا أيضاً أعرف أننى أرتكب خطأ إذ أسعى إليك . . ولكننى أحس بأننى منساقة . . قلت لك إن شيئاً يدفعنى نحوك وأنا كما

صارحتك عنيدة لو أفقت وفتحت عيني لثرت على نفسي وعليك . ولذا أفضل أن تعصب عيناى لكى أدور حولك كما لو كنت أدور حول قدر محتوم دون أن أتضجر أو أثور . . .

هو ــ مدهشة .

هى ــ كنت مدهشة . ولكننى أحسن الآن أننى كغيرى من النساء يتعالين على جميع الرجال ويخضعهن رجل واحد .

هو ــ ماذا ترتدين الآن ؟

هى ــ أراك لا تعلق على كلماتى الأخيرة كأنك توافق على أنك أخضعتنى .

هو ــ ألا أستطيع أن أعرف ماذا ترتدين الآن ؟

هى ــ « بيجامة » وردية اللون .

هو ــ إننى لا أحب لون الورد فى ثياب المنزل .

هى ــ انتظر قليلاً . . إنهم ينادوننى هنا .

« وبعد قليل عادت إليه »

هو ــ فيم كانوا يطلبونك ؟

هى ــ لا شيء . . لقد أبدلت « البيجامة » الحمراء بثوب أزرق .

هو ــ إنه لون مريح .

هى ــ ما هو الأزرق فى غرفتك ؟

هو ــ كل شيء فيها . جدرانها . بساطها . غطاء مصباحها

وستر التماثيل التى انتهى نحتها .

هى — هذه الستر الزرقاء قد تراكم عليها تراب خفيف .

هو — أجل . شىء أشكو منه ولا سبيل إلى رفعه .

هى — أميل إلى الاعتقاد أن حياتك مجدبة من امرأة تبعث فيها شيئاً من الحنان . امرأة تفهمك وتعينك على تحقيق أطماعك فى المجد الذى تنشده .

هو — أتحدث إليك الآن والقطة تأكل أحد جواربى على عتبة الباب . . وقميص الفراك معلق أمامى دون كى كما تركته فى فجر يوم رأس السنة ، أى منذ أكثر من ثمانية شهور . والعنكبوت يرسم أشكالاً هندسية عجيبة على بعض دواوين الشعر التى تضمها مكتبتى .

هى — تخيلنى الآن وقد أقبلت إليك فى غرفتك . أزيل كل ما تشكو منه وأحمل معى باقة من الورد الأبيض أضعها فى آنية خزفية على مكتبك الذى يتوسط الغرفة . . ثم أجلس فى هذا الثوب الأزرق الذى تحبه لأقضى الوقت فى رسم صورة فحمية لأحد تماثيلك التى أحس أنك تعجب بها وتفضلها على غيرها . حتى تعود من عملك فى الخارج فأستقبلك عند الباب . يسبقنى العطر الذى تحبه . أتناول الكتب والمجلات التى تحملها . فأحملها عنك وأضعها مرتبة على المكتب لتزينه . كأنه كان

ينقصها . ثم أقدم لك الطعام الذى أكون قد أشرفت على إعداده فى الصباح . ثلاث صحاف فقط . . حساء ساخن وقطعة من اللحم المشوى مع بعض الخضروات وصنف واحد من الفاكهة. هذا يكفى. لا تكن «فجعاناً» إن لديك استعداداً خطراً للسمنة. وقدح من القهوة أعدها بنفسى وأقدمها إليك بانحناء كأنك ملك ثم أطلق ضحكة ساخرة وأنت تتلقى منى القهوة هادئاً وقد خيل إليك أننى جادة إذ أنحنى أمامك. وبعد ذلك أقفز برشاقة فأجلس خلف المكتب لأقرأ لك ما لم تستطع قراءته فى الصباح. الموضوعات التى تهمك إلى أن تمل أنت من الاستماع فأدنو منك وأجذبك كطفل إلى «المقعد الطويل» فأجلسك عليه وأقول لك هامسة فى صوت يرتجف حباً «نم هنا يا طفلى الكبير . إنك فى حاجة إلى الراحة . سأوقظك فى الوقت المناسب لكى تعمل فى التمثال الذى بدأته أمس . إننى أريد أن أرسم له لوحة فحمية. يملؤنى زهواً أن تكون تماثيلك وحى صورى . . . ستشتغل فى المساء ثلاث ساعات. سأكون إلى جانبك وأنت تعمل فى التمثال الجديد وأنا أسجل خطوط التمثال الذى تم صنعه على اللوحة التى أرسمها ولكننى سأتركك فى الدقائق الأخيرة لكى أرتدى ثيابى وأصحبك إلى الخارج فنصعد

بالسيارة إلى مكان ناء بعيد . ثم نترك السيارة ونسير متلاصقين مسافة طويلة. نم الآن لأننى عثرت اليوم على قصيدة شعر مدهشة سأقرأها لك على ضوء هذا المصباح الأزرق بعد عودتنا فى المساء إلى المنزل . . سأغضب لو أننى رأيتك تتثاءب وأنا أقرأ لك شعرى الحبيب » .

هو — ماذا دهانى . . إن أناملى أضاءت المصباح الأزرق دون أن أشعر . إننى أراك إلى جانبى هنا . . تتحركين فى غرفتى . . فى هذه الغرفة. إقرئى لى الشعر الذى وعدتنى به . هأنذا قد أضأت المصباح الأزرق .

هى — انتظر حتى أحكم إغلاق النوافذ . إننى لا أريد أن نحس بالعالم فى الخارج . يجب أن تنعدم أصوات الناس وضجة العجلات وصخب الطريق. أرى أنك أحسن حالاً بكثير الآن . كما أننى سعيدة أننا أسعد اثنين فى هذا العالم . أليس كذلك ؟ إن العالم فى هذه الغرفة .

هو — العالم فى هذه الغرفة . سمعت هذه الكلمات قبل الآن

هى — وأنا سمعتها معك .

هو — أين ؟

هى — فى السينما . فى تلك القصة التى رأيناها معاً عن الثورة الأرلندية .

هو — عند ما اختلى العاشقان للمرة الأولى .

هى — أجل . كما اختلينا الآن .

هو — ولكن من أنت ؟

هى — تلك التى كانت جالسة إلى جانبك تماماً . فى المقصورة الملاصقة لك .

هو — واسمك ؟

هى — اخبرتك أننى زوجة .

هو — لقد نسيت . اسمحى لى أن أتركك الآن لأفتح النوافذ . إن القطة قد شبعت من أكل الجورب وهى تموء لأنها تلتمس منفذاً للخروج فلا تجد . . إن من حقها أن ترى العالم الذى انقطعنا عنه نحن الاثنين هذه الساعة لنعيش هنا . وحدنا .

حنينى

ليس من السهل أن أنسى ذلك اليوم . كانت سماء هليوبوليس تمطر رذاذاً خفيفاً. وكان جو الشتاء الرمادى يحيط بنا أنا وهى . . . ونحن جالسين تحت سقف مجدول من أغصان أشجار اللبلاب الرفيعة فى حديقة مطعم إيطالى له بابان . . . أحدهما يعرفه المارة لأنه يطل على الطريق العام المار أمام فندق « الضاحية الجديدة » والثانى يطل على طريق صغير هو الذى لا يكاد يعرفه أحد .

وانقضت فترة طويلة لم تنفرج أثناءها شفتاها... ومدت هى يدها فأمسكت بيدى ثم ضغطت عليها... وحدقت بعينيها فى عينى...

وذاب كل شىء يحيط بنا . . .

وخيل إلىّ أنا أصبحنا ذرات سابحة فى ذلك الجو الرمادى . .

ذرات رفيعة كتلك التى تحملها أشعة الضوء التى تسلطها آلة السينما على اللوحة البيضاء فتستحيل إذ ذاك إلى مناظر الحب والوله والهيام التى تسيل عبرات العشاق وتستهوى جماهيرهم .

وأحسست بأن أصابعها بدأت تتقلص على أصابعى . . وأدنت فمها من أذنى ثم همست .

— قالت لى ابنة عمى أمس شيئاً لم أكن أريد أن أفضى به إليك ولكننى لا أود أن أخفى عنك شيئاً ولذا سأخبرك به . . قالت لى وصوتها يرتجف « إننى ألاحظ أنك مسوقة إلى خطر يدفعك إليه حب هذا الشاعر الشاب . . كنت دائماً معروفة فى الأسرة بأنك مثال الفتاة العاقلة فماذا دهاك ؟ إننى أنصحك أن تحذرى التهور فى هذا الحب . . . إنه أمر لا نتيجة له » .

وقد استمعت إلى كلامها ثم سألتها فى هدوء .

— وماذا فعلت بهذه النصيحة ؟

— لا شىء سمعتها ضاحكة . . قبلنى .

واقتربت شفاهنا التى كان يخيل إلينا قبل ذلك بلحظة أن الحديث يرهقها .

وتنبهنا تواً إلى أن بعض نوافذ المبانى الكبيرة المحيطة بحديقة المطعم الصغير مفتوحة وقد وقف خلفها سكانها.

وأرسلت هى ضحكة ساخرة ثم قالت :

ـ أتعرف لماذا أضحك ؟

ـ لا .

ـ لأننى خيل إلىّ أن أرفع قبعتى ثم أمر بها تحت هذه النوافذ المفتوحة لأجمع نقود هؤلاء السكان المتطفلين . . .

ـ وكيف ؟

ـ ألا تذكر تلك الجوقات التى تجوب الطرقات تتقدمها موسيقاها تعزف بها تحت النوافذ المفتوحة وتجمع نقوداً من أصحابها ؟ إن هؤلاء السكان قد شاهدوا شيئاً لم ينتظروا مشاهدته اليوم . . عاشقين شابين تنقضى الساعات وهما يتبادلان نظرة طويلة ممتدة لا تمل ولا تتعب . . .

* * *

انقضت عشرة أعوام على ذلك اليوم . .

لم أعد أراها . . . لأنها سمعت نصيحة ابنة العم التى حذرتها من حب الشاعر الشاب. الحب الذى لا ثمرة له !

لم أعد أسمع شيئاً عنها . . . ولست أعرف أين هى . . . ولا كيف تعيش ؟

ولكن حنيناً إلى ذلك اليوم البعيد يربطنى بتلك الذكرى

كلما صادفت فى طريق ما جوقة من تلك الجوقات الشعبية التى تجوب القاهرة تعرض ألعابها ثم يرفع زعيمها قبعته ليتلقى نقود المشرفين من النوافذ المفتوحة . . .

أحياناً أقف ثم ارفع بصرى إلى النوافذ لعلنى أراها . فلما أتبين أنها ليست هناك أتابع سيرى . . .

واعتقد أنها . هى الأخرى تذكر ذلك الحديث الذى دار بيننا بعد ظهر ذات يوم فى حديقة المطعم الإيطالى وأنها تتأثر بنفس الحنين كلما مرت تحت نافذتها تلك الجوقات العازفة . . .

حنين عجيب . . .

امرأة القدر

(حول مائدة ناصعة البياض خلف الشجرة الضخمة القائمة فى أقصى حديقة « ميناهاوس » ليلة من ليالى الصيف . الظلام يخيم على المكان . أنوار حمراء خافتة تتأرجح مع هواء الصحراء من بعيد فى شرفة الفندق)

هى — يبدو لى أنك متعب هذا المساء .

هو — أجل لقد اشتغلت كثيراً . عشر ساعات وأنا محنى الرأس على المكتب أعمل على إتمام ديوانى الجديد. لم أرفعها إلا عندما دق التليفون إلى جانبي وتكلمت أنت .

هى — ولمَ تركت عملك وأقبلت ؟

هو — أشعر براحة وديعة وأنا إلى جانبك . . أنظر إلى بريق عينيك فى الظلام . . وأتحدث إليك هامساً كأن أحداً يكمن خلف هذا الجذع أخشى أن يسمعنا .

هى — أخبرتنى منذ لحظة أنك اشتغلت عشر ساعات متوالية ومع ذلك فأنت تتكىء بهذه الرأس المرهقة على جذع الشجرة . . هذا الجذع الذى لا يرحم .

هو — أين تريدين أن أضعها ؟

هى — هنا . فوق كتفى .

هو — كتفك .

هى — أية غرابة فى هذا ؟

هو — لا شيء . . ولكن. . لست أدرى لمَ اعتدت ألا أطمئن إلى إراحة رأسي على كتف لين حنون . إن لهذا سبباً قديماً يعود إلى أكثر من خمسة عشر عاماً . .

هى — ماذا حدث إذ ذاك حتى جعلك تفضل أن تريح رأسك فوق هذا الخشب المتوحش على أن تريحها فوق كتفى؟

هو — كنت طالباً فى المدارس الابتدائية . . وكانت « هى » فى إحدى مدارس الراهبات الفرنسيات تقطن منزلاً مجاوراً لمنزلنا فى « الزقازيق » وكنت أتولى مساعدتها فى شرح بعض الكلمات الإنجليزية أو أتكلف ذلك لأتمكن من التحدث إليها بضع دقائق فى كل يوم ... وكان يخيل إلىّ أن يديها تتثلجان كما كانت تتثلج يداى كلما وقع بصرى عليها . . وأن أهدابها ترتجف كلما سمعت صوتى كما كانت ترتجف أهدابى كلما سمعت صوتها يدوى من خلال الحائط الذى كان يفصل منزلينا إلى أن حمل البريد إلى والدى ذات يوم شهادة « آخر السنة » وإذا بى أرسب فى امتحان الانتقال . . فأسرعت إلى سطح منزلنا وانتظرت ساعات حتى صعدت هى الأخرى كعادتها فى عصر كل يوم . . فدنوت منها وأنا أبكى بغزارة . . . واتكأ كل منا على السور الذى يطل

على الشارع الذى يشرف بابا منزلينا عليه . . ورويت لها خبر رسوبى فى صوت منتحب حزين . . ثم تذكرت أننى كنت قد شاهدت على لوحة السينما عاشقين فى موقف غرامى يتناجيان والعاشق يضع رأسه على كتف معشوقته . . فوضعت رأسى أنا الآخر والدموع ما زالت منهمرة من عينى على كتفها . وعندئذ فوجئت بيدها تدفعنى دفعاً خفيفاً وهى تقول لى فى ضجر لم تستطع إخفاءه « إن اليوم هو الموعد المحدد لاستقبال صديقات والدتى . ولقد سبق أن نبهتنى إلى أننى لا يجب أن أدخل إلى غرفة « المسافرين » وكتفى ينضح عرقاً . وأنا أخشى أن تلحظ هذا الدمع المنهمر فتظنه عرقاً » . . ورفعت رأسى إذ ذاك ثم شخصت إلى عينيها طويلاً .. لم تكن تمزح بل كانت جارتى الصغيرة جادة فى ملاحظتها الجارحة . .

هى — وماذا تعنى هذه القصة القديمة ؟

هو — منذ ذلك اليوم عرفت أمرين أثرا فى نظرتى إلى المرأة تأثيراً هائلاً .

هى — وهما ؟

هو — أولهما أنه لا يجب مطلقاً أن يبكى الرجل بين يدى الفتاة التى يحبها أو التى يعلم أنها تحبه . وثانيهما أن الفتيات يفضلن ألا يعرف عن أكتافهن أنها تنضح بالعرق حتى

في أشد شهور الصيف قيظاً على أن تستريح رؤوس الرجال الذين يحببن على تلك الأكتاف .

هي — ألا ترى أنك تغلو في القسوة إذ تتخذ هذه الحادثة الصبيانية أساساً لحكمك على المرأة التي تحب. أيا كانت هذه المرأة ؟

هو — أعترف يا سيدتي أنها قسوة . ولكنني لا أستطيع أن أتحرر منها . . إنها عقيدة راسخة في خيالي منذ أعوام طويلة .

هي — تتعب نفسك إذ تصر على التشبث بتلك العقيدة .

هو — يخيل لك فقط .

هي — كيف ؟ أيمكن أن تكون شاعراً دون أن تفتح هاتان العينان عن الألم ودون أن تروى هذا الألم بالدموع .

هو — عندما أحس بالرغبة في البكاء لا ألقى امرأة .

هي — أتبكي وحدك ؟

هو — أية غرابة في هذا ؟

هي — لا شيء ولكنني يجب أن أعترف لك بأن أسعد ساعات حياتي هي تلك التي كنت أرى فيها دموعي تغمر يدي الرجل الذي أحب .

هو — لأنك كنت « تحبين » .

هي — وأنت . ألم تحب قط ؟

هو — لم أحب .

هى — بعد كل هذا الشعر الذى ظللت تكتبه بضعة أعوام والذى يفيض بأسمى عواطف الحب . . . تقول لى الآن إنك لم تحب قط . لا أصدق .

هو — ستصدقين عند ما تعرفين أننى لو كنت أحببت قبل أن أكتب هذا الشعر لما كتبت منه حرفاً واحداً .

هى — كيف ؟

هو — لأن المرأة هنا لا تمهد للشاب المجهول سبيل المجد والعظمة بل تغلق هذا السبيل إذا استطاعت ولكنها تعدو خلف الرجل الذى تعرف أن كثيرات غيرها من النساء يشاركنها عناء العدو خلفه . وهى إذ ذاك تحبه وتتمنى لو أنها كانت عرفته عند ما كان مغموراً . لا يعرفه أحد مع أنها لو كانت عرفته إذ ذاك لعرقلت جهاده نحو المجد لأنها تأبى أن تتيح له الفرصة التى تمكنه من الفوز بإعجاب غيرها . . أترين ؟ أنها حلقة مفرغة .

هى — أى عيب فى أن « تعدو » المرأة خلف الرجل العظيم إذا جاريتك فى أن التعلق برجل ما يعتبر « عدواً » خلفه .

هو — أنا لا أقول إنه عيب . ولكننى أميل إلى الاعتقاد بأن المرأة لا تحب فى الرجل مظاهر رجولة معينة تأسرها بل تحب فيه عناء الوصول إليه . وهذا العناء يبدو كلما

أبعده حرصه على تحقيق المجد الذى ينشده عن متناول الكثيرات . . أريد أن أكون أكثر صراحة فأروى لك أننى أحفظ من ذكريات طفولتى قصة غرام ذات مرة بين ابنة أحد الأعيان المعروفين فى بلدتى وبين شاب جميل . مهيب القامة كان يشتغل صبياً عند « الطرابيشى » الذى اعتدنا نحن صغار الطلبة أن « نكوى » عنده طرابيشنا . . ولقد أخذ ذلك الحب الذى ذاع خبره فى البلدة الصغيرة شكل فضيحة مزرية . وأحنى زميلنا شقيق تلك الفتاة رأسه حياء بيننا . واضطر والدها أن يزوجها من أحد أقاربها وأن يبعدها عن البلدة حتى تنطفىء الفضيحة . . ولكننى كنت مدعواً منذ أيام إلى إحدى الحفلات التى أحياها مطرب شاب معروف . فرأيت عدداً كبيراً من سيداتنا يحيين ذلك المطرب بإلقاء الورد والأزهار وقطع « الشكولاتة » و . . و . . القبلات بل بإلقاء الأجسام تحت قدمى « التخت » فاستيقظت فى خيالى ذكرى الفضيحة الأولى . . لأننى أعلم — كما تعلم أولئك السيدات — أن ذلك المطرب قضى الشطر الأكبر من حياته صبياً عند أحد « النجارين » . . ولو بقى ينشر الخشب لظل كل تعلق به يعد فضيحة يشمئز منها الناس . أما الآن فإننى أسمع الكثيرات من الفتيات

يكتشفن فى قسمات وجهه ولون بشرته وطريقة إلقائه فتنة خاصة تثير التعلق والإعجاب والحب .

هى — إنك تخيفنى بهذه اللهجة ؟

هو — ولمَ ؟

هى — لأنك تتحدث عن النساء كأنهن قطيع من الماشية التى لا يروق لها أن تسير منفردة بل تفضل دائماً أن تتجمع حول راع واحد وضع عصاته التى يهش بها عليها فى فتحة جلبابه من الخلف لكى تبدو ظاهرة وأخذ يثير الغبار وراءه وهو يسير فى المقدمة .

هو — أترين . لقد بدأت تتحدثين كالشعراء .

هى — وماذا تعنى ؟

هو — أعنى أنك منذ عرفتنى تبينت أنه من الأفضل أن تتخذى لنفسك نفس اللون الذى أتخذه أنا .

هى — من قال لك هذا ؟ إنك تهذى ؟

هو — ولمَ لا ؟ إننى أهذى أثناء النهار . وأسجل هذا الهذيان على ورق شعراً أبيعه بنقود تكفل لى الحياة التى أشتهيها . فلمَ تنكرين على حق الهذيان . الآن . فى ظلام الليل وتحت سحر هذا الهدوء . وخلف هذا الجذع الضخم الذى يحجبنا عن العالم ؟ أحياناً يخيل إلىّ أن أنقطع عن هذا العالم وأبتعد عن الناس أجمعين فى مكان ناء بعيد...

لا أدرى أين ؟ وأن أنسى كل شيء . . . حتى هذه الكلمات الجارحة التى سمعتها منى الآن.. حتى اسمى و...

هى — وماذا ؟

هو — واسمها . . . عند ما يخطر ذلك بخيالى أحلم بفتاة إلى جانبى . . طويلة القامة حتى تستطيع أن تضىء مصباح الزيت المعلق فى سقف كوخ صغير من القش أو القماش المغزول من شعر الماشية دون أن تحتاج إلى الصعود على مقعد . لأنه لن يكون لدينا مقاعد . . سمراء لأن الجلد الذى لا يتأثر بهذه الشمس غير جدير بأن يستر قلباً يخفق ويحب . . واسعة العينين حتى أقرأ فيهما كل شيء دون أن أتحدث أو تتحدث هى . . يكفى أن تنظر إلى عينى فى الفجر . عند ما أستيقظ لكى تفهم ما أريد . . قبله على شفتى . . قدح من اللبن المحلوب بيديها من ماشية ترعاها إلى جانب الكوخ . ثم نسير جنباً إلى جنب حتى نصل إلى عين الماء القريبة . فيغسل كل منا وجهه بيديه . . أترك لها أن تتقدمنى لترى وجهها على صفحة الماء المنبسطة كمرآة . . قبل أن تعبث بها أيدينا فتفسدها لأننى أريد أن تحس بأنها جميلة حتى وسط الصحراء . ثم أتبعها أنا . . ونقضى اليوم فى التنقل بحيث لا يضيع أثر الكوخ من

مدى بصرينا . . أحياناً نعدو كمجنونين خلف أرنب جبلى يحاول الهرب منا حتى يتصبب العرق من جسدينا . . لن تخشى « هى » إذ ذاك أن يبدو أثر العرق على كتفها لأن أهل الصحراء لم يعرفوا ولن يعرفوا غرف « المسافرين » حيث تستقبل المدعوات فى موعد معين من قبل . وأحياناً تعثر قدمها فتنزل وتسقط وعندئذ أترك الحيوان الفار لأحملها بين ذراعى وأعود بها إلى العين أغسل جرحها وأضمده بقطعة قماش أنتزعها من ثوبى . . . وأحياناً عند ما يقبل الليل . . نستلقى على الرمل . أحدنا إلى جانب الآخر . فتروى بعض ما تحفظه من شعر لى أو لغيرى فإذا تعبت وأخذ صدرها يتهدج وهى تروى . . دنوت منها وأخذت أشخص إلى عينيها لكى أقرأ أنا الآخر . . شعرى الحبيب . . ديوان الحياة التى طالما تعشقتها وحلمت بها . سماء الصحراء الصافية . . نجومها المتألقة التى لا زيف فيها فلا أتعب من القراءة ولو دامت ساعات الليل كله . لأننى لا أفتح فمى بكلمة وكلما انتهيت من قراءة صفحة من ذلك الديوان أغمضت عينيها برهة لكى تفتحهما عن صفحة جديدة أكثر روعة ونقاء وصدقاً . .

هى — انظر إلى عينى .

هو — أخشى أن أرى الحقيقة .

هى — أية حقيقة ؟

هو — أشباح السيارات التى تحمل السكارى بعد سهرة عابثة إلى منتصف الطريق نحو الإسكندرية والفيوم .

هى — وماذا تريد أن ترى فيهما إذن ؟

هو — أشياء كثيرة لم يرها أحد قبلى .

هى — ولم ترها أنت من قبل فى عيون أخرى .

هو — تغارين ؟

هى — كيف لا أغار وقد قرأت لك أشعاراً عديدة تتحدث فى كل منها عن فتاة جديدة .

هو — من قال لك إنهن متعددات ؟

هى — لأن لكل منهن اسماً خاصاً .

هو — ولكنهن جميعاً واحدة لم تتغير .

هى — من هى ؟

هو — لست أدرى .

هى — كيف ؟ إنلك تهزأ بى .

هو — أقسم لك أننى لست أدرى إلى الآن من هى ؟
قد تكون أنت . وقد تكون غيرك لم يسقها القدر إلى بعد.
إنها إلى الآن « فكرة عن امرأة » وليست امرأة معينة
أعرفها و يعرفها الناس. يوماً أطلق عليها اسمآما و يوماً آخر

أفضل لها اسماً غيره . . إننى لا ألجأ إلى الأسماء إلا لأميزها عن غيرها من الفتيات عند ما أناديها ولكن هذا الاسم لا يعنيى . ألم أقل لك إننى إذا ما عثرت عليها سأهرب معها إلى مكان بعيد . وأنسى اسمى واسمها ... إذ ذاك لن يكون هناك ما يدعو إلى أن يكون لها اسم معين . لأنه لن يكون إلى جانبي غيرها . ستسمع ندائى فتحضر مسرعة . صفير خفيف يكفى . أما هنا مثلاً فلو صفرت لك دون أن أناديك لضاع الصفير وسط أصوات أبواق السيارات الصاعدة فى الطريق القريب . وجلبة الموسيقى التى تعزف خلف شرفة الفندق .

هى — إن هذا الحذاء يضايقنى أشعر برغبة فى أن أخلعه وأسير حافية القدمين .

هو — ولكن حصى هذه الحديقة مدبب الأطراف .

هى — لا أخشاه .

هو — كيف ؟

هى — أريد أن يسيل الدم من قدمى فتحملنى حملاً إلى السيارة.

هو — مجنونة .

هى — ولكننى تلك التى كنت تبحث عنها .

هو — ومن أين لك هذا ؟

هى — قرأته فى عينيك .

هو ــ ماذا قالتا ؟

هى ــ قالتا لى . . « اقتربى . . إننى أحس براحة إلى جانبك لم أحس بمثلها من قبل . أين كنت طول المدة التى ظللت أبحث فيها عنك ؟ خيل لى أكثر من مرة أننى عثرت بك . . إلى حد أننى عدوت ذات مرة وسط الزحام الحاشد فى أحد فنادق القاهرة الكبرى التى كانت تحتفل بليلة عيد الميلاد أدفع الناس لأشق طريقى إليك فلما وصلت وجدت أننى كنت مخطئاً. كانت فتاة أخرى تشبهك لها قامتك ولون شعرك الفاحم . وجلدك الصافى السمرة فى لون القمح الذى نبت فى واحة لا تغرب عنها الشمس . . ولكن ليس لها عيناك . ومرة أخرى خيل إلىّ أننى انتهيت بالعثور عليك . . كنت بين ذراعى أدور بك حلقة الرقص فى حانة الطاحونة الحمراء «ببودابست » . كانت صورة منك . . كدت أحدثها عن الكوخ المصنوع من القش وشعر الماشية وعيون الماء الجارية على بعد خطوات منه . والأرنب الصحراوى الفار ولكنها أرسلت ضحكة ثملة عالية فتنبهت إلى أنها ليست أنت » .

هو ــ « يرفع رأسه عن جذع الشجرة ويدنو منها » .

عجباً ! إننى تحدثت فى شعرى عن تينك الفتاتين . .

فتاة الفندق فى عيد الميلاد وفتاة الحانة الراقصة فى بودابست . . ماذا تقرأين أيضاً ؟

هى — « إننى أعرفك منذ مدة طويلة . . منذ بدأت أبحث عنك عرفت كل شيء . لا تدهشى إذا قلت لك إن أول البحث عنك لم يرهقنى . . لأنك كنت دائماً قريبة منى . أحياناً كنت أطلب منك أن تسهرى إلى جانبى حتى الصباح فى ليالى الربيع بغرفة مكتبى ... أنا خلف المكتب وأنت فى ثوب الغرفة جالسة على المقعد الذى أمامى تماماً تعملين فى حياكة شيء تعدينه لى كى أرتديه فى الشتاء فإذا شعرت بأن العمل أرهقنى نهضت فطبعت على فمى قبلة ثم غادرت الغرفة لكى تعودى بقدح من عصير الأناناس فإذا سألتك لم تصرين على أن تقدمى لى هذا الشراب » ؟ — أجبتنى نفس الجواب الذى لم يتغير « أنه شراب الغابة التى يحلم كل منا بالحياة فيها إذا ما تحققت آمالك فى كتابة الشعر واعتزلت العالم » وأحياناً أخرى كنت أتخيلك إلى جانبى نشاهد معاً إحدى قصص السينما . . وأدنى شفتى من أذنك لأهمس فيهما بترجمة بعض العبارات الإنجليزية التى أعلم أنك لا تفهميها وكان هذا الخيال يشتد بى ويتسلط علىّ إلى حد يدفعنى إلى أن أختار لى مقعداً

خالياً إلى جانب مقعدى . . هو مقعدك » .

هو — « يمسك بيديها » — هل قرأت كل هذا ؟

هي — أجل وأكثر منه . .

هو — ماذا أيضاً ؟ إننى أرتجف لأن كل هذا الذى تذكرين قد خطر لى تماماً . تحدثى . . . تحدثى .

هي — انظر إلى عينى . . ها أنذا قد أدرت ظهرى إلى الطريق الذى يذكرك بالعالم الذى تريد أن تنفصل عنه . . وبالناس الذين ترغب فى أن تبتعد عنهم . . ماذا تقرأ فيهما ؟

هو — كل الأشياء التى أوحت إلىّ بأحب شعرى إلىّ . . و . . ولكنك تبكين . . إنك تبكين يا حبيبتى .

هي — لأنى أعرف أنك الآن تجتاز إحدى الأزمات التى لا يفرجها إلا البكاء . ضع رأسك على صدرى هكذا . . أجل هكذا . . .

هو — سنفترق الآن . . ستعودين إلى منزلك . وسأعود أنا إلى منزلى . . .

هي — ولكننى سأحس برأسك مستريحة على صدرى حتى الصباح . خفقات قلبى ستؤرجحك أثناء النوم كأنك طفل عنيد . . . يجب أن تعترف بأنك عنيد حقاً . . . ضع قدح اللبن على المائدة الصغيرة إلى جانب فراشك قبل أن تنام . . . فإذا فتحت عينيك فى الصباح فأخف

رأسك تحت الوسادة ثم نادنى بصوت عال « أين لبن الصباح ؟» وبعد ذلك ارفع الوسادة ومد ذراعك لتناول القدح . .

هو — وبعد . . .

هى — اشتغل . . اشتغل طول النهار . إنك شاب يجب أن تتحقق لك كل الأحلام التى تداعب خيالك . . . كلما تحقق مجدك سريعاً اختصرنا الطريق إلى العزلة التى ننشدها . . . لا تخف من إحناء رأسك على المكتب . . . غداً سأحضر لك بثوب لا كتف له .

قارئات الحب :

لم أكن أتصور عند ما تحدثت إلى . . . الليلة أن هذا الحديث سيرسم الخطوط الأولى لمغامرة عجيبة جديرة بأن تسجل مراحلها فى أكثر من قصة طويلة .

كان صوتها خافتاً مرتجفاً . يتسق مع الساعة المتأخرة من الليل التى اختارتها للتحدث بالتليفون . . . لم تترك كلمة إعجاب إلا أسبغتها على حتى بعثت الزهو والغرور إلى خيالى الذى كان — أيامئذ — طفلا . ما زلت أذكر أنها قالت لى فى حرارة متأججة .

— يدهشنى أننى كلما قرأت لك زدت اعتقاداً بأن الأفكار التى طالما ملأت فراغ رأسى فى ساعات خلوتى إلى أزهار « الكريزانتيم » فى حديقتى لم تخطر لرجل آخر غيرك . . .

أنت وحدك كنت جالساً على الدوام خلف إحدى أشجار الحديقة تقرأ أفكارى وتقدرها وتشاركنى فيها . . عجباً . أيمكن أن أعثر بك هكذا فجأة بين آلاف الرجال . .

ما زلت أذكر هذه الكلمات . . إنها محفورة فى خيالى . . لأننى كنت إذ ذاك أخطو الخطوات الأولى نحو تحقيق أحلام الشاعر الشاب فى دنيا خيل إلى أكثر من مرة أنها أجدبت من الشعر بل احقدت على الشعر والشعراء .

ومرت أعوام . . كان يكفى أن أراها مرة فى كل عام منها . . فى ثوب أسود أنيق تحمل كتاب السباق تشاهد الجياد التى تخطر أمامها داخل الحلقة كأنها تتأهب للرقص فى حفلة عرس عربى . . كنت أقنع نفسى بأنها . . تشتى كما أشتى أنا بالبحث عن الركن الهادىء المنعزل عن العالم الذى يحقق لها أحلام ساعات الخلوة إلى جانب أزهار «الكريزانتيم» رغم الثياب الأنيقة والسيارات الفخمة وساعات «التظاهر» أمام الناس فى حلقات السباق .

رباه !

كم كانت رائعة تلك الصداقة التى كانت تحتشد فى خيالى كلما شاهدت زهرة من زهرات «الكريزانتيم» فى إناء خزفى على مائدة مطعم فى فلورانس أو فى صدر راقصة من راقصات «ريوريتا» فى برلين . . أو مرسومة بالألوان على لوحة معلقة فى معرض أزياء فى شارع «هوسمان» فى باريس .

وزارتنى . . ذات يوم لتسألنى رأيى فى أمر عجيب . يا للهول !

سألتني رأيي في الانفصال عن زوجها الذي لا تحبه للتزوج من قريب لها تحبه منذ الطفولة وخشيتها إذا هي أصرت على هذا الانفصال من حلول كارثة عائلية مالية . سألتها :

— إذن أنت تعيشين منذ مدة طويلة مع رجل لا تحبينه حرصاً منك على المال الذي تخشين أن تفقديه ؟ — فأجابت .

— أجل . . كيف تريدني أن أضحي ذلك المبلغ الجسيم؟

وخرجت . . من عندي بعد أن تحدثت إليها حديثاً قضائياً أدليت إليها فيه بالرأي الذي اعتاد رجال القانون أن يدلوا به في أمثال حالتها . . . بعد أن تجاذبنا أطراف حديث قصير . ولكنه حديث ثلجي لا روح فيه .

خيل إلى وهي تهبط الدرج أن أقدامها كانت تدوس على كل أزهار « الكريزانتيم » التي أنبتتها حدائق العالم .

وأيقنت بعدها أن قارئات الحب يجدن الحديث عنه ولكنهن لا يجدن الإحساس به .

ذات يوم سألت نفسي وأنا أعصر بين أصابعي زهرة من زهرات « الكريزانتيم »

— ما الفرق يا ترى بين السيدة م . . وبين أولئك النساء اللاتي اعتدنا أن نجلس إليهن ساعة عابرة في ليلة عابثة يوجهن إلينا الثناء على لون « كرافات » أو أسلوب حياكة قميص ثم نفترق فلا نراهن بعد ؟ منذ ذلك اليوم وأنا أكره المرور على الحدائق التي تنبت فيها أزهار « الكريزانتيم » .

امرأة أخرى

هو – شاعر فى الثلاثين من عمره
هى – فتاة فى الخامسة والعشرين ظهرت ذات يوم فى أفق حياة الشاعر .

هى – ولكننى كنت أظن أنك أحببتنى

هو – من أين جاءك هذا ؟

هى – من اهتمامك بى . كان يبدو عليك كلما تحدثت إليك أنك سعيد بهذا الحديث لم تظهر لى يوماً ضجراً منه .

هو – أين هو ذلك الرجل الذي يظهر الضجر من امرأة شابة جميلة فى الأيام الأولى من تعارفهما ؟

هى – لقد بلغ من تعلقك بالحديث معى أنك كنت تقرأ لى طائفة من شعر فرنسى تحبه .

هو – اعتدت أن أقرأ مثل هذا الشعر لفتاة منذ بضعة أعوام فلم أطق بعدها أن أقرأ شعر الحب وحدى

هى – ولكنك لم تشر إلى تلك الفتاة مرة واحدة فى كل أحاديثنا الطويلة .

هو – كنت أتوقع هذا اليوم فلم يكن من السهل أن أفتح لك مغاليق قلبى .

هى – هل كنت تحبها ؟

هو – مرت من بعيد فى أفق حياتى .

هى — كما مررت أنا ؟

هو — إذا شئت .

هى — تخدع نفسك وتحاول خديعتى .

هو — تظنين ؟

هى — إننى واثقة .

هو — إذا كانت هذه الثقة تريحك فافعلى .

هى — لست طفلة حتى تتحدث إلى بهذه اللهجة الساخرة . إننى أستطيع أن أذكرك بأمور كثيرة تؤيد ثقتى فيما قلته .

هو — مثلا .

هى — لقد ذكرتنى فى الأيام الأولى لتعارفنا بالمرات التى وقع بصرك على فيها . . مرة وأنا أتناول العشاء مع ابن عمى فى شرفة « جروبى » وأخرى وأنا جالسة فى ثوب البحر على شاطىء « جليم » وثالثة وأنا أعدو لاهثة لأودع أخى فى محطة سيدى جابر .

هو — ماذا تنتظرين من رجل يجد أمامه امرأة تصارحه بأنها كانت تتوق إلى معرفته منذ بضعة أعوام وأنها ظلت مترددة فى التحدث إليه حتى استجمعت شجاعتها ؟ أليس من القسوة أن يجابهها بأنه لم يكن يشعر بأن لها كياناً يلفت نظره .

هى — ولكننى فهمت أننى كنت أثير اهتمامك كل مرة رأيتنى فيها . . .

هو — لم تخطئ كثيراً فى ذلك الفهم ولكن . .

هى — ولكن ماذا ؟

هو — ولكننى قبلك اهتممت ذات يوم بركن نصف مظلم فى أقصى حديقة الأندلس بالجزيرة . . ركن منزو لم يكن الكثيرون من زوار الحديقة يلتفتون إليه . . مقعد منحوت فى جذع شجرة توت وسقف من أغصان الكرم الرفيعة وسياج من العشب النامى يحجبه عن ضجة الطريق ولقد بلغ من اهتمامى بذلك الركن أننى تعمدت السؤال عن البستانى المعهود إليه به فعرفت اسمه . واكتسبت صداقته وأوصيته به خيراً . وكنت كلما مررت بذلك الركن أجزلت للبستانى العطاء لكى يعنى به العناية التى ترضينى . . كثيراً ما ذهبت إلى ذلك « العش » وتفقدت جوانبه . . وأزلت بمنديلى الرماد المتراكم على مقعده كأننى أتوقع أن يكتشفه غيرى . . وقد حدث ما توقعته . .. مررت ذات يوم فوجدت عاشقين شابين يجلسان متلاصقين على المقعد. لمحتهما من خلف العشب النامى فابتسمت ثم عدت أدراجى ولم أدخل حديقة الأندلس بعد ذلك قط .

هى — ماذا تعنى ؟ إنك تهذى . . أى شبه بينى وبين ذلك العش المنزوى فى تلك الحديقة ؟

هو — اكتشفته كما اكتشفتك . . وأوحى إلى بكتابة بعض قصائدى التى أحببتها كما أوحيت إلى أنت بكتابة البعض الآخر .

هى — ولكنك تركت ذلك العش عند ما اتضح لك أن غيرك قد اكتشفه . فلم تتعمد إيذائى بهذا الكلام ولم يبلغك عنى أننى نكثت عهدك مع رجل آخر .

هو — علمت أن غيرى قد اكتشفك قبلى .

هى — « حانقة » ماذا ؟

هو — لا تثورى .. إننا تقابلنا لنفترق فلم لا أصارحك بكل شى ؟ .

هى — ولكن هذا كذب .

هو — ليس من السهل أن تعترف المرأة بماض كانت تخفيه .

هى — لم تطالبنى يوماً بأن أقدم لك حساباً عن هذا الماضى .

هو — ولكنك تركتنى أفهم أن لا ماضى لك ؟

هى — ثم . . .

هو — ثم عرفت أن غيرى قد سمع منك الأنات الشاكية التى سمعتها منك . ولذعت أنامله العبرات الساخنة التى جعلتنى أسهر ذات ليلة حتى الصباح أنظم قصيدة خيل إلى ليلتئذ أنها أروع قصائدى .

هى — خيل إليك .

هو — أجل . . لقد كرهت تلك القصيدة . ولو استطعت أن أجمعها من المكتبات وأحرقها لما ترددت .

هى — لم ؟

هو — لأن الوحى الذى ألهب روحى ليلتئذ لم يكن نقياً .

هى — إننى سعيدة إذ أسمع منك هذا الكلام . . إنك تحبنى إلى حد أنك تغار من ماضى قبل أن تعرفنى .

هو — واهمة .

هى — لا بل واثقة .

هو — لن أبخل عليك بأن أدعك اليوم وأنا أتحدث إليك حديث الوداع تتعزين بهذا « الوهم » — ولكننى أقسم لك أننى كنت أرجو وأنا أكتب قصائدى عنك أن يراك الناس بعد قراءتها ويشيرون إليك إذ يتبينون تواً أنك « وحى » تلك القصائد . أما اليوم فإن ما يؤلمنى هو أنه شعور بالخيبة لا بالغيرة كما خيل إليك .

هى — لست أول شاعر ألهبت روحه امرأة أحبها الناس من قبل.

هو — ولكننى آخر شاعر يجمع بقايا امرأة لكى ينصب من هذه البقايا تمثالا يحرق تحت قدميه البخور ويخدع الناس فيجمعهم ليشتركوا معه فى ذلك العمل الذليل .. لقد أبيت ذات مرة أن أعهد بدور البطولة فى قصة إلى ممثلة من الممثلات المعروفات اللاتى اعتاد الناس

أن يصفقوا لهن . وأن يملأوا أجـــواء المسارح بأصوات الهتاف بأسمائهن . . وقد ظللت أبحث حتى اكتشفت الفتاة التى تصلح فى نظرى للقيام بذلك الدور . . لم يكن أحد قد سمع باسمها . كانت مغمورة وسط دنيا الرياء تبذله الجماهير للمعروفات من الممثلات . . فلما ظهرت فى قصتى ونجحت ظللت أشعر منذ ذلك الوقت أننى صاحب الفضل فى نجاحها وكنت كلما اتصل بى خبر توفيقها كلما زاد إحساسى بأنى اكتشفت شيئاً لم يكن غيرى قد التفت إليه من قبل . لا يهمنى الآن ماذا تفعل فقد علمتها عند ما عهدت إليها بقصتى كيف تحب كما أريد أنا أن تحب النساء. وكيف تبكى كما أحب أنا أن تبكى النساء وكيف تغار كما أحب أنا أن تغار النساء .

هى — ولكننى لست ممثلة . إنك تنس نفسك .

هو — أنت التى تنسين . أنك لم تتقدمى إلىّ إلا لأننى شاعر تقرأين له وتودين أن تعرفى كيف يعيش حياته الخاصة . هاأنذا أقولها لك فى صراحة : إنى أعيش هذه الحياة قصة . بدأت فصولها يوم خفق قلبى بأول خلجه شعرية أحياناً تبكينى وأحياناً أخرى تطلق الضحكة المرحة من أعماق روحى . والمرأة التى تكون إلى جانبى يجب

أن تعرف أنها تلعب الدور الأول فى تلك القصة . فإذا كان قد سبق لها أن لعبت ذلك الدور فى حياة رجل آخر فإننى أشعر على الدوام بخشيتى من شىء ما . كلمة واحدة قد تكون لا تزال عالقة فى ذاكرتها من « الدور » الأول تعود إلى التأوه بها فى غفلة منها أمامى . « حركة » صغيرة كان يقضى الدور الأول بأن تؤديها تجىء فتكرر أداءها وهى إلى جانبى . « اسم » كان عليها أن تردده وهى « تعيش » فى الدور الأول ربما خانها لسانها فانطلق يردده مرة أخرى بحكم العادة والتكرار . . هذه الخشية تجعلنى لا أستطيع أن أنام وهى ساهرة إلى جانبى تنتظر يقظتى . . وتعلم فى اليقظة أحلامى فى النوم . . يخيل إلى أنها أثناء نومى ستخطىء فتنطق تلك (الكلمة) أو تؤدى تلك (الحركة) أو تردد ذلك (الاسم) فأهب مذعوراً كأن رجلا آخر أقبل ليقذف فى وجهى بماض طويل لم تتصل بى كل تفاصيله.

هى — « فى صوت مرتجف تدنو منه » — ولكن ذلك الرجل لم يقبل بعد . . .

هو — أعرف أنه مقبل عما قريب . . وهذا هو الذى جعلنى أفر منك وأحقد على اليوم الذى عرفتك فيه .

هى — من أين جاءك أنه مقبل عما قريب ؟

هو — أنت .

هى — « تشهق » أنا . كيف ؟

هو — « يبتسم ابتسامة صفراء » ليس هذا حال من تحب حبها الأول .

هى — ماذا تفعل لو أنها كانت تحب ذلك الحب ؟

هو — لا تتكلم بهذا الثبات . ولا تتجلد . أمام رجلها هذا الجلد ولا تقاوم عشرات الأيام كيلا تراه . . بل تتعقبه إذا غاب . وتبكى بين يديه إذا غضب . وتسقط مغشياً عليها فى موقف الوداع أترين ؟ أنك وقفت هذا الموقف من قبل . . أحببت وافترقت عمن كنت تحبين . أنك تتحدثين إلىّ كأنك تلقين « كلام » دور قديم سبق لك أن مثلته .

هى — «تستجمع قواها» ولكنك تتحدث كأنك تودع حبك الأول .

هو — هذا هو الفرق بينى وبينك . لو لم أحب فى كل مرة كأننى أحب للمرة الأولى وأودع للمرة الأولى لما استطعت أن أكتب شعراً .

هى — إذن كنت تخدعنى

هو — نحن الاثنان خدعنا الناس . . إذ قدمنا لهم ذلك الشعر الذى يصف غرامنا . . ذلك الغرام الذى سرعان ما انطفأ إن الناس قد شهدت اشتعال ذلك الحب ولكنهم لن يشهدوا انطفاءه .

هى — ولم ؟
هو — لأنني لو فعلت لكان واجباً أن أذكر أنك اعتدت أن تشهدى مواقف الوداع وليس فى هذا ما تزهو به امرأة مرت ذات يوم فى أفق حياتى .
هى — « باكية » والآن ؟
هو — لا شيء . الوداع .
هى — ولكن عينيك تلمعان بالدموع .
هو — هكذا اعتدت عند ما أشهد مصرع غرام فى قصة حب تعرض أمامى على خشبة المسرح. أو عند ما أقرأ حوار وداع فى قصة ما .
هى — إذاً فما كان بيننا كان « حباً »
هو — أجل . . ثم انطفأ
هى — ربما كنت مخطئاً . اقترب . . انظر إلى عينى . . ربما تبين لك أنه لا يزال يشتعل. أكثر اشتعالا من ذى قبل.
هو — من أنت حتى أنظر فى عينك ؟
هى — كيف . ألا تعرفنى ؟
هو — لا . . إننى لا أعرفك .
هى — ولكننى . . أنا . . أنا التى أوحت إليك بأعز قصائدك إلى روحك وأقربها إلى أرواح الناس .
هو — من قال لك ذلك .. إنك واهمة .. « يضحك ضحكة

جافة » . إنها امرأة أخرى . . امرأة لا ماضى لها . .
أذكريها بالخير يا سيدتى كما سوف أذكرها . . الوداع .

الليلة ليلتنا :

المسرحية مسرحيتى .

وقاعة المسرح الكبير غاصة بالجمهور الذى احتشد كما اعتاد أن يحتشد فى الليالى الأولى للمسرحيات الجديدة .

والمقصورة التى تواجه مقصورتى فيها بضع سيدات وفتيات .

ولم أكن أعرف واحدة منهن .

ولم أعن فى بادئ الأمر بإمعان النظر إليهن .

ولكن لفتة خاطفة تلاقى فيها بصرانا .

أنا وهى .

سمراء . يبدو أنها طويلة القامة رغم اتخاذها أحد المقاعد الخلفية فى المقصورة .

شفتان ممتلئتان ارتجفتا قليلا عند ما لاحظت أن وجهها قد استوقف بصرى الزائغ المضطرب فهدأ عنده .

وابتسمت. فأطرقت هى إلى الأرض .

وانتهى الفصل وانسدلت الستار مسرعة فضجت قاعة المسرح بالتصفيق .

وانفرجت الستار مرة أخرى وتقدم الممثلون والممثلات يردون

التحية ولكننى لم أسمع شيئاً ولم أر شيئاً. كنت لا أزال أنظر إلى تلك السمراء الجالسة على بعد فى مقصورة نائية .

ومد صديق كان جالساً إلى جانبى يده فدفعنى فى رفق لينبهنى إلى وجوب أن أبتسم للجمهور الذى يوجه تحيته إلى قصتى .

ولكننى إذ ذاك كنت أعيش فى جو آخر . فى جو قصة أخرى لم تتم فصولها . بل لم يرفع الستار عن فصلها الأول بعد . كنت أعيش فى ليلة أخرى . غير الليلة التى كان جميع من حولى يعيشون فيها .

وتفرق الجمهور فى فترة الاستراحة .

وغادرت المقصورة لأتلقى تهانىء بعض الأصدقاء .

ودق الجرس . فعاد الجمهور إلى مقاعده .

وعدت أنا الآخر إلى مكانى .

والتقى بصرانا مرة أخرى .

وخيل إلىّ أننى قرأت فى عينيها كل شىء كما قرأت هى فى عينى كل شىء .

لم تلتفت إلى ما كان الممثلون يلقونه على المسرح من كلامى ولكننى خيل إلى أنها كانت تعرف ما سوف أقوله ويرددونه عنى

بل لقد عرفت أكثر من ذلك .

عرفت رأيها فى المسرحية . سخطها على بعض ما جاء فيها وإعجابها بالبعض الآخر .

* * *

وهبطت ستار الفصل الأخير .

وضممت أطراف معطفى ثم ألقيت نظرة أخيرة على المقصورة المواجهة وغادرت المسرح عائداً إلى منزلى .

ولم أستطع أن أتحرر من التفكير فى الغادة السمراء التى عاشت معى ليلتئذ . فخيل إلى أننا عشنا — هناك وسط ذلك الزحام الحاشد — منفردين . بعيدين عن الناس أجمعين .

وفى الصباح المبكر حمل إلى البريد مسرحية فرنسية عنوانها « الليلة ليلتنا » .

ومعها هذه الكلمات .

« تقبل هذه الهدية من السمراء المجهولة التى عاشت معك ذات ليلة ثم افترقت على ألا تعود » .

ولم تعد صديقة ليلة المسرحية الأولى .

لم أرها بعدئذ قط .

ولكننى لا زلت أعتقد أنها أكثر من عرفت فهماً لروحى .

لقد فهمت ليلتئذ على الأقل أننى وسط ذلك الضجيج الصاخب كنت أحلم بأشياء أخرى لم يفطن إليها أحد غيرها

كانت هى الأخرى تحلم ذلك الحلم الشعرى .

وكانت « الليلة ليلتنا » نحن الاثنين .

رعدة الذكرى

« الجزيرة التى تبعد عن شاطىء سيدى بشر والتى ترى من بعيد وقد أحاطت بها مياه البحر

صباح يوم من أيام أغسطس . الجزيرة خالية إلا من شاب استلقى فى ثوب البحر على أرضها وقد اتكأ برأسه على يديه منشورتين تحتها . الشمس ترسل أشعتها المحرقة إلى الجزيرة الخالية . يستيقظ الشاب من غفوته على صوت ذراعين يسبحان فى الماء مقتربين إلى الجزيرة .

هو — «مقطبا جبينه. واضعاً يده فوق عينيه ليحجب أشعة الشمس وليستطيع التدقيق إلى وجه الفتاة التى عبرت البحر الذى يفصل بين الشاطىء والجزيرة سباحة » من ؟

هى — « تكون قد وصلت إلى أرض الجزيرة . ساقاها فى الماء وجذعها الأعلى متكىء على رمل الجزيرة . ترفع بصرها إليه . تشهق شهقة طويلة حادة » أنا

هو — كيف استطعت السباحة إلى هنا ؟

هى — ماذا يدهشك فى هذا ؟

هو — منذ ثلاثة أعوام . فى هذا المكان نفسه . كنت لا تستطيعين النزول إلى البحر إلا إذا كنت إلى جانبك .

هى — لأننى كنت أخاف من البحر .

هو — ولكنك كنت تسبحين .

هى — مطمئنة إلى أن ذراعك ستنتشلنى إذا هويت .

هو — ومتى تعلمت السباحة وحدك ؟

هى — عند ما انفصلنا .

هو — كيف ؟

هى — عرفت أننى يجب أن أعتمد على ذراعى لأننى تفقدت ذراعيك فلم أجدهما .

هو — « يطرق إلى الأرض ويفكر » أنا لا أذكر أننا وصلنا إلى هذه الجزيرة .

هى — ولكننا كنا دائماً على الشاطئ ننظر إليها من بعيد كأننا ننتظر اليوم الذى نستطيع أن نصل فيه إليها .

هو — ألا تذكرين لم كنا نصبو إلى ذلك اليوم ؟

هى — أجل « يحمر وجهها » .

هو — لمَ .

هى — لأننى وعدتك أن أعطيك القبلة الثانية فى مكان ناء نكتشفه نحن .

هو — وقد خيل إلينا إذ ذاك أن هذا المكان قد انحسر عنه الماء ليكون ملتقانا الموعود .

هى — ولكنك لم تشأ مع ذلك أن ترهقنى بالسباحة طويلا إلى هنا .

هو — مع أننى كنت أعد الثوانى الباقية .

هى — « تهز رأسها فى بطىء » كانت قد انقضت أربعة

شهور على أول مرة التقينا فيها منفردين .

هو — « مطرقاً إلى الأرض وقد أخذت أنامله تعبث برمل الجزء المغمور بالماء » مساء الأربعاء ٢١ يناير . . .

هى — « مطرقة إلى الأرض وقد أخذت أناملها تمهد الجزء الذى عبثت به أنامله » التقينا أمام باب المبنى المقابل لفندق الناسيونال حيث تقطن حائكة ثياب أسرتنا . ثم حملتنى فى سيارتك إلى خارج القاهرة .

هو — لم نجد مكاناً نذهب إليه لكى نقضى ساعة هادئة بعيدين عن أعين الناس إلا جزيرة الشاى فى حديقة الحيوان .

هى — لقد حاول الخادم السودانى أن يسكب لنا الشاى يومئذ ولكننى أسررت إليه أن يدع الإناء لى وخدمتك. لازلت أذكر جيداً . عند ما انتهيت من سكب الشاى فى قدحك ومددت أناملى لكى ألتقط قطع السكر ترددت قليلا لأنه خطر لى أن أسألك « قطعة واحدة أو قطعتين؟ » ولكننى لم أشأ . خيل لى أنى لو فعلت لدل ذلك على أننى حديثة عهد بصداقتك فوضعت قطعة واحدة .

هو — كما أننى تعمدت أن أرفع « ماسكة » السكر لكى أدعك تضعين القطعة بيدك .

هى — ولما هبط الظلام قمنا نسير فى طرقات الحديقة على غير هدى كأننا تهنا عن هذا العالم .

هو — لقد تمنيت إذ ذاك أن يطول هذا التيه .

هى — حتى يعثر علينا أهلنا ميتين .

هو — أجل. أذكر أنك قلت لى ذلك. أمام قفص العصافير الزرقاء .

هى — « تشيح بوجهها » لا تذكرنى بها .

هو — « مستمراً كأنه لم يسمعها » العصافير التى اجتمعت فى حنو على سلك واحد عند ما رأتنا قد ألصقنا وجهينا بأعمدة قفصها كأنها أرادت تحيتنا .

هى — « يتهدج صوتها » لا تسهب فى إعادة ذكرى ذلك الموقف على سمعى .. رباه .

هو — « لا يزال مستمراً » فلما التقى منقارا اثنين متجاورين منها رأيتنى أمد يدى واقبض على يدك .

هى — كفى . ارحمنى .

هو — وعندئذ تلفت حولك كأنك توحين إلىّ بشىء ما . ولكننى تخابثت وسألتك « لم تلتفتين ؟ » فأجبت فى صوت هامس وأنت تنظرين إلى منقارى العصفورين المتلاقين وقد ارتفعت زقزقة الباقى كأنها زغاريد منتشية « أخشى أن يرانا أحد » فلم أنتظر حتى تتمى جملتك وقبلتك للمرة الأولى وأنا أقول « تخشين وأنا معك » .

« فترة صمت لا تسمع فيها إلا لطمات أمواج البحر لشاطئ الجزيرة » .

هى — فى اليوم التالى تحدثت إلى بالتليفون وطلبت إلىّ أن أذهب إلى ذلك المكان نفسه لأقرأ شيئاً كتبته وأبيت أن تخبرنى به .

هو — هل ذهبت ؟

هى — أجل .

هو — كنت قد أنكرت أنك أطعتنى .

هى — لقد تجاوزت السن التى يليق فيها أن أعاند .

هو — ماذا وجدت ؟

هى — « ترسم بأصبعها على رمل الشاطئ المبلل هذه الكلمات دون أن تنطقها » هنا قبلتها للمرة الـ . . . . .

هو — « يمسك بيدها لكيلا تتم رسم الكلمة » أعرف ما سوف تكتبين . . .

هى — لم تمنعنى ؟

هو — « يرسم بأصبعه هذه الكلمة دون أن ينطقها » .

(الثانية)

هى — شرير .

هو — لم ؟ .

هى — لأنك تغرينى على أن أقترف شيئاً لا يليق .

هو — وهو ؟

هى — أن أخون رجلا أحمل اسمه .

هو — « بعد رجفة » أتحبينه ؟

هى — لا . لقد أحببت مرة واحدة رجلا لم ينل منى إلا قبلة واحدة .

هو — أمام قفص الطيور .

هى — فى حديقة الحيوان .

هو — ولكنك وعدته أن تهبيه الثانية فى هذا المكان .

هى — إذا سبحنا إليه معاً . ولكننى وصلت إليه وحدى .

هو — رأيتنى أسبح إليه فتبعتنى .

هى — « تنتفض » من قال لك ؟ لو أننى رأيتك لما أقبلت .

هو — شريرة .

هى — كيف ؟

هو — لأنك أخبرتنى منذ لحظة أنك تجاوزت السن التى لا يليق فيها أن تعاندى .

هى — « تنظر إلى عينيه . ثم تضع يدها على جبينه لتعيد خصلة من شعره المبلل إلى مكانها » كم تقسو على .

هو — تستحقين .

هى — أجل أستحق لأننى رأيتك حقاً وتبعتك .

هو — أنك لازلت تلهثين من شدة ما أرهقتك السباحة إلى الجزيرة .

هى — أقطع هذه المسافة سباحة للمرة الأولى .

هو — ألم تخشى الغرق .

هى — كنت واثقة من أنك ستنقذنى لو أشرفت على الغرق

هو — أترين أن الأمواج قد هاجت فجأة ؟ ماذا كان يحدث

لو أنني سمعت صراخك ونزلت إلى الماء ثم جرفتنا موجة عالية مخيفة كهذه الموجة .

هى — ألم نتمنى ذات يوم أن نتنزه فى غابة مهجورة وألا يعثر علينا أهلنا إلا . . . ميتين ؟

هو — « يرتجف جسمه » — لا بد أنك تشعرين بالبرد هنا «يتلفت حوله» لا شيء أستطيع أن أضعه على جسمك العارى.

هى — « تقترب منه فيطوقها بذراعه » — إن جسمى يرتعد ولكنها ليست رعدة البرد .

هو — أعرف أنها . .

هو وهى « معاً » — رعدة الذكرى .

«فترة صمت طويلة يشتد فيها لطم الماء لأرض الشاطئ التى تحت أقدامهما » .

هو — ماذا . أتبكين ؟

هى — أجل . دعنى أبكى قليلا . إن هذا الماء الذى يلطم الأرض تحت أقدامنا يوحى إلى بالبكاء .

هو — أجل . كنت أريد أن أصارحك بهذا الشعور . لقد خيل إلىّ أن أكفا خفية تحت سطح الماء تلطم الوجه حزناً على تلك الذكرى .

هى — أترى ؟ لقد محا الماء ما رسمته أصابعى من كلمات على سطح الرمل. إنه لا يقرنا على أن من حقنا نبش تلك الذكرى .

هو — ولكننى سأتحداه . سأعيد كتابة تلك الكلمات ثم

ليفعل بها ما يشاء فى غيبتنا .

هى — سأساعدك فى كتابتها

هو — خطك أجمل من خطى .

هى — آه . لقد تجاوزت أنت أيضاً السن التى لا يليق فيها أن تعاند . . أنسيت أنك طالما أنكرت جمال خطى الذى كنت أكتب به رسائلى إليك ؟

هو — لقد حاولت أن أرد تلك الرسائل إليك .

هى — احتفظ بها كما سوف أحتفظ برسائلك . إن الله يشهد على أن غرامنا لم يتلوث قط . فلم نخشى بقاء تلك الرسائل ؟

هو — « يبدأ فى رسم هذه الكلمات على الرمل المبتل » . . (هنا تقابلنا منفردين للمرة الثانية) .

هى — « ترسم هذه الكلمة » (والأخيرة)

هو — أخشى أن تكونى قد تأخرت

هى — أجل ، لنعد الآن

هو — ستسبحين ؟

هى — إلى جانبك

هو — فإذا اقتربنا إلى الشاطىء ؟

هى — ابتعد عنى كأننا لم نلتق هنا

« فوق موجة عالية . فى المسافة بين شاطئ سيدى بشر والجزيرة » .

هى — إننى أقاوم لكى أبتعد عنك ولكن الموج يدفعنى دفعاً إليك . رباه ؟ إننى خائفة . لقد اقتربنا من الشاطئ !

هو — لا تخافى . . . لن يرنى الناس خارجاً من الماء معك سأعود إلى الجزيرة .

هى — « مذعورة » وحدك ؟

هو — أجـــل .

هى — كيف . هل جننت ؟

هو — لم ؟

هى — إنك متعب .

هو — أشعر بعد ما رأيتك أننى أقوى من ألف رجل .

هى — ولكن . . . لا . . . لا تعد وحدك

هو — سأعود .

هى — « باكية فى صرخة حادة » أتوسل إليك . لا تعد .

هو — لن يصيب أحدنا سوء مادمنا وفيين لتلك الذكرى البعيدة .

هى — سأقف على الشاطئ حتى أطمئن إلى أنك وصلت سالماً . . . الوداع .

باب سيدى بشر رقم ١ المصطافون والمصطافات يتدافعون للخروج فى الظهر . هى واقفة تنظر إلى الأفق الهابط عند شاطئ الجزيرة وقد أمسكت طفلها بيدها و بدأ القلق على وجهها المتعب . فإذا رأت شبحاً سابحاً قد وصل إلى أرض الجزيرة حملت طفلها ثم قبلته قبلة طويلة . والدموع تنهمر غزيرة من عينيها .

بخـــور :

تسألينى عن رأيى فى المرأة يا صديقتى ؟

إننى أعتقد أن المرأة التى سوف يخفق قلبى بحبها لن تكون واحدة من أولئك اللاتى يتصدرن المقاعد الأمامية من مقصورات دور السينما فى الليالى الأولى ، وقد بان من فورة الأصباغ التى طمست معالم قسماتهن طول الوقت الذى قضين أمام المرايا قبل الخروج . . . ولا واحدة من أولئك اللاتى يتمددن على رمل البلاج فى شهور الصيف يتقلبن فى حركات لو عرضت فى « فيلم » لامتد مقص الرقيب لاجتزازه .

لا . . . . .

إن المرأة التى أحلم بها هى التى تفهم أن حياتها إلى جانبى لن تكون فى مقصورة سينما أو مقهى من مقاهى « البلاج » أو منبر من منابر الخطابة . . . هى التى تحس بأن شخصيتها ستفنى يوم تفكر فى أن تشاركنى الحياة . . .

يوم تعرف أنها ستكون « ظلا » يسير أحياناً إلى جانبى وأحياناً يتقدمنى وأحياناً أتلفت فأراه خلفى . لا يفارقنى وإن خيل إلى أننا افترقنا . . .

يوم تفهم أنها بخور يحترق على مقربة منى وأنا أحرق أعصابى لأسكبها شعراً وقصصاً . . . بخور يتصاعد فى صبر

ورضى ليملأ جو الغرفة بعطرى الحبيب .

يومئذ يا صديقتى . أعرف أننى عثرت على المرأة التى أبحث عنها . ولكن . . .

ولكن متى . . .

كم أخشى أن أحترق أنا شوقاً إلى ذلك اليوم البعيد .

اللقـــاء الأخير

قاعة الرقص الكبرى فى سراى الجزيرة بعد منتصف ليلة من ليالى شهر مارس . جموع الراقصات والراقصين تمايل محتشدة فى زحام هائل . الموسيقى تعزف أغنية أجنبية مطلعها

« انى على أهبة الحب
« لأنك فقط إلى جانبى
« عجباً . ولكنك عند ما تكون إلى جانبى
« أحس أنى على أهبة الحب »

هو — أنت هنا ؟

هى — أجل . وقد رأيتنى منذ لحظة وأنا أرقص مع ابن عمى فتظاهرت بأنك لم ترنى ، إنك لم تتغير .

هو — كيف ؟

هى — لا زلت طفلا كبيراً كما عرفتك دائماً. تغمض عينيك عن الأشياء التى لا تود أن تراها وتفتحها حتى التحديق — على الأشياء التى تود أن تراها « ترنو إلى عينيه . ثم تضحك ضحكة قصيرة جافة » لقد شربت كثيراً الليلة .. إنك لا ترحم نفسك بهذه الحياة الثائرة .

هو — لا . . . أنت واهمة .

هى — يبدو جلياً فى عينيك أنك ثمل .

هو — لقد قرأت طول اليوم فتعبت عيناى .

هى — ماذا قرأت ؟

هو — قصة قديمة لكلود آنيه .

هى — اسمهـا ؟

هو — « عند ما اهتزت الأرض »

هى — (تطرق إلى الأرض وتنمتم كأنها تقرأ من كتاب مفتوح)

« لقد نمت طويلا حتى أقبلت فأيقظتنى . . وأخيراً . هانذا إلى جانبك بين ذراعيك حيث كنت . . لقد أحببتك دائماً . ألا تعرف ذلك ؟ أتذكر أول مرة سقطت فيها تحت قدميك . لقد مددت يدك وأنهضتنى كنت خائرة القوى فساعدتنى بقوة وحنان على أن أنهض.ولكن أيجب أن أعترف؟ ماذا تقول عنى إذن ؟ لقد تظاهرت إذ ذاك بأننى فاقدة الوعى لكى أبقى برهة أخرى بين يديك . ثم . . لم أرك بعد ذلك . . مدة طويلة . . أين اختفيت يا شرير ؟. كنت سعيداً ، بلا شك . قل . . أتوسل إليك . قل إنك لم تكن دونى سعيداً . . ولكن . . أخيراً . . لقد استطعت أن تعيش . لم تبحث عنى . . ,كان يجب أن تجمع الصدفة بيننا »

هو — عجباً أذكر أننى قرأت هذا الكلام .

هى — أكثر من مرة .

هو — أين ؟

هى — معـــاً .

هو — فى أى كتاب . إننى أكاد أنطق الاسم .

هى — « عند ما اهتزت الأرض »

هو — شريرة

هى — لم ؟

هو — خيل إلى وأنت مطرقة إلى الأرض تتمتمين أنك تقرئين لكاتب آخر غير كلود آنيه الذى حدثتك عنه .

هى — دائماً ذاك الطفل الكبير . . إنك إنما ذكرته لأنك تعرف أننا صادقناه سوياً ، وأحببناها معاً .

هو — « يطرق إلى الأرض . فى صوت خافت » — أجل . هناك أشياء كثيرة أحببناها معاً .

هى — لم أتبين ذلك إلا فيما بعد .

هو — مـــتى ؟

هى — عندما وجدتنى أختلف مع الآخرين على تفاصيل تافهة .

« جموع الراقصين يشتد احتشادها وتدفعهما بعنف إلى خارج القاعة الكبرى » .

هو — لست أرى ما الذى جاء بى إلى هذا المكان ؟

هى — إننى أدرى أنى اعتذرت عن المجئ ليلة أمس . وأعطيت « التذكرة » التى كنت قد اشتريتها إلى زوجة ابن عمى

ولكننى شعرت برغبة، فى تشجيع هذه الجماعة من صديقاتى فتيات الأسر اللاتى يعلن أطفال المسلولين فابتعت « تذكرة » أخرى وحضرت .

هو — « مبتسما » — إذن فابن عمك الذى كنت تراقصينه متزوج . . وزوجته هنا .

هى — أوه ! لم أقصد مطلقاً أن أشير إلى ذلك . . « تهز رأسها هزات متقطعة بطيئة »، منذ زمن طويل لم أسمع هذه الكلمات اللاذعة . . كنت قد تعودتها . وكم أحسست بالضيق عند ما حرمت منها .

هو — « يزفر نفساً طويلا حاراً » — إن جو هذا المكان قد امتلأ بالدخان . إنه يكاد يلهب عينى .

هى — وهذه الأوراق الأفعوانية أشعر بأنها تتأهب لكى تلتف حول عنقى .

هو — أكاد أختنق

هى — عيناك يبدو فيهما التعب

« الموسيقى تستمر فى عزف هذه المقطوعة من نفس الأغنيـــة » .

« لا حاجة إلى التساؤل
« عما إذا كان هذا الحلم سيتلاشى
« لقد وضعنا قلبينا معاً
« والآن ... أصبحنا شخصاً واحداً
« إننى على أهبة الحب »

هو — عجباً! ما الذى أتى بنا إلى هنا ؟

هى — إن للموسيقى نغماً أعذب ، ونحن بعيدان عنها . . ولكن .. « تتلفت حولها » .

هو — ماذا ؟

هى — كيف جرؤت على أن أخرج معك ؟

هو — أقسم لك أننى لم أشعر بخروجنا إلا ونحن هنا . جالسين على العشب اليابس .

هى — لقد خطر لى أول الأمر أن أصحبك إلى الباب لكى تعود إلى منزلك ثم أرجع حيث تركت أسرتى جالسة . ولكن قدمى قادتانى معك إلى هنا .

هو — إننا لا نريد أن نعترف بأننا « افترقنا »

هى — « تطيل النظر إلى عينيه » هل افترقنا ؟

هو — إننى أذكر آخر مرة تحدثنا فيها. منذ نحو عام . كان ذلك فى عيد ميلادى . فى ذلك المكان النائى المنحرف عن طريق الفيوم . . كانت ليلة من ليالى الصيف . وكان القمر يغمر الصحراء الهاجعة بضوء هادئ وديع . . وابتعدنا عن السيارة مسافة طويلة ثم استرحنا على الرمل . وساد سكون . خيل إلىّ أننا كنا فى أثنائه نحبس أنفاسنا حتى لا يعكره تهدجها وأخيراً سمعتك تقولين وأنت مستلقية على ظهرك تشخصين إلى السماء « أترى أن

هذه السحب القاتمة التى كانت تتجمع وتتزاحم قد انقشعت بعد قدومنا ؟» فقلت « أجل . إنها اعتادت أن تسفر لنا عن صفاء السماء . . إنها تعرف أننا — دون بقية الأحياء الذين يمرون بهذا المكان — نحمل قلبين فى صفاء هذه السماء . ونقاء هذا الجو» والتفت متوقعا أن تلتقى نظراتنا ولكنك قلت : « لا إنها فعلت ذلك الليلة لدعاء أحسست أننى أريد أن أرفعه إلى هذه السماء الطيبة » — فسألتك «وما هو؟ . . » وعندئذ أجبتنى فى نبرة حارة مرتجفة « أن تهرم إننى أدعو من كل قلبى . أن تهرم سريعاً » فاعتدلت فى جلستى ودنوت منك لكى أتحقق من أنك ظللت إلى جانبى . وأنك أنت التى كنت تتكلمين . ولشد ما دهشت عند ما رأيتك لا زلت تشخصين إلى السماء مفتوحة العينين . ثابتة الأهداب . وقد جمعت يديك تحت رأسك لكى تستريح عليهما . وتمتمت فى صوت ذاهل : « مجنونة » ؟ ولكنك تابعت دعاءك كأنك لم تسمعى وقلت : « إننى فرحة اليوم ، لا لأننا نحتفل معاً بعيد ميلادك . ولكن لأن عاماً جديداً قد تراكم اليوم على عمرك : ولذلك فأنا أشد فرحاً مما كنت فى مثل هذا اليوم من العام الماضى . لو كانت هذه السماء تحبنى

حقاً لأجابت دعائى ولتركتنى أسعد إلى جانبك . هرماً . أشيب خائر القوى فى حاجة إلى عنايتى وحنانى . . لن أذوق السعادة ما دمت شاباً توقن بأنك إن افترقت عنى استطعت غداة الفراق أن تعرف فتاة أخرى تحبك وتسكب فى أذنها نفس الكلمات التى اعتدت أن تسكبها فى أذنى لينة رقيقة ناعمة وربما أحضرتها إلى نفس هذا المكان . وحدثتها عن صديقة خيل لها الخبل ذات ليلة من ليالى الصيف أن تدعو الله أن تهرم . ثم تطلقان وسط هذه الصحراء ضحكات ساخرة من ذكرى تلك الصديقة المجنونة » .

هى — آه . إننى أذكر تماماً كل ما دار بيننا من حديث ليلتئذ كأنه دار منذ برهة . لست أدرى كيف خانتنى كبريائى فرفضت أن أصارحك بذلك كله . ولكن لعلك تذكر أنك سألتنى . « ما الذى جعلك تفكرين فى هذا كله الليلة » ؟ فصمت ولم أجب . وعدت تسألنى « لم أعهدك هكذا من قبل . أنك تخيفينى . فعيناك مفتوحتان منذ برهة . وأهدابك لم تلتق . ماذا بك ؟ إننى أحس أن هذه الأهداب تنوء تحت ثقل رهيب » ولكننى لم أنطق . . ولم أغمض عينى . . كنت أشعر فعلا بأن أثقالا مرهقة تعلوها وكنت أخشى إذا

أنا أغمضت أن تشتد وطأة هذه الأثقال . فقاومت . .
وفجأة مرت تلك العربة القروية المحملة أثقالا من
الفاكهة قادمة من الفيوم فى طريقها إلى الهرم . .
فأجهشت بالبكاء .

هو — أجل . . وصل إلى أذاننا من بعيد صوت الحوذى « الصعيدى » وهو يرتل ذلك « الموال » الذى مطلعه :

« ياما سقيتنى بايدك م العذاب كاسى
فين الليالى وفين الوصل ووعودك
أنت حبيبى وعارف علىّ وراسى »

ولكنك مع ذلك لم تصرحى بشىء .

هى — وبقيت مصرة على ألا أصرح بشىء حتى . . .

هو — « يخفى أصابعه فى العشب النامى على الشاطىء المنحدر » حتى قرأت خبر خطبتك فى إحدى المجلات .

هى — لقد عرفت من ابنة خالى أنك صارحتها بأنك فهمت إذ ذاك لم أجهشت بالبكاء ليلة التقينا فى ذلك المكان من طريق الفيوم .

هو — أجل . صارحتها بذلك . وكنت حاقداً عليك .

هى — ولكنك كنت مخطئاً .

هو — كيف ؟

هى — لأنى حاولت عبثا أن أخبرك بذلك الإلحاح القوى الذى

كان يطاردنى من كل أسرتى لكى أقبل خطبة الرجل الذى أصبح فيما بعد زوجي . . لم أكن طفلة حتى أعتذر بأن الوقت لا يزال متسعاً أمامى لكى أتروى . ولم يكن المسكين يشينه عيب يمكن أن أستند إليه فى رفض يده الممتدة إلى . وكل إصرار على الرفض لا تفسير له — عند أهلى — إلا أننى متعلقة برجل آخر . . أقسم لك أننى خطر لى أكثر من مرة أن أثور وأصرخ معلنة أننى أحبك . ولكننى لم أفعل من أجل رجل واحد

هو — من ؟

هى — أنت . . أجل أنت . . لم أشأ أن أضعك أمام ذلك الحرج الذى قد يكون مؤلماً لك . لم ترض كبريائى بأن أدفعك دفعاً إلى « طلبى ». وقد كنت أمامك مدى ثلاثة أعوام . فلم تتقدم بذلك الطلب . فضلت أن أشقى محرومة منك.. على أن أشقى إلى جانبك بفكرة أننى ما فزت بك إلا بعد أن رثيت أنت لحالى . . لقد تعذبت كثيراً وسط تلك العاصفة التى اجتاحتنى وقتئذ . ولكنك لم تقدر ذلك العذاب ولم تفهمه . فذكرت لابنة خالى أننى إنما قبلت الزواج من غيرك لأننى مللت حياة التشرد مع شاعر شاب يوماً أسير على قدمى وسط مزارع المطرية حتى تدمى قدماى ويوماً آخر أتناول

الغذاء على أحد المقاعد الخشبية فى الحديقة اليابانية بحلوان . دون مائدة أو صحاف . وليلة أستلقى على الرمل بثوبى فى صحراء الفيوم « تضحك ضحكة جافة » . . كنت واهماً يا عزيزى . فإننى لم أمل الحياة . وشقائى الآن أن الحنين إليها يعاردنى كمرض عضال .

هو — إذن لم أقدمت على التخلص منها ؟

هى — لأننى تبينت أنك ستمل هذه الحياة قبلى . وإذ ذاك سترهد فى لأننى شاركتك فيها ولأننى لو بقيت إلى جانبك لظللت أذكرك بها . ولذلك دعوت الله أن تهرم حتى لا تعود تقوى على التفكير فى تغييرها . ولكن كبريائى لم ترض لى أن أصارحك بذلك فى لقائنا الأخير

هو — الأخير ! ولكننا التقينا الليلة مرة أخرى .

« تمر إذ ذاك مركب شراعية وسط النيل . تجمعت فيها أكياس أستلقى بعض النوتيه عليها بينما أخذ بعضهم الآخر يعمل فى التجديف »

هى — أجل كان يجب أن ألقاك مرة أخرى . . مرة واحدة بعد أن افترقنا .

هو — لم ؟

هى — لأقول لك نفس الكلام الذى قالته بطلة « عند ما اهتزت الأرض » لحبيبها والذى تلوته منذ برهة بعد أن تعمدت

أنت أن تذكرنى به . « أين اختفيت يا شرير ؟ كنت سعيداً بلا شك . . قل . . أتوسل إليك . . قل إنك لم تكن دونى سعيداً . ولكن . . لقد استطعت مع ذلك أن تعيش » .

هو — كان يخيل إلىّ أننى لا حياة لى بعدك . . وأن كل نسمة استنشقها دون أن تكونى إلى جانبي إنما أختلسها إختلاساً . وكل جرعة ماء أدنيها من فمى دون أن تشاركيني فيها حرام على . وكل زاد أستحله لنفسى دونك جريمة أقترفها فى حق أعز ماض إلى روحى .

هى — ولكنك استطعت أن تلهو وتمرح وأن تجد العزاء عنى .

هو — « ينظر إليها مذهولا » حقاً . كيف حدث ذلك ؟

هى — لأنك لم تهرم ، لأن السماء لم تستجب بعد إلى دعائى ليلة لقائنا الأخير .

هو — أقسم لك أننى أريد أن أهرم . أريد أن أغمض عينى وأفتحهما فأجدنى لك أنت وحدك لا أمل لى إلا إسعادك .

هى — أنت واهم . . إنك ستعود الآن إلى سراى الجزيرة . لتلحق بأصدقائك. لقد لمحتهم وأنا داخلة . فعرفت أنك لا بد أن تكون معهم . ذلك الطبيب الذى قدمته إلىّ ذات ليلة فى « سميراميس » وأخبرتنى أنك رقصت

مع أخت زوجته. نرويجية شقراء . حدثتك عن مسرحية أبسن « البطلة المتوحشة » حديثاً راقك كثيراً . . إنها فى حفلة الليلة . أليس كذلك ؟

هو — لمهذا الكلام الآن؟ أؤكد لكأننى لم أره منذ مدة طويلة.

هى — منذ ذهبت إلى منزله وراقصت أخت زوجته ؟

هو — « يتذكر . بعد تردد » أجل .

هى — « تضحك وهى تربت فى رفق على وجهه » أترى . . لقد كذبت لترضينى .

هو — لا . لم أكذب . إنك تبحثين عن سبب للشجار .

هى — « تقطب جبينها » ولكننى لا حق لى فى أن أغار عايك . هل نسيت أننى زوجة أحمل اسم رجل آخر ؟

« صوت عذب يحمله نسيم الليل من أحد نوتية المركب الشراعية الجارية فى النيل يردد هذه المقطوعة من الموال »

« فين الليالى وفين الوصل ووعودك
أنت حبيبى وعارف علىّ وراسى »

هو — أتسمحين ؟

هى — إن هذا النوتى صوت القدر . إنه يذكرنا بتلك الوعود التى أقسمنا على الوفاء بها . . ثم . .

هو — ثم حنثنا .

هى — بدأت تصبح عادلا . فقد كنت تتهمنى منذ لحظة بأننى أنا وحدى حاولت التخلص من الحياة التى كنا نحياها .

هو — أجل . كنت منجنياً . « يحاول أن يضمها فتبتعد »
هى — آه . لم تهرم بعد . . لقد اعترفت الآن بأنك استطعت أن تعيش دونى نحو عام تحدثت فيه إلى كثيرات غيرى . وأقبلت الليلة إلى هذه الحفلة دون أن تتوقع أن ترانى فكيف تحاول أن تعود إلى ما كنت تفعله عند ما كنت لى وحدى . وكنت لك وحدك .
هو — إننى لا زلت أحبك .
هى — لو كان هذا صحيحاً لما تركتنى أحمل اسم رجل آخر . .
هو — هيابنا نعودإلىالحفلة. لأعلن أمامالناس أجمعين أننى أحبك.
هى — « تهز رأسها وهى تنظر إلى الضوء الهزيل الذى يتأرجح مع النسيم فى مؤخرة المركب الجارية مع النيل » مادمت شاباً وما دامت قدماك تستطيعان حملك إلى أمثال هذه الحفلة . فلن تكون لى وحدى . . إننى أعرفك أكثر مما تعرف نفسك . . لقد كنت أحلم وأنا بين يديك بمثل حياة هؤلاء النوتية . . كنت أود أن أعيش هناك . . بعيداً . . على ظهر هذه المركب الشراعية . معك . أطهى لك طعامك وأغسل ثيابك وأعنى بك . وأجوب أقطار العالم إلى جانبك. ولكن شيئاً واحداً كان ينغص على دائماً ذلك الحلم .
هو — ماذا ؟

هى — أن لكل مركب مهما طالت رحلتها ميناء ترسو عليه . .
وإذ ذاك لن أستطيع أن أمنعك من النزول إلى الأرض .

« يسمع بوق إحدى السيارات الواقفة أمام السراى يدق دقات متقطعة » .

هو — ما هذا ؟

هى — إنها ابنة خالى. لا بد أنها لحظت غيابى فأقبلت تستدعينى
هيا بنا إلى الأرض .

« الاثنان ينهضان فى بطء ويتبادلان نظرة طويلة . ثم يفترقان » .

« تتقدم هى إلى السيارة التى يكتنفها الظلام الحالك . بينما يسير هو على الشاطئ خلف المركب الشراعية التى لا يزال صوت النوتى يتصاعد منها مرتلا الأغنية الريفية» .

غرام مفقود

هو — اطردى هذا الضوء .

هى — لم ؟

هو — يخيل إلى أنه دخيل يتجسس علينا . . دخيل أكرهه ولا أود ان أتيح له تتبع خطواتنا .

* * *

هو — أجل . . هكذا . . إننى أشعر براحة الآن .

هى — أين أنت ؟ لا أكاد أراك .

هو — هنا إلى جانبك .

هى — ولكننى . . ولكننى . . .

هو — ماذا ؟ تكلمى . إننى أسمعك .

هى — ولكننى لا أتبين الآن لون عينيك .

هو — استريحى قليلا من النظر إليهما .

هى — لم أقل لك من قبل إن ذلك يرهقنى

هو — خيل إلى ذلك .

هى — آه . لأنك تحس بذلك التعب عندما تطيل النظر إلى عينى . .

هو — شريره .!

هى — اقترب . اقترب كم احب أن أشعر بدفء الاقتراب منك .

ولكن الشاعر . كان قد تقدم إذ ذاك فى بطء إلى نافذة الغرفة المطلة على حديقة المنزل الجاثم عند أقصى المطرية وأخذ يشرف على الحشائش الخضراء وقد غمرها ضوء القمر وتبعته هى ثم وقفت خلفه . ورفعت يدها فى بطء فلمست بأطراف أناملها كتفه وهى تهمس كهرة وجلة .

هى — فيم تفكر يا حبيبى ؟

هو — فى لا شىء .

هى — وإلى أى شىء تطيل النظر هكذا ؟

هو — إلى هذه البحيرة التى ملأها ضوء القمر بماء من فضة . . إن هذا الماء يجف أثناء النهار لأنه لا يترقرق إلا وعلى جوانبه هذا العطر الملكى الجميل ألا تشمين رائحة النرجس ؟

ففتحت أنفها الدقيق . . دائماً كهرة وجلة ثم أجابت بعد قليل .

هى — لا . . إننى لا أشم شيئاً من العطر . كل ما يحيط بى هى رائحة التبغ المتصاعدة من ثيابك . هذا التبغ الأمريكى الذى تفضله والذى جعلتنى الآن أفضل أن أملأ من رائحته رئتى على أى عطر فى الوجود .

هو — تغالين !

هى — أقسم لك أننى لا أغلو فى شىء . تذكر ؟ لقد عرفتك منذ ثلاثة أعوام . وشممت فى اليوم الأول رائحة ذلك التبغ تفوح من صدرك وكأنه اختلط بدمى فأصبحت أتبينه تواً من بين عشرات أنواع التبغ الأخرى . إنه عطرى أنا ولو سخر الناس من هذا التعبير . أحياناً نتواعد على اللقاء هنا . فإذا حضرت وأخذت أصعد درجات السلم تبينت تواً ما إذا كنت قد سبقتنى فحضرت قبلى أو أنك لا زلت فى الخارج. عطر ذلك التبغ هو دليلى. يكفى أن أفتح أنفى قليلا لكى أعرف إذا كنت قد صعدت الدرج قبلى أم لم تصعد . ولقد تملكتنى هذه الفكرة إلى حد أن ابنة عمى قد سخرت منى ذات يوم وأنا أقص عليها ذلك فأكدت لى أننى لابد أن أكون قد خلقت امرأة بخطأ مجهول وأن فى أعماق روح نمرة . أتصدق أننى أشم أحياناً وأنا داخلة إلى حائكة الثياب عطر ذلك التبغ فيتصاعد الدم إلى رأسى وأدور فى أرجاء المكان أبحث عنك وأنا أسأل نفسى « ما الذى أتى به إلى هذا المكان الذى لا يغشاه عادة إلا السيدات ؟ » فإذا لم أعثر بك اطمأن قلبى وهدأ قليلا . وفى الأسبوع الماضى ، أثناء خروجى من

عند بائعة الخيوط التى أحيك بها بعض الأشغال اليدوية شعرت كأن ذلك العطر قد سبقنى وأنك كنت هناك وخرجت قبلى بدقائق قليلة . فهاجمتنى تلك النوبة التى اعتدت أن أصبح فريستها كلما شممت ذلك التبغ وأنت بعيد عنى « كان هو هنا . . بين هذا العدد الكبير من الفتيات » وأخذت أعدو فى الطريق أبحث عنك فى ذلك المكان الذى على مفترق أربعه طرق متفرعه . وتقدمت فى أحد تلك الطرق بضع خطوات ثم أرسلت نظرى إلى آخره فلم يقع عليك وعندئذ خطر لى أنك ربما كنت قد سلكت طريقاً آخر فعدت مسرعة وسلكت الطريق الآخر . ثم أخذت أدور فى تلك الجهة حتى وجدتنى أمام إحدى حوانيت السجاير . هناك . . هناك فقط تنبهت إلى أن فى الإمكان أن يدخن نفس التبغ رجل آخر غيرك . . تصور . . . لم يكن يخطر ببالى أن هذا العالم الفسيح يمكن أن يحتوى على رجل آخر غيرك . . . يحتوى على رجل آخر له نفس تفكيرك . . ونفس ذوقك . . ونفس مزاجك . ونفس ميلك إلى نوع التبغ الذى تفضله .

هو ــ مجنونه

هى ــ لست أول من قال لى ذلك . : كلما جاء ذكرك على

لســـانى قالت لى ابنة عمى « مجنونة » . إن هـــذا النوع من الرجال . . الشعراء الذين يعيشون فى دنيا يرسمونها هم فى خيالهم ويحددون أفقها ويلونونه باللون الذى يشتهون . مجانين . والمرأة التى تتعلق بواحد منهم لابد أن تكون مجنونة هى الأخرى . قد يروق للواحد منهم مرة أن يضحك فيطلب من المرأة التى تهبه قلبها أن تستغرق معه فى الضحك. وقد يفضل مرة أخرى أن يبكى فلا يقبل إذ ذاك منها إلا أن تتقرح جفونها من فرط البكاء إلى جانبه .

والتفت « هو » إذ ذاك لفتة صغيرة إليها وكانت تتكلم وهى لا تزال واقفة خلفه . واضعة أطراف أنامها على كتفه العالية . وأدنى عينيه من عينيها .

هو — ولكننى طلبت إليك أن تشاركينى التمتع باستنشاق عبق النرجس الذى يعطر جو هذه الحديقة فلم تفعلى . . حتى لم تشعرى بأن ذلك العطر يستحق عناء التفكير .

هى — كنت غضبى

هو — كيف ؟

هى — قلت لى عندما تحدثت فى التليفون قبل أن تحضر إنك متعب وإنك اعتدت ألا تستريح إلا مستنداً بكل جسمك الكبير على نظراتى التى طالما شبهتها فى

شعرك بأنها وسائدك الحريرية فلما أقبلت رأيتك تدير ظهرك لى وتقف فى هذه النافذه لتنظر إلى ضوء القمر الذى يغمر أرض الحديقة. والتى شئت أن تقول إنه أحالها إلى بحيرة من فضة ...من قال لك ذلك؟ أية فضة فى هذه الحديقة! إن البستانى قد سافر إلى جرجا لزيارة أهله منذ ثلاثة أسابيع وترك الحديقة مهجورة . . وماسورة المياه التى تغذى النافورة هشمتها فأس فلاحى المزرعة المجاورة فجفت. والحشائش الخضراء أصبحت مرعى البدو الذين يقطنون بخيامهم فى عين شمس ويطلقون أغنامهم لالتهام مثل هذه الحدائق المهجورة .

هو — تغارين من حديقتك .

هى — لا . . . ولكن . . .

هو — ولكن ماذا ؟ كان يخيل إلى أنك تحبين هذه الحديقة كما أحبها أنا . . تذكرين ؟ ليلة تعارفنا . ورقصنا حتى بعد منتصف الليل . لقد غادرنا الفندق الكبير الذى كانت الأنوار الكهربائية تغمر بهوه الفخم بضوئها الوهاج إلى ظلام تلك الليلة الحالكة . . لست أدرى إذا كنت تذكرين كل ما حدث ليلتئذ . كان باب الحديقة الخشبى الصغير مغلقاً وكان الظلام يجثم فوق صدر الحديقة كمارد أسود . وكانت فروع

الأشجار تتلاقى فخيل إلينا أنها أحياء تتبادل الهمس خوفاً ووجلا . وتقدمت أنت إلى الباب ففتحته ثم دخلت منه ووقفت خلفه قليلا وتمتمت فى صوت خافت فى فرنسية حنون « شكراً لقد أزعجتك إذ جعلتك تحملنى إلى هذا المكان . أسعدت مساء مساء يا سيدى » وسمعت وقع خطاك على الحصى وأنت تتقدمين إلى الدرج الرخامى الأبيض الذى يبدو فى الليل كأنه ناب ذلك المارد الأسود وفجأة انقطع وقع خطاك على الحصى الرفيع . وانقضت فترة . . وأرهفت أذنى وأنت تصعدين الدرج دون أن أراك . . .

واستعرضت إذ ذاك ذكريات الليـــلة كلها . . حديثك الموجز عند بدء تعارفنا عن كتابى الأخير . . ملاحظاتك الهامسة أثناء الرقص عن الأنوار البعيدة التى كانت تبدو خلال الستائر المصنوعة من القطيفة الزرقاء المثبتة على نوافذ بهو الرقص والتى ترسلها مصابيح السيارات الصاعدة إلى الهرم أو الهابطة منه . متأرجحة ثملة كأنها أشباح تشترك معنا فى الرقص . استعرضت كل ذلك وأنا واقف خارج باب الحديقة أرهف السمع منتظراً أن أسمع صوت صعودك درج المنزل . ولكن . . ولكنى لم أسمع شيئاً . . وفهمت أنك واقفة عند أولى

درجات السلم تترددين فى الصعود . . وطغى على إذ ذاك شعور هائل . . وفجأة عدتِ إلى حيث كنت لا أزال واقفاً . . فلما رأيتنى صحت مذعورة « أنت هنا » وعندئذ تقدمت فأمسكت بيدك وسألتك هامساً وأنا أحنى رأسى لكى أتفادى فرع شجرة كان متدلياً على سور الحديقة الخشبى « ماذا بك » ؟ فأجبت « لا . . . شيء . . هل كان هذا الباب مفتوحاً عندما حضرنا؟ » فقلت « لم تسأليني ؟ » وعندئذ أجبتنى « لأننى لم أعتد أن أراه مفتوحاً . . إننى أقضى الليل بمفردى فى هذا المنزل الكبير مع خادم عجوز يغط الآن فى نومه . وأخشى أن يكون قد تسلل أحد من هذا الباب المفتوح إلى الداخل » فأطرقت برأسى إلى الأرض ثم رفعتها ثانية وتمتمت « خائفة ؟ » فأدنيت وجهك من وجهى وشعرت بأنفاسك المتهدجة تغمر وجهى . . وسمعتك تقولين كأنك ذاهلة فى حلم عميق « كنت . . منذ لحظة » فقلت « والآن ؟ » وعندئذ رأيتك تلقين بكل جسمك إلى صدرى وأنت تصيحين فى صوت منتحب « أنت معى » .

هى — ما الذى أهاج هذه الذكرى فى صدرك الآن ؟

هو — رأيتك تتحدثين عن الحديقة وتصفينها بالمهجورة .

حتى خيل إلى أنك تريدين أن تنفرينى منها .

هى — هل يغضبك ؟

هو — لا . . . إن هذه الحديقة . هذا السور الخشبى المحطم الذى يتأرجح تحت هواء هذه الضاحية النائية . هذه الأشجار المتدلية على السور كأنها صدر امرأة شابة تحتضن طفلا رضيعاً . هذا الهمس الذى تتبادله الأغصان خائفة وجلة رغم انقضاء عشرات السنين عليها . هذه الحشائش الخضراء النامية فى شبه فوضى متوحشة كأنها تمهد الطريق لعاشقين بدويين يجتازانها بأقدام حافية عارية . هذا كله لا يمكن أن أنساه . أنه محفور فى خيالى . إنه ممتزج بدمى . أكثر مما تتخيلين . عندما سافرت إلى الإسكندرية فى الصيف كنت أحضر بسيارتى فى مثل هذه الساعة من الليل . فأتركها كما اعتدت أن أفعل فى مكان بعيد حتى لا يلحظ أحد من الجيران وقوف سيارة غريبة أمام باب منزلك . ثم أحوم حول سور الحديقة وأقف قليلا أمام الباب نفسه . الباب الصغير الذى تجثو عليه فرووع الأشجار . وأحياناً كانت تنقضى على ساعات دون أن أمل من الوقوف والتأمل . .

هى — آه تذكرت الآن . . أن الخدم تحدثوا إلى عن

الإشاعات المريبة التى أثارها الجيران حولى أثناء غيبتى بسبب تلك الجولات الليلية التى كنت تقوم بها . .
لقد نسيت أن أحدثك عن ذلك من قبل .
فهز رأسه فى ابتسامة ساخرة ثم سألها فى لهجة متثلجة لاروح فيها . .

هو — تذكرت الآن فقط لأننى أدرت ظهرى ورجوتك أن تقفى إلى جانبى تشاركينى النظر إلى هذا المكان الذى احتفظت له بذكريات تغذى روحى . . وإذا بك تتحدثين عن رائحة التبغ الأمريكى الذى يتصاعد من ثيابى والذى يدلك على مكانى .

هى — ماذا يدهشك فى هذا ؟

هو — أخشى أن أصارحك . . .

هى — تكلم .

هو — إننى واثق من أنك تحبيننى ثقى من أننى إلى جانبك الآن ولكنك تفعلين ذلك لأننى الآن رجل . . فى عنفوان الشباب أدخن وأعدو فى الطرقات . . . ويوحى إليك خيالك الشاب أن فى إمكانى خيانتك مع امرأة أخرى . . أما غداً . . إذا هرمت . . وتهدلت رئتى . ولم أعد قادراً على ملئهما بذلك التبغ . إذا بطؤت حركتى وارتعدت ساقاى ولم أعد قادراً على العدو فى طرقات القاهرة الحاشدة بالفتيات الجميلات . إذ ذاك

أخشى أن ينطفئ حبك . إذا لم تكن روحك كروحى تقنع بأن تكون الذكريات غذاءها الحبيب .

هى — تفكر فى أشياء غريبة . . أشياء شاذة . . إنك لم تعد الثلاثين من عمرك فلم تفكر فى ثلاثين أخرى لم تعشها بعد ؟

هو — ألم تقل لك ابنة عمك إن الشعراء مجانين ؟ إن حديثك عن التبغ الذى تتصاعد رائحته من جسمى قد أرجفنى . إن غريزتك كامرأة هى التى هبطت بك إلى حيث تفضلين ذلك على هذا العطر الملائكى الذى يتصاعد من حديقة ذكرياتنا . . هل تعرفين فيم كنت أفكر وأنت خلفى منذ برهة ؟

هى — لا .

هو — كنت أتخيلنى مستلقياً على نظراتك التى طالما شبهتها فى شعرى بأنها وسائدى الحريرية . كنت أحس فعلا بشىء لين مريح حنون. وكنت أتوقع أن أصمت أنا وأنت . . طويلا أمام هذا السكون الرائع كأننا فى حلم . . ثم أستيقظ على قبلة طويلة تطبعينها على فمى . ولكنك أبيت إلا أن نتشاجر فذكرت إشاعات الجيران ووصفت الحديقة التى كنت أتحمس فى الإعجاب بها وصفاً جعلنى أتهيب من أن خيالى انحط إلى حد التغزل فى مقبرة مهجورة .

هى — لم تؤلمك الحقيقة ؟! كيف تريدنى أن أسكت عن أحاديث الناس عن فتاة عذراء تستقبل شاباً غريباً بمنزلها فى مثل هذه الساعة من الليل ... شاب لم يعتزم إلى اليوم أن يطلب يدها . . .

هو — أرأيت ؟

هى — ماذا ؟

هو — إن الغريزة هى التى تلقنك هذا الحديث

هى — ليكن . . . ماذا أنت فاعل ؟

هو — أنا ذاهب

هى — أتهددنى ؟

هو — لا . اطمئنى . . لست كغيرى . إن الشعراء يا سيدتى أوفياء لحبهم المفقود أكثر من وفائهم للحب المنشود . . سأذكر هذا الحب ما حييت . وما دامت هذه الحديقة لم تمسها يد التغيير . فسأمر من بعيد لأتزود من أشجارها بنظرة . لن يشعر بى الجيران . ولن تشعرى أنت بى وإذا سمعت اقتراب أحد . أنت أو غيرك ابتعدت...الوداع .

ثم أسرع الشاعر فارتدى معطفه وتقدم إلى الدرج دون أن يلتفت خلفه .

كان الاثنان يبكيان إذ ذاك . كما اعتاد العشاق أن يفعلوا فى ساعات الوداع . وكانت أغصان أشجار الحديقة تشاركهما البكاء دائماً فى خوف ووجل .

زائرة المعرض

١

« ليست هذه الرسالة ثمرة نزوة طارئة دفعتنى إلى الكتابة . . إننى لا أغلو إذا صارحتك بأننى أرتجف وأنا أتحدث إليك . لأننى لا أعرف فيم أتحدث . ويحسن أن أؤكد لك بأننى ترددت ثلاثة أيام كاملة وأنا أتقدم للكتابة ثم أحجم إثر تلك الرجفة التى تنتابنى كلما تبينت أننى أكتب إلى رجل غريب لا تربطنى به صلة قرابة أو نسب . . لم أره إلا مرة واحدة فى معرض « الاسايست » فصافحنى سريعاً ثم أدار ظهره لكى يتابع التدقيق فى اللوحات المعلقة على ذلك الحائط الرمادى والتى تمثل نوعاً من الفن المصرى الجديد .

ما أعجب هذا ؟

إننى لم أر وجهك إلا عند ما قدمنى إليك ابن عمى ، وقد شاعت إذ ذاك فى وجهك ابتسامة هادئة وأنت تنقل بصرك بين أجزاء رأسى المختلفة كأنك تمتحن لوحة فى معرض . ومددت يدك فضغطت على يدى . ودخلت إلى المعرض إذ ذاك جماعة من المتفرجين فاحتشد بهم المكان الضيق . وعندئذ أحنيت رأسك معتذراً والتفت إلى اللوحات المعلقة المتجاورة . التى

حضرت لأجلها منذ الصباح المبكر والتى كانت تنتظرك ساكنة . صامتة . رزينة .

ووقفت أنا إذ ذاك أنظر إلى ظهرك . ظهرك العريض . المنبسط كأنه حاجز حديدى يحمى تلك اللوحات من النظرات المتطفلة البلهاء . . وأخذت أنت تنتقل فى هدوء من لوحة إلى أخرى دون أن تلتفت إلى الخلف .

دخلت إلى المعرض الضيق جماعات جابت أنحاءه . ثم غادرته لتحل محلها جماعات أخرى وأنت لاه عنها بالنظر إلى تفاحة ملقاة على مائدة إحدى اللوحات. وأصبع امرأة موضوع فى إهمال على حافة شرفة مطلة على حديقة هادئة جميلة فى إحدى ضواحى القاهرة . أو زبد يرغى على فم موجة عاتية مقبلة على شاطئ رأس البر من بعيد . .

وكان ابن عمى قد تركنى إذ ذاك واخذ يتحدث إلى بعض موظفى المعرض عن اللوحات التى بيعت. ودهشت أنا من إصرارك على أن تظل مديراً ظهرك للناس أجمعين . . ولى أنا أيضاً . إنك تسخر الآن وأنت تقرأ هذه الرسالة . تسخر من تلك الفتاة التى لا تربطك بها صلة والتى لا حق لها عليك . والتى — مع ذلك — تجد من نفسها الجرأة على أن تحاسبك لأنك أدرت ظهرك لها وفضلت عليها لوحة زيتية رسمت فيها « بطيخة » ضخمة شقت جوانبها وبدت أحشاؤها الحمراء وقد سالت دماً قانياً

كأنها حيوان مذبوح فى ليلة عيد تهون الذبائح فيه !. . . لا . بل أكثر من ذلك . ما دمت قد كتبت إليك فإننى لا أخفى عنك أننى ارتعدت وغلا الدم فى عروقى عندما رأيتك تقف أمام تلك اللوحة المختفية خلف إحدى أعمدة المعرض والتى كانت تمثل امرأة تكاد تكون عارية استلقت على « أريكة عريضة » وأخذت تنفث من فمها دخان سيجارة تخضب طرفها وداست إحدى قدميها على صحيفة من الصحف وساءلت نفسى « ما الذى راقه فى المرأة العجوز التى تنفث دخان سيجارتها فى وجه الناس حتى الذين حضروا للتفرج عليها ؟ »

ولكناك مع ذلك أطلت الوقوف أمامها . تحت قدمها التى داست بها على صحيفة يبدو أنها كانت قد أتمت قراءتها ثم ألقت بها فى جرأة اسمح لى أن أقول إنها كانت وقحة . إننى أخالفك تماماً فى أن تلك المرأة تستحق عناء الوقوف تحت قدمها طوال تلك المدة .

وانتظرت أن أرى وجهك وأنت تغادر المعرض ولكن يظهر أنك خرجت أيضاً وأنت مدير ظهرك بين الزحام الهائل فلم أره .

أعود فأصارحك بأننى لا أدرى كيف أكتب إليك . هناك كثيرات غيرى يدعين أمام كل رجل أنه الأول ويؤكدن بأنه سوف يكون الأخير . . ولكننى أقسم لك بأنى لم أكتب من قبلك إلى رجل آخر. إننى أقبل مسرعة إلى الخامسة والعشرين

من عمرى . . ومع ذلك فإن قلبي لم يخفق قط. لقد كان يخيل إلى أن سطراً واحداً تكتبه فتاة إلى رجل إنما هو ميثاق يسجل عاطفتها ويحددها إلى الأبد . ففضلت أن أنتظر رجل الأبد ولكننى لم أكن أتصور قط ـ واسمح لى ـ أن أرى ذلك الرجل من ظهره . وأن يبدأ قلبي فى الخفقان على أثر مصافحة سريعة بريئة فى معرض من معارض الفنانين الشبان .

إننى سمعت باسمك قبل أن أراك . ولقد كنت أعجب على الدوام بتلك القطع الموسيقية التى كانت تعزفها لك بعض فرق « الراديو » ولقد استمعت إليك مرة وأنت تتحدث فى الراديو ذات أمسية من أمسيات الصيف الماضى عن موسيقى «مندلسون» كنت فى القاهرة وكنت أنا أقضى الصيف فى بور سعيد ولكننى أحسست وأنا أنصت إليك من نافذة غرفتى المطلة على البحر أن الدنيـــا كلها تنصت إليك . . بل أحسست إحساساً عميقاً أن صفحة الماء قد استحالت إلى « نوته » موسيقية يرسم عليها « مندلسون » أنغامه ويسجل أناشيده وظللت منذ ذلك اليوم أفكر فى اليوم الذى سأراك فيه . ولكن أية خيبة !

لست أدرى لم كنت أود أن يكون لقاؤنا لقاء آخر . . كنت أحلم بلقاء شعرى فى حديقة فندق من فنادق الضواحى حول مائدة من الموائد النائية المنعزلة وقد أخذ الهواء المعطر بأنغام موسيقى الفندق البعيدة يداعب أذاننا رقيقاً . حنوناً . وادعاً كأنه

يحلم معنا حلم اليقظة الجميل .

كنت أريد أن أحدثك عن أول مرة استمعت إلى قطعتك « القافلة المقنعة » تلك القطعة المدهشة التي كتبت شعرها بنفسك ولحنتها بنفسك والتي وصفت فيها فتيات القرية وهن عائدات من الترعة حاملات « الزلع » على رؤوسهن ومرتديات ثيابهن وصفاً يفيض روعة وجلالا . ولقد وقفت طويلا عند إشارتك الرقيقة إلى طريقتهن فى رفع أطراف الثياب السود إلى عيونهن وإخفائها عند مرور الرجال بهن . وزادنى دهشة أنك وفقت توفيقاً عجيباً فى تصوير ذلك الجو من الريف المصرى تصويراً موسيقياً صادقاً دقيقاً .

ولكن أحلامى القديمة تهدمت يوم لقائنا وانهارت . عندما رأيتك تدير لى ظهرك وتعنى بتعقب اللوحات المعروضة كأننى لوحة سبق أن رأيتها ومللت من طول التدقيق فيها .

إننى واثقة بأنك تقول لنفسك الآن بأننى ألف وأدور لأقول شيئاً لا أجسر على مصارحتك به . . . وأنا أعترف بذلك . أعترف بأننى أريد أن أقول شيئاً . . ماذا ؟ شيئاً يرتعد له كل جسمى . . إننى أفكر فيك منذ مدة طويلة . لم أفكر قط فى رجل كما فكرت فيك . قد أكون مجنونة إذ أفكر فى رجل لم أره . كل ما أعرفه عنه أننى استمعت إلى قطعة موسيقية لحنها . وإلى كلمة أذاعها ومع ذلك فهذا هو الذى

حدث معى تماماً . . ولكننى كنت استبعد أن يكون جزائى بعد طويل التفكير فيك أن تدير لى ظهرك لتلصق وجهك بقدم تلك المرأة العجوز التى تنفث دخان سيجارتها. إنك حر تفعل ما تشاء . ليس لى ولا لغيرى أن يتحكم فى عاطفتك . بل إننى أعرف عنك الكثير . إن لك ماضياً حافلا بالمغامرات مع نساء « علب الليل » وأولئك المجنونات اللاتى يخيل إليهن أن الإعجاب بالعمل الفنى معناه الإعجاب بالرجل الذى ابتكر ذلك العمل والعدو خلفه . والتعلق به والتدله فيه . كما أننى أعرف أنك لاه بفنك عن مجاراتهن ومع ذلك . . ومع ذلك فإننى أكتب إليك لا لأفعل كما يفعلن . ولكن لأقول إنه إذا خيل إليك أن إعطاء الظهر لفتاة فى محفل عام دليل على عدم اكتراثك بها فإنه فى نفس الوقت يعد « نشاذاً » فى قواعد اللياقة . خصوصاً إذا صدر من فنان شاب استطاع فى أجل قصير أن يثير إعجاب الناس بفنه الجديد » .

٢

« شىء عجيب !

لقد كتبت رسالتى السابقة إليك لأسجل فيها بضع خواطر أهاجتنى يوم رأيتك للمرة الأولى فى معرض « الأسايست » ولم أكن أتصور أنك ستعنى بتلك الرسالة إلى حد أن توحى

إليك فكرة تلك القطعة الشعرية التى نشرتها اليوم تحت عنوان « زائرة المعرض » .

لم تكتب عنى ؟

إنك لا تستطيع أن تدعى بأننى أثرت اهتمامك يوم وقع بصرك على للمرة الأولى وإلا لم أدرت ظهرك وأهملتنى كما فعلت يومئذ ؟

لقد استطعت أن أقاوم بعد أن كتبت إليك . وكنت موقنة بأننى سأوفق إلى التغلب على الرغبة التى كانت تجيش فى صدرى وتلح على فى الكتابة مرة أخرى . . وانقضت بضعة أيام على رسالتى الماضية وكدت أطمئن إلى أنه من العبث أن يكون غرامى الأول بشاب له فى كل يوم غرام جديد . . يبدأ بإدارة الظهر فى غير اكتراث . وينتهى سريعاً . . من يدرى بماذا ؟

قد يكون بهزة كتف أثر نوبة عاصفة يسيل فيها دمعى ويتهدج صوتى . وتتحطم أعصابى .

ولا يبعد أن أراك فى اليوم التالى تتأبط ذراع أخرى وتنظر إلى كأنك تنظر إلى لوحة قديمة بلى قماشها . وبهتت ألوانها . وتهدلت جوانبها . وطمست معالمها . وتاه عنك أنك سبق أن رأيتها من قبل .

كنت مطمئنة إلى أن الله يحبنى لأننى لم أتصل بك . وإلى أننى استطعت أن أبدأ فى نسيانك .

نسيان تلك اللحظة الخاطفة التى نظرت فيها إلى وأنت

تصافحني وتضغط على يدى . . ولكننى فوجئت بتلك الكلمة التى نشرتها اليوم والتى أشرت فيها إلى ما جاء برسالتى إليك .

أكاد أجن . هل تهتم بى حقيقة ؟

أيهمك ـــ حقاً ـــ أن أفهم أنلك تفكر فى . . ؟

إننى وقفت أمام عنوان تلك الكلمة ذاهلة . وزاد ذهولى عندما وجدتك تتحدث عن أشياء خطرت لى فعلا عندما رأيتك للمرة الأولى فى معرض « الأسايست » ولكن . .

هل يمكن أن تكون حقاً قد فكرت فى ذلك التفكير الطويل الذى أوحى إليك فى النهاية بأن تجلس إلى مكتبك وأن تكتب تلك القطعة الشعرية التى قرأتها اليوم ؟

إننى لا أخفى عنك أننى سعيدة غاية السعادة لأنك فكرت فى وكتبت عنى . . إننى بتعبير أدق فخورة . . مزهوة .

ولكننى أعود فأسألك . لم كنت قاسياً معى فى المرة الأولى إلى حد أنلك نفرتنى منك أو كدت ؟ »

٣

« أكتب إليك فى الظلام تقريباً . وأغمض عينى بين كل برهة وأخرى لأتخيلك إلى جانبى كما كنا اليوم فى طريق الفيوم . . أتذكر ؟ عندما هبطت من سيارتك قبلى ودرت حولها فى رشاقة رائعة ثم فتحت لى الباب وأنت تنحنى ومددت يدك

لتعيننى على الهبوط دون أن ترفع بصرك إلى وجهى كأننى ملكة وكأنك خجل من النظر إلى . فلما ارتبكت أثناء هبوطى من السيارة أسرعت فطوقتنى بذراعيك ؟

كانت رائحة الدخان تفوح . إذ ذاك – من ثيابك كلها . وكنت أحس بجسمى النحيف وقامتى الهيفاء إلى جانب قامتك الجبارة كأننى أحتمى بك من عاصفة رملية على وشك أن تجتاح صحراء الفيوم .

وأخذت أفتح أنفى لأملأه من رائحة الدخان حتى ثملت . . فألقيت رأسى على صدرك وأغمضت عينى ثم استرسلت فى حلم رائع من أحلام اليقظة .

إننى لا أعرف إلى الآن كيف فعلت ذلك . ولكننى لست نادمة بل إن كل ما أتمناه أن أغمض عينى لأستعيد ذكرى تلك اللحظات التى عشتها إلى جانبك ورأسى على صدرك ورائحة الدخان تملأ أنفى وصدرى . وصفير ريح الصحراء المترامية تحت أقدامنا يدوى فى آذاننا كأنها موسيقى سخرت لتشجى غرامنا .

أترى ؟ أننى أتحدث عن « غرامنا » نحن الاثنين فهل تحبنى أنت كما أحبك ؟ أقسم لك أننى لا أريد ذلك . يكفينى أن أحبك أنا . لقد أحببتك وأنت تدير لى ظهرك وتقف تحت قدمى امرأة أخرى هرمة . يسيل « أحمر » كثيف من

شفتيها تنفث دخانها فى وجهك فكيف لا أحبك الآن وقد عشت معك . تلك اللحظات التى أشعرتنى للمرة الأولى بسعادة الوجود إلى جانب رجل معشوق .

إننى سعيدة . أجل سعيدة لأننى أحبك ولا يعنينى بعد ذلك شىء . . أنك لم تعرفنى كما يفعل غيرك من الشبان . لم تسع إلى معرفتى لم توسط صديقة لى فى أن تقدمنى إليك فحددت لك موعداً على « البلاج » أو أثناء الاستراحة بإحدى دور السينما . وقضيت عصر اليوم المحدد أمام المرآة تصلح من ثيابك . وتضع قدراً من « البريانتين » فى شعرك وتضغط بالسلاح على ذقنك لتقتل منابت الشعر فيها وبالفرشاة على أسنانك لتزيدها لمعاناً وبياضاً . ولم تمسك بسماعة التليفون لتبدأ فى اضطراب متكلف بالاعتذار لأنك أخطأت فى طلب الرقم ثم تعيد الحديث فتصارحنى بأنك رأيتنى ذات ليلة أغمر جو إحدى دور السينما بفتنتى وبأنك اضطربت منذ وقع بصرك على واعتزمت أن تكون لى فإذا انتهرتك عدت إلى التحدث مرة ثالثة ورابعة وعاشرة حتى أمل من قذف السماعة فى وجهك فأضحك مرغمة وتصارحنى أنت بأنك تحبنى وأن حبك سيزداد كلما زدت أنا إعراضاً عنك . ولم تقف بسيارتك عند أول الطريق الذى يقع فيه منزلى لكى تتبعنى بها كلما خرجت فإذا ركبت سيارتى أخذت تدور حولها وتضغط على « الكلاكسون »

حتى تحفظ أذنى صوته فلا ألبث أن أتنبه إذا مررت أمام باب المنزل مرات أخرى مرسلا ذلك الصوت فى الهواء لكى أفهم أنك تفكر فى . وتقنع بالمرور من أمام بابى ولو لم يقع بصرك على . لم تفعل شيئاً من ذلك قط بل لم تكن تعرفنى يوم قدمنى ابن عمى إليك . ولم يكن يخطر ببالك أننى أفكر فيك قبل ذلك ببضعة أشهر وأتمنى رؤيتك . وأحلم باليوم الذى ألتقى بك فيه .

أقولها مرة أخرى دون أن أحس بأن فى ذلك إهداراً لكرامتى لقد سعيت أنا إليك ولم أذهب يومئذ إلى معرض « الأسايست » إلا لأننى علمت أنك على موعد مع ابن عمى هناك .

إننى أعرف أن المرأة إذا صارحت رجلها بمثل هذه الاعترافات تغذى غروره وتوقد كبرياءه وتلهب أنفته واعتزازه بنفسه . .

ليكن . . إننى أحبك . . أحبك . . أحبك وأفعل بعد ذلك ما شئت »

٤

« أكتب إليك بعد أن خرجت ابنة عمى من عندى . إننى أضحك الآن من كل قلبى كلما تذكرت « النصائح » التى ألقتها على أذنى . فى لهجة رهيبة .

لقد رأتنى أتأهب للكتابة إليك فلما سألتنى صارحتها بأننى أكتب إليك .

ـ تكتبين رسائل لرجل بخط يدك ؟ أجننت !

فسألتها متظاهرة بالبلاهة :

ـ ماذا فى الكتابة إلى رجل ؟

ـ ألا تفكرين فى مستقبلك؟هل خلق الرجل الذى يمكن الاطمئنان إليه ؟لو اختلفتما وانقطعت هذه العلاقة ماذا تفعلين؟رسائل بخط يدك عندرجل غريب ! أين ذهب عقلك؟

ـ ماذا يمكن أن يفعل بهذه الرسائل ؟

ـ من يدرى ؟ إن الرجال يتغيرون فجأة ولا يجب أن نستكثر عليهم أمراً . ألا يجوز أن يطلع أصدقاءه عليها تفاخراً وزهواً ثم يتناقل بعض هؤلاء الأصدقاء أنباء هذه الرسائل ؟ ألا يحتمل أن تترامى بعض الأنباء إلى رجل قد يفكر فى طلب يدك ؟

أترى ؟

أن ابنة عمى التى تزوجت منذ عشرة أعوام وهى لم تعد الخامسة عشر من عمرها والتى رزقت من زوجها بخمسة أطفال . ـ وهى تكاد تضاهينى سناً ـ تجدمن حقها أن تلقى علىتلك الخطبة الناصحة الزاجرة الثائرة .

إنك تستغل رسائلى إليكذلك الاستغلال الشائن النذل ! من يدرى؟ ربما حفرت لبعض تلك الرسائل «كليشهات» ونشرتها فى الصحف التى تراسلها لكى يطلع عليها عشرات الآلاف منسوبة إلى؟

كم هى مجنونة ابنة عمى !

إنها لا تعرفك . . لا تعرف أنك أنبل رجال العالم أجمع . إنك النبع الذى يروى رجولة العالم العطشى .

إنها تظنك رجلا عادياً كغيرك .

لو علمت من أنت !

آه . نسيت أن أسألك . أين كنت أمس من الساعة الخامسة مساء إلى العاشرة ؟ لقد حاولت الاتصال بك تليفونياً حوالى العشرين مرة فلم أجدك . حتى تصاعد الدم إلى رأسى وكدت أجن . هل تعرف لم كنت أريد أن أتحدث إليك ؟

لقد أقبل لزيارتنا فى المنزل ابن عمى ومعه بعض أصدقائه ومن بينهم ذلك المحامى الذى عرفت منك مرة أنه كان زميلا لك فى الدراسة . فلم أود أن أهبط إلى غرفة الضيوف لمقابلتهم قبل أن . . أن أستأذنك . ولكنك لم تكن موجوداً . كما قلت لك . لا تستطيع أن تتخيل كم ضايقنى أن أضطر إلى مقابلة أولئك الرجال والجلوس معهم دون أن تسمح لى أنت بذلك .

لقد شعرت كأننى مقدمة على خيانة قذرة . وأنا أمد يدى لأصافحهم دون أن يكون لديك علم بذلك .

إننى أريد أن أكون لك . لك أنت وحدك . وأن أظل هنا لكى تأمرنى فأطيع يا حبيبى » .

٥

« لا تظن أنني أريد أن أحاسبك ولكنني فقط أرجو أن تكون صريحاً معي هذه المرة فتزيل الشك الهائل الذي لا أخفي عنك أنني تعذبت بسببه ليلة كاملة حتى الصباح لم أوفق في أثنائها إلى النوم لحظة واحدة .

هل تعرف لماذا ؟

لقد أخبرني ابن عمي أمس مساء أنه رآك مع سيدة أسبانية تقوم بتدريس لغتها في إحدى مدارس اللغات الحية وقد قدمتها إليه على أنها صديقتك وأخبرته أنك ستتناول العشاء معها .

من هي هذه المرأة ؟

مرة أخرى ، إنني لا أريد أن أحاسبك لأنني سبق أن صارحتك بأنني لا يعنيني في الحياة إلا أن أحبك . ولا أهتم بعد ذلك إذا كنت تبادلني أنت هذا الحب أو تقف مكتوف اليدين . مرفوع الرأس . باسم الثغر . مفتوح العينين . رزين القسمات تنسدل أهدابك في هدوء وتثاقل أمام فتاة تحبك ويرتجف جسدها كلما تحدثت إليك عن هذا الحب . ولكنني تبينت بعد ما أخبرني ابن عمي بأنه صادفك مع تلك المرأة الأسبانية بأنني إذا كنت لا أريد منك أن تبادلني حبي بمثله فإنني لا أستطيع أن أقوى على احتمال رؤيتك تهب ذلك الحب إلى امرأة أخرى .

هل تحب تلك المرأة حقاً ؟

أذكر الآن أنني قرأت لك أخيراً قطعة شعرية عنوانها « قصور فى أسبانيا » فهل هى التى أوحت إليك بفكرتها ؟ وإذا كانت علاقتك بريئة فلم لا تصارحنى بأنك تخرج معها وتبدو إلى جانبها أمام الناس أجمعين ؟

إننى لا أطلب منك أن تكون مثلى . أن تستأذننى كلما دفعتك الظروف إلى الحد الذى تعد فيه — كما أعد — مد اليد لمصافحة امرأة خيانة لا تغتفر . لا أطلب ذلك ولكننى أريد أن أعرف مصيرى وأنا أسمع هذه الأخبار تترامى إلى بأنك تبدو فى كل ليلة مع امرأة جديدة فى محفل عام . إن هذا أقل ما يمكن أن تطلبه فتاة مثلى أوقفت حياتها على حب رجل » .

٦

« ألا تريد أن تجيب ؟

كنت أتوقع أن تقف منى هذا الموقف . بل إننى واثقة بأنك تسخر منى الآن ومن ثورتى وأنت تتصفح رسائلى السابقة إليك . الرسائل التى كانت تتحدث عن يقينى بأن هناك كثيرات غيرى يتعقبنك وهن مؤمنات بفكرة الإعجاب بك كرجل قبل الإعجاب بك كفنان . أنك تقول لنفسك الآن « كيف تحاسبنى هذه المجنونة على خروجى مع امرأة أخرى

وقد بدأت علاقتها معى وهى تعلم بأن هناك عشرات أخريات ؟ »

أجل أعترف بذلك . أعترف بأننى حاولت فى بادئ الأمر أن أنسى أننى عرفتك كما عرفك غيرى – وأننى معرضة فى كل لحظة لكى أتنحى عن مكانى فى قلبك لتحل فيه فتاة أخرى بدأت بأدارة ظهرك لها فبدأت هى بإعطائك قلبها . ولكنك – وهنا مجال للهزء والسخرية – كنت طيباً معى فخيل إلى أنك أحببتنى دون الأخريات . وتغير موقفى منك فكرهت أن أحدث رجلا آخر أو أن أصافح رجلا آخر أو أن أجلس مع رجل آخر وكان طبيعياً أن أنتظر منك موقفاً مشابهاً ولكنك غدرت بى ذلك الغدر » .

٧

« ماذا تريد أن تفعل بى ؟

لقد اعتزمت أن أكتب إليك شيئاً قد يؤلمنى ويشق على نفسى ولو علمت أنه يؤلمك انت الآخر لما فعلت ولكننى واثقة من أنك ستنشرح لقراءة هذه الكلمة .

يجب أن أخبرك بأننى لا أستطيع أن أستمر على علاقتى بك . لقد انقضى نحو شهرين على تعارفنا ومن العبث أن تدعى بأن تلك العلاقة قد أصابت قدراً من النجاح فقد شقى كلانا بها . شقيت أنا لأننى لم أشعر فى يوم بأنك لى وحدى . وشقيت أنت لأننى كنت ألاحقك برسائلى التى تلتهب غيرة وبمحادثاتى

التليفونية المتكررة أثناء الليل والنهار التى كنت فى كل منها أثور وأصخب كلما خيل إلى بأنك تخوننى مع امرأة أخرى . ووصل ضيق إلى أقصاه عندما صحت فى وجهى اليوم وأنا أتحدث إليك بأننى ما كان يجب أن أثور عندما عرفت أخبار سهراتك ما دمت أقابل رجالا آخرين فى منزلى وفى الخارج وأنك تستطيع أن تشك فى وفائى أنت الآخر .

يخيل إلى أنه كان حلماً . حقاً لم أكن أتوقع بعد كل التضحيات التى أقدمت عليها لأجلك أن يقبل اليوم الذى تجرؤ فيه على القول بأننى لست وفية .

سامحك الله .

كل ما أرجوه أن يأتى اليوم الذى تقابل فيه المرأة التى سوف تحبك كما تستحق أن تحب .

وأخيراً آمل أن نفترق صديقين ولا تجعل لى فى نفسك ضغينة أو حقداً » .

٨

« قضيت وقتاً هادئاً هانئاً بعد أن تركتك فى منتصف الليلة الماضية رَغم الآلام التى كانت تحز فى نفسى منذ كتبت إليك رسالتى الماضية .

أوه . إنك لا تستطيع أن تتخيل وقع كلماتك على قلبى .

١٠١٠

كلماتك الطيبة الحنون وأنت تقول لى بصوتك المرتجف« كيف أغضب منك وأنت لى كل شيء » ؟ لقد نسيت إذ ذاك تواً كل ما حدث بيننا وشعرت وأنت تغمرنى بحنانك بأننى أسعد فتيات العالم .

إن حبي يزداد قوة وعتواً . إننى مؤمنة بأنه ما من رجل آخر فى العالم يمكن أن يضاهيك وأنه لن يكون لى غيرك رجل آخر مرة أخرى .

لقد نسيت الماضى . احتفظ برسائلى عندك . وثق أننى لا أنظر الآن إلا إلى المستقبل السعيد الذى ينتظرنا نحن الاثنين .

والآن سؤال صغير .

هل تحبنى حقاً ذلك الحب العميق الوفى الذى أشعر به أنا نحوك ؟

لا أظن »

شريرة

١

— ألم تسمع من قبل كلباً يضحك ؟

هكذا فاجأنى صديقى القديم الذى زاملنى مدة عامين فى الدراسة الثانوية كان أثناءهما رئيساً للفرقة التمثيلية التى كانت تقوم بإخراج بعض درامات لشكسبير مترجمة بأقلام نفر من الكتاب السوريين المعروفين . وكان « هو » — بطبيعة الحال — يقوم بدور البطل فيها كما كان معروفاً بين زملائنا طلبة مدرسة الزقازيق الثانوية بأنه أكثرنا توفيقاً فى كتابة مواضيع الإنشاء وأن درجة ٩ من ١٠ ظلت وقفاً عليه دون غيره وهى أعلى الدرجات التى كانت تعطى للطلبة تطبيقاً لنظرية مدرس اللغة العربية التى كانت تقضى — ولا أدرى السر إلى اليوم فيها — بأن درجة ١٠ من ١٠ لا يمكن إعطاؤها إلا له — أى للمدرس — شخصياً إذا تنازل وكتب موضوعاً من موضوعات الإنشاء !

وقد انقطعت أخباره عنى مدة طويلة . ولكننى كنت أطالع له فى بعض المجلات أبحاثاً مختلفة عن موضوعات مسرحية . كما أننى قرأت مرة أنه تقدم إلى إحدى الفرق بمسرحية مصرية وضعها ولكنها لم تقبل . وعادت أخباره مرة أخرى

فانقطعت عنى إلى أن ظهر اسمه بين الفائزين فى إحدى مباريات التأليف المسرحى التى دعت إليها وزارة المعارف العمومية ثم عاد فظهر على رأس طائفة من المسرحيات الناجحة التى مثلت فى الأعوام الأخيرة . ودهشت فى أول الأمر عندما فاجأنى بالسؤال الغريب الذى صدرت به هذه القصة وخيل إلى بعد قليل أنها فكرة مسرحية جالت بخيال المؤلف الشاب ولكنه عاد يكرر سؤاله .

– إذن فلم يسبق لك أن سمعت كلباً يضحك دون أن تعرف ما إذا كان يضحك لك أو يضحك عليك ؟

– كيف ؟ – فقال لى فى لهجة جادة .

– كما أقول لك . تعال معى الآن إلى المطرية لأريه لك . إنك تعرف ولا شك ذلك الفندق الصغير الذى فى آخر خط المطرية . الكلب هناك . يقف أمام ذلك ذلك الفندق . إذا جئت معى الآن سينظر إليك ثم يضحك . سيذهلك . بل سيفقدك الرشد. ستشعر كما شعرت أنا برغبة فى أن تنقض عليه وتخنقه . .

واستطعت أن أتغلب على دهشتى حتى انتهيت من سماع هذه التفصيلات الغريبة التى ظل زميلى القديم يسردها على عن غرامه . وزواجه . والذكريات التى تعود إلى ثمانية أعوام مضت.

وهى موضوع القصة . . .

٢

عند آخر خط سكة حديد المطرية يقوم فندق من الفنادق الريفية المتواضعة أراد صاحبه أن يسخر فأطلق عليه اسم «أوتيل ريش» وهذا الفندق يختلف عن أمثاله فى أنه يدقق كثيراً فى إيواء اللاجئين إليه من ركاب السيارات المنطلقة فى ساعات النهار والليل تحمل كل منها رجلا وامرأة . بل لقد عرف شباب العشاق أن اليونانى العجوز صاحبه لا تنطلى عليه حيلة التقدم إلى باب الفندق وقد حمل الشاب حقيبة من حقائب السفر بيد وتأبط ذراع فتاته باليد الأخرى محاولا تسجيل اسميهما فى الدفتر كأنهما زوجان إذ امتاز الفندق — بعد تجارب السنين الطويلة — بفراسة تمكنه من اختراق حجب الحقائب الجلدية وتبين ما إذا كانت خالية أو محشوة — حقيقة — بالملابس الضرورية لزوجين على سفر !

وكان «هو» الطالب بكلية الآداب يقطن مع أسرته المكونة من أبيه وكيل مكتب بريد المطرية منزلا متواضعاً بعين شمس استطاع الأب أن يقتنى ثمن أرضه من مرتبه الضئيل وبعد أن دفع أقساط الأرض تجرأ فبنى فوقه طابقاً واحداً مكوناً من ثلاث غرف كانت إحداها مخصصة لابنه.

فى تلك الغرفة المطلة من جهة على صحراء عين شمس ومن

الجهة الأخرى على حقول المطرية كان يجلس « هو » يذاكر دروس السنة النهائية من كلية الآداب ويحلم بالمستقبل الذى طالما منى نفسه بالوصول إليه . مستقبل المؤلف الذى يوفق عن طريق فنه إلى إثارة إعجاب النظارة والفوز بتصفيقهم الحاد والذى يصعد أثناء فترات الاستراحة بين الفصول إلى «الكواليس» ليوزع تهانيه على ممثلى مسرحيته . . ويمنح ابتساماته لممثلاتها . ثم يقف عند باب المسرح الخارجى بعد انتهاء عرض القصة ليتلقى تهانى من يعرفهم ومن لا يعرفهم من أفراد الجمهور المعجب.

ولقد ظل « هو » طيلة المدة التى قضاها فى عين شمس خاضعاً لنوع من النظام الصارم فى حياته اليومية المتكررة فقد كان يغادر منزله فى ساعة مبكرة من الصباح إلى محطة السكة الحديدية ليهبط إلى القاهرة ولا يعود إلا مساء بعد انتهاء موعد الكلية ليعيد مذاكرة دروسه ويريح أعصابه بتصفح بعض مسرحيات فرنسية أو إنجليزية حتى يتعب فينام . . لم تصادفه حادثة هزت حياته هزة قوية أخرجتها عن ذلك التواتر الممل الذى ضاقت به روحه الشابة . أو بتعبير أدق لم تصادفه المرأة التى تستطيع أن تشغل تفكيره كما تشغله مسرحية ناجحة لبرنشتين أو ميريه أو جالسورثى .

إلى أن رآها . . .

كان ذلك فى مساء يوم من أيام الصيف . وكان « هو »

قد ذهب مع رهط من زملائه فى الكلية إلى إحدى « صالات » الغناء والرقص التى اعتادت العمل فى الصيف كل عام بساحل روض الفرج . ولكنه لم يكد يشاهد جزءاً بسيطاً من البرنامج المعروض حتى اشمأزت نفسه من الراقصة التى كانت تلقى أغنية سيد درويش الخالدة « على قد الليل ما يطول » فأساءت فهمها وشوهتها . كما اشمأز من الجمهور الذى لم يفهم شيئاً من فن الموسيقى الراحل بل أخذ يطوح بطرابيشه عالياً بينما كانت الراقصة تكرر كلمات الأغنية فى حركات مكشوفة سمجة . فاعتذر إلى أصدقائه واستقل أول قطار عاد به إلى عين شمس وغادر القطار ثم سار متباطئاً إلى منزله .

كان الطريق هادئاً لا أحد فيه . . .

وكانت منازل عين شمس إذ ذاك قد بدأت تغلق نوافذها رغم حرارة الجو هرباً من رطوبة الصحراء أثناء الليل . . وأخذت أنوارها تخفت حتى ساد الظلام . .

وأخذ « هو » يفكر فى تلك الليلة الكريهة التى أراد أصدقاؤه أن يقضيها معهم إلى جانب ذلك الجمهور المخمور . ودهش من استطاعتهم البقاء فى ذلك الجو الممتلىء بصياح السكارى ورائحة « الجنبرى » المتعفن الذى اعتادت الحانات الرخيصة أن تقدمه مع أكواب الخمر . وفجأة لمح من بعيد ضوءاً قادماً فى سرعة هائلة . . كان ضوء سيارة مقبلة من

المطرية . متجهة إلى المرج ودهش عثمان لأن السيارة كانت تسير مسرعة وسط الرمال فى غير الطريق المعد لسير السيارات ووقف مستعداً أن يرشد قائدها إلى الطريق إذا اقترب منه ولم يطل تفكيره لأن ما توقعه حدث تماماً فقد ترنحت السيارة والتوت التواء عنيفاً أثناء سيرها ثم وقفت فجأة وقد تعذر عليها الانطلاق فوق الرمل . . وأحس « هو » بأن سائق السيارة لن يستطيع أن يتحرك من مكانه فى صحراء عين شمس بعد أن غاصت عجلاتها فى الرمال الرخوة فتقدم إليه مسرعاً . . ولم يكد يقترب من السيارة حتى دهش فقد رأى أمامه فتاة فى نحو العشرين من عمرها نحيفة . طويلة القامة . ترتدى ثوباً رياضياً أبيض مبتور الأطراف وقد تأرجح على عنقها « وشاح » بنى اللون. وكانت الفتاة قد أخذت تجاهد عبثاً لرفع عجلات السيارة من الرمل الذى غاصت فيه . . وكان الضوء المنارى الكبير يسطع إذ ذاك على مسافة بعيدة أمام السيارة . فلما يئست «هى» من زحزحة العجلات عن مكانها وقفت إلى جانب السيارة واعتمدت على إحدى العجلتين الأماميتين وقد أخذ هواء الليل يعبث بالوشاح الحريرى الملتف حول عنقها ويحرك شعرها فى حركات عنيفة ثائرة . ويزأر زئيراً مخيفاً كأنه يسخر من اجترائها على انتهاك حرمة ذلك الطريق الذى لم يخضع من قبل لسيارة أخرى . وخيل إليه من بعيد وهو يدنو إليها بأنه

مقبل على لوحة فنية من تلك اللوحات التى تتفنن معامل السيارات فى رسمها . وتستخدم لها أجمل الوجوه . وأرشق القامات توقفها إلى جانب السيارة وتلتقط صورتها فى وضع فاتن لتغرى وتثير .

وجفلت « هى » عندما رأت شبحاً يتقدم إليها فى الظلام فصاحت فى صوت لم يخل من اضطراب :

ـ من أنت ؟

فأجابها توآ :

ـ لا تخافى . لقد لمحتك من بعيد فعرفت أنك أخطأت وخرجت عن الطريق الزراعى .. إلى أين كنت تقصدين يا آنسة ؟

ـ المطرية .

وكان « هو » قد وصل إليها فابتسم وقال لها :

ـ لقد تجاوزت المطرية . إنك الآن فى عين شمس . وبعد قليل ستكونين فى المرج .

وبان الذعر على وجه الفتاة . وأخذت تجيل بصرها بين الشاب الذى أمامها وأثار العجلات المختلفة فى الرمل الرخو . وأنوار المطرية التى كانت تبدو من بعيد . . ـ وتمتمت . .

ـ إذن فقد تهت ؟

ـ ليس فى هذا ما يدعو إلى الذعر . أستطيع أن أستدعى من يساعدنا فى رفع العجل . . . الأمر أبسط

بكثير مما تتوهمين . بعد بضع دقائق ستكونين فى المطرية .

ــ إنما يجب أن أذهب إلى بيت عمتى فى القاهرة لأبدل ثيابى ــ فنظر « هو » إلى ثوبها ثم ابتسم وهو يقول :

ــ ولكنك رشيقة فى هذا الثوب

فهزت رأسها فى ملل وقالت :

ــ ليس هذا وقت السخرية . إننى مدعوة لحضور حفلة زفاف فى هذه الليلة . وقد أرسلونى لأحضر إحدى قريباتى . تقطن هنا . فى المطرية وأعود بها إلى القاهرة . ماذا أفعل الآن وقد تأخرت جداً . . كم الساعة الآن ؟

ــ إنها أقل من الثامنة . . استريحى داخل العربة إلى أن أستدعى اثنين من خدم مكتب البريد .

ولما عاد لم يجدها داخل السيارة كما كان يتوقع بل وجدها قد أخرجت وسادة السيارة وألقت بها على الرمل ثم استلقت عليها . .

كان قد عاد برجل واحد أعانه فى رفع عجلات السيارة ودفعها إلى الطريق الزراعى الذى كان يجب أن تسلكه . . واشتركت الفتاة معهما فى ذلك حتى وفقوا . . بعد أن نال التعب منهم ...

وابتعد الرجل الذى استعان به وخلت صحراء عين شمس فى تلك الساعة من الليل إلا منهما « هو » . . و « هى » وتقدما

فى خطوات بطيئة إلى حيث تركت وسادة سيارتها . . ولم تكد تنقضى بضع دقائق حتى كان قد عرف اسمها . وعرف أنها ابنة أحد كبار أعيان الإسكندرية وعرف أنها شقيقة زميل قديم له فى الدراسة الابتدائية وكانت للزميل سيارة هو الآخر كما لشقيقته! وكان معروفاً بين زملائه بأن والده من أثرى سراة الإسكندرية وأحست هى بأنها اهتدت إلى روح يمكن أن تصادقها وتطمئن إليها . . . روح بحثت عنها عبثاً فى الصالونات التى ترددت عليها بين الإسكندرية والقاهرة . والمجتمعات التى غشيتها مع والدها أو شقيقها أو زوج شقيقتها . لقد وجدت تلك الروح فى تلك الساعة من الليل وسط صحراء عين شمس الساكنة . وتعمدت ألا تطلب إليه أن يخبرها عن الوقت . . بل تعمدت أن تدير وجهها بحيث لا تواجه أنوار المطرية فلاتعود تذكر السبب الذى قدمت من أجله إلى تلك الضاحية النائية من ضواحى القاهرة . وطغت عليها الرغبة فى أن تفضى بكل شىء إلى الشاب الذى جلس تحت قدميها ككلب من الكلاب الذئبيه الجميلة يحرسها ويحميها . لم يعد يخيفها صفير هواء الصحراء ولم يعد يثير ذعرها أن تعوى الوحوش إلى جانبها ما دام «هو» إلى جانبها . . شىء واحد اضطرب له كيانها كله . . إحساسها بأنها لن تستطيع أن تترك ذلك الشاب الذى ألقت به فى طريقها صدفة ساخرة ذات ليلة من الليالى المظلمة التى لا يضىء سماءها قمر .

وطغى عليها ذلك الإحساس إلى حد أنها اعتدلت فى جلستها واقتربت بجذعها الأعلى منه ثم مدت يدها وتناولت يده وهى تقول له فى لهجة مضطربة وجله :

ــ من أنت ؟

فدهش وسألها :

ــ لم هذا السؤال المفاجىء ؟

ــ لست أدرى ماذا دهانى منذ رأيتك . ابتعد عنى .

ــ هل ضايقتك فى شىء ؟

وعادت تجيل بصرها حولها . وتذكرت أنها لم تكن قد رأت ذلك الشاب قبل ذلك بساعة وأنها لم تعد تطيق أن تفترق عنه فصاحت به وهى تتشبث بثيابه :

ــ أجل إننى أشعر بضيق شديد . ضيق يكاد يخنق أنفاسى . لم أكن أريد أن أراك . . ماذا حدث لى ؟ أكاد أنكر نفسى . . من ساعة واحدة كنت أقود سيارتى وأنا أغنى . . وأصفر . كأننى أسعد فتاة على الأرض وفوق الأرض .

ــ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ــ لا أدرى . إننى لا أود أن أعود إلى السيارة مرة ثانية . لا أود أن أعود إلى القاهرة . . . ولا الإسكندرية . لا أود أن أرى الناس الذين تعودت على أن أراهم .

أهلى وصديقاتى أكاد أحس بأننى كرهتهم جميعاً .

ــ ماذا تودين ؟

ــ أن أبقى هنا . . . لا . . . أفضل أن أتوه فى هذه الصحراء القريبة التى يلفح هواؤها الساخن وجهينا مقبلا من بعيد وأن يستمر تيهى يومين . . ثلاثة أيام . . عشرة. إلى أن أجوع وأظمأ وتتمزق ثيابى وتتهدل . وأسقط على الأرض إعياء . . .

ومد « هو » يده فأمسك يدها . وشخص إلى عينيها اللتين بدأتا تلمعان ببريق مخيف وتمتم فى شبه حشرجة :

ــ ثم ماذا ؟

ــ ثم تقبل أنت . . وتعثر بى . فتخلع ثوبك لتعطيه لى وتحملنى لتعيدنى إلى العالم .

وأحس بأصابعها تتقلص على كتفه . وبصدرها يرتفع ويهبط فى تهدجات سريعة ثائرة . ورأى شفتيها ترتعشان. وأهدابها تهتز وقد تبللت أطرافها بالدموع . وفجأة ألقت برأسها على صدره وهى تصيح فى صوت باك :

ــ لا تتركنى . أنا لا أريد أن أتزوج . لا أحبه . أتوسل إليك ألا تتركنى له أو لغيره .

وذهل لتلك الحالة الشاذة التى كانت عليها . . . ولكنه تظاهر بالهدوء لكيلا يؤلمها. وأخذت تفضى إليه بباقى ما كان

يجيش فى صدرها . أفضت إليه بأن أسرتها وافقت على تزويجها من التاسعة وأحد الأطباء المعروفين فى دمنهور . . يبلغ الأربعين من العمر وأن ذلك الطبيب مدعو إلى حفلة الزواج التى أقبلت من الإسكندرية خصيصاً لحضورها وأن مربيتها العجوز أسرت إليها قبل أن تغادر بيت أبيها فى محرم بك بأن الغرض من حضورها الحفلة أن يراها « العريس » من بعيد . وفكر « هو » فى كل ما قالته له واشتد ذهوله عندما تذكر أنه لم يرها إلا فى تلك الليلة ومع ذلك فإنه — هو الآخر — لم يعد يطيق أن يفترق عنها . ولكنه ارتجف إذ تخيل ما اعتزمت « هى » أن تقدم عليه من عدم إطاعة أسرتها فى قبول الزواج من الطبيب الذى تقدم لطلب يدها . ماذا يمكن أن يحدث بعد ذلك؟

لقد طلبت إليه بصراحة ألا يتركها تعود إلى أسرتها . فهل يستطيع أن يعولها ؟ هل يستطيع أن يتزوجها ؟

يتزوجها . . . .

إنه لم يفكر قط فى الزواج من قبل . كان لا يزال طالباً بكلية الآداب تنفق عليه الدولة لأن مرتب والده الضئيل لا يكفى لتعليمه تعليماً عالياً . . بل إنه لو خطرت له فكرة الزواج فلم يكن ممكناً أن تخطر له فكرة العثور على الزوجة وتقرير الزواج منها فى ليلة واحدة . كيف يمكن أن يتم مثل ذلك الزواج الغريب ؟

ولكنها عادت تقول له فى صوت باك :

— لا يمكن أن أعود إلى بيت أبى . لقد كنت أعتزم أن أحضر « الفرح » كما تريد أسرتى ثم أركب سيارتى وأهرب إلى حيث لا أدرى . . أن جميع أفراد أسرتى يعرفون أننى مجنونة ومع ذلك حاولوا خديعة أنفسهم وقبلوا هذا الرجل زوجاً لى دون أن يؤبه لرأيى ويبدو لى أن « مربيتى » قد تبينت أننى اعتزمت أمراً عندما استدعونى من « العزبة » لحضور حفلة إعلان الخطبة فالتمست أكثر من عذر لتأخير السفر إلى القاهرة . وأخيراً جمعت كل ما لدى من مصاغ وماس ووضعته فى حقيبة لأنها قالت لى وهى تهمس فى أذنى « إن أباك عجوز يا ابنتى وأقل صدمة قد تجهز عليه . فكرى فى هذا . فكرى فيه طول الوقت » ولكننى لم أجب عليها . فانحدرت دمعة كبيرة من عينيها كأنها فهمت أننى لم أعد أحتمل المناقشة فيما اعتزمته — وسكتت قليلا ثم هزت رأسها فى بطء وهى تشير إلى السيارة واستمرت قائلة وقد ارتسمت على محياها ابتسامة ألمة :

— إن كل ما أملك أودعته هذه السيارة المعطلة . لم أشأ أن أترك المصاغ فى بيت عمتى خشية أن يحتجزوه لمنعى من الهرب . إن ثمنه يكفينى العمر كله . لن أكون فى

حاجة إلى أحد . إننى متوقعة ما سوف يحدث .
سيثور أبى . وسيحرمنى من الإرث ببيع كل أرضه
إلى أخى . ليفعل ما يشاء . اقسم لك أننى سأكون سعيدة
لو عرفت أن هذا الإجراء الذى سيحرمنى من نصيبى
سيهدئ ثورة أعصابه . إن أبى طيب القلب . حتى عند
تقرير حرمانى من ثروة يتهافت الناس جميعاً على ريعها .

وفجأة تبين « هو » أن الفتاة التى كانت راقدة إلى جانبه قد اعتزمت تضحية كل شىء فى سبيل أن تحقق مغامرة جنونية . وأنه منقاد إلى مجاراتها . كان يشعر بلذة خفية فى أن يعيش بطلا من أبطال مسرحية غرامية عنيفة .

واتفقا على اللقاء فى اليوم التالى .

٣

فى ذلك اللقاء ذهب الاثنان إلى مأذون المطرية فعقد زواجهما . وكان « هو » قد فكر فى المكان الذى يستطيع أن يعيش فيه معها حتى لا يعلم والده بخبر زواجه وحتى يتبين موقف والده من ذلك الزواج . فاهتدى إلى الفندق الريفى المتواضع الذى يديره اليونانى العجوز فى خارج المطرية وقد ذهبا إليه وقضيا فيه الليل .

وفى الصباح المبكر استيقظ « هو » وألقى نظرة عليها . على

زوجته التي كانت لا تزال تغط فى نومها وقد تهدل ثوبها الأبيض عن جسمها الحمرى الجميل وشاعت على شفتيها ابتسامة وديعة . وانسل فى بطء ثم فتح النافذة ليشرف منها على حيث قام منزل أبيه بعيداً عند أقصى عين شمس . . كان يحس بحنين غريب إلى غرفته البسيطة المتجردة من الأثاث والتى تبعثرت فيها مسرحياته المحبوبة التى طالما عاش بين أبطالها وبطلاتها وصادقهم وكرههم وأحبهم وحنا عليهم وتشاجر معهم ثم عاد فصفح ورضى . ولمح أمام باب الفندق كلباً لم يكد يسمع صوت النافذة حتى رفع رأسه وحرك ذيله ثم فتح فمه . . .

ودخل هواء الفجر من النافذة فاستيقظت « هى » وتقدمت على أطراف أصابع قدميها حتى وقفت خلفه . كان لا يزال يشخص فى ذهول شارد إلى حيث ظن أنه مكان المنزل الذى قضى فيه أعوامه الأخيرة . ورفعت يديها فى هدوء ثم وضعتها على عينيه وسألته فى حنان هائل :

ـ من أنا ؟ ـ فأجابها وهو يمر بأنامله فى رقة على ظهر يديها .

ـ أنت ـ وعندئذ رفعت يديها وجذبته نحوها وهى تقول :

ـ انظر لى أنا . . . ماذا هناك يستحق أن تطيل النظر إليه ؟

ـ كنت أظن أننى أستطيع أن أرى بيتنا من هنا .

ـــ هل بدأ الحنين إلى بيت أهلك يشقيك بهذه السرعة ؟

ولوت شفتها السفلى فى امتعاض ورفعت كتفها العارى فى دلال ثم أعطته ظهرها :

فأمسك بها وهو يقول :

ـــ مالك يا حبيبتى ؟

ـــ غاضبة .

ـــ لم ؟

ـــ أنت تعرف السبب .

ـــ أقسم لك أننى لا أعرفه .

ـــ لم تنظر لبيتك من النافذة بهذا الوله ؟ ـــ وضحك إذ ذاك وضمها إلى صدره ثم فمها . ثم قال لها :

ـــ أنت مجنونة . أتغضبين من أمر كهذا ؟ إذن فأنا أعدك ألا أعود إليه .

ـــ أجل كما تركت أنا أهلى وحاولت نسيانهم يجب أن تتركهم وتنساهم . أريد أن تشخص إلى عينى أنا وحدى أو تطيل إليهما ـــ دون غيرهما ـــ النظر . . أريد أن أؤمن بأنك لو قضيت الليل والنهار تحدق النظر إلى ما مللت .

وأمسكت بيده ثم أدنت عينيها من عينيه . وانقضت برهة صمت طويلة . وعاد هو إلى ضمها بين ذراعيه ثم أرسل ضحكة عالية وقال لها :

ـ وأنت ألا تملين لو ظللت أحدق النظر فى عينيك أياماً بلياليها ؟

ـ أبداً

ـ فكرى قليلا . إنك لا زلت طفلة لم ينضج تفكيرها بعد . . أتظنين ممكناً أن نستمر على الحياة معاً هكذا . منقطعين عن العالم دون أن تفكرى فى أهلك . ودون أن تندمى على ما أقدمت عليه فى ساعة نقمة , ثائرة مجتاحه .

ـ أجل . ما دمت معك أحس بأنك لى . لى أنا وحدى دون أية امرأة أخرى غيرى فإننى سأظل لك . إلى جانبك أتبعك كظل . إلى الأبد .

وتهدج صوتها بالدموع فضمها إلى صدره وطال عناقهما وارتفع صوت الكلب الرابض أمام باب الفندق بعواء غريب فانتفض جسمه برهة ثم قال لها :

ـ هذا الكلب صوته غريب . . ألم يخيل إليك أنه يضحك أثناء نباحه ؟

ومرت بعض القرويات الهابطات إلى القاهرة لبيع الخضر والبيض واللبن وارتفعت أصواتهم بالمناداة عليها . وتنبه الزوجان الشابان إلى أنهما ملتصقان بالنافذة وأن المارة قد يرونهما متعانقين فانفصلا وتمتم « هو » :

ـ أنا جائع

– سأعد إفطارك بنفسى – وانحنت من النافذة ونادت إحدى القرويات المارات لتستوقفها وأسرعت فوضعت على كتفها « ثوب الغرفة » ثم هرولت هابطة درج الفندق الريفى كأنها فى منزلها .

ودهش لتصرفها وهو يعدو خلفها :

– هل جننت حتى تخرجى إلى الطريق بهذا الثوب ؟

– ماذا أفعل إذن ؟ أيمكن أن أتركك جائعاً ؟ – وتبعها ثم أطل عليها من أعلى الدرج .

– عودى . وكلفى أحد الخدم بإعداد إفطارنا .

– لا . أبداً . يلذ لى أن أختار لك بيدى ما سوف تأكله . ماذا حدث حتى تضطرب هكذا إننا غريبان عن هذا المكان ولا يعرفنا أحد .

وأسرع فهبط الدرج خلفها وبعد قليل عادا يحملان بضع بيضات وقطعة كبيرة من الجبن وعدداً من قطع الزبدة الصغيرة وصعدا الدرج وصوت ضحكهما يدوى عالياً . .

وعاد الكلب يعوى فى نبرة أقرب إلى الضحك . . ولما اختفيا داخل الغرفة التفت « هو » وقال لها وهو يرهف السمع :

– أسمعت ؟ أن هذا الكلب سيفقدنى عقلى . . ما هذا الصوت ؟

فضحكت ثم قالت وهى تنسق صينية صغيرة استعارتها من الفندق :

ــ وما وجه الغرابة فى هذا ؟ لقد رآنا نضحك فشاركنا الضحك .

وخرج ابن اليونانى العجوز صاحب الفندق إذ ذاك من غرفته فى الطابق الأرضى على صوت عواء الكلب وكان شاباً فى نحو العشرين من عمره . فقد إحدى عينيه أثر رمد صديدى . ورنت فى أذنه ضحكات الزوجين الشابين فأطرق إلى الأرض ورسم علامة الصليب على صدره ثم عاد مسرعاً إلى غرفته وأغلق بابها .

٤

وانقضت بعد ذلك ثمانية أعوام . . .

وتخرج « هو » من كلية الآداب بعد أن اتضح له أن التوفر على كتابة القصة المسرحية لن يكفى لكى يعوله ويعينه على إعانة أسرته خصوصاً بعد إحالة والده إلى المعاش وإراحته من ارتداء « السترة » الزرقاء الداكنة المكتوب على صدرها بخيط « مذهب » كلمة « بريد » والجلوس خلف تلك المنصة الخشبية العالية فى مكتب بريد المطرية . .

وعين عقب تخرجه مدرساً للتاريخ بإحدى مدارس الأقاليم الثانوية . وانتقلت أسرته معه وانقطعت صلته بالقاهرة وأنديتها الأدبية . ولكنه لم ينقطع عن الكتابة للمسرح . كان ذلك مرضاً يعاوده بين كل وقت وآخر . وتظهر أعراضه فى شكل مسرحية

يسجن نفسه من أجل كتابتها فى غرفته ثلاثة أيام أو أربعة ويكلف أحد طلبته الذين كان يقوم بإعطائهم دروساً « خاصة » بتبييضها ثم يسرع بإرسالها إلى إحدى المجلات المسرحية .

إلى أن حدث ذات مرة أن أطلع مخرج مصرى معروف كان يشترك مع أحد كبار الممولين السوريين فى إدارة أحد مسارح القاهرة على مسرحية كان قد نشر هو جزء منها فى مجلة « المسرح المصرى » التى كانت توالى الصدور أيام كان لا يزال يتابع دراسته العالية فتحرى المخرج عن عنوان مؤلفها حتى عرفه وكتب إليه يرجوه السماح بتمثيلها . وانتهى الاتفاق بينهما ولم تلبث جدران العاصمة حتى انتشرت عليها الإعلانات الضخمة تنبئ بقرب عرض مسرحية « الليلة الأخيرة »

ومثلت القصة فعلا . وصدرت الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية عقب ذلك تحمل أخبار نجاح « الليلة الأخيرة » وتكرر عبارات التهنئة لمؤلفها الشاب . وقرأ « هو » أخبار ذلك النجاح فأسرع بطلب إجازة قصيرة وسافر إلى القاهرة ليشاهد تمثيل مسرحيته على المسرح الكبير . . .

كان ذلك فى ليلة من ليالى شهر مايو وكانت الجماهير تتدفق لمشاهدة « الليلة الأخيرة » التى لم يكن للصحف إذ ذاك شاغل إلا التحدث عنها ونشر صور مؤلفها ومخرجها وأبطالها وبطلاتها . والتى أشارت مجلة أسبوعية منتشرة إلى أن هناك فكرة

قوية متجهة إلى تكليف أحد الأدباء المصريين المتمكنين من اللغة الفرنسية بترجمتها إلى تلك اللغة ومحاولة اقتحام الأوساط المسرحية الباريسية بها كحفرية من حفريات الأدب المسرحى العصرى الجديد . وجلس المؤلف فى إحدى المقصورات الخلفية مع مخرج القصة . وأخذ المخرج يتحدث إلى المؤلف هامساً مشيراً إلى أن قصته قد امتازت بأن فصلها الثالث من العنف بحيث يدل على حيويتة الفنية . وأن ذلك الفصل لم يخب فى أية ليلة من ايالى تمثيلها فى هز أعصاب النظارة وإثارة حماستهم وأنه حتى فى أقل الليالى نجاحاً . وهما ليلتا الاثنين والأربعاء كان مدير المسرح يضطر دائماً إلى الأمر بإعادة رفع الستار أربع مرات على الأقل لكى تتاح للمثلين فرصة الظهور أمام الجمهور المتحمس . ورد تحيته بالوقوف وقد انحنت هاماتهم .وأخذ المخرج يشير برأسه فى هزات خفيفة إلى الأسر التى احتلت المقصورات الجانبية ويسميها بأسمائها للمؤلف الذى هجر القاهرة قبل ذلك بنحو ستة أعوام والذى لم تتهيأ له فى يوم ما فرصة الاتصال بالأوساط الاجتماعية المصرية العالية التى اعتادت التردد على المسارح ودور السينما . وفجأة ارتجف المخرج وبدا الاضطراب فى خلجات أهدابه وارتعاش شفتيه . وأشار فى وجوم إلى المقصورة الثانية وهو يقول :

أترى هذه الشقراء التى تتقدم إلى المقصورة رقم ٢

لتتصدرها وحدها ؟ إنها من أغنى ثريات الإسكندرية . كل أصحاب المسارح ودور السينما يعرفونها حق المعرفة . إنها هكذا دائماً . كما تراها . كلما دخلت إلى مكان سمعت همهمة الناس ولاحظت تطلع أبصارهم إليها . . . جسمها مدهش ونظراتها عجيبة . توزعها فى تؤدة ورفق واعتزاز كأنها تؤمن بأن جميع من فى المكان كانوا ينتظرون قدومها ويتطلعون إلى التزود بنظرة من تلك النظرات . . لقد أقبلت إلى هنا مرتين لمشاهدة مسرحيتك قبل الليلة ولاحظت أنها أطالت التصفيق بعد هبوط ستار الفصل الثالث .

وحدق «هو» النظر إلى «المقصورة» التى كان «المخرج» يتحدث وهو مصوب النظر إليها . وارتجف هو الآخر كانت « هى » .. « هى » بلا شك . ولذا مد يده إلى المخرج وسأله وهو يتجلد ويتظاهر بالهدوء :

— ماذا تعرف عنها أكثر من ذلك ؟

لقد اهتممت بالسؤال عنها منذ وقع بصرى عليها لأول مرة . وعلمت أنها كانت متزوجة من طبيب بدمنهور ثم انفصلت عنه بالطلاق منذ مدة طويلة . ويظهر أنها تزوجت غيره . وهناك من يذهب إلى أنها تزوجت غيرهما . إنها امرأة تحيطها الألغاز . ولم يهتد أحد بعد إلى

حل لغز واحد منها . لن أخفى عنك أن غموض هذه المرأة يحيرنى كل الحيرة ومع ذلك فإننى لست حديث عهد بطبائع النساء . لقد سافرت . وتنقلت بين معظم بلاد أوربا . اتخذت صديقات لى من ممثلات « البورت سان مارتان » وراقصات « الكابريس فينوا » وقعيدات « الدوم » وسميرات « الكرة السوداء » عند ما كنت طالباً أتلقى العلم فى باريس . ورغم كل ذلك يجب أن أعترف لك أننى لم يسبق أن ارتعدت أمام امرأة كما ارتعد كلما وقع بصرى على هذه المرأة . . أكاد أقسم — دون أن يخبرنى أحد — أن نصف رجال القاهرة قد سبتهم نظراتها فأحبوها .

فالتفت إليه مندهشاً وسأله :

— وأنت . هل أحببتها ؟

- لم يكن حباً . بل كان جنوناً .

— أعهدك رزيناً

— رزانتى أصبحت إشاعة قديمة منذ رأيتها . لقد ظللت ستة أشهر أتتبعها وأتنسم أخبارها . وأحوم حولها إلى أن تبينت أننى سأفقد رشدى . إن لم أكن قد فقدته فعلا . فجمعت البقية الباقية من قواى واقنعت نفسى بأننى لست نداً لها .

ـــ كيف ؟

ـــ إنها أقوى من أى رجل مهما ادعى أن له ماضياً عابثاً . حافلا بالمغامرات .

ـــ ولم ؟

ـــ لا تكتف بالاستماع إلى قصتى معها . اسأل غيرى لتعلم أموراً غريبة عنها لم نسمع بمثلها فى مصر من قبل

ـــ ما وجه الغرابة فيها ؟

ـــ ذاع عنها أنها اعتادت أن تسرف فى العبث بقلوب الرجال عبثاً لا رحمة فيه . وتتركهم حيارى لا يعرفون السبب فى تنكرها لهم . يقولون إن لها « فيلا » فى « سابا باشا » على شاطئ الإسكندرية ولها « عوامة » فى الزمالك تقيم فيهما حفلات مدهشة . يظهرَ فيها بذخها وذوقها الرقيق وأناقة الجو الذى تحيط به نفسها . إنما عرف عن الذين تدعوهم إلى تلك الحفلات أنهم لا يعودون إليها مرة أخرى فيعيشون بحسرة الدعوة الأولى والأخيرة .

ـــ عجيبة .

ـــ لا تظن أننى أغالى . إنها قادرة على أن توهم الواحد منهم أنه أقرب الناس إلى قلبها من حبات هذا العقد اللؤلؤى الذى يتألق على صدرها . فإذا اطمأن إلى ذلك

وذهب رافع الرأس مزهو العاطفة إلى إحدى حفلاتها تبين أنه كان واهماً أكبر الوهم . وأحس بهول السخرية التى سخرتها منه فلا يعود . لقد أخبرتك أننى ظللت أعدو خلفها ستة أشهر كدت أغلق أبواب المسرح بعدها وأعلن إفلاسى فى عمل وضعت فيه زهرة شبابى وخلاصة أمالى ومع ذلك فإننى لم أستطع — طول هذه الشهور الستة — أن أتحدث إليها إلا ثلاث أو أربع مرات لم تزد كل مرة عن بضع دقائق . فما بالك لو كانت دعتنى إلى إحدى حفلاتها كما دعت غيرى . انظر إلى عينيها من بعيد ... دقق النظر إليها . . إنها شريرة . . . ؟

وسمعت إذ ذاك الدقات الثلاث وارتفعت الستار عن الفصل الأول من « الليلة الأخيرة » وأنصت الجمهور إنصاتاً تاماً ولكن المؤلف أدنى مقعده من المخرج وسأله قائلا :

— من أين جاءك أنها شريرة ؟

— لأنها هزأت بكل من عرفته . إن أخبار ضحاياها من الرجال تتناقلها الشفاه المرتجفة . من رغبة فى التحدى . وعجز باد عن تحقيقه . إننى أعرف مهندساً ناجحاً غررت به . ورؤيت أكثر من مرة إلى جانبه . فى سيارته . يتجهان فى طريق وادى النطرون إلى

« خيمة » كان قد أعدها هذا المهندس لأقامة حفلات زانتها أرشق السيدات الأوربيات اللاتى يعمل أقاربهن فى الشركة الهندسية التى تستغل ذلك الوادى . وخيل إلى الناس أن المهندس الشاب قد غزا قلبها ولكن . . .

— ولكن ماذا ؟

فضحك ضحكة فاترة وأجاب :

— ولكنها كعادتها اختفت فجأة . وتركت آثار الحسرة على وجه صديقها المهندس . بل إن الصدمة كانت من الشدة بحيث أطلقت لسانه بما فهم الناس منه أنه « ضحية » أخرى أضيفت إلى ضحاياها التى لم تنل منها إلا السخرية — وأدنى المخرج شفتيه من أذن المؤلف ثم همس فى صوت مرتعد — علمت أخيراً أنها أحبت أميراً تركياً يعيش فى دار فخمة بإحدى ضواحى القاهرة ولكن أحداً لا يعرف مقرها لأنها لا تخرج معه أمام الناس .

— وما دام لم يرهما أحد . كيف عرفت أنها تحبه ؟

فابتسم المخرج ابتسامة هادئة وأجاب :

— آه . إنها قصة طويلة . . لما أحببتها وبدأت أعنى بالتحرى عنها عرفت أن لها خادمة سورية تتردد على الحفلات النهارية فى دور السينما فتوصلت إلى معرفتها .

وأعطيتها ذات مرة جنيهاً وسألتها عن سيدتها فأخبرتنى أن الرجال الذين يجهدون أنفسهم فى الوصول إليها مجانين لأن سيدتها عاشقة . .

وكان الجمهور القريب منهما قد لاحظ أنهما لاهيان عن مشاهدة التمثيل بالحديث وارتفع همسهما وسط سكون القاعة فأخذت الأنظار تتجه إليهما فى احتجاج صامت . وعندئذ نهض « هو » مستأذناً متظاهراً بأن لديه موعداً هاماً فى الخارج . فقال له المخرج وهو يودعه إلى الباب :

ـ يجب أن تشاهد الفصل الثالث . إنه مدهش . . .

ولكنه لم يجبه.

وبينما كان المؤلف الشاب يغادر القاعة حانت منه رغماً عنه التفاتة إلى المقصورة التى جلست فيها « هى » .

كانت قد اتكأت على المسند القطيفى الأحمر فى رشاقة وقد أخذت نظارة من نظارات اليد المكبرة تتنقل بين أصابعها لم يدر إذا كانت قد رأته وعرفته أم لا . ولكنه على أى حال أسرع بالخروج وترك مسرحيته تمثل على المسرح وزوجته السابقة تشاهدها .

٥

وبعد ظهر اليوم التالى مر المخرج بالفندق الذى كان قد نزل « هو » فيه ولم يكد يقع بصره عليه حتى فاجأه صائحاً :

— قلت لك انتظر لغاية الفصل الثالث . لقد فاتك نصف عمرك .

فسأله مذهولا :

— كيف ؟

— استدعتنى بعد الفصل الثالث وقالت لى إنها تدعونى أنا والمؤلف لتنال الشاى اليوم بعد الظهر . فى « عوامتها » بالزمالك ورجتنى أن أنقل لك هذه الدعوة . البس حالا — فهز كتفيه وقال فى غير اكتراث :

— لم العجلة ؟

— لا تتكلف الرزانة . غيرك كان أشطر . . أؤكد لك أنك بعد أن تتناول الشاى اليوم ستحبها وستفقد وعيك. إنما خذها منى نصيحة . إياك أن تظن أنها ستظل وفية لك طول عمرك . يحتمل أن تقابلك مرة أو اثنتين لأنك شاب معروف وناجح . ولا عجب فى أن تعجب بك أية امرأة . ولكن توقع دائماً أنها ستغدر بك كما غدرت بغيرك .. ستتلفت حولك يوماً فلا تجدها . وتبحث عنها فى كل مكان فلا تهتدى إليها . وقد تنقضى سنة أو سنتان ثم تلقاك صدفة فتطيل النظر إلى وجهك وتهز رأسها قائلة « إننى أذكر أننى رأيتك قبل اليوم . إنما أين ؟ لا أعرف » — فقال له فى صوت متئد :..

ــ سأذهب إلى منزلها لأثبت لك أنك تبالغ كثيراً فى خوفك إن لم تكن واهماً .

ــ أقوى منك ومنى وقعوا ولم يجدوا من يأخذ بيدهم .

ثم أرسل ضحكة عالية ساخرة وأعطاه ظهره وتقدم إلى النافذة فصرخ « هو » قائلا :

ــ لو بقيت معك ساعة أخرى لفقدت رشدى . من « هى » تلك التى سأقع بسببها فلا أجد من يأخذ بيدى ! إننى تظاهرت بعدم معرفتها لكى أنتهى من الاستماع إلى خرافاتك عنها . ولكننى أعرفها أكثر منك ومن غيرك . هذه التى تتحدث عنها منذ أمس « هى » . . . زوجتى .

فالتفت المخرج إليه وقد ظهر الذعر على وجهه وتمتم مذهولا :

ــ ز . . و . . جتك ! ماذا تقول ؟

ــ أقول لك إنها كانت زوجتى . تزوجتها وعشنا معاً شهرين. كان ذلك منذ ثمانية أعوام . وكنت إذ ذاك لا أزال طالباً بكلية الآداب وكانت هى طفلة لم تكد تتجاوز العشرين ــ وأطرق إلى الأرض قليلا ثم استمر بعد أن زفر نفساً حاراً طويلا ــ لم أكن أريد أن أفضى إليك بكل هذا ولكنك دفعتنى إلى الإفضاء . لعلك تسائل نفسك الآن « ترى كيف ستقابله عندما

تراه داخلا إلى بيتها ؟ » — وعندئذ تمتم المخرج فى صوت مختنق وهو لا يزال ناظراً إلى المؤلف بعينين شاردتين وفم مفتوح :

— هيه . ماذا حدث بعد ذلك ؟

— لا شيء . كنا طفلين . وكان أبى رقيق الحال . أتى بالمعجزات حتى تمكن من الإنفاق على حتى أتممت الدراسة الثانوية . ثم التحقت بالقسم المجانى فى كلية الآداب . ولكنها كانت غنية . إن أهل الإسكندرية يعلمون أن أباها يملك عزبة فى مديرية البحيرة وسبع عمارات فى محرم بك . كان فرقاً كبيراً بينى وبينها و ...

— وماذا ؟

— وكانت «هى» قاصراً . . أوه . إن هذه الذكرى تثير أعصابى . . .

— تكلم.. لابد أنك شاهدت أموراً عجيبة . كيف استطعت أن تخفى عنى كل هذه التفاصيل وأنا أحدثك عنها .

— قلت لك إننا عشنا معاً شهرين . لا أظن أن اثنين غيرنا تذوقا ما تذوقناه من سعادة . وذات يوم فوجئت بضابط نقطة المطرية يقتحم الفندق الذى كنا نقطنه ومعه جنديان وحكم صادر من المحكمة الشرعية بالتفريق بينى وبينها لعدم الكفاءة .

ـــ كيف ؟

ـــ رفع والدها دعوى قرر فيها أن ابنته قاصر وأنها تزوجت من شاب معدم . لا يزال عالة على أبيه الذى لم يتعد مرتبه بضعة جنيهات كوكيل أحد مكاتب البريد . وأنها باعت مصاغها لتنفق على ذلك الشاب وظل محامى أبيها يترافع مدة طويلة ـــ كما علمت فيما بعد ـــ ويذكر أننى غررت بها وخدعتها لأسلب مالها . حتى صدر الحكم .

ـــ وبعد ؟

ـــ أخذوها بالقوة . غادرت الفندق ودموعها تنهمر على وجنتيها فى ألم عميق .

ـــ ولكن . ماذا فعلت هى بعد ذلك ؟

ـــ تلقيت منها رسالة بعد أسبوعين أخبرتنى فيها أنها تكاد تكون سجينة سراى أبيها فى « محرم بك » ـــ وارتجف صوته وهو يتابع هذه الجملة ـــ لم تصبح زوجتى بحكم التفريق الذى أصدرته المحكمة الشرعية. ظهر لى أنها ارتاحت إلى ذلك « الحل » . . .

ـــ من أين جاءك هذا ؟

ـــ أعادت لى « الدبلة » التى كنت قد أهديتها إليها يوم زواجنا .

— وماذا حدث لك بعد ذلك ؟

— لا شيء . عدت إلى بيت أبى فى عين شمس . كانت الصدمة شاقة فى بادئ الأمر . أذكر أننى ظللت أبكى بضع ليال وأنا سجين غرفتى . وأننى كتبت الفصل الأول من مأساة بطلها شاعر شاب أحب فتاة ثرية وهرب معها ثم . . ثم تذكرت أن امتحان كلية الآداب قد اقترب موعده فدفنت ذلك الفصل تحت « مرتبة » السرير وانصرفت إلى المذاكرة . وبعد بضعة شهور . بينما كنت أتصفح إحدى المجلات المصورة وقع بصرى على صورتها إلى جانب أحد الأطباء وتحتها كلمات فهمت منها أنها تزوجته وأنهما سافرا إلى لبنان لقضاء شهر العسل . .

— ولم تعد تسمع شيئاً عنها ؟

— أجل . تلقيت منها خطاباً بعد نشر تلك الصورة بنحو سبعة أو ثمانية شهور . عرفت خطها بمجرد أن وقع بصرى على الظرف الذى يحمل اسمى وعنوانى . ولكن لعلك تذهل عندما أخبرك أننى لم أشأ أن أعرف ما فيه . . فكتبت على الظرف من الخارج « يرد للراسلة » وأعدته إلى ساعى البريد .

— كيف جرؤت على ذلك ؟

كنت قد اعتزمت أن أنساها. ولم أعد أطيق فكرة أنها قد هزأت بى . وخيل إلى أنها بعد أن أطاعت أهلها وتزوجت من غيرى أرادت أن تلهو بعاطفتى فأرسلت إلى تلك الرسالة لكى أعود إلى الاهتمام بها ، فلم أشأ . ومنذ ذلك اليوم لم أعد أهتم بها . بل لم أسمع شيئاً عنها حتى رأيتها أمس فى قاعة هذا المسرح .

وأطرق المخرج إلى الأرض. وانقضت فترة صمت طويلة رفع رأسه بعدها ونظر إلى المؤلف ثم سأله :

— أتستطيع أن تخبرنى لم طلبت منى أن أدعوك اليوم إلى تناول الشاى عندها ؟

— ليس الجواب على هذا السؤال صعباً . إن أية امرأة لا تجد بأساً فى أن تتسلى .

— ولم تذهب إذا كنت معتقداً أنها إنما دعتك لتتسلى ؟

فأجاب وهو يفتح دولاب الثياب ويخرج إحدى بذله الأنيقة :

— أؤكد لك أننى ذاهب متأثراً بغريزتى ككاتب مسرحى . يخيل إلى — بعد ما سمعته منك — إن هناك أموراً أخرى على أن أدرسها .

٦

فى مساء اليوم التالى دق جرس التليفون فى الفندق الذى كان ينزل فيه مؤلف مسرحية « الليلة الأخيرة » وكانت « هى »

المتحدثة فطلبت من خادم الفندق أن يستدعى المؤلف الشاب .

فلما أقبل فاجأته قائلة :

ــ لابد أن أراك الليلة . لعلك لاحظت أننى لم أستطع أن أكلمك أمس أمام الضيوف الذين كانوا يتناولون الشاى عندى .

وقبل « هو » الدعوة ، ووقف برهة طويلة أمام المرآة يتأنق فى ارتداء ثيابه ثم أسرع بالذهاب إلى « عوامتها » الراسية إلى جانب النيل بالزمالك .

كانت الساعة التاسعة مساء وكان اليوم يوماً قائظاً من أيام الصيف وقمر القاهرة يتوسط السماء مطلا على النيل ومرسلا أشعته غامراً بها المنازل النيلية العائمة على سطح النيل مضفياً على ذلك المكان الهادى لوناً شعرياً رائعاً .

واستقبلته الخادمة السورية الشابة عند أول الممر الخشبى المرتفع الذى يصل بين الطريق وباب العوامة ثم أدخلته تواً إلى الصالون الواسع الذى كانت «هى» قد تمددت فى ركن من أركانه على أريكة زرقاء اللون وقد التف حول خصرها الأهيف فى وضع فاتن ثوب أزرق من ثياب الغرفة واهتزت على شفتيها السفلى سيجارة مشتعلة لم يكن لهبها أحمر بل كان هو الآخر مائلا إلى الزرقة لأن ضوء « المصباح الساهر » الذى كان يعلو عاموداً خشبياً ضخماً مزيناً ببضعة نقوش يابانية من

الصوف كان مستوراً هو الآخر بقماش حريرى أزرق .

لقد بهره جمالها عندما وقف بباب الغرفة الزرقاء يلقى عليها نظرة خاطفة . ولكنه تكلف الهدوء كأن العودة إلى رؤيتها وحيدة فى غرفة مغلقة النوافذ مغرية الجو لم تهز عواطفه هزاً عنيفاً.

ورفعت « هى » أنامل يدها اليمنى فى حركة رشيقة وانتزعت سيجارتها التى كانت قد التصقت بشفتها السفلى ثم نفثت كمية من الدخان الذى كان محتبساً فى صدرها وقالت له :

— مالى أراك واقفاً على بعد هكذا ؟ — وأرسلت ضحكة قصيرة جافة ثم تابعت قولها وهى تضم أطراف رداء الغرفة الأزرق :

— تفضل

وجلس على مقعد مجاور لها . وانتظرت أن يبدأ الحديث فلم يفعل وعندئذ قالت له وهى تهز رأسها هزات هادئة رزينة :

— ترى كيف نبتدئ الكلام ؟

— هذا يتوقف على ما تودين أن تقوليه .

— أريد أن أتحدث عما حدث بينى وبينك .

— أمس ؟

— لا قبل ذلك منذ ثمانية أعوام — وتمتم « هو » فى نبرة مؤثرة وصوت خافت :

— ثمانية أعوام . . .

ـ لا أكاد أصدق أنك يمكن أن تتذكر كل ما حدث قبل هذه الأعوام الثمانية . لو أنك نسيت لكنت معذوراً . إنه عمر آخر .

ـ لم أنس شيئاً

ـ متأكد ؟

ـ بل واثق

ـ لا تستطيع أن تتصور كم أنا سعيدة إذ أسمع منك هذا

وأطرقت إلى الأرض فى شبه إغفاءة ذاهلة ثم رفعت رأسها فجأة وقالت :

ـ لقد دعوتك لأصحح بعض أمور لاشك أنك أخطأت فهمها . أمور لا زلت تجهلها إلى اليوم . تصور . لقد شاء القدر أن تحدث أمور فى حياتى تجهلها حتى أنت !

فسألها وقد شاعت على شفتيه ابتسامة ساخرة :

ـ وما هى ؟

ـ أبعد هذه الابتسامة التى تفيض عناداً . هذا الخلق العنيد هو الذى جعلنا نتعذب ثمانية أعوام

فارتفعت من جوفه ضحكة قصيرة جافة . تكلف أن تنطلق ساخرة ماجنة ثم قال لها :

ـ من قال لك إننى تعذبت ؟

ـــ لا داعى للمكابرة . إننى أعترف بأننى أسأت إليك إساءة كبيرة ولكن ضميرى مطمئن لأننى أديت واجبى بعد ذلك ـــ وسكتت قليلا ثم مدت يدها وتناولت يده وهى تسأله ـــ إنك لم تقرأ الخطاب الذى أرسلته لك . ورددته إلى دون أن تفضه . لو أنك قرأته لعرفت كل شيء . :

ـــ ماذا كنت تريدين أن أعرف بعد أن أعدت لى « الدبلة » وقلت إن أهلك ضغطوا عليك وطلقوك منى . ثم بعد أن رأيت بعينى صورتك فى الصحف إلى جانب زوجك الجديد . كان يكفى جداً أن أعرف كل هذا

ـــ لكل شيء سبب . لقد تسرعت

ورفعت ساعدها ولمست أطراف القماش الحريرى المنسدل على « المصباح الساهر » وعندئذ سقطت الغلالة الحريرية التى كانت تستر كتفها فبدا كتفها عارياً يفيض أنوثة وإغراء وسحراً

وتدفقت ذكريات الشهرين اللذين قضاهما إلى جانبها فى الفندق الريفى المتواضع بالمطرية إلى خياله . وخطر له إذ ذاك أن ينهض من مقعده ويحملها على ساعديه ثم يضمها إلى صدره ويقبلها قبلة حارة ملتهبة نشوى . ولكنه أصر مرة أخرى على أن يتكلف الهدوء وعدم الاكتراث فأخفى أصابع يديه تحت المقعد وتركها تتقلص فى ثورة صامتة . وبعد قليل عادت

فالتفتت إليه وأدنت وجهها من وجهه ثم قالت له :

— أنا لا أنكر أن أهلى ضغطوا على وأرغمونى على الزواج بغيرك إنما كان عليك أن تنتظر .

— من منا كان عليه أن ينتظر ؟ لقد أرغموك على الطلاق منى . إنما الزواج بغيرى لم قبلته إذا كنت تحبيننى ؟

وعندئذ صرخت قائلة :

— لا شك أننى كنت أحبك إنما أنت لا تعرف ما عملوه لكى أقبل الزواج من غيرك . لقد كذبوا على وغشونى اجتمع أخى وأخوالى وعماتى وقالوا إن أبى ضاعت ثروته كلها فى مضاربات البورصة وأوهمونى أن خطيبى الطبيب هو الذى ضمنه أمام دائنيه. أقسم لك أن عمتى ومربيتى كانتا تبكيان بالدمع المنهمر وهما تسردان لى أخبار تلك الكارثة إلى أن أفلحتا فى إقناعى — وابتسمت ابتسامة مرة . وعادت إلى تدخين سيجارتها فى شراهة مخيفة ثم تابعت كلامها — لعلك تذكر أننى كنت إذ ذاك طفلة لم أستطع أن أفهم الحيلة التى دبرت لكى أقبل ذلك الزواج الذى فرض على . كيف تريدنى أن أفهم ذلك فى الوقت الذى لم أكن أستطيع أن أتبين معالم الطرق فى القاهرة وضواحيها؟ أنسيت يوم عثرت بى وقد تهت فى طريق عين شمس ؟

ـــ لم أنس شيئاً

وتهلل وجهها بشراً . واهتز شعرها المتهدل على عنقها العارى الجميل بضع هزات موسيقية منتشية وقالت فى نبرة فرحة :

ـــ إنلك تنادينى تماماً كما كنت تفعل منذ ثمانية أعوام . آه لو عرفت كم شقيت وكم أشقيت لأجلك ! لقد أحلت حياة الرجل الذى انتزعنى أهلى منك ليزوجونى منه إلى جحيم لأجلك . كان يكبرنى بنحو ثلاثين عاماً . وكنت أعرف أننى تزوجته لكيلا تجحد الأسرة جميله الذى أوهمونى به على المرحوم أبى . خطر لى ذات يوم أن أنتحر وحاولت ذلك ـــ وارتعد صوتها وبان التأثر الشديد عليه ثم خفضت رأسها إلى الأرض فأدنى عينيه من وجهها وتمتم فى شبه حشرجة :

ـــ مجنونه !

ـــ تناولت عشرة أقراص من « الأسبرين » تجلدت حتى تناولتها قرصاً بعد الآخر . كدت أموت ولكن الخادمة السورية التى رأيتها عندى أسرعت فأخبرت « مربيتى » التى كانت قد أقبلت لقضاء بضعة أيام فى منزلى بدمنهور . وارتفع صراخها وأقبل طبيب يونانى كان يقطن منزلا مجاوراً لى لإنقاذى . لا زلت أذكر أننى لما أفقت تعمدت ألا أشكره لأننى كنت أود أن

أتخلص من حياتى التعسة . إلا أنى ظللت أذكر جميل هذا الطبيب على فما بعد . عندما اتصل بى أنه ثار أمام أختى صارخاً « إننى واثق من أنها ستعود إلى محاولة الانتحار لأن هناك عذاباً نفسياً هائلا يسبب لها هذه النوبات العصبية. اعملوا على إزالة هذا العذاب إذا كنتم تريدون أن تحتفظوا بهذه الشابة . »

فأطرق « هو » إلى الأرض ثانية ثم قال فى صوت متقطع :

ـــ إذن . فقد رأيت كل هذه الأهوال ؟

ـــ أجل . إنما تجلت لى الحقيقة بعد ذلك . عرفت أنهم خدعونى فصممت على الطلاق . وعشت بعد الطلاق حياة عجيبة لابد أنك سمعت عنها .

فقاطعها :

ـــ أخبارك تلوكها الألسن فى كل مكان . « فيلا » فى « سابا باشا » وعوامة فى الزمالك . وحفلات تقام حتى الصباح وسهر فى المسارح ودور السينما .

ـــ ها . ها . إننى أعرف أحد مصادر هذه الأخبار . . مخرج قصتك أليس كذلك ؟

ـــ أجل

ـــ لابد أنه أضاف إليها أننى امرأة بلا قلب أجيد الغدر بالرجال . وأننى شريرة . يلذ لى العبث بالضحايا

والسخرية منهم ـ وسكتت قليلا ثم عبس وجهها وانتفض جسمها وقالت فجأة ـ قلت لك إن الطبيب اليونانى الذى كان جاراً لى فى دمنهور قد أنقذ حياتى عندما حاولت الانتحار . وقد عشت بعد ذلك كما ترانى . منذ ذلك اليوم الذى تناولت فيه عشرة أقراص من « الأسبرين » وأنا تحت تأثير شعور غريب شعور بأن شيئاً ينقصنى شيئاً مهماً ضرورياً لكيانى مكملا لروحى أحيانا أظل أتلفت حولى لكى أبحث عن ذلك الشىء الضائع فلا أجده . لقد ضاع ولن أستطيع العثور عليه ـ ونظر إليها مذهولا ثم سألها :

ـ ماذا تقولين ؟

ولكنها لم تجبه بل وضعت يدها اليمنى على ساقه وهزت كتفه بيدها اليسرى قائلة :

ـ أتذكر الكلب الأبيض الذى رأيناه غداة يوم زواجنا ؟

ـ أجل . أذكره

ـ أتذكر ما لفت نظرنا فيه ؟

ـ أجل . أذكر كل شىء عنه

ـ أتعرف أننى ظللت مدة طويلة أجهد نفسى فى التفكير فيه وأتساءل « ترى أكان ذلك الكلب يضحك منا عندما هبطت الفندق وتقدمت إلى عرض الطريق

لأشترى بيضاً من القروية المارة لأجل إفطارك أم أنه كان يضحك معنا لما لاحظنا دهشة صاحب الفندق . وتبادلنا نحن الاثنان أنا فى الطريق وأنت فى نافذة غرفتنا نظرة طويلة ثم كتمنا ضحكة كادت تنطلق من حلقينا . . » ماذا تظن ؟

فنظر « هو » إليها نظرة طويلة فاحصة كأنه يتشكك فى قواها العقلية وبعد صمت قصير نهض واقفاً وهو يقول :

— أظن أن من الأفضل أن أستأذن فى الانصراف .

— هل أنت على عجل ؟

— عندى عمل هام يستدعى أن أتركك الآن .

ومد ساعده فطوق خصرها وجذبها نحوه وطبع على وجنتها قبلة سريعة . ثم غادر « العوامة » .

٧

وفى ظهر أحد أيام الأسبوع التالى فوجىء وهو جالس فى مطعم من مطاعم شارع ألفى بك يتناول الغذاء بقدوم المخرج الذى لم يكد يقع بصره عليه حتى صاح به قائلا :

— أين كنت ؟ لقد بحثت عنك فى كل مكان . ماذا فعلت معها ؟

— مع من ؟

ــ إيه . ألا تعرف مع من ؟

ــ لا شيء ــ فقهقه المخرج ضاحكاً ثم قال :

ــ إنها تطبع كل ضحاياها بطابع واحد . إنهم جميعاً تبدو عليهم علامات الإعياء ومع ذلك إذا سألت الواحد منهم عنها أجابك « إننى لا أراها ولا أعرف شيئاً عنها »

ــ ظروفى تختلف عن كل الذين تتكلم عنهم . أنا لا أنكر أنى شعرت بشعور غريب لما كنت عندها فى الأسبوع الماضى . لست أدرى . . يخيل إلى أننى أحب المرأة التى كانت يوماً ما زوجتى والتى كانت تحبنى حتى العبادة ولكن الأغرب إننى لما قبلتها ابتسمت لى كأننى طفل أتجرأ على شيء لا حق لى فيه ومع ذلك فأنا واثق من أنها كانت تريد أن تضحى أهلها لأجلى. هربت منهم فعلا وعاشت معى شهرين. ماذا جرى لى ؟ ــ وأخذ يتلفت حوله فى اضطراب ثم تابع كلامه ــ يظهر أننى اكتشفت فجأة أننى أحبها . هذا جنون . ــ فجمع المخرج أوراقه ثم تركه وهو يقول :

ــ عزاؤك يا صديقى أن لك زملاء عديدين فى هذا النوع من الجنون .

وبعد بضع دقائق كان « هو » يستأذن من الخادمة السورية فى الدخول لرؤية سيدتها بعوامتها الراسية

على شاطئ النيـــل بالزمالك . لقد قاوم أسبوعاً كاملا لكى يثبت أنه يفترق عن غيره من الرجال الذين سلبتهم نظراتها وأذهلهم دلالها ولكنه لم يستطع وذهب صاغراً كما ذهب غيره ولشد ما كانت دهشته عندما أجابته الخادمة قائلة :

— الهانم ليست هنا

— إذن أنتظرها

— لا فائدة . فقد سافرت — فشهق شهقة حادة وصرخ :

— أين ذهبت ؟

— لا أعرف . إنها لم تعتدأن تخبرنا بالمكان الذى تذهب إليه

وبدا عليه الاضطراب الشديد . وتذكر بعد قليل ما كان قد أخبره به المخرج من أنها تتعمد الاختفاء بعد أن تطمئن إلى انتصارها فى إذلال رجل . وأن لها صديقاً من الأمراء الأتراك يقطن إحدى ضواحى القاهرة .

— ألم تترك لى شيئاً ؟

— أجل تركت لك هذا الخطاب

— لم لم تخبرينى ؟

— أمرتنى ألا أعطيه لك إلا إذا سألت

وأسرعت الخادمة فأخرجت خطاباً قدمته إليه فقرأ هذه الكلمات :

« عندما تصلك هذه الرسالة أكون قد فارقت الحياة »

وعاد يقلب المظروف بين يديه وعندئذ اتضح له أن خاتم البريد يعود تاريخه إلى ثمانية أعوام مضت . لقد كان نفس الخطاب الذى أرسلته بعد أن تم زواجها الثانى والذى رفض إذ ذاك أن يستلمه فرده دون أن يفضه وأخذ يقرأ فى لهفة ظاهرة :

« لقد تزوجت منذ بضعة شهور وأصبحت أحمل اسم رجل لا أحبه. إن مجرد تصور هذه الحياة التى أحياها تثير ذعرى لو أنى لم أعرفك لما شقيت بهذا الزواج ولاستطعت أن أحتمله كما تحتمله الآلاف غيرى ولكننى أصبحت أوقن بأن الاستمرار على الحياة إلى جانب هذا الرجل ضرب من المحال . إننى أشمئز من حياتى وأمقتها ولقد فكرت طويلا فلم أجد حلا إلا التخلص منها . لقد أخطأت إذ تركت أسرتى تتحكم فى حياتى هذا التحكم الطاغى ولكننى كنت ضعيفة . إنها خطيئة كبرى أن أضعف إلى حد أن أشترك معهم فى الإساءة إليك هذه الإساءة الأليمة . هأنذا أكفر وأدفع الثمن. لا يهمنى أن تكون مقيماً الآن على حبى أو أن تكون قد زهدت ذلك الحب ولكن هناك شيئاً سأهتم له كثيراً بعد أن يتجمد الدم الذى يتدفق الآن من قلبى . أتعرف ما هو ؟ أنصت إلى يا حبيبى . إننى لا زلت زوجتك وإذا كان حقاً ما قرأته معك يوماً فى غرفتنا بذلك الفندق الريفى الجميل القائم إلى جانب طريق المرج من أن

الروح تعود إلى الحياة بعد الموت فثق أن روحى ستعود لكى تحوم حول ذلك الفندق الذى أحتفظ له بأعز الذكريات إذا ذكرت يوماً حبنا فاذهب فى مثل يوم زواجنا من أى عام تجد روحى هناك تشترك معك فى الاحتفال بتلك الذكرى . لن أتخلف عن عيد من الأعياد التى ستحتفل فيها بذكرى الزواج الذى شاء القدر أن يكون عمره أقصر مما قدرنا له . . . التى لك إلى الأبد »

ولما انتهى من تلاوة هذه الرسالة سقط ساعداه وأحس بقواه تخور فاستند إلى جدار العوامة الخشبي وتمتم وهو ينظر إلى الخادمة السورية وقد ابتعدت مذعورة عندما لاحظت تقلص عضلات وجهه وتجهم قسماته .

وفجأة استعاد قواه فخطا خطوات واسعة وأسرع بمغادرة العوامة . وبعد قليل كانت السيارة تنهب به طريق المطرية نهباً .

٨

دهش اليونانى مدير فندق « ريش » بالمطرية عندما رأى شاباً يغادر سيارة أقبلت مسرعة من القاهرة ووقفت فجأة أمام فندقه ويسأله . أن يسمح له باستئجار الغرفة المطلة على الطريق الزراعى وهو يرفع رأسه إلى نافذة الغرفة يشخص إليها

محدقاً فى نظرات محمومة ولهى بين كل آونة وأخرى . وبعد أن أفاق اليونانى العجوز من دهشته التفت إلى الشاب وأجاب بفرنسيته العرجاء :

ــ ولكن الغرفة مشغولة يا سيدى ــ والتفت إذ ذاك إلى ابنه الأعور فاشترك الابن فى الحديث قائلا :

ــ أجل يا سيدى إن الغرفة التى تقصدها مشغولة ــ وابتسم ابتسامة حزينة وهو يضغط على كلمة مشغولة وتابع اليونانى العجوز حديثه :

ــ هنا سيدة قد استأجرتها ــ وسأل «هو» مندهشاً :

ــ سيدة ! ــ واتسعت حدقتا عينيه وارتجفت شفتاه وامتقع لونه :

ــ أجل سيدة يا سيدى. تحضر عادة فى مثل هذا اليوم من كل عام . أصبحت أحفظ التاريخ عن ظهر قلب . ٢٢ مايو ــ وعندئذ هز رأسه « هو » وتمتم معه ــ ٢٢ مايو ــ وبعد تفكير قصير اتجه إلى الدرج وأخذ يصعده مسرعاً قبل أن يتمكن اليونانى العجوز أو ابنه من اللحاق به. ولما وصل إلى باب الغرفة وجده مفتوحاً فاقتحمه وعندئذ رآها « هى» مستلقية على « المقعد الطويل » فى « بيجامة » حمراء نفس « البيجامة» التى ارتدتها ليلة الزفاف قبل ذلك بثمانية أعوام .

ولم يكد بصرها يقع عليه حتى صرخت :

وتقدم « هو » إذ ذاك إليها ثم رفعها بين ساعديه وقال لها وهو يغمرها بقبلاته فى صوت خافت متهدج — لنتزوج — فأجابته وهى تتعلق بعنقه كطفلة مرحة :

— يجب أن أتأكد

— مم تريدين التأكد ؟

— من أنك تحبنى

— أتشكين فى حبي لك ؟

فقبلته طويلا وهى تجهش بالبكاء

* * *

وبعد قليل كان الشابان يطلان من النافذة فرأيا الكلب الصغير قابعاً على الإفريز المقابل لباب الفندق وقد رفع عينيه إليهما وعندئذ بان الذعر على وجهه وقال لها :

— أيمكن أن يظل هذا الكلب محتفظاً بجلسته هذه أمام باب الفندق طول تلك المدة لا عمل له إلا النظر إلى غرفتنا وإطلاق هذا النباح الضاحك ؟ لقد سألت الكثيرين عما إذا كانوا قد سمعوا من قبل كلاباً تضحك أثناء نباحها فلم أجد أحداً يصدقنى .

وعندئذ طوقته بذراعيها وهى تقول فى حنان وديع :

— لقد ظل قابعاً كما ترى منذ غادرنا الفندق — ماذا

يضايقك فى هذا ؟ إننى واثقة الآن من أنه كان يضحك معنا . كان فرحاً لمرحنا . وقد عادت إليه الفرحة عندما أحس بأوبتنا .

ولما غادرا الفندق فى عصر ذلك اليوم اقترب ابن اليونانى الأعور من أبيه وقال له هامساً :

ــ كم كانت السيدة موفقة فى اختيار هذا الجرو من نتاج كلبنا القديم . إنه أكثر شبهاً بأبيه ــ فأجاب الأب العجوز :

ــ لا زلت مندهشاً . لم اهتمت السيدة هذا الاهتمام الشديد بشراء هذا الكلب والإنفاق على تربيته عندنا .

ولكن الابن لم يجب بل ابتسم ابتسامة الحزينة وهو يودع نزيلى الفندق فى الليلة الماضية وقد ابتعدا متعانقين فى طريقهما إلى القاهرة .

ولما وصلت إلى سمعه ضحكة مرحة اشتركا فى إطلاقها جفف دمعة حارة سالت على وجنته وعاد من الطريق يهرول إلى غرفته .